

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة العربية و آدابها

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب الجزائري الحديث:

المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث

1925م-1962م

إشرافه:

أ. الدكتور محمد عباس

إعداد الطالب:

قردان الميلود

أعضاء لجنة المناقشة

رئيساً	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د طول محمد
مشرفاً و مقرراً	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د عباس محمد
عضوا مناقشا	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر (أ)	د. بن حفزة عبد القادر
عضوا مناقشا	المركز الجامعي تيسمسيلت	أستاذ محاضر (أ)	د. محمد بلعسين
عضوا مناقشا	جامعة سيدي بلعباس	أستاذة محاضرة (أ)	د. تحريبي سميشة

السنة الجامعية: 1435-1436 هـ / 2014/2015م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البقرة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البقرة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البقرة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ

أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي

بِحَمَّتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿

إهداء

إلى تلك الروح الطيبة الزكية الطاهرة ... والدي الكريم.

إلى الأم التي ولدت ...

إلى الأم التي ربيت ...

إلى كل من علمني حرفا ...

أهدي هذا العمل المتواضع ...

شكر خاص

أقدم بأسمى عبارات الشكر والامتنان إلى أولئك الأصفياء أدامهم

الله لي سنداً و ذخراً ...

شلال المخنار

جومر عبدالرحمان

وإلى من نأت به الديار فأخنار المملكة المنحدة مقاما

بن بن محمد أمين

كلمة شكر

أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف الدكتور محمد

عباس، على كل ما بذله من جهود المتابعة والعناية

في تقويم هذا البحث وما سبقه في مذكرة الماجستير، كما أتقدم

بالشكر و التقدير لكافة أعضاء لجنة المناقشة على تجشّمهم عناء

القراءة وإبداء الملاحظات.

وشكري الدائم لكلّ من قدّم لي يد العون و المساعدة

من قريب أو بعيد.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلّاة و السّلام على أشرف على خير خلق الله و على آله
وصحبه و من والاه، وبعد:

إنّ موضوع المقالة موضوع من أبرز الفنون الأدبية التي أدّت دوراً مهماً في النهضة العربية
مطلع القرن العشرين، في الميدانين السياسي والأدبي على السواء، وقد سطع عبر المقالة نجم
كبار الأدباء العرب الذين نالوا عناية فائقة من لدن النقاد والباحثين. وإيماناً منا بأهمية نشر تراثنا
الأدبي الجزائري الذي لا يزال يفتقر إلى أقلام الباحثين التي تنفض عنه غبار الزمن، اخترنا في
هذا المضمون موضوع المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث، التي كانت في أحيان كثيرة
صدى للحياة السياسية في تلك الحقبة المظلمة التي حدّدها ما بين فترتي (1925-1962).

وقد عرف الأدب الجزائري الحديث فنّ المقالة بصفة عامّة، والسياسيّة على وجه
الخصوص، ولمعت في سمائه أقلام أدبيّة وسياسيّة تركت بصمته في تاريخ هذا الأدب، كالإمام
عبد الحميد بن باديس، والعربي التّبسي، ومحمد السّعيد الزّاهري، ومحمّد البشير الإبراهيمي،
وأحمد توفيق المدني، ومحمود بوزوزو وأحمد رضا حوحو وغيرهم. وقد خلّفت هذه القامات
السّامقة آثاراً خالدة من النّصوص الأدبية والسياسيّة ما زال معظمها مفرّقا بين صفحات الجرائد
و المجلّات، وهي في حاجة ماسّة إلى من ينتشلها من تحت أنقاض النّسيان و يُزيل عنها ركام
الإهمال.

يُعدّ المقال السياسي في الأدب الجزائري الحديث حقلاً بكرًا للبحث والدراسة، وعلى
الرّغم من وجود دراسات سابقة للحديث عن المقالة الصحفيّة في الأدب الجزائري الحديث، إلّا
أنّها كانت في معظمها عامّة تشمل فنّ المقالة بكلّ فروعها، وبعض منها كان مبثوثاً مفرّقا
تقاسمته صفحات الجرائد والدوريات، ونُقرّ بأنّ هذه المحاولات والإشارات كانت لنا عوناً على
دراسة هذا الموضوع و البحث فيه، ونذكر من بين هؤلاء الذين كان لهم فضل السّبق في معالجة
موضوع المقالة في الأدب الجزائري الحديث: الزبير سيف الإسلام في كتابه تاريخ الصّحافة في
الجزائر، وعواطف عبد الرحمان من خلال مؤلّفها الصّحافة العربيّة في الجزائر
1954-1962. و عبد الملك مرتاض في كتابيه نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر

1925 - 1954، وفنون النثر الأدبي 1931 - 1954، وقد أولى الكاتب عناية فائقة للمقالة الإبراهيمية فنالت حظاً أوفر من البحث والدراسة.

بيد أن محمد بن صالح ناصر كان له شرف السبق في تناول موضوع المقالة بصفة عامة في الأدب الجزائري الحديث، والتي حصرها بين سنتي 1903 - 1931م، وتكاد تكون هذه المحاولة الوحيدة لتقصّي خطوات المقالة الصحفية وتتبعها في الأدب الجزائري الحديث، غير أنّها لا تُشبع فهم الباحث الدارس. الأمر الذي شجّعنا على المحاولة للإسهام في هذا الموضوع والكتابة فيه، ولأسباب ودوافع أخرى نذكر بعضها منها:

- محاولة دراسة الأدب الجزائري والكشف عن مكوناته الخفية.
 - قلة الدراسات والبحوث التي تناولت موضوع المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث.
 - محاولة إظهار جماليات المقال السياسي وتجلياته في الأدب الجزائري الحديث.
 - إبراز الجوانب الخفية من تاريخ نضالنا الوطني في الصمود والمقاومة بالكلمة الشريفة.
- وقد استقرّ موضوع بحثنا موسوماً بالمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث 1925-1962. وبناءً على ما ذكرناه، كان مدار البحث في الإشكالية ضمن التساؤلات الآتية:

هل عرف الأدب الجزائري الحديث فنّ المقالة السياسية؟ وماهي المواضيع التي طرقتها؟ وما الغاية من ورائها؟ وهل كانت المقالة السياسية مجرد محاكاة وتقليد لشقيقتها المشرقية؟ وما هي أهم خصائصها الفنية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لم يتقيد البحث بمنهج واحد، بل زاوج بين مناهج عديدة كان في مقدّماتها المنهج التاريخي، لاسيما في مراعاة التسلسل الزمني للتصوُّص، ووقائع الأحداث وذكر بعض الشخصيات التاريخية التي وردت أسماؤها في البحث.

واعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي الذي يتناسب وموضوع البحث في استنطاق النص السياسي، ومعرفة مداركه ومقاصده، ومن ثم إسقاطه على مواقف كتابه وتوجهاتهم السياسية زمن الاستعمار الفرنسي.

وتحدّد هيكل البحث في خطته الآتية المقسّمة إلى مدخل وأربعة فصول وخاتمة.

حاولنا في المدخل تسليط الضوء على الحياة الفكرية والثقافية في العهد الاستعماري، كما تناولنا الجهود الاستعمارية في محاولته لمسح الشعب الجزائري عن هويته وردّه عن دينه.

أمّا الفصل الأوّل فقد حاولنا فيه تحديد المعنى اللغوي والفني للمقالة، وبسطنا الحديث حول المراحل التاريخية التي قطعها المقالة لتصل إلى صورتها التّاضحة، كما تعرضنا في هذا الفصل إلى فضل الصحافة العربية في الجزائر على تطوّر المقالة في الأدب الجزائري الحديث.

وتناول الفصل الثاني المقالة السياسية على الصعيد الداخلي بالتقصّي والتّبع بدءاً من سنة 1925 انتهاءً إلى سنة 1962، والتي عايشنا فيها المقالة السياسيّة مخاضات عسيرة، ومواقف شديدة، من أحداث سياسيّة حسّام، كالمؤتمر الإسلامي 1936، والحرب العالميّة الثانية، ومجازر 08 ماي 1945، وثورة التحرير المباركة.

وتتبّعنا في الفصل الثالث مسار المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث، على الصعيد الخارجي، وتوقّفنا بالدراسة والتحليل للمواضيع التي عاجلها أصحاب المقالة في الجزائر من قضايا سياسية مختلفة كقضايا المغرب العربي كقضية ليبيا، وقضية نفي ملك المغرب محمد الخامس، والمنصف باي، أو قضايا المشرق العربي والتي نالت فيها فلسطين حصّة الأسد من الاهتمام والمعالجة، كما لم تُغفل المقالة السياسية العالم وما يصطرع فيه من أحداث وتقلّبات.

أمّا الفصل الرابع فكان بمثابة الجانب العملي والتّطبيقي لموضوع البحث، إذ ركّزنا فيه على تحليلات النص السياسي من خلال الوقوف على قيمته الفنيّة والبلاغيّة، والتي تجسّدت في توظيف الكتاب لفنون البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية، وضروب البديع من سجع

وجناس وطباق ومقابلة، كما أفردنا مبحثا للخصائص الفنيّة للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث.

وقد رافقتنا في الدّراسة مجموعة من المصادر والمراجع الرّئيسة، كجريدة المنتقد، والشهاب، وجرائد الشيخ أبي اليقظان كوادي ميزاب، الأّمّة، البستان، وجريدة البصائر بسلسلتها الأولى والثّانية، وجريدة المنار، وجرائد الطّرقين كالبلاغ والمرشد، ولسان الثورة التحريريّة المباركة ممثّلا في جريدة المجاهد، ومن المراجع: المقالة الصحفيّة الجزائريّة نشأتها تطوّرهما أعلامها، الصّحف العربيّة في الجزائر من 1847 إلى 1954 لمحّد ناصر، وفنون النثر الأدبي في الجزائر من 1931 إلى 1954 لعبد الملك مرتاض، صحف التّصوف الجزائريّة من 1920م إلى 1955م لمحّمّد الصالح آيت علجت، وصحافة الثورة 1954-1962 لعواطف عبد الرّحمان.

أمّا خاتمة البحث فقد حوت مجمل التّائج المتوصّل إليها، وقد ذيلت بجثي بقائمة من المصادر و المراجع، وكأنيّ باحث فقد واجهتني بعض الصّعوبات والعقبات أهمّها:

- 1- اتّساع مجال البحث و تداخل قضاياها وتشابكها.
- 2- ندرة بعض النّصوص بسب قلة بعض الصحف التي نُشرت على صفحاتها أو فقدها.
- 3- صعوبة تحقيق بعض النّصوص السياسيّة لانطماس الخطّ، أو لغياب بعض فقراته بفعل الرطوبة وعوامل الزّمن.

هذا ما وُفقنا الوصول إليه، وليس في وسعنا إلّا أن نتقدّم أوّلا بالحمد لله الذي أعاننا على استكمال هذا البحث وشرفنا بالانتماء إلى أمة حرف الصّاد، ثم أن نسجّل شكرنا وامتناننا الكبيرين لأستاذنا المشرف الأستاذ الدكتور محمد عباس علي تفضّله بالإشراف، وتجنّسه عناء القراءة والتّصحيح والمتابعة، مادحين فيه جميل صبره، وكريم عطائه، وحسن صنيعه. كما نشكر لأساتذتنا الكرام توجيهاتهم ونصائحهم وإرشاداتهم العلميّة.

والله تعالى من وراء القصد.

قردان الميـلـود.

تيسمسيلت في: 2014/09/29.

المدخل

يُجمعُ المؤرِّخون على أنَّ الاستعمار الفرنسي قد مارس واحداً من أبشع أنواع الاضطهاد والاحتلال في العصر الحديث، لبلد لا يمت إلى فرنسا بأية صلة فكرية وثقافية وعرقية، وكان طبيعياً أن تنجرَّ عن ذلك جرائم مختلفة، أخطرها في المنظور البعيد وهي الجرائم الثقافية والفكرية بوصفها المعبر عن هوية المجتمع وقيمته وتراثه وكل مخزونه المعنوي. والاضطهاد في منظور القانون الدولي هو " حرمان مجموعة محددة من السكان أو مجموع السكان حرماناً متعمداً وشديداً من الحقوق الأساسية بما يخالف القانون الدولي وذلك بسبب هوية الجماعة أو المجموع. ومن شروط الاضطهاد: حرمان الجماعة من الحقوق الأساسية والانتماء العرقي أو الديني."¹

لهذا نجد القانون الدولي يجرم كل فعل من شأنه أن يمس الحقوق الطبيعية للفرد أو الجماعة في أي ميدان من ميادين الحياة الأساسية. والثقافة بكل أبعادها التعليمية والفكرية والسلوكية جزء لا يتجزأ من تلك الحقوق التي نصت الفقرة (1/ح) من المادة (7) من النظام الأساسي على أنه " يعد جريمة ضد الإنسانية أي اضطهاد لجماعة محددة أو مجموعة محددة من السكان لأسباب سياسية أو عرقية أو أثنية أو ثقافية أو دينية، أو متعلقة بنوع الجنس على النحو المعروف في الفقرة(3) أو لأسباب أخرى من المسلم عالمياً بأن القانون الدولي لا يميزها".

إذا كانت جرائم الاستعمار قضية سياسية وقانونية بالأساس، فإنها أيضاً قضية اجتماعية وثقافية، ذلك أن انعكاساتها لا يمكن أن تكون إلا اجتماعية بالدرجة الأولى، لأنها تمس الإنسان في نفسه وثقافته ومحيطه. والاستعمار مهما كان نوعه يعرف أن الإنسان هو جوهر الحياة ومحورها والفاعل فيها، لذا يجب أن يتعرض الشعب المستعمر لقدر كاف من المضايقات والاضطهاد، ليتخلى عن حقه في العزة والدفاع عن وجوده ككائن حر في وطنه وبين ذويه وأبناء جلدته.

وبما أن الشأن الثقافي من اختصاص الأكاديميين غالباً، فإن الاستعمار الفرنسي لم يدخر جهداً في الاستعانة بالمستشرقين الفرنسيين لتحقيق غاياته في البلدان التي يحتلها، لا سيما في الجزائر التي عُدَّت على الدوام بقعة جغرافية إستراتيجية بالنسبة لفرنسا. ولقد كان لهذه الفئة من العلماء

¹ محمد ضاري خليل: المحكمة الجنائية الدولية، هيمنة القانون أم قانون الهيمنة، ط1، بيت الحكمة، العراق،

والدارسين الدور الأكبر في نجاح أغلب الحملات الغربية على العالم العربي والإسلامي منذ الحروب الصليبية على الشرق، وربما قبل ذلك أيضا في الأندلس. ولطالما غطى الاستشراق الفرنسي على الاحتلال العسكري وما انجر عنه من مآسي، بادعاء زائف مفاده أن فرنسا تهدف إلى نشر رسالة حضارية في الوسط الجزائري، وتعليمه اللغة الفرنسية ليكون أقرب إلى منابع الحضارة الغربية.

لكن ادعاءهم لم يصمد طويلا، وكشف الزمن بطلانه من خلال التمييز العنصري، والاضطهاد غير الأخلاقي الذي تعرّض له الجزائريون، حتى أولئك الذين صدّقوه في بداية الأمر عن حسن نية وأرسلوا أبناءهم إلى المدارس الفرنسية، ولعلّ الكاتب الفرنسي أوغست برنارد كان أوضح عندما أبان عن الهدف الحقيقي للاستعمار الفرنسي في الجزائر إذ يقول: "إننا لم نحضر إلى الجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية.. وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية.. ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما.. إننا نريد أن نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات.. وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هوغو. هذا القول وغيره - في الواقع - يكشف عن حقيقة السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر كشفا واضحا، وهي تغيير معالم الثقافة الجزائرية من خلال محاربة مقومات الشخصية المحليّة بأبعادها، ولم تكن المناداة بـ "إفريقيا اللاتينية" سوى وسيلة لتبرير الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومنه إلى طمس الهوية القومية لهذا الشعب العربي الأمازيغي المسلم. وقد لعبت فرنسا على هذا الوتر ظنّاً منها أنّها ستخدع الجزائريين، وتوهمهم أن أصولهم رومانية لاتينية، وعليه فإنّ فرنسا وريثة الإمبراطورية القديمة هي حاضنتهم الطبيعية.

ولقد كانت منطقة القبائل الكبرى هي المستهدفة بالدرجة الأولى بهذا الشعار، لأن سكانها يتميزون في اللغة والثقافة عن العرب، كما أنّها استغلت شعورهم بأنهم أضحوا أقلية في المنطقة، فأخذت تدعوهم إلى طلب الحماية الفرنسية، والاندماج في الوطن الفرنسي كبديل عن الاحتلال (العربي الإسلامي) لبلادهم.

هذا التسلّل عبر مسألة الهوية والانتماء كان واضحا أنّ الهدف منه هو استمالة الجزائريين لاستبدال الحماية العثمانية بالاحتلال الفرنسي، خاصة بعد أن أصبحت الخلافة العثمانية

ضعيفة، وغير قادرة على الدفاع عن مناطق نفوذها الشاسعة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ ظهر شعار الجزائر فرنسية الذي حاول الاحتلال تسويقه إلى العالم، وإقناعه به. وترتّب عنه حركة استيطانية واسعة، وبناء مدارس فرنسية في مختلف الأطوار لتكون أداة فعّالة في تغيير الطابع الثقافي للشعب الجزائري. وقد نتج عن ذلك ازدواجية لغوية تجمع لغة فرنسية قويّة وأخرى عربية ضعيفة بفعل التضييق على الناس في استعمالها، وتشجيع اللغة العاميّة كلغة منافسة وواسعة الانتشار، مما أدّى في النهاية إلى "ازدواج شعبي"، وليس لغويًا فقط، كان من آثاره أن خلق في مجتمعنا تمزّقًا في الثقافة والتفكير والأخلاق وفي الحياة الاجتماعية نفسها. لا شكّ أنّ فرنسا كانت في بداية عهدها في الجزائر تسعى إلى نشر اللغة الفرنسية كبديل للغة العربية الواسعة الانتشار في البلاد. فبقاء اللّغة العربية لا يمكنه إلا أن يدفع شرائح المجتمع المختلفة إلى المطالبة بجلاء المحتل، أو محاربته حتى يغادر، خاصة أنّها لغة القرآن الذي يشكلّ الجهاد ضد المعتدين أساساً مهمّاً في تعاليمه السمحة، غير أنّ فرنسا المجتمع الجزائري أيضاً طرّح فيه خطر على فرنسا، لأنه يخلق مجتمعاً متعلماً و مثقفاً في الجزائر لا يضمن أن يكون موالياً لفرنسا. لهذا تفضّل بعض المفكرين الفرنسيين إلى ذلك، ومارسوا نوعاً من التمييز حتى في تعليم الفرنسية لأبناء الشعب الجزائري، من منطلقات عنصرية ومن منطلق الخوف من المستقبل أيضاً يعبر عن ذلك بيير مورلان بقوله: "لا يجب أن ننظر إلى المواطن الجزائري وكأنّه ذو عقل شبيه بعقلنا، وإذا فكّرنا في أنّ التعليم يستطيع أن يغيّره تغييراً كاملاً، فإنّنا نخالف بذلك بل نتجاهل قانون التطور الثابت."¹

هذا منطق عنصري واضح، يعتبر الجزائري مخلوقاً متخلفاً أصلاً، وغير قابل للتفكير مثل الفرنسي، أمّا المعمّرون فقد كانوا يرفضون إنشاء أي تعليم لفائدة أبناء الجزائريين لأنهم كانوا يرون أنّ التعليم من العوامل التي تدفع السكان للمطالبة بحقوقهم الشرعية، ومن أقوى الأسلحة لمقاومة الاستعمار، بالإضافة إلى انعدام ثقة الجزائريين بكل ما يصدر من طرف السلطات الاستعمارية.²

¹ عثمان سعدي، مأساة شعب وتبلد ضمير، مجلة الآداب، العدد: 05، بيروت، ماي 1955م، ص:5.

² الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1994م ص12.

وفي مظهر آخر من مظاهر الظلم الذي تعرّض له أبناء هذا الوطن ثقافياً، ذهب المستشرقون الفرنسيون في الاستهانة باللغة العربية إلى حدّ كتابتها للجزائريين بالحرف اللاتيني، بدعوى وصولها السريع إلى الأفهام، وإذا كتبوها بالحرف العربي فهي بعيدة عن العربية الأصيلة، إذ يبدو فيها الضعف وسوء التركيب واضحين، ناهيك عن الأخطاء التي تعمّدوا إدراجها رغم معرفتهم الجيدة للغة العربية، وقسموا العربية بناء على ذلك إلى قسمين هما : اللغة الكلاسيكية، ويعنون بها الفصحى، واللغة الحديثة التي يعنون بها المستحدثة والمختلطة بالعامية.

وكان من نتائج هذا الوضع، أن ضيق مجال التعليم أصلاً أمام الجزائريين، وإذا سمح لبعضهم به فإمّا لأنه مطلوب للخدمة في الإدارة الفرنسية، فيساعد بذلك في تعامل المحتلّ مع أبناء شعبه، وإمّا لأنّه من أبناء الطبقة المتعاملة مع فرنسا على حساب شعبها. أما الغالبية من الجزائريين فقد رأى المستعمر أنّ الجهل والتخلف أنسب لهم، فتموت فيهم جذوة النشاط والتفكير، ويركنون إلى التمسك بالخرافات والبدع التي هي أقرب إلى المخدر الذي يوهم صاحبه بأنّه كائن اجتماعي بينما هو أبعد ما يكون عن ذلك.

هذا أسوأ حلّ لجأت إليه فرنسا الاستعمارية على مستوى التعليم، فلا هي علّمت الجزائريين اللغة الفرنسية حتى يتمكنوا منها علمياً وثقافياً، ولا هي تركتهم يتعلمون لغتهم العربية، ويتعاملون بها كما كان الحال قبل احتلالها لبلادهم.

وقد عملت جهات فرنسية - والحال هذه - على فرض واقع لغوي هو أقرب إلى نموذج جزر أمريكا الوسطى، الذي يعرف بلغة الكريول تلك اللغة الفرنسية المبسّطة إلى أقصى درجاتها مع اختلاطها باللغة أو اللغات المحليّة، فتفقد بذلك كل قوة التعبير عن الفكر والثقافة، وتكون مجرد وسيلة اتصال بين الأفراد، فترسخ بذلك نوعاً من التخلف لدى الشعوب التي تتحدث بها وتميزهم عن الشعب الفرنسي وإن كانوا خاضعين لسيطرته.

إنّ الغزو الثقافي في مرحلة تاريخية مثل التي مرّ بها الشعب الجزائري في فترة الاحتلال ليس شعاراً ولا ادعاءً بقدر ما هو حقيقة ثابتة لم يكن للجزائريين القدرة الكافية لصدّها. بل إنّها انتقلت من ثقافة الغزو إلى غزو الثقافة، وهكذا وجدت الفرنسية الطريق الأول إلى هذا الغزو، الذي تزامن مع التضييق على اللغة العربية بغلق المدارس العربية، خاصة تلك التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي بدا واضحاً أنّ الإقبال عليها من قبل الطلبة كان واسعاً جداً،

ومنع المدرسون عن تلقينها إلا بمراقبة فرنسية وعلى نطاق محدود. وقد أشار العلامة ابن باديس إلى قانون الثامن من مارس 1939 الذي أصدرته السلطات الفرنسية قائلا: "أيها الإخوان ها هو هذا العزيز المفدى قد كشف في محاربه القناع، وأحيط به من كل جانب، وأديرت فيه الآراء، ودبرت له المكائد، ثم رمي عن قوس واحدة بالسهم المسموم: بقانون الثامن مارس المشؤوم، ذلكم القانون الذي شاهدتم أثره في المدارس والمكاتب المغلقة، وأفواج الصبيان والصبيات المشردة، وفي وقفات المحاكم التي وقفتموها والمغارم التي دفعتموها، والسجون التي دخلتموها، وما لقيتم وتلقون من جهد وعنت. أشهد أنه لم ترم الجزائر المسلمة بمثل هذا السهم على كثرة الرمي وتفنن الرماة. فقد كان كل ما أصابها هو في بدنها، وفي غير معقد البقاء منها، أما هذا السهم فهو في روحها، في صميم فؤادها، في مصدر حياتها."¹

و لم تكتف فرنسا بذلك بل لجأت إلى وسيلة غاية في الهمجية، من خلال هدم المؤسسات الدينية والثقافية، و حرمان الجزائري الذي كان يحظى بقدر وافر من التعليم قبل الاحتلال من مصادر الوعي والمعرفة . و من الغريب أن نجد الفرنسيين أنفسهم يعترفون أن نسبة الأمية في الوسط الجزائري قبل الاحتلال كانت ضعيفة جدا فالجنرال "فاليزي" في العام 1834 يقر بأن وضعية التعليم في الجزائر كانت جيدة قبل التواجد الفرنسي، إذ إن كل العرب (الجزائريين) تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، بفضل انتشار المدارس في أغلبية القرى والدواوير."²

ومن نافلة القول التذكير بأن نسبة الأمية لم تكن في الجزائر سنة 1830م حين دخلت جيوش " أصحاب رسالة التقدم والتعليم سوى 14% ، وبعد مائة وخمسة وعشرين عاما من الحكم الفرنسي أصبحت نسبة الأمية 92% عام 1955م"³ ، وهذه النسبة الضعيفة للأمية 14% في الجزائر في ذلك الوقت؛ تؤكد أن الحياة الثقافية والفكرية كانت مزدهرة ونشطة، على الرغم من أن التعليم السائد آنذاك كان تعليما تقليديا، يقوم أساسا على الكتابات التي كانت اللبنة الأساسية للتعليم، لأن " التعليم الذي كان سائدا قبل الاحتلال الفرنسي في

¹البصائر: السلسلة الأولى- السنة الرابعة- العدد 156- 18 محرم 1358هـ/ 10 مارس 1939.

² Charles Robert Ageron, Les algériens musulmans et la France, Presses Universitaires de France, Paris, 1968, P 318.

³ - سعد زغلول فؤاد: عشت مع ثوار الجزائر - دار العلم للملايين - ط - بيروت - 1961 - ص 34.

1830م، هو التعليم العربي الإسلامي، الذي يقوم أساسا على الدراسات الدينية واللغوية والأدبية"¹.

ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا تتخبط في ظلام الجهل والهمجية، كانت الحياة الثقافية مزدهرة في مختلف الحواضر، كتلمسان، ومازونة، وبجاية، وقسنطينة والجزائر العاصمة، ويشهد بذلك أحد الأوروبيين السيد "كومب" - والفضل ما شهدت به الأعداء- عن حاضرة تلمسان التي كانت مركز إشعاع ديني وثقافي، فيقول: "... كان الطلاب في تلمسان يتدافعون بالمناكب، ليظفروا بالحضور على أساتذتها الأعلام ذوي الشهرة الذائعة."²

وكانت بعض الزوايا والمساجد الكبرى، تضطلع بمهمة التعليم الثانوي والعالي، كالجامع الكبير بتلمسان، وجامع سيدي العربي، وزاوية الأمير عبد القادر وزاوية مليانة، وجامع سيدي الأخضر بقسنطينة، وزاوية ابن علي الشريف بجزيرة"³.

ساء فرنسا الاستعماريّة أن ترى الشعب الجزائري متعلّما، إذ تريده شعبا أميا يتخبط في وحل الجهل والتخلف، حتى تحكم سيطرتها عليه و يقوى نفوذها، فعمدت إلى انتهاج سياسة التجويع والتجهيل، للقضاء على الثقافة القومية للشعب الجزائري، فألغت المدارس التي تعلّم العربية، وأغلقت الكتابات التي تحفظ القرآن الكريم، واستولت على المساجد، فحوّلتها إلى كنائس وحانات خمر وإسطبلات للخيل، وزجّت بالمعلمين في السجون، ونفت بعضهم، ووضعت بعضهم الآخر رهن الإقامة الجبرية، فاضطرّ الكثير منهم للهجرة إلى أرض الله الواسعة، ولم تسمح لمن بقي بتدريس اللغة العربية إلا باستصدار رخصة من السلطة الاستعماريّة الفرنسيّة، وهذه الرخصة لا تمنّ بها إلا لمن ارتضت له قولا وعملا من عملائها وأذنائها الذين أطعمتهم من جوع و آمنتهم من خوف، وبذلك عشّش الجهل في أوساط

¹ - عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر- شركة دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع- الجزائر- د ط- 1999- ص27.

² - سعد زغلول فؤاد: عشت مع ثوار الجزائر- ص34/35.

³ - سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر: المصدر السابق - ص 30.

الشعب حتى كادت أن تختفي الطبقة المثقفة، وتفشت الشعوذة والخرافات وطلب العون من الأموات، ومن شيوخ لا يتحركون إلا بمهماز الاستعمار، نصبوا أنفسهم آلهة للناس من دون الله، فتكالب الاستعمار على هذا الشعب الكادح، استعمار مادي عسكري بجدّ السيّف، واستعمار روعي باسم الدين، وكلّ يشد عضد الآخر. وقد فصلّ أحد الكتّاب الذين قدر الله لهم أن يعيشوا تلك الحقبة السوداء الحالكة الظلام من تاريخنا الوطني، وهو الشيخ أبو اليقظان بقوله: "لقد تسلّط على الأمة عوامل ثلاثة، لو تسلط عامل واحد منها على أمة كبيرة، لززع ركنها وهدّ بناءها، ألا وهي الجهل، والفقر، والفرقة، فالجهل أفقدها شعورها بوجودها، وكيف تذبّ عنه، والفقر أقعدها عن العمل وشلّ أعضائها عن الحركة، والافتراق أذاب قوّتها، وذهب بريحتها فبقيت والحالة هذه عرضة للتلف والاضمحلال والهلاك. وهي نتيجة طبيعية لتلك الحالة المحزنة التي جرّ إليها الظلم والاستبداد"¹. وقد مسّ التدمير المدارس والمساجد والزوايا، وهي مؤسسات ثقافية مهمّة بالنسبة للشعب الجزائري. فقد كانت الجزائر العاصمة وحدها تضم " قرابة 176 مؤسسة دينية سنة 1830 بين مسجد جامع ومسجد صغير وزاوية، ولم يبق منها سنة 1862 إلا 67 مؤسسة ثلاثها معطل لا دور له. أمّا الأخرى فقد مسحت أو هُدمت أو تمّ الاستيلاء عليها، أو حوّلت وظيفتها لأغراض غير الأغراض التي بنيت من أجلها."²

فكيف لا ينتشر الجهل والامية و الحال هذه، وكيف لا تصاب الثقافة في مقتل؟ وكيف لا يكون نتيجة ذلك كله حدوث موجات هجرة واسعة إلى المشرق العربي والدول المجاورة، بحثا عن الحرية في التعبير والحفاظ على ما يمكن من آثار الثقافة الجزائرية ليعاد تكوينها في المهجر، كيف لا تنتشر ثقافة المحتلّ الفرنسي الموجهة بدراسات نفسية واجتماعية، لتحارب في الإنسان شخصيته ومبادئه دون أن تستقبله كلفة في رحابها كبديل عما فقده؟ وكأنّ المحتلين كانوا يريدون الوصول بهذا الإنسان إلى حالة من التمزّق الثقافي والاجتماعي، بحيث لا يشعر أنّه عربي

¹ - أبو اليقظان: شعور الأمة نائم- فماذا ينهه - جريدة واد ميزاب- عدد42 . 29 محرم 1346هـ- 29 جويلية 1927.

² - الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي أثناء الاحتلال ، مجموعة كتاب ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية . طبعة خاصة لوزارة المجاهدين، ص 171.

أو أمازيغي مسلم ولا أنه فرنسي يتمتع بما يتمتع به الفرنسي من مستوى معيشي وثقافي يرفعه إلى مصاف الكرامة الإنسانية.

وفي تزامن مع هذا الخراب الثقافي، تواصلت موجات التنصير المسيحي، في محاولة لاستغلال الأوضاع المأساوية للشعب الفقير المقهور. وفي هذا الصدد يرى أبو القاسم سعد الله أنه " في عقد الستينيات وبخاصة بعد كارثة المجاعة التي أصابت الحرث والنسل، قام الكاردينال لافيغري بتأسيس جمعية (الآباء البيض) التي انتشرت في شمالي إفريقيا، تفتح المدارس والمصحّات ومراكز التكوين المهني للتوغل بين السكان، في محاولة لتقريبهم من التصرانية إن لم تستطع تنصيرهم كليا، وقد جذبت إليها أعدادا هامة من الأطفال في المدارس، واهتمّت بالبنات في مراكز التكوين المهني، وقدّمت الدواء للمرضى والمشرّدين والعجزة، تحت ستار المساعدة والأعمال الخيرية، بينما كان الهدف تنصير الجزائريين بالتعليم ذي البرنامج التمسحي الصريح، أو برنامج لهدم العقيدة والأخلاق الإسلامية، وبث التقديس للأمة الفاتحة، ولحضارتها وثقافتها.¹

أمّا الصحّافة التي حاول كثير من المفكرين الجزائريين الاستعانة بها لنشر الوعي، فقد تعرّضت هي الأخرى إلى حملات توقيف ومصادرة كلما أحسّت السّلطات الاستعمارية أنّها تشكّل خطرا عليها، وهناك من الصحف لم تتعدّد العدد الأول أو الثاني في صدورهما حتّى عاجلتها مقصلة الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة وأعدمتها، مثل جريدة (ميزاب) في الجنوب، التي صدر عددها الأول والوحيد في 1930/01/25، و(الجزائر) التي أصدرها عمر راسم عام 1908 وقد أعدمته الحكومة الفرنسية بعد أن صدر منها عددان فقط ، ثم صدرت عام 1911 م. وبعدها أصدر (الحق) في مدينة وهران، ولم تعش هي الأخرى إلا مدة قصيرة ثم أغلقتها الحكومة الفرنسية. وفي أفريل من سنة 1913 م صدرت جريدة (الفاروق) للشيخ عمر بن قدور، الذي يعتبر من أتباع المدرسة الإصلاحية الإسلامية المتأثرة بالشيخ محمد عبده ومجلة المنار للشيخ رشيد رضا، فأراد أن يقلّده في مكافحة البدع والخرافات، لكن الحكومة الفرنسية أغلقتها وقامت بنفي صاحبها إلى واحة الأغواط ولم يفرج عنه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

¹ - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي - بيروت 1998 ، ص 375.

وتمت عدد آخر كثير من الجرائد والصحف التي توالى صدورها، لكن سرعان ما وُجّهت بقرارات التوقيف، ومعاقبة أصحابها بعقوبات مادية أو معنوية، لا سيّما تلك التي تشمّ فيه الإدارة الاستعمارية رائحة الإصلاح والوطنية، مثل صحف الشيخ أبي اليقظان التي سقطت شهيدة في ميدان المقاومة الشريفة بالكلمة الواحدة تلو الأخرى، بمجموع ثماني جرائد خلال ثماني سنوات: 01- (وادي ميزاب) 119 عددًا- من 1926/10/01 إلى 1929/01/18م.¹

02- (ميزاب) عدد واحد- 1930/01/25م.

03- (المغرب) 38 عددًا، من 1930/05/29 إلى 1931/03/09م.

04- (التور) 78 عددًا- من 1931/09/15 إلى 1933/05/02م.

05- (البستان) 10 أعداد- من 1933/04/27 إلى 1933/07/13م.

06- (البراس) 6 أعداد- من 1933/07/21 إلى 1933/08/22م.

07- (الأمّة) 170 عددًا- من 1933/09/08 إلى 1938/06/06م.

08- (الفرقان) 6 أعداد- من 1938/07/08 إلى 1938/08/03م.

و هكذا تحالف الاستعمار الفرنسي والاستشراق والتنصير والغزو الثقافي والفكري ضدّ الأمة الجزائرية لتفتيتها والقضاء على هويتها، وثقافتها لتسهل السيطرة عليها في المنظور المتوسط والبعيد .

¹ - محمد صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ط.02، ألفا ديزاين، الجزائر، 1427هـ/2006م،: ص 72 /79/101/118/155/170/181/252.

على الرغم من أن جرائم الاحتلال الفرنسي الثقافية كانت غاية في القسوة، إلا أنه من بجانبه الصواب القول بأن النخبة المثقفة لم تستطع فعل شيء أمام هذا الواقع المأساوي، بل إنها حاولت بكل الطرق في سبيل الحفاظ على هويّة ومقوّمات هذا الشعب المحتل. ففي مجال الإصلاح الديني رأينا كيف تصدت جمعية العلماء لكثير من المخططات الاستعمارية، رغم ضعف حيلتها أمام القرارات التعسفية التي تعرضت لها عن طريق ابتداع الوسائل المختلفة لإيصال الوعي إلى الناس، بما في ذلك الرّحلات والجولات الداخلية للبوادي والقرى، والتي ظهر لاحقا أنها آتت أكلها.

وعلى أصعدة التعليم والثّقافة، استطاعت النّخب الجزائرية أن تبرهن عن وطنيتها، وتثبت ذاتها رغم الأسلوب الهادئ والمراوغ أحيانا الذي انتهجته في تعاملها مع سلطات الاحتلال، وإننا لنقف على أسماء كثيرة كان لها عظيم الأثر في التاريخ الثقافي للجزائر الحديثة، وقد انعكس ذلك بصورة جليّة من خلال تفشّي الجهل والأمية في أوساط الشعب الجزائري، ناهيك عن التشكيك في هويّة الشعب الجزائري، من خلال ازدواجية الشخصية الثقافية تبعا لازدواجية اللغة المتحدث بها. وقد ترتب عن هذا سؤال غريب يطرحه العرب المشاركة خاصة وهو: هل الجزائر حقا بلد عربي؟ بالنظر إلى انتشار اللغة الفرنسية بين المثقفين واللغة الدارجة المليئة بالمفردات الفرنسية بين العامة. وقد تجسّد هذا التشكيك في تلك المقولة المحففة التي أطلقها أمير الشعراء أحمد شوقي بمناسبة زيارته للجزائر في رحلة استشفائية، والتي أثارت سخطا واستهجانا من الجزائريين لاسيما الشيخ عبد الحميد بن باديس، يقول احمد شوقي: " لا عيب فيها سوى أنّها مُسخت مسخا، فقد عهدت مسّاح الأحذية يستنكف النطق بالعربيّة، وإذا خاطبته بما لا يُجيبك إلا بالفرنسيّة"¹

وقد تألم الشيخ عبد الحميد بن باديس لهذا الزّعم الباطل الذي صدر من شخصيّة أدبيّة بحجم شوقي، والذي بنى حكمه من خلال تصرّف شخص واحد من عامّة النّاس، وهو أمر مُناف لقواعد المنطق السليم، ومُجاف للحقيقة والواقع، وقد سجّل ابن باديس موقفه هذا في خطبة له بمناسبة الاحتفال بتأبين الشاعرين: شوقي وحافظ في نادي التّرقّي في شهر فبراير

¹ - مجلّة الثقافة: السنة الخامسة عشر - العدد 87 - شعبان - رمضان 1405هـ / مايو - يونيو 1985م - وزارة الثقافة والسياحة - الجزائر - ص 227.

1934، يقول ابن باديس: "...أما شوقي فقد قدر له أن يزور الجزائر في شبابه، ويتزل بعاصمتنا أربعين يوماً للاستشفاء ويقول عنها: ((:" لا عيب فيها سوى أنّها مُسخت مسخاً، فقد عهدت مسّاح الأحذية يستنكف التّطوق بالعربيّة، وإذا خاطبته بما لا يُجيبك إلّا بالفرنسيّة)). فأعجبوا لاستدلال على حالة أمة بمسّاح الأحذية منها، ولا يجمل بي أن أزيد في موقفي هذا على هذا إلّا أن فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له في الجزائر رأي آخر، ولعلم أن الأمة التي صبغها الإسلام وهو صبغة الله، وأنجبتها العرب وهي أمة التّاريخ، وأنبثتها الجزائر، وهي العاتية على الرومان والفندال، لا تستطيع أن تمسحها الأيام ونواب الأيام".¹

كما كان للتّضييق الذي مارسه الاستعمار الفرنسي على الجزائريين الأثر الكبير في هجرة المثقفين إلى الخارج، خاصة إلى المشرق العربي أين كانت الضغوط على الثقافة العربية أقل مما هي عليه في الجزائر. ورغم أن الهجرة العلمية مفيدة في بعض جوانبها إلا أنّها ترك فراغاً رهيباً على المستوى التعليمي والثقافي، مما يشعر الشعب أنه مطالب بالحفاظ على حياته فقط، وليس التفكير في بناء مجتمعه على أسس علمية متينة. وقد أدّى غياب الطّبقة المثقفة من الجزائريين إلى ضياع الكثير من مصادر المعرفة كالمخطوطات والتحف الفنية التي استولى عليها المستشرقون وغيرهم إما بغرض دراستها أو بغرض إبعادها عن الوعي العام، لأن أغلبها كان دينياً أو لغوياً. وبذلك شاعت البدع والخرافات لتكون بديلاً عن التفكير العلمي الواعي، الذي عملت النخب الثقافية الجزائرية على زرعه من خلال المدارس والجمعيات. .

وقد انحطّ الأدب العربي في الجزائر شعراً ونثراً إلى مستوى لم يعرفه من قبل، وكان ذلك نتيجة طبيعيّة للاضطهاد الرهيب الذي كانت تعانيه الثقافة العربية من طرف المستعمر الفرنسي، فقد تفنّن هذا الاستعمار الحاقدي في كلّ الأساليب الممكنة لتجريد الشعب الجزائري من هويّته الثقافية الإسلامية، وإبداله بثقافة مسيحية غربية جديدة. مما جعل جيل الشباب الذي كان الاعتماد عليه في بعث الأدب العربي في الجزائر ينصرف عنه انصرافاً كلياً إلى الآداب الأجنبية. وعلى الرّغم من ذلك كلّه فإنّ بعض الجزائريين استماتوا في الحفاظ على لغتهم، وتشبّثوا بها لتحيا وتبقى، فقد كانت بالنسبة إليهم جزءاً لا يتجزأ من كيانهم الروحي الإسلامي، فهي لغة

¹ - الشهاب: ج.04- مج 10- مارس 1934- ص 146.

القرآن أولاً وقبل كل شيء، والفضل في ذلك يعود إلى الكتابات القرآنية البسيطة، والزوايا الطرقية التي كانت أشبه بالشموع الخافتة المتناثرة في مهبّ الريح العاصفة، غير أنّ هذه المراكز التعليمية بوسائلها المحدودة وثقافتها التقليدية لم تكن لتنهض بالأدب العربي في تلك الفترة، ولو أنّها ساعدت على بقائه، وفي طبيعة أية نهضة أدبية أن تسبق بنهضة ثقافية تمهد لها، ومن ثمّ كانت النتيجة تفشي الجهل في أغلب جهات القطر، وكسد الشعر، وفقد محبيه والمهتمين به وصارت حرفة الشعر أنجس الحرف، ولم يكن الجهل وحده سبباً في ضعف الحركة الأدبية بعامّة، إنّما كان إلى جانبه تزمّت بعض رجال الدين، ونظرهم إلى الشعر نظرة تتسم بالتحفظ المتطرّف، إذ كان في تقديرهم أنّه من الحديث الذي يشغل المسلم عن فروضه الدينيّة.

ومهما يكن من أمر فقد بقيت تلك المراكز التعليمية تولى عنايتها للشعر، فنشأ في أحضانها رواته وحفاظه وناظموه. وارتبط قول الشعر بطلاب المساجد والزوايا، يتنافسون في نظمه وإنشاده بصرف النظر عن الموهبة والإجادة. فغلبت عليه النزعة الدينية وتشابحت قصائده، فإذا هي من لون واحد، كمدح المشائخ، والتّغني بمآثر الأولياء والصالحين، والتغزل في الذات الإلهية، والتوسل بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وإذا تجاوزنا هذه المواضيع الدينية الصرفة بحثاً عن مواضيع ذاتية أخرى لانا نكاد نعر على غير قصائد قليلة في الغزل المتكلّف، والفخر القائم والتباهي بالأجداد والأنساب، أو التذمّر من العصر وأهله. ونجد أيضاً ما يطلق عليه شعر المحاملات و الإخوانيات، إلى جانب هذا نشطت المنظومات العلمية في النحو البلاغة والفرائض والمنطق... الخ، وراح العلماء والفقهاء يتبارون في طول نفسها، واشتهر غير قليل منهم بمنظومة عرف بها وهو ما يمكن أن نعتبره امتداداً للمفهوم الذي ساد عصر الانحطاط، مما لا يعد من الشعر بحال من الأحوال، ولم يمس هذا الضعف الشعر من جانب المضمون فحسب، وإنما لحقه وهو أمر طبيعي ضعف أشد من جانب الشكل، فشاعت الأخطاء العروضية، وكثر النشاز في الإيقاع الشعري. وشاع التقليد المتكلّف واتخذ له طابع التشطير والتخميس والمعارضة، ذلك لأنّ مفهوم الشعر لم يكن واضحاً في أذهان هؤلاء النظاميين، فحسب الواحد منهم أن يقلّد ما حفظه من قصائد القدماء. وقد تركت المواد الدينية بصمات واضحة على ناحية الشكل أيضاً. فقد كان الشعراء يكتبون قصائدهم متأثرين بمصطلحاتها غير مفرقين بين لغة الشعر والنثر، إلى حد صاروا معه يشتقون استعاراتهم وكنياتهم من الفنون التي لا صلة لها بالأدب. ويصفون

قصائدهم ببعض المنظومات التي يقرؤونها في المواسم، وحلقات الذكر. فيقولون هذه القصيدة من بحر البردة وتلك من بحر الهمزية. ولفقدان النقد الأدبي أثر فيما أصاب الشعر من الانحطاط. وهو ما أشار إليه أحد الكتاب في تلك الفترة، حيث قال: (فلو كان للشعر نقاد، لما مجت مسامعنا القصائد، ولما انقطعت الصلة بينها وبين سليم الشعر¹). ومن الواضح أن النقاد كانوا يشيرون إلى مداخل الشعر بلغة ركيكة هي: اللغة العامية الراقية القريبة إلى الفصحى، يقول البشير الإبراهيمي: (وقد اطلعنا على أكثرها، فإذا هي أحت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق، لأنها منقطعة الصلة للشعر في أعاريضه وأضربه ومنقطعة الصلة في ألفاظها ومعانيها، ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرفه واختراعه).

هذا النص الأخير، يؤكد لنا مرة أخرى بأن الشعر في هذه الفترة كان ضعيفا من ناحية الوزن واللغة العاطفية أيضا. ومع بداية القرن العشرين أخذت تلوح في الأفق بوادر النهضة الأدبية، تمثلت في شعر بعض الرواد الإصلاحيين الذين أصابوا نصيبا من الثقافة المزدوجة، أو العربية الخالصة. وتأثروا بالنهضة المشرقية الإصلاحية، والوطنية، بواسطة بعض الجرائد الشهيرة كجريدة "المنار" لرشيد رضا و"اللواء" لمصطفى كامل. وتمثلت هضمتهم في بروز عدد من المؤلفات والمقالات والقصائد ساعدتهم على نشرها في بعض الصحف الرائدة في المغرب 1903م. كوكب إفريقيا 1907م. الفاروق 1916م. ذو الفقار 1916م. والواقع أن الدارس لهذا الإنتاج بعامة، والشعر فيه بخاصة يلاحظ فيه نوعا من التطور أقل ما يقال عنه أنه أعاد الثقة في نفوس الجزائريين بأن هناك هضمة أدبية تحاول البروز إلى الحياة الاجتماعية، وتوجيه الفرد الجزائري توجيهها وطنيا يعتز معه بلغته ودينه.

غير أن أبرز ما تمخضت عنه الحرب بالنسبة للجزائريين ذوي الاتجاه العربي الإسلامي، تلك النهضة الفكرية التي بدأت مع بداية الحركة الإصلاحية 1925م، فإن الأثر الذي تركته هذه الحركة في الجزائر، كان من الأصالة والعمق أن جعل الجزائريين يستردون شخصيتهم الأصلية.

من هنا نستطيع القول: إن البداية الحقيقية للنهضة الأدبية الحديثة ارتبطت بالحركة الإصلاحية. وعن هذا يقول الشيخ ابن باديس: (الحقيقة التي لا يعلمها كل أحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم بروز جريدة "المنتقد" في يوم ذاك عرفت الجزائر من أبنائها كتابا وشعراء ما كانت تعرفهم من قبل). ذلك لأن الذين قاموا بها تخرجوا في المعاهد العربية العالمية كالزيتونة بتونس، والأزهر بمصر، والقرويين بفاس، وقلية قليلة تعلمت بالحجاز. هؤلاء جميعا تأثروا بالنهضة المشرقية ولاسيما نهضة مصر بصفة خاصة، فلقد كانت النهضة المصرية فيما نحسبه عملا فعالا في بعث تلك الحركة وامتدادها بالزاد الروحي. وعن هذا يقول محمد السعيد الزاهري أحد رواد الحركة الإصلاحية: (وما من شيء له أثر في حياة العرب العقلية الاجتماعية إلا وهو مصري غالبا، وكل حركة أدبية أو دينية في مصر لها صداها القوي في المغرب بالعربي. فلأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده أنصار ومريدون كثيرون وفكرة الإصلاح الإسلامي التي كان ينادى إليها أصبحت اليوم في الجزائر مذهباً اجتماعياً يعتنقه الكثرة الكثيرة من الناس. تلك إذن هي المنابع الأساسية لهذه الحركة الأدبية، التي كان الفضل في إذاعتها وتقويتها وتوجيهها لابن باديس، وثلة من أصحابه الشباب الذين عادوا بتجارب جديدة من الزيتونة بخاصة. فأول ما قامت به هذه النخبة المثقفة أنها نشرت الصحف العربية. وكان من أبرزها جريدة "المنتقد" التي يمكن اعتبارها بمثابة النادي الأدبي، لأنها استطاعت أن تجمع الأقسام الشابة من الكتاب والشعراء. ومن ثم أخذ الشعر الجزائري نفساً جديداً وظهرت صحف أخرى نذكر منها: "الشهاب" 1925م، "صدى الصحراء" 1925م، "وادي ميزاب" 1926م، "الإصلاح" للشيخ الطيب العقبي 1927م، "البرق" لمحمد السعيد الزاهري 1927م. وراحت تسلك المنهج الذي سلكته المنتقد قبلها، تشجع الشعر وتغذيه. فوجد إنتاج غزير. وظهرت في العشرينيات أسماء كثيرة لشعراء ساهموا في الحركة الشعرية، وامتألت أعمدة الصحف بنماذج مختلفة تتفاوت في أسلوبها ومحتواها.

نتيجة لهذا التطور الملموس في فهم وظيفة الشعر ودوره في الحياة برز إلى الوجود ما يمكن أن يعتبر أول ديوان شعر جزائري ويضم بين دفتيه شعر شعراء الجزائر في العصر الحاضر وهو يعد بحق أول خطوة عملية في هذا المجال ، وقد قدم هذا الديوان إنتاج اثنين وعشرين (22) شاعرا يختلف شعرهم عما ألفه الناس ممن سبقوهم أصالة وانطلاقا ومضمونا وشكلا ، و بذلك خطت النهضة الأدبية في الجزائر خطواتها الأولى نحو التجديد و الابتكار و التي كانت مقدمة لنهضة فكرية و سياسية عارمة شهدتها الجزائر في السنوات اللاحقة و التي توجت باسترجاع الوطن لاستقلاله و حريته بعد مئة و اثنين و ثلاثين سنة من الكفاح و النضال المستميت.

الفصل الأول

الفصل الأول: المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث: نشأتها و تطورها

1- مفهوم المقال

2- نشأة المقال و تطوره

3-أنواع المقال

3-أ- المقال الذاتي

03-ب-المقال الاجتماعي

03-ج/ المقال الوصفي

03/د المقال التأملي

04/ه- المقال التأبيني

03/و - المقال الديني

03/ز- المقال السياسي

03/02- المقال الموضوعي

03-02/أ - المقال الفكري

03/02- ب - المقال التاريخي

03/02-ج- المقال العلمي

03/02-د- المقال النقدي

أنواع المقال من حيث الأسلوب والغاية

01- المقال الأدبي

02/ المقال الصحفي

4-المقال الإصلاحي في المشرق العربي ومغربه

4-أ - فنّ الإصلاح

4-ب/ الإصلاح و الحركة الإصلاحية

ج/ المقال الإصلاحي في العالم العربي

ب- المقال الإصلاحي في المغرب العربي

ج/ فنّ المقالة في الأدب الجزائري الحديث

لقد تعددت فنون النثر الأدبي من خطابة و قصة و رواية و مسرحية و خاطرة، و يعدّ المقال الأدبي واحداً من هذه الفنون الثرية، وإن كان وافداً جديداً إلى الأدب العربي الحديث.

1- مفهوم المقال :

لغة : اشتقت كلمة (مقال) من الفعل الثلاثي المعتل الوسط (قَوَلَ) الذي تقلب واوه ألفا أي (قال) ، و قد وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل (قال) ، كقوله تعالى : " قال رب إني وهن العظم مني و اشتعل الرأس شيبا و لم أكن بدعائك رب شقياً " الآية 4 من سورة مريم . و بصيغة المصدر (قَوْلٌ) كقوله عز و جل : " و من أحسن قولاً ممن دعا إلى الله و عمل صالحاً و قال إني من المسلمين " الآية 33 من سورة فصلت .

و بصيغة المصدر (قِيلٌ) كقوله : " و الذين آمنوا و عملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبد و عد الله حقاً و من أصدق من الله قيلاً " الآية 122 من سورة النساء

و تجمع المعاجم اللغوية العربية على أن المقال من الفعل قَوَلَ : " قول : قال يقول قولاً و قالاً و قيلاً و قوله و مقالاً و مقالةً : تلفظ أي تكلم ... المقالة : القول أي القطعة من الكتاب . " ¹ و في لسان العرب لابن منظور : " قال يقول قولاً و قالاً و قيلاً و قوله و مقالاً و مقالةً ، و أنشد ابن برّي للحطيئة يخاطب عمر رضي الله عنه :

" تَحْتَن عَلِيَّ هِدَاك المليك فإِن لكلِّ مقام مقالاً " ²

اصطلاحاً : لقد تباين مفهوم المقال بين النقاد نظراً لتشعبه و تداخله بنسب متفاوتة شكلاً و مضموناً مع الفنون النثرية الأخرى كالخطابة و المقامة و الرسالة و الخاطرة و القصة، مع انفراده و استقلاليته بخصائصه المميزة، و من أجل إعطاء مقارنة تُلمّ بمفهوم فن المقال، سنعرض بعضاً من التعريفات حسب زوايا نظر مختلفة.

والمقال من حيث شكله و منهجيته الفنية يشبه إلى حد ما بحثاً حول موضوع محدد، فهو قطعة إنشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معين ، أو حول جزء منه . ³

¹ - لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، ط 19، بيروت، 1966، ص 663.

² - أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، م 5، ج 39، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 3778 .

³ - محمد يوسف نجم: فن المقالة، دار الثقافة، ط. 04، بيروت، 1966، ص 94.

أي أنّ المقال من أكثر الفنون الأدبية استيعابا و شمولاً لشتى الموضوعات على اختلاف مجالاتها السياسية و الاجتماعية و الثقافية و الرياضية و العلمية و الاقتصادية و الدينية وغيرها . فموضوع عن أسباب قهاوي سعر النفط و أسبابه و انعكاساته مثلا لا يمكن أن نجده في قصيدة شعر، و لا في حبكة قصة، ولا في حوار مسرحية، و المقال وحده هو الذي يعالج مثل هذه المواضيع.

و المقال من حيث مضمونه و تسلسله المنطقي يحتوي على ما يريد الكاتب إيصاله للمتلقي من معلومات و أفكار معتمدا خطة ما، فهو " فكرة قبل كل شيء و موضوع، فكرة واعية و موضوع معين يحتوي قضية يراد بحثها، قضية تجمع عناصرها و تُرتب، بحيث تؤدي إلى نتيجة معينة و غاية مرسومة من أول الأمر." ¹

و لقد حاول محمد يوسف نجم إعطاء تعريف جامع عن مفهوم المقال، فاعتبره " قطعة نثرية محدودة في الطول و الموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة و الرهق، و شرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب." ² فصدق الكاتب إذن في التعبير هو معيار يتحكم في مصداقية المقال .

و بعد هذه التعريفات، تتجلى لنا أوجه التشابه و الاختلاف بين المقال و الفنون النثرية الأخرى، و نلخصها في الجدول الآتي :

الفن النثري	أوجه التشابه مع المقال	أوجه الاختلاف مع المقال
الخطبة	- توجيه رسالة إلى القراء و الجماهير . - معالجة موضوع عام يتصل بقضايا المجتمع .	- هدف المقال الإمتاع و الفائدة أما هدف الخطبة فالإقناع و الوعظ و الإرشاد .
الرسالة	- معالجة شؤون تمس المجتمع . - القصر .	- يمكن أن توجه الرسالة إلى أشخاص محددين من مرسل إلى مرسل إليه أما

¹ - سيد قطب: النقد الأدبي أصوله و مناهجه، دار الشروق، ط.08، القاهرة، 2003، ص 106.

² - ينظر: فنّ المقالة، مرجع سابق، ص 95.

المقال فيستهدف جميع الناس .		
المقامة	- تناول فكرة محددة بتركيز دون تعمق . - الهدف هو الإمتاع .	- يطغى اللفظ المنمق على المعنى في المقامة باستعمال أساليب البيان و البديع، في حين يركز الكاتب في المقال على المعنى بتوظيف أسلوب خال من التكلّف عامة .
الخاطرة	- تتراوح بين الاعتدال و الطول .	- الاعتماد على الذاتية مع غياب الموضوعية في الخاطرة، في حين نجدهما في المقال .
القصة القصيرة	- القصر .	- اعتماد القصة على الإيجاء و التصوير أكثر من اعتمادها على الحادثة نفسها ، والعكس نجده في المقال .

هذا مفهوم فن المقال سواء عند النقاد العرب أو عند الغربيين، و لا شك أن تعدّد هذه المفاهيم يسهم في إثراء هذا الفن النثري الذي يجمع هؤلاء على دوره الرائد في إيقاظ وعي الجماهير في شتى المجالات و تثقيفهم و من ثم التأثير في رأيهم.

2- نشأة المقال و تطوره :

يختلف النقاد و المؤرخون حول جذور المقال، فمنهم من يوغر في التاريخ فيعزوها إلى الإنسان القديم، و منهم من يردّها إلى عصر النهضة الأوروبية . أمّا النقاد العرب فيعتبرونها امتداداً لفنّ الرّسائل الذي ظهر في الجاهلية، و نستعرض هنا هذه المراحل :

2- أ - نشأة و تطور المقال من العصر القديم إلى العصور الوسطى:

يكاد المؤرخون و النقاد يجمعون على أنّ المقال بوجهه الحديث ظهر في عصر النهضة الأوروبية، ولكنّه كباقي الفنون الأدبية عرفه الإنسان البدائي بشكل يختلف عما نعرفه

الآن لبساطة وسائل الاتصال آنذاك، إذ عبّر عن موضوعاته " منذ فجر التاريخ في تماويل السحر ورسوم الكهوف، ووجدت في أحاديثه ومسامراته قبل عهد التدوين متنفسا ومراحا.¹ ولم يكن المقال بهذا المعنى يرقى إلى صورته الفنيّة الحديثة، لأنّ أكثر ما عبّر عنه ذلك الإنسان هو تأملاته وخواطره بطريقة ساذجة.

وبظهور الكتابة، ارتبط المقال القديم في الثقافات الشرقية القديمة الفارسية والهندية والصينية بموضوعات الدين والفلسفة. ففي الأدب الصيني القديم مثلا نجد لها جليّة في " الأقوال المأثورة التي تنسب إلى كونفوشيوس (حوالي 500 ق.م)، وكذلك في آثار تسي زي في ذلك العهد، ثم في كتابات منشيوس (حوالي 300 ق م) "²

ولقد بدأت معالم المقال تلوح عند الإغريق والرومان في الفترة الممتدة من القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن الثالث، حيث كان لكتابات الفلاسفة أمثال سقراط وافلاطون وأرسطو-التي اتّسمت بالحرية في التفكير والمنطق - الأثر الكبير فيما بعد على المقال الحديث. ولقد عدّ المؤرخون " ثيوفراستوس تلميذ أرسطوطاليس، رائداً لمقالة الشخصيات ... أمّا فلوطارخوس فقد وضع أسس المقالة التأملية. "³

ولقد أسهم الأدب اللاتيني - ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الرابع بعده - في انتعاش المقال، فتوسعت موضوعاته إلى تأملية ونقدية ووصفية، ونبغ فيه هوراس (Horace) و في عصور الهيمنة البابوية على أوروبا، دخل الأدب في سبات عميق، و كاد فنّ المقال يندثر، و انصرف رجال الدّين إلى الوعظ والإرشاد، فقيّدوا عقولهم باستثناء بعض من تفرّغ لكتابات فلسفية و دينية للدفاع عن الديانة النصرانية، " و ردّ كيد خصومها و مقارعتهم الحجّة بالحجّة، و لعلّ (اعترافات القديس أغسطين) حوالي 400 م ، هي أبرع استهلال لهذا النوع. "⁴

¹ - فن المقالة: مرجع سابق، ص 08.

² - المرجع نفسه: ص 10.

³ - نفسه: ص 13/12.

⁴ - نفسه: ص 16/15.

لقد ارتبط ظهور المقال بالثورة العلمية و الفكرية و الثقافية التي ميّزت عصر النهضة الأوروبية، بعد أن فكّ الإنسان الأوروبي عن نفسه الأغلال التي كبّلتها الكنييسة في العصور الوسطى، فأصبح حرّاً في التعبير عن رأيه و الإسهام بخبرته من أجل تجسيد أفكاره وقد " ظهر في هذه الفترة بعض الأعلام الذين مهّدوا السبيل أمام ازدهار هذا الفنّ الأدبي، نذكر منهم على سبيل المثال، لا الحصر ، دانتي و بترارك و مكيافيلي ... " ¹

وقد ظهر المقال بصورته الحديثة في فرنسا على يد الفرنسي مونتيني (Michel De Montaigne) في القرن السادس عشر الميلادي، وتميّز آنذاك بالإفراط في الذاتية و الأحاديث الشخصية، و يمكن القول أنّ مونتيني هو الذي " بذر في مقالاته هذه بذور التراجم الشخصية التي استوت فيما بعد فنا قائما بذاته، له أصوله ومشتقاته. " ² و لما اشتهرت مقالاته في أوروبا بفضل الترجمة و انتقلت إلى إنجلترا، صارت على نقيض ما نشأت به، إذ تجلّى في مقالات الإنجليز انعدام " العنصر الشخصي و صور التجارب الخاصة. " ³

دخل المقال في القرن السابع عشر مرحلة جديدة ، حيث روعي في التصميم و التنسيق والحديث المرسل المستفيض، والمزج بين أسلوب مونتيني و باكون (Francis Bacon) حيث نجد " هذا الطور الذي يشمل مرحلة التأثير بمونتيني أولاً ثم به و بباكون ثانيا ... و اجتمع أثرهما فيه، فيما أبداه الكتاب من عناية بالموضوعات الأخلاقية بمعناها الواسع . على أن تعالج هذه الموضوعات في ظل الحكم الكلاسيكية السائرة، أو بالروح الكلاسيكية في الأخلاق و التأمّلات " ⁴

و في القرن الثامن عشر ، بلغ المقال من التطور مبلغا كبيرا ، و نبغ فيه ريتشارد ستيل (Richard Steel) و جوزيف أديسون (Joseph Addison) ، بفضل ما تميزوا به من موهبة ووعي، فالمقال في هذا القرن لم يتوقف عند التأمّلات الذاتية، بل تجاوزها إلى تحليل مظاهر الحياة المعاصرة، كما تغيّر أسلوبه، فأصبح إنشائيا جديدا، واستحدث طرق في العرض والتحليل، إذ عولجت مختلف القضايا بلغة أدبية فنيّة.

¹ - فنّ المقالة: مرجع سابق، ص 16.

² - المرجع نفسه: ص30.

³ - نفسه: ص 34.

⁴ - نفسه: ص 46/45.

في مطلع القرن التاسع عشر، اتّسعت دائرة اهتمام المقال بشتى المجالات وظهرت شخصية الكاتب فيه، و ازداد طوله بسبب تصميم المجالات . وأشهر رواده لي هنت (Leigh Hunt) ، و دي كونسي (De Quincey) ، و صارت كل قطعة نثرية تعتبر مقالا، سواء كان بحثا علميا قصيرا أو قطعة أدبية فنية، وفي خضمّ هذه الظروف تأثرت البلاد بأدب المقال ، بسبب الاحتكاك بالغرب عن طريق الاستشراق و الاستيطان و الترجمة .

2- ب - نشأة و تطور المقال في الأدب العربي حتى منتصف القرن العشرين :

قبل الحديث عن نشأة المقال عند العرب، نشير إلى أنه لم يكن معروفا في الجاهلية بسبب اهتمام العرب بالشعر و الخطابة و الأمثال، و هي فنون مرتبطة بالمشافهة. ويذهب الكثير من النقاد العرب إلى أن المقال ظهر في الأدب العربي مع بزوغ شمس الإسلام، إلا أنه لم يأخذ المنحى الذي كان بالإمكان أن يتطور به بسبب اعتماده على " الصنعة الثقيلة الممجوجة، في الأسلوب الإنشائي و في الصور البديعية و البيانية ."¹ و لقد عُرف هذا الفن - آنذاك - باسم الرسالة، أو الكتاب، لأنها كانت ترسل من شخص إلى آخر مكتوبة على قطعة ورقية أو رقعة جلدية.

و في العهد النبوي ، استعملت الرسالة وسيلة للتواصل بين الرسول - صلى الله عليه و سلم- و عماله، و أتبع الخلفاء الراشدون هذا المنهج في إسداء تعليماتهم و توجيهاتهم للقادة و الولاة في مجالي السياسة و الحرب، مما جعل استعمال الرسالة يتزايد بالتسارع رقعة الدولة الإسلامية جرّاء الفتوحات.

و كانت الرسالة الديوانية و الإخوانية في العصر الأموي أحسن مثال عن هذا الفنّ الذي برع فيه المتكلمون العرب، وكذلك الفقهاء إلى حدّ كبير، وتمثّلت في مقالات المناظرات و المواعظ السياسية و الدينية، و يعدّ عبد الحميد الكاتب واحدا من هؤلاء الذين بادروا بالتنظير للكتابة، بل وضع قواعد لها، و قد قيل " فتحت الرسالة بعبد الحميد ..."² و اشتهر برسائله التي وجهها إلى الكتاب حيث أوصاهم بالتفقه في الدين، و حفظ كتاب الله، و الاضطلاع باللّغة العربية، و إجادة الخطّ، و رواية الشّعْر، و الإلمام بتاريخ الأمم عربها و عجمها، و كذلك تعلّم علم

¹ - فن المقالة: مرجع سابق، ص 18 .

² - شوقي ضيف: الفنّ و مذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط.09، مصر، د.ت، ص 114.

الحساب. و هذه بحقّ شروط ومميزات كاتب المقال الناجح اليوم، الذي ينبغي أن تكون ثقافته غزيرة المادة ومتنوعة.

و من أمثلة رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي خطها بأمر من الخليفة إلى ولاة الأمصار لمنع لعبة الشطرنج التي شاعت شيوعا عظيما حتى صارت ملهية: " أما بعد فإن الله شرع دينه بانتهاج سبله، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه، وبعث رسله إلى خلقه دلالة لهم على ربوبيته... فكان فيما تقدم إليهم فيه نهي، وأعلمهم سوء عاقبته، و حذرهم إصره، و أوعز إليهم ناهيا و واعظا و زاجرا الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج، و قد بلغ أمير المؤمنين أن ناسا ممن قبلك من أهل الإسلام قد ألجهم الشيطان بها و جمعهم عليها، وألف بينهم فيها، فهم معتكفون عليها من لدن صُبْحهم إلى ممسأهم، ملهية لهم عن الصلوات، شاغلة لهم عمّا أمروا به... فأذن بذلك فيهم، و أشدّه في أسواقهم و جميع أنديةهم، وأوعز إليهم فيه، و تقدم إلى عامل شرطتك في إنكاف العقوبة لمن رفع إليه من أهل الاعتكاف عليها... و السلام."¹

و هذه الرسالة تعالج آفة اجتماعية خطيرة، أبعدت الناس عن أداء واجباتهم الدينية و الدنيوية، و زرعت فيهم الكسل والخمول بدعوى الرياضة الفكرية في لعبة الشطرنج.

و في أوائل العصر العباسي، ظهر ابن المقفع و نبغ في فنّ الرسالة لاحتكاكه بالخلفاء، و عمله في الدواوين، و لقد أُلّف (رسالة الصحابة) التي جعلها دستورا يسير عليه الخلفاء العباسيون، مقتبسا مضمونه الإصلاحية من تاريخ الفرس، في مجال النظم السياسية و الإدارية، و اعتمد في ذلك على البراهين و الحجج، و فيما يأتي فقرة من رسالة لابن المقفع في باب صحبة السلطان: " إن استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفك بصالح مروءتك، و صحّة دينك، و سلامة أمورك قبل ولايته، فافعل فأما إذا وُلّي، فكل الناس يلقاه بالتّزين و التصنّع، و كلّهم يحتال لأن يُثني عليه عنده بما ليس فيه. غير أنّ الأندال و الأردال هم أشدّ لذلك تصنعا، و أشدّ مثابرة، وفيه تمحّلا. فلا يمتنع الوالي - وإن كان بليغ الرأي و النّظر - من أن يُترل عنده كثير من الأشرار بمترلة الأخيار، و كثير من الخانة بمترلة الأمناء، و كثير من الغدرة بمترلة الأوفياء، و يُعطى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التّمحلّ و التصنع."²

¹ - حتّا الفاخوري: منتخبات الأدب العربي، منشورات المكتبة البوليسية، ط.05، بيروت، 1970، ص 133/134.

² - عبد الله بن المقفع: الأدب الكبير، دار الكتب العلمية، ط.01، بيروت، 1409هـ/1989م، ص 254/255.

يحدّر ابن المقفّع السلطان من بطانة السوء، ومن حاشية الغدر، مثلما ينصح كل إنسان تقرب من السلطان ورجال الملك والسلطة، أن لا ينافق، و أن يترع عنه التزلف والمماقفة، لأن ذلك يضعه في خانة الأندال، و لا شك أن موضوع هذه الرسالة يندرج ضمن المجالين الاجتماعي و السياسي اللذين يمثلان المقالة الذاتية في عصرنا الحديث .

و في أوج العصر الذهبي للدولة العباسية، ازدهرت فنون الأدب لا سيّما علم الكلام و الفلسفة و الأدب، فأضفى الكتاب على كتاباتهم دقة الوصف، وقوة الاستدلال، و السخرية، و تمّقوها بالمحسنات البديعية، و يُعدّ الجاحظ ممن أسهموا في ارتقاء هذا الفن، و نجد ذلك واضحا في رسالة التربيع و التدوير، والتي تُعدّ من ذخائر العرب و نفائسها، فبالإضافة إلى مضمون السخرية من شخص أحمد بن عبد الوهّاب، فإنّها تُناقش قضايا فلسفية، و علمية، و تاريخية، كما أنّ لها قيمة فنية أدبية قائمة على التهكم و السخرية اللاذعة و ذلك عن طريق المفارقات و المتناقضات و الجدل و الاحتجاج و الحوار و التصوير الكاريكاتوري الناطق و اللباقة في الحديث، و هذه الفقرة من رسالة علمية للجاحظ حول موضوع أصل العدّ:

من أوّل من عدّ إلى عشرة؟ و جعل العشرة منتهى و غاية؟ ثم ضاعفها و جعل غاية الأعداد عشرة العشرات؟ و عشرات العشرات أبدا؟ ثم كسر على العشرة مما دون أعدادها، لأنّ الأصابع عشرة؟ و كيف لم يجعل الغاية ماله نصف و ثلث و ربع و سدس و ثمن؟ أم رأى أنّ التضعيف أبدا لا يكون إلّا للعشرات و قد نجده في عشر العشرات، أم القول الأول الأشياء كلّها عشرات¹.

هذه الفقرة من الرّسالة، يبيّن فيها الكاتب خبرته في علم الحساب، و محاولته تعجيز خصمه، إذ تحدّث عن نظام العدّ بالأساس عشرة، و ربطه بعدد الأصابع، و هذا ما يجعل الرّسالة تقترب من المقالة العلمية في العصر الحديث مع الإشارة إلى ما بينهما من اختلاف.

¹ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: التربيع و التدوير، تحقيق شارل بلات، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق

و في العصر العباسي الثالث شاع كُتّاب الرسائل، و اشتهر بعضهم بالشعر و النثر معاً، كأبي الفضل محمد بن العميد، والصاحب بن عباد، و بديع الزمان الهمذاني، و أبي منصور الثعالبي، و أبي حيان التوحيدي، و قد مالت الرسائل إلى شيء من التّكلف، إلاّ أنّه " يبقى للأسلوب قوّته وبهاؤه، وجودته، لأنّ الصنعة، لم تصل فيه إلى حدّ التّكلف الممقوت."¹

و كان التوحيدي ممن اتصف بجرية التعبير و جزالة اللفظ و سعة العلم لأنه عاش في القرن الرابع هجري الذي نضجت فيه العلوم وازدهرت، ممّا جعل الكثير من النقاد يشهدون له بالريادة في فنّ الرسائل الشّديد القرب من المقالات الفلسفية العلمية، بخلاف الآخرين، وهذا جزء من رسائل أبي حيان التوحيدي حول ماهية النفس... " إنّ الكلام في النفس صعب و الباحثون عن غيبها و شهادتها و أثرها و تأثرها في أطراف متناوحة و للنظر فيهم مجال، و للوهم عليهم سلطان، و كل قد قال ما عنده بقدر قوته و لحظه، وأنا آتي بما أحفظه و أرويه، و الرأي بعد ذلك إلى العقل الناصح و البرهان الواضح .

قال بعض الفلاسفة: إذا تصفّحنا أمر النفس لحظناها تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن، لأنّ الإنسان إذا تصوّر بالعقل شيئاً فإنّه لا يتصوره بألة كما يتصور الألوان بالعين و الروائح بالأنف، فإنّ الجزء الذي فيه النفس بالبدن لا يسخن و لا يبرد و لا يستحيل من جهة إلى أخرى عند تصوّره بالعقل، فيظنّ الظانّ منا أنّ النفس لا تفعل بالبدن، لأنّ هذه الأمور ليست بجسم و لا أعراض جسمية."²

إنّ هذه الفقرة تكشف لنا سعة اطلاع الكاتب، وقدرته على توظيف المصطلحات المناسبة لموضوع هذه الرسالة مثل (العقل، البدن، النفس، الذات... و هذا يقرّبها من المقالات الموضوعية.

وفي أواخر العصر العباسي تراجعت الرسائل، و أصيبت بالضعف، و تدرجت نحو الجمود، بسبب التّكلف المقيت و الإمعان في التعقيد، الأمر الذي أنقص من قيمتها الفنية فأضحت مجرد

¹ عبد اللطيف محمد السيد الحديدي فن المقال في ضوء النقد الأدبي دار الإسلامية للطباعة و النشر، ط.03، مصر، 2003 ص 117.

² أبو حيان التوحيدي: الإمتاع و الموانسة، صحّحه و ضبطه أحمد أمين و أحمد الزين، ج 01، دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر، بيروت، د.ت، ص 198.

زخرقة لفظية وتمييق بديعي. ومن رواد الكتابة في هذه الفترة القاضي الفاضل، و عماد الدين الأصفهاني، و الحريري، الذين مالوا " إلى تميم العبارة و المبالغة في الإطراء و التأثق في الإنشاء، و الاسترسال في تزويق العبارة بأنواع البديع و الجناس"¹

و هذه الفقرة من رسالة للقاضي الفاضل إلى الخليفة ببغداد يبشر بفتح بلد من بلاد النوبة: " و لم يبق إلاّ مواقد نيران رحلت قلوبهم بضرامها، و أثافي دهمٍ أعجلت المهابة ما رد سغبهم عن طعامها، و غربان بين كأنها في الديار ما قطع من رؤوس بني حامها، و عوافي طير كانت تنتظر من أشلائهم فطر صيامها، و عادت الرّسل المنفذة لاقتفاء آثارهم، و أداء أخبارهم، ذاكرة أنّهم لبسوا اللّيل حدادا على النعمة التي خُلت، و غسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلّعت، و أنّهم طلّعوا الأوعار أوعالا، و العقاب. عقبانا، و كانوا لمهابط الأودية سيولا، و لأعالي الشجر قضبانا."²

و الملاحظ في هذه الرسالة أنّ الكاتب لفّ و دار، و أثقل هذه الرسالة التي هي في الأساس بشرى بالنصر، بالمحسنات و الصور و تكلف في انتقاء الألفاظ الصعبة الفهم، حتى كادت تفقد الرسالة هدفها.

و في عصر الانحطاط في ظلّ الحكم التركي، صارت الرسائل ضعيفة البناء، مبتذلة الأفكار، مثقلة بأنواع من المحسنات البديعية و الصور البيانية، تعكس البيئة الأدبية المتردّية التي كانت سائدة آنذاك، و تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الجمود لم يحل دون نبوغ أدباء و علماء، يعدّون من أعلام الأمة، أمثال عبد الرحمان ابن خلدون في التاريخ، و ابن بطوطة في أدب الرحلات، و جلال الدين السيوطي في التفسير، و الخطيب القزويني في البلاغة.

و في بداية العصر الحديث ظهر المقال في العالم العربي تزامنا مع ظهور المطبعة ابتداءً من القرن التاسع عشر، و سار بوتيرة بطيئة، لأنّه ورث عن الرسالة خصائصها المكبّلة، فجاء

¹ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج3، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 43.

² - حنا الفاخوري: منتخبات الأدب العربي، مرجع سابق، ص 380.

الأسلوب في تلك المرحلة "مليئا بالصنعة و البديع المتكلف كما كان موضوعها يتصل -غالبا - بالموضوعات الرسمية لشؤون الدولة و تنظيمها"¹.

لا يكاد يختلف النقاد في الحقل الأدبي على فضل رفاة الطهطاوي، الذي يُعدّ واحدا ممن أسهموا في إحداث ثورة ثقافية في العالم العربي، و من الكتّاب الأوائل الذين كان لهم دور في تأسيس الصحافة في مصر، وبعث المقالة في ثوبها الجديد بعد عودته من رحلته إلى فرنسا، والتي مكث بها بضع سنين وألّف كتابه المشهور -تخليص الإبريز في تلخيص باريز- و وصف فيه حياة الفرنسيين السياسية والاجتماعية و الثقافية، و بهذا حمل معه بذور المقالة التي بدت متأثرة أيما تأثر بالمقالة الغربية الحديثة، و تعدّ جريدة الوقائع المصرية منبرا صحفيا ضمّ أقالما أدبية سامقة، إلى جانب الطهطاوي، أمثال حسن العطار، و اسماعيل الخشاب، الذين حاولوا التخلّص من نمط الكتابة القديمة، وفتح المجال لمرحلة جديدة، اتّسمت فيما بعد بخلو المقال من البديع والبيان، واهتمام الكتّاب بقضايا المجتمع المصرية، سيما في أواخر القرن التاسع عشر، إذ كانت الأمة قد دخلت في مرحلة الوعي السياسي و" هكذا تحرّر النثر في تلك المرحلة تحرّرا كبيرا من التكلّف والسّجع، وأصبح في الغالب سهلا ومرسلا، وأصبح كتّابه يؤثرون بلاغة العبارة، و اختيار اللفظ، و سلامة التركيب، و التعبير السليم، و المعنى الصحيح"². لذلك تميّزت هذه الفترة بانتعاش الكتابة الأدبية، و بروز كتّاب و أدباء اتّخذوا من مصر و جهة لهم، و منطلقا لنشر أفكارهم في مختلف الصّحف و المجلات، كجريدة واد النيل، و جريدة الأهرام، و جريدة مصر و جريدة العروة الوثقى، و لعلّ جمال الدين الأفغاني و محمد عبده، يعدّان أبرز كتّاب هذه المرحلة، إضافة إلى نخبة من الشّباب كأديب إسحاق و إبراهيم اليازجي، و جرجي زيدان، و ولي الدين يكن، و مصطفى لطفي المنفلوطي.

و مع بداية القرن العشرين، وازدياد الوعي السياسي و الثقافي، و تنوّع الرّوافد الثقافية للأدباء و المفكرين العرب بسبب تأثرهم بالغرب، " مالت الأفكار إلى التجديد و الابتكار، و العمق و الغزارة، و الترتيب و الوضوح، و التحليل و التعليل... قد تبلور فن المقالة في صورته الناضجة

¹ فن المقال في ضوء النقد الأدبي: مرجع سابق، ص 119.

² المرجع نفسه: ص 121.

النهائية في هذا القرن، فقد ازداد الوعي بأصول المقالة، ودخلها التيار الوجداني الفني، وأصبحت تتردد بين الذاتية و الموضوعية، وأصبح الكاتب يستخدم عبارة رقيقة عذبة، أو عبارة قوية مؤثرة، تبعاً لطبيعة الموضوع الذي يتناوله.¹

وبعد الحرب العالمية الأولى، ظهر جيل اعتبر نفسه مجدداً، نابذاً كلّ قديم، فالأدب العربي القديم بالنسبة لهم لا يتماشى وروح العصر، و كذلك "أسلوبه الموشى بالسجع و غير السجع، بسبب بسيط و هو الرقي العلمي الحديث."²

و قد عارض الرافعي بشدة هذه الفكرة، فكان أحد الرواد الذين تمسكوا بالقديم، و دافعوا عنه "ومع ذلك حاول أن يقف بين القديم و الجديد، وأن يُكوّن لنفسه نهجاً خاصاً، عُرف بمذهب ((الرافعية)) و غلبت عليه نزعة القديم."³ الأمر الذي أسفر عن ظهور فئة من الأدباء، و فقت بين الاتجاهين، فحافظت على أسلوب القدماء و مزجته بأسلوب المجددين لتمثل مرحلة أخرى لفنّ المقال، الذي حمل ميزات جديدة على مستوى الشكل و المضمون، و هؤلاء المجددون " من أمثال طه حسين، و هيكل، و العقاد و المازني، كانوا يرون أن يظلّوا مع الأسلوب الفصيح الرصين الجزل، حتى يكون لأدبهم موقع حسن في الأسماع و القلوب، فهم يحرصون على الإعراب و على الألفاظ الصّحيحة، التي تُقرّها المعاجم، و هم في داخل هذا الإطار يجددون تجديداً لا يخرج بهم عن أصول العربية، إنّما يُغذيها و يُنميها، بما يُضيفون من نماذج و فكر جديد."⁴

إنّ ما طرأ على الأمة من أحداث و مستجدّات في شتى مجالات الحياة، فسحت المجال و اسعا للكاتب لمخاطبة الناس مباشرة، قصد توعيتهم بقضايا وطنهم، و شؤون دينهم، و أمور حياتهم، و لقد أسهم انتشار المطابع في الوطن العربي في ذبوع المقال بين أوساط الجماهير، و بفضل الصحافة استطاعت المقالة أن تتبوأ مكانة لا يُستهان بها في منظومة التغيير و الإصلاح

¹ - المرجع السابق: ص 123.

² - شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، ط. 10، القاهرة، 1992، ص 191.

³ - حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، 1986، ص 310.

⁴ - المرجع نفسه: ص 192.

الاجتماعي والتربوي، مثلما أسهمت في نموّ الوعي السياسي، فظهرت حركات التحرّر من الاحتلال الأجنبي في منتصف القرن العشرين.

3-أنواع المقال:

يمكن تقسيم المقال إلى ذاتي و موضوعي إذا رُعي في التقسيم مقدار توظيف الكاتب لأحاسيسه، و آرائه الخاصة، ويمكن تقسيمه إلى أدبي وصحفي حسب الغاية منه، والأسلوب المستعمل فيه، فالمقال الأدبي تكون فيه غاية الكاتب جمالية، ويكون صحفيا إذا كان غايته الإخبار، و يتجلى الفرق بينهما من خلال الأسلوب الموظف.

أنواع المقال من حيث الموضوع المعالج:

3-أ- المقال الذاتي:

وهو المقال الذي تظهر فيه شخصية الكاتب " القوية أمرّة، تشدّ انتباه القارئ، لما فيها من عاطفة مشحونة، و انفعال قوي، ويعتمد المقال الذاتي على أسلوب يتدفّق بالموسيقى والإيقاع الذي يترجم الفكرة، كما يعتمد على التصوير الخيالي الذي ينبع من وجدان الكاتب.¹ و بهذا ينجح الكاتب في التعبير عن مكونات نفسه، معتمدا على عواطفه الجياشة و خيالاته الفيّاضة، بغية التأثير على القارئ بشتى أنواع الانفعال، من حزن وفرح، وكثيرا ما يؤدّي هذا الانسياق نحو أغوار النفس إلى اكتشاف القارئ ثانيا شخصية الكاتب، وخلفيته الثقافية، و من ثمّ توجهاته الفكرية الإيديولوجية، و ينقسم المقال الذاتي بدوره حسب مضمونه إلى أقسام منها :

3-ب-المقال الاجتماعي:

يهدف المقال الاجتماعي إلى معالجة المشكلات التي يعيشها المجتمع كالأفات الاجتماعية، و مشاكل الأسرة، والعلاقات بين أفرادها، ومحاولة إصلاحها، وإيجاد الحلول المناسبة لها، ويتميز هذا النوع "بالوجدانية الصادقة، التي تعبّر عن شعور الكاتب الجماعي، فهو في مقالاته الاجتماعية

¹ عبد العاطي شليبي: فن النثر الحديث، ج01، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ص 02.

لا يعبر عن شعوره فحسب، بل يعبر كذلك عن شعور أفراد مجتمعه، فيشاركهم معاناتهم، وبؤسهم، وشقاءهم في ظلّ ما يسود المجتمع من أوضاع اجتماعية سيئة.¹

فالمقال الاجتماعي إذن اقترب في موضوعاته من حياة الشعب، وقضاياه المتنوعة، فكان ميدانا مفتوحا لعرض أفكار الكاتب وآرائه. لذلك أولى كتّاب المقالة في العصر الحديث عناية خاصة لهذا النوع من المقال، وعيا منهم بواجبهم تجاه قضايا مجتمعهم، بوصفهم مثقفين، وهو شكل من أشكال الالتزام، والمشاركة في إصلاح الأوضاع الاجتماعية لأبناء مجتمعهم. ويستمد المقال الاجتماعي موضوعاته من الحياة العامة للناس، المتخمة بالمشاكل المختلفة، كالفقر، والجهل، والتفكك العائلي، وقضايا المرأة، فيحلّل الكاتب أسبابها، ويبحث لها عن حلول.

ويتميّز المقال الاجتماعي بوضوح الفكرة، والمناقشة الهادئة، وربط الأسباب بمسبباتها، واقتراح الحلول المناسبة، وذلك بالاعتماد على الأدلة المنطقية، والشواهد الواقعية، والاهتمام بالمعنى، وجمال الأسلوب بالقدر الذي يخدم الفكرة و يوضحها في ذهن القارئ، ولا بأس أن يبدأ الكاتب مقالته الاجتماعية بالنداء أو الرجاء أو التمني ويتوقّف ذلك على طبيعة الموضوع المعالج. ومثال ذلك مقال للشيخ البشير الإبراهيمي حول الشباب، وما يُرتجى منهم، يقول الكاتب: " الشباب في كل أمة هم الدم الجديد الضامن لحياقتها واستمرار وجودها، وهم الامتداد الصحيح لتاريخها، وهم الورثة الحافظون لمآثرها، وهم المصحّحون لأغلاطها وأوضاعها المنحرفة، وهم الحاملون لخصائصها إلى من بعدهم من الأجيال.

كنا شبابا فلما شينا تلفتنا إلى الماضي حيننا إلى الشبيبة، فرأينا أنّ الشباب هو الحياة التي لم يدرك قيمتها إلاّ من فارقها، ورأينا أخطاء الشباب من حيث لا يمكن تداركها. وسيصبح شباب اليوم شيوخ الغد، فيشعرون بما نشعر به نحن اليوم، وليت شعري إذا كان شيوخ اليوم هم شباب الأمس، وشباب اليوم هم شيوخ الغد، فعلام هذه الشكوى المتردّدة بين الفريقين؟... وهذا التلاوم المتبادل بين الحبيين؟. يشكو الشيوخ نزع الشباب وعقولهم ونزواتهم الكافرة، ويشكو الشباب بطء الشيوخ وتردّدهم وتراجعهم إلى الوراء ونظرهم إلى الحياة نظرة الارتياب.

¹ فن المقال في ضوء النقد الأدبي: مرجع سابق، ص 29.

مهلاً أيها المتقاربان المتباعدان، فليس التفاوت بينكما كسبياً يعالج، وليس النزاع بينكما علمياً يحكم فيه الدليل. ولكنه سنّة وتطور، كنّا حيث أنتم، وستصبحون حيث نحن بلا لوم ولا عتاب، هما مرحلتان في الحياة ثم لا تالفة لهما، طوبيناها كرها، وستطوونها كرها، والحياة قصيرة وهي أقصر من أن نقطعها بنوم. ليحرص الشباب على أن يكونوا كاملاً في أمّتهم لا نقصاً، وأن يكونوا زينا لهم لا شينا، وأن يضيفوا إلى تليد مكارمها طريفاً، وإلى قديم محاسنها جديداً وأن يمحووا كل سيئة لسلفهم بحسنة.¹

وتمثل هذه الفقرة مقطعا من مقال اجتماعي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي، تناول فيه الصّراع بين جيل الشباب وجيل الشيوخ، وهو صراع قديم، يرى الكاتب أنّه طبيعي، فلكلّ عصر رجاله، وشيوخ اليوم هم شباب الأمس، مثلما سيصبح شباب اليوم شيوخ الغدّ، تبعاً لسنّة الحياة والتّطور، بيد أنّ الكاتب فكرة مهمّة مفصليّة، وهي أنّه ينبغي على الشّباب أن يضيفوا لأمّتهم ما يُكلّل تاجها من صالح الأعمال، وأن يتحلّوا بمكارم الأخلاق وفضائلها، وأن يتسلّحوا بسلاح العلم.

فإذا تأملنا مضمون النص نجد الكاتب قد أبان عن فكرته، وهي واجب الشباب نحو أمّتهم ووطنهم ومجتمعهم، فوضّح المسؤولية الملقاة على عاتقهم، بعيداً عن المناقشات الفارغة حول الصّراع القائم بين الجيلين، معتمداً على أسلوب بليغ مُتأنّق، غير أنّه مفهوم وسهل، مستعملاً أدلّة واقعية بهدف إقناع جمهور القراء، وفئة الشباب على وجه الخصوص.

03-ج/ المقال الوصفي :

هو ذلك المقال الذي يعرض فيه الكاتب وصفا ذاتيا لبعض مشاهد الطبيعة، ومظاهر الحياة، من خلال أحاسيسه ومشاعره، و عاطفته الخاصة، برؤية وانطباع شخصيين بغرض امتناع القارئ، ولو تأملنا فكرة المقال الوصفي نجد أنّ قيمتها الحقيقية تعتمد " على دقّة الملاحظة، و على التعاطف العميق مع الطبيعة، الذي لا يحوّ إلى عاطفة مسرفة، ثم على الوصف الرشيق

¹ نشرت في مجلة (المسلمون) السنة الثالثة عدد9 ذو القعدة 1373هـ.

المعبر، الذي ينقل أحاسيس الكاتب و صورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه بصدق و إخلاص.¹

و هذا النص جزء من مقال وصفي لمصطفى صادق الرافعي موضوعه وصف الطبيعة، يقول الكاتب: " يقف الشاعر بإزاء جمال الطبيعة، فلا يملك إلا أن يتدفق، و يهتز، و يطرب، لأنّ السرّ الذي انبثق هنا في الأرض يريد أن ينبثق هناك في النفس، والشاعر نبي هذه الديانة الرقيقة، التي من شريعتها إصلاح الناس بالجمال والخير. و كلّ حسن يلتمس النظرة الحيّة التي تراه جميلا لتعطيه معناه.

و بهذا تقف الطبيعة مختلفة أمام الشاعر كوقوف المرأة الحسنة أمام المصور... ما أعجب سرّ الحياة ! كلّ شجرة في الربيع جمال هندسي مستقلّ، و مهما قطعت منها و غيرت من شكلها أبرزتها الحياة في جمال هندسي جديد كأنك أصلحتها. ولو لم يبق منها إلا جذر حيّ أسرع الحياة فجعلت له شكلا من غصون و أوراق. الحياة... الحياة.. إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائما هداياها.²

لم يستطع الكاتب كبح جماح عواطفه، وإعجابه بالطبيعة التي سحرت لُبّه، فأضحى يهذي بجمالها وشرعتها الممجّدة لسرّ الحياة، وبهذا يمكن القول أنّ ما يميز المقال الوصفي هو تفاعل الكاتب دون أن ينحو منحى البحث العلمي المبني على التحليل والتعليل والتفسير.

03/د المقال التأملي :

يعتمد هذا النوع من المقال على التأمّل في مشكلات الحياة، وذلك مثلا بعرض مآسي البشر، و ضراوة صراعاتهم من أجل البقاء والاستمرار في زحمة الحياة، بالإضافة إلى المسائل الكونية كالحياة و الموت و الوجود والعدم، فهذه القطعة من النثر تسرف في الذاتية في تناول هذه المشكلات و "تحاول أن تدرسها درسا لا يتقيّد بمنهج الفلسفة و نظمها المنطقي الخاص، بل تكتفي بوجهة نظر الكاتب و تفسيره الخاص للظواهر التي تحيط بها"³.

¹ - فنّ المقالة: مرجع سابق، ص 114.

² - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، راجعه درويش الجويدي، ج 01، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ص 31.

³ - فنّ المقالة: مرجع سابق، ص 118.

و يتطلب هذا النوع من المقالات من الكاتب أن يتعمق في الموضوع حتى يُشعر القارئ بالحقيقة كما يراها هو في الواقع، بعيد عما يخدم من زخرف المادة و بريقها. وهذه الفقرة نموذج لجزء من المقالة التأملية عنوانها "مناجاة" للكاتب المهجري مخايل نعيمة، يقول صاحب الغربال: "يا ناشر الليل من كبد النهار، ومُضرمِ النهار من محاجر الليل، طال ليلُ نشرته فوق أرض حسيرة عشواء - طال وادلهمّ وتغضّن وترهّل، ولكنه ما شاخ بعدُ ولا ابيضّ فوداه. وبنو الأرض يدأبون في غضونه ويكدحون كما تدأب المناجد وتكدح في غياهب التراب... يكدحون ويدأبون، إلا أنّهم حيث يبدؤون ينتهون... يزرعون ويحصّدون، وفي الأهراء يجزنون، ولكنهم أبداً جياح وأبداً معوزون... من حشاشة الأرض يأكلون، ومن ماقي المزن يشربون، ولكنهم في غصّة دائمة بما يأكلون وبما يشربون، يتزاوجون ويتناسلون، وأبداً عن سنّدٍ وعونٍ يبحثون.

يتخاطبون ويتكاتبون، فما يتعارفون ولا يتفاهمون.. يتنازعون على أردان الليل وأذياه، فيمزّقون لحومهم بأظفارهم، ويسحنون عظامهم بأضراسهم، وبغير تُنفٍ من جلايبب ليلهم لا يظفرون.¹

فحينما نقرأ هذه الفقرة نحس بجزن الكاتب العميق لما يعاينه البشر من بؤس وشقاء، لا سيّما زمن الاستعمار والاحتلال الأجنبي، الذي تجسّدت فيه معاني استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، واستعباده.

04/هـ- المقال التأبيني :

هو مقال يرثى فيه الكاتب شخصا عزيزا عليه وافته المنية، فيذكر خصاله وصفاته الحميدة ومحاسن أعماله بأسلوب حسّاس نابع من قلب حزين و صادق، وعادة ما يُختتم بالرضا بقضاء الله و قدره، وتوديع المتوفى والدعاء له بالرحمة. وفي مايلي نص من مقال لرثاء أب لابنه: "الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني، وعدت إلى متري كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب، لا أملك إلا دمعة لا أستطيع إرسالها، وزفرة لا أستطيع تصعيدها، ذلك لأنّ الله كتب

¹ - مخايل نعيمة: البيادر، دار نوفل للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص 130/129.

لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك، فرزقني بك قبل أن أسأله إيّاك، ثمّ استلبك قبل أن استعفيه منك، قد أراد أن يتمّ قضاءه فيّ، وأن يجرعني الكأس حتى ثمّلتها .. فله الحمد راضيا وغاضبا، وله الثناء مُنعما وسالبا، وله مني ما يشاء من الرّضا بقضائه، والصبر على بلائه..¹ المقال يفيض حزنا ولوعة من الأب الرّائي على فراق فلذة كبده، غير أنّه راض بقضاء الله و قدره بإيمان وصبر.

03/و - المقال الديني :

يتناول المقال الديني كل ما يتعلق بالدين سواء بتعليم الناس أمور دينهم، أو بمحاربة الانحرافات و البدع التي يسقطون فيها، إما جهلا أو عمدا، ومن ثمّ محاولة إصلاحها استنادا لرأي علماء الشريعة الموثوق بعلمهم، " ولهذا فإنّ أهم ما يجب أن يتوفر فيه الصّدق في العاطفة، ودقّة التّصوير، وإقامة الدليل على الفكرة، والسّلامة في التعبير، حتى يتمكن لأي قارئ التّأثر به، وإدراك أبعاده."² وهذا يتطلّب من الكاتب أن يكون ملماً بالمسائل الشرعية المختلفة، وأقوال العلماء المعتمدة على مصادر الدين كالقرآن والسنة، كي لا يقع في الشبهات فيصحّ الخطأ بآخر، ويحدث به فتنة لا تحبو، ويستعمل فيه الكاتب لغة مفهومة، بعيدة عن التعقيد كونه يوجه رسالته لمختلف شرائح المجتمع، مستعينا بآيات وأحاديث وأقوال مأثورة، يستشهد بها لبيان الرأي السّديد في القضية التي يعالجها.

وفي ما يأتي فقرة من مقال ديني يبرز حكمة الصوم في الإسلام، و ينبذ الإسراف في المأكل و المشرب الذي ينافي هذه الحكمة " إنّ هذا الاستعداد المتناهي الذي يستعدّه مسلمو اليوم لرمضان بالتّفنّن والاستكثار من المطاعم و المشارب، مخالف لأوامر الدين، مناف لحفظ الصّحة في طعامهم و شراهم، مناقض لقواعد الاقتصاد، ولو كان هؤلاء متأدّبين بأداب الدين لاقتصروا على المعتاد المعروف في طعامهم و شراهم، وأنفقوا الزّائد في طرق البرّ و الإحسان التي تناسب رمضان ... و لو فعل الأغنياء و المسرفون ذلك لأضافوا إلى قرابة الصوم قرابة أخرى ذات قيمة

¹ - مصطفى لطفي المنفلوطي: التّظرات، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1991، ص 60.

² - فنّ المقال في ضوء التّقدي الأدبي: مرجع سابق، ص 42.

عظيمة عند الله، وهي الإحسان إلى المعدمين.¹ و نرى في هذه الفقرة قوة حجة الكاتب، و بعد نظره في حكمة الصيام، ألا وهي استشعار الغني لجوع الفقير و إحساسه بمعاناته خلال أيام السنة كلها، فيدفعه ذلك إلى الجود له بالصدقات و المعونات .

03/ز- المقال السياسي

هو المقال الذي يعبر فيه صاحبه عن مشاعره و أحاسيسه تجاه وطنه، بهدف إيقاظ الشعوب من غفلتها لمواجهة الوضع السياسي الراهن، فيتحدث عن ممارسات نظام الحكم مثلا، ودور الأحزاب السياسية في نقده، و يمكن للكاتب في بعض الأحيان أن يوجه رسالته إلى الحاكم مباشرة ليصله برعيته من أجل أن حل مشاكلهم. و لما كانت العبرة في التأثير - إذ ليس كل من يكتب في السياسة يُسمع له - فإن المقال السياسي يتطلب " نوعية خاصة من العاطفة الوطنية الصادقة، والمضمون الوطني الحماسي الذي من شأنه أن يستنهض الهمم، و يؤكد الرأي الذي يميل إليه كاتب المقالة، ويدعو إلى الإصلاح السياسي، ويشيد بالاستقرار السياسي."²

ويتميز المقال السياسي بالبعد عن التكلف، وذلك باستعمال ألفاظ سهلة من أجل توضيح الفكرة للمتلقي، وإثارة حماسه، واستثارة عاطفته، فيغلب الكاتب فكرته مستندا إلى براهين و شواهد تاريخية، و قد كتب في هذا النوع الكثير من الكتاب العرب، لأن أغلب البلدان العربية كانت خاضعة للمحتل الغاصب، فكانت المقالة السياسية وسيلة من وسائل المقاومة بالقلم والكلمة، وقد اضطلعت بمهمة نشر الوعي السياسي لدى الشعوب المضطهدة، وأسهمت بدور كبير في معركة التحرر والاستقلال.

ومن أمثلة المقالات السياسية مقال للشيخ البشير الإبراهيمي، يتحدث فيه عن التدخل السافر من طرف الاستعمار الفرنسي في شؤون الجزائريين حتى ما تعلق منه بشعائهم الدينية، يقول الإبراهيمي: ".هلم إلى الدين تجد الاستعمار الذي كفر بالأديان يقول لك بصريح القول والعمل: أنا أحقّ منك بالتصرف في دينك، فلا تدخل المسجد إلا بإذني ولا تصلي إلا وراء إمامي، ولا تحج إلا برخصتي، ولا تصم إلا على رؤيتي، ولا ترك إلا بعد استشارتي، ولا تضع

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 575.

² - فنّ المقال في ضوء النقد الأدبي: مرجع سابق، ص 39.

زكاتك إلا حيث أريد لا حيث تريد، ومعنى هذا كله نسخ آية من القرآن بآية من وحي الشيطان، ولم يبق إلا أن تتلوها كما يريد (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للاستعمار)¹ وكذب الشيطان الرجيم، وأفك الاستعمار الذميمة².

02/03- المقال الموضوعي :

هو المقال الذي يحاول فيه الكاتب إخفاء شخصيته وأرائه الخاصة، وعاطفته الوجدانية، إذ يتناول الموضوع بعيدا عن أحاسيسه ومشاعره، فهو يلتزم بمنهج علمي مبني على معطيات و معلومات علمية دقيقة، يعالجها بصورة منطقية متسلسلة. فهو إذا مقالة " بين محتواها و بين كاتبها صلة موضوعية."³ وتتميز لغة المقال الموضوعي بالتعابير البسيطة، والعبارات السهلة، والمصطلحات الملائمة للموضوع، مع الابتعاد عن استعمال المحسنات البديعية، و الصور البيانية، كي يتجنب الكاتب كل ما يشغل القارئ عن الموضوع من إيقاع موسيقي وخيال، قد يفقده التركيز في المعلومات الواردة. و قد يرى البعض أن خلوّ المقال الموضوعي من الوجدان يجعله بحثا علميا جافا، فلا يُقبل الناس على قراءته، فيعمدون إلى التقرب من " منهج المقالة الذاتية، وذلك بما يحاولونه من إبراز شخصياتهم، وتأثراتهم الخاصة في الموضوع الذي يكتبون، إلا أن الغالب عليها، هو منهج البحث العلمي وما يقتضيه من جمع المادة و ترتيبها و تنسيقها."⁴ لأنّ الهدف منها هو نقل الحقائق العلمية كما هي في الواقع. و أنواع المقال الموضوعي عديدة منها :

03-02/أ - المقال الفكري :

المقال الفكري هو كلّ مقال يعنى بشؤون الفكر في ميادين الفلسفة والدين بالبحث، و التحليل، والتفسير. و على هذا يمكن القول إنّ عمل كاتب المقال الفكري غاية في الدقة و الصعوبة، إذ يتوجّب عليه أن يكون واسع الإطلاع على الموضوع، عالما بكل حيثياته، وآراء الباحثين حوله. وعلى الكاتب " أن ينقّب عن الأسس الحقيقية للموضوع، وأن ينظر إليها نظرة

¹ يقول عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنعام- الآية 162.

² عيون البصائر: مرجع سابق- ص403.

³ فنّ المقال في ضوء النقد الأدبي: مرجع سابق، ص 54.

⁴ فنّ المقالة: مرجع سابق، ص 132.

إنسانية حتى لا تندثر قيمة مقالته بتقدم العقل الإنساني، وتجدد مكتشفاته النظرية، وعليه أن يعرض مادته بدقة ووضوح، حتى لا يضلّ القارئ سبيله في شعاب هذا الموضوع الشائك.¹

ويُعدّ العقاد أحد رواد المقال الفكري، وقد اخترت هذه الفقرة من مقال كتبه حول الاشتراكية و مستقبلها في مصر، يقول الكاتب: "ونحن على أيقن اليقين أنّ الإنجليز والأمريكيين يقيمون إنصاف الطبقات اليوم على أساس عدل، و أبقى من الأساس الذي يقام عليه في بلاد الشيوعيين، ولولا أن نبوءات الغيب مجازفة لا يضبطها الحساب في كل حين لقلنا إنّ روسيا ستكون بعد عشرين أو ثلاثين سنة أقلّ البلاد الاشتراكية في القارة الأوروبية، لأنها ستحتاج إلى خلق الطبقات التي أخذت منذ اليوم تتدرب على التعاون في الأقطار الأخرى، و ستحتاج أن تتعلم من تلك الأقطار دروسا في الوعي الاجتماعي الجديد بعد أن قصرته على طبقة واحدة تحارب كل من عاها... هذه الاشتراكية الديمقراطية نتمناها لمصر و لا نخاف عليها منها... أما الاشتراكية الشيوعية فلا نرى من دلائل الحاضر أن بلادنا سائرة إليها الآن."²

قارئ هذا المقال يلمس إحاطة الكاتب بالفكر الشيوعي و آثاره السلبية على المجتمعات التي تبنت الاشتراكية منهجا اقتصاديا وسياسيا، إذ نراه ينتقد هذا المنهج و يحذر مصر منه و من تأثيراته على المدى البعيد، وقد أثبت التاريخ صواب رأي العقاد حول موضوع الشيوعية الروسية التي تهاوت كأوراق الخريف.

02/03- ب - المقال التاريخي :

هو مقال يجمع فيه الكاتب الأخبار و الروايات التاريخية عن شخصية أو حدث ما، و يقوم بفحصها وتفسيرها وتدقيقها، مستندا إلى أقوال المؤرخين، فهو مقالة "تتناول أحداث التاريخ بالعرض، أو تعرض لشخصيات تاريخية بالوصف."³ ويتميّز المقال التاريخي بكونه أكثر مصداقية كلما جمع فيه أكبر كمّ من الحقائق في زمن الأحداث والأشخاص والظروف المؤثرة. كما لا يُغفل الكاتب عن تمحيص وغرلة كلّ ما يجمعه قصد التحليل الموضوعي، الذي يجب

¹ - المرجع السابق: ص 132.

² - عباس محمود العقاد: يسألونك، دار الكتاب العربي، ط.02، بيروت، د.ت، ص 214/215.

³ - فنّ المقال في ضوء النقد الأدبي: مرجع سابق، ص 56.

أن تحتفي فيه شخصية الكاتب تماشيا مع روح البحث العلمي التي من أوجب واجباتها التحلي بالموضوعية، لا سيما إذا كان الباحث يدرس الظاهرة التاريخية.

وهذا النص مثال عن مقال تاريخي عنونه صاحبه (العلاقة التاريخية بين الزواوة وتلمسان): "بني السلطان الحمادي الناصر بن علناس مدينة بجاية (الناصرية) بعد انتقاله من قلعة بني حمّاد بالمسيلة إلى بلاد الزواوة (القبائل)، وكان ذلك في القرن الحادي عشر الميلادي، وحوّلها إلى منارة علمية، قصدها العلماء من كل حذب وصوب، خاصة من الأندلس وشمال إفريقيا، وأوروبا. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر العلامة عبد الرحمن بن خلدون، والصوفي محي الدين بن عربي، والعارف بالله سيدي بومدين شعيب، وابن تومرت، وعبد المؤمن بن علي (مؤسس الدولة الموحدية)، والشاعر بن حمديس الصقلي، والكثير من الرحالة، كالإدريسي وابن بطوطة، والعالم الرياضي الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي leonardo fibonacci، والفيلسوف الإسباني ريمو لول rymond lulle. كما اشتهرت بقصورها الرائعة كقصر اللؤلؤة، وقصر الكوكب، وقصر أميمون، ومدارسها العديدة، أشهرها مدرسة جامع قسبة المدينة التي أنشأها الموحدون، ودرس بها العلامة ابن خلدون.¹ ويظهر جليا حرص الكاتب على تقديم صورة واضحة عن تاريخ مدينة بجاية بسرد معلومات تاريخية عنها، وذكر أهم الشخصيات التي زارتها إبان مرحلة ازدهارها و تألقها بين الحواضر .

02/03 ج- المقال العلمي:

هو مقال يتناول موضوعا علميا قد يكون المقصود منه تقديم ابتكار جديد، و تحديد معلومات، أو دراسة و تحليل ظاهرة أو حل مشكلة علمية، و يقوم الكاتب بعرض "نظرية من نظريات العلم أو مشكلة من مشكلاته عرضا موضوعيا بحثا، وهذا شأن العلماء المختصين أو عرضا موضوعيا يمتزج مع بعض عناصر الذات، و هذا شأن العلماء الذين يحاولون تبسيط العلوم و إذاعتها بين عامة القراء."² ويتميز المقال العلمي بخلوه من عنصر العاطفة، لأنه نابع من تجارب علمية، فلا ينمّقها بالمحسنات البديعية ولا بالصّور البيانية التي قد تفقده المصدقية،

¹ أرزقي فرّاد: العلاقة التاريخية بين الزواوة وتلمسان، الشروق اليومي، العدد 3260 - 11 أبريل 2011.

² فنّ المقالة: مرجع سابق، ص 133.

لذا يستعمل لغة سهلة ودقيقة و محدّدة، وتغلب عليها المصطلحات العلمية، و عادة ما يدعم الكاتب مقاله بالعلاقات المنطقية، و الجداول الإحصائية، والرسومات البيانية .

و من نماذج المقالات العلمية ها النص الذي يتحدث عن سر إصدار الحشرات طيننا عندما تطير، يقول الكاتب: "لماذا يصدر الطين عند الحشرات ؟ في أكثر الحالات لا تملك الحشرات مطلقا أعضاء خاصة تحدث الطين، ولا يسمع الطين إلا عند الطيران، وهذا الأمر يعود إلى أن الحشرات عند طيرانها تخفق بأجنحتها عدّة مئات المرّات في الثانية الواحدة، و بذلك يكون الجناح الصغير للحشرة عبارة عن صفيحة متذبذبة، ونحن نعلم أن كلّ صفيحة سريعة الذبذبة (أكثر من 16 ذبذبة في الثانية)، تحدث نغمة ذات درجة معينة، و الآن سيعلم القارئ كيف تمّ تحديد عدد خفقات جناح هذه الحشرة أو تلك في الثانية الواحدة عند طيرانها في الجو، للقيام بذلك يكفي أن نحدد بأذاننا درجة النغم الصادر عن تلك الحشرة فقط، لأن لكل نغم ما يلائمه من تردد ذبذبات." ¹ ونلاحظ أن المقال يفتقر إلى عنصر الخيال، ويعتمد على حقائق علمية كثيرة خاصة الفيزيائية، إذ يشرح الكاتب بدقّة وفق منهج علمي سبب صدور الطين عندما تطير الحشرة، و بهذا أزال اعتقاد الناس أن مصدر الصوت هو الحشرة بينما هو حركة جناحها عند سرعة معيّنة.

02/03/د- المقال النقدي :

و هو مقال يعرض و يحلّل ثم يُقيّم أي عمل أدبي أو علمي أو فني، بهدف توعية القارئ بأهمية هذا الإنتاج و من ثم مساعدته في اختيار ما يقرأه أو يشاهده أو يسمعه فهو إذا مقالة " تنظر إلى محاسن العمل الأدبي و مساوئه، فتحلّ ذلك حيث يكون، وتقبل الجيد و تحييه، و تبدي ماأخذها على الهزيل و الضّعيف." ² و يتميز المقال النقدي بالمستوى الثقافي العالي ، إذ يجب على القارئ أن يملك ثقافة و دراية في الفن الذي يعالجه المقال، و يحرص فيه الكاتب على انتقاء ألفاظ دقيقة، و بصوغها بصياغة قويّة لكي تخدم فكرته و توضحها، ثم إنّ الأسلوب يجب

¹ - ياكوف برلمان: الفيزياء المسلمية، ترجمة داود سليمان المنير، ج.01، ط.03، دار مير للطباعة والنشر، موسكو، 1977.

² - فنّ المقال في ضوء النّقد الأدبي: مرجع سابق، ص 57.

أن يكون " مرسلا، سهل التركيب، دقيق التعبير، معنياً بتوضيح الفكرة، و إبراز جمال التصوير.¹

وهذه الفقرة تمثل جزءاً من مقال نقدي، يقول الكاتب : " قرأت للأديب (صدقي) مقاله في الهواء الطلق و استوقفتني منه إشارته إلى الفرق بين عبارات الإفهام و عبارات المشاعر و أراه عل صواب بين في هذه التفرقة، فإنه مما لا يقبل الجدل أن للعمليات و ما نحا نحوها أساليب، تختلف عن أساليب الشعرية و ما يخرج من ينبوعها، ويتولد من معدنها، ولكل منهما نمط من القول لا يساغ ولا يصلح في سواه، وهذا الذي أردت إجمال الكلام عليه في هذه الكلمة...² و نلاحظ أن الكاتب قد أيد ما ذهب إليه صاحب مقال سابق تحدث فيه عن موضوع في النقد الأدبي، يعالج الوضوح و الغموض في الأساليب الشعرية .

أنواع المقال من حيث الأسلوب والغاية:

إنّ أيّ مثقف يقرأ مقالا في صحيفة أو مجلّة لا بدّ أن يتساءل: هل المقال الذي فرغ من قراءته أدبي أم صحفي؟ للإجابة على هذا السؤال نعقد مقارنة بين لغة الكتابة الأدبية، ولغة الكتابة الصحفية، وكذا الهدف الذي يتوخاه الكاتب من وراء مقاله.

01- المقال الأدبي:

المقال الأدبي " تعبير فني صادق عن تجارب الكاتب الخاصة، والرواسب التي تتركها انعكاسات الحياة في نفسه، وهي في أحسن حالاتها ضرب من الحديث الشخصي الأليف، والثرثرة والمسامرة، والاعتراف والبوح. ولكنها تمتاز إلى جانب ذلك بروعة المفاجأة، وتوقد الذكاء، وتألّق الفكاهة، ولا تخلو من السخرية الناعمة أو الحادة، تبعا لاتّجاه الكاتب وألوان شخصيته.³

¹ - المرجع السابق: ص 58/59.

² - عباس محمود العقاد: الفصول، دار المعارف، القاهرة، 1986، ص 73.

³ - فنّ المقالة: مرجع سابق، ص 102.

ويتميّز المقال الأدبي بعدة خصائص أهمها:

- التنوع في الأسلوب بين الخبر والإنشاء.
- توظيف البيان والبديع، ممّا يضيف على المقالة نغما موسيقيا وسحرا بيانيا.
- تجنّب استعمال لغة المصطلحات والأرقام والإحصاءات.
- الإيجاز والرّمز والابتعاد عن التّفصيل المملّ، واللغة المبتذلة. ذلك أنّ كاتب المقال الأدبي يهدف إلى " أغراض جماليّة، ويتوخّى درجة عالية من جمال التّعبير، كما يتوخّاها الأديب الذي يرى الجمال غاية في ذاته، وغرضا يسعى إلى تحقيقه.¹"

إنّ الحكم على المقال بوصفه مقالا أدبيّا لا يعني أبدا أنّه يقتصر على الأدب بمفهومه الفنّي فحسب، وأنّه يُهمل شؤون الحياة الأخرى، كالسياسة و الدين و التاريخ و الفلسفة و الطبيعة و المجتمع و غيرها، "على أنّ هذه الموضوعات في المقال الأدبي لا تخرج عن كونها نقطة للارتكاز ينفذ منها الكاتب نحو هدفه الأسمى وهو التأثير الجمالي²

وقد اشتهر مصطفى صادق الرافعي في المقال الأدبي، إذ تميّز بأسلوبه الرّاقى، ولغته الفصيحة، وهذه فقرة من مقال له حول مناسبة العيد، ومعانيه السّامية: " ما أشدّ حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهما جديدا، نلقّاها به، و نأخذها من ناحيته فتجيب آيامنا سعيدة عاملة تنبّه فينا أوصافها القويّة، وتجدد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيا الآن كاحلة عاطلة، ممسوحة من المعنى، أكبر عملها تجديد الثياب، وتحديد الفراغ، وزيادة ابتسامه على التّفاق، فالعيد إنّما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليوم نفسه، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم، كان العيد في الاسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبح عيد الفكرة العابثة، و كانت عبادة الفكرة جمعها الأمّة في إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمّة على تقليد بغير حقيقة، له مظهر المنفعة و ليس له معناها، كان العيد إثبات الأمّة وجودها الروحاني

¹ عبد العزيز شرف: فنّ المقال الصحفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 23.

² المرجع نفسه: ص 24.

في أجمل معانيه، فأصبح إثبات الأمة و جودها الحيواني في أكثر معانيه، وكان يوم استرواح من جدّها، فعاد يوم استراحة الضّعف من ذلك، وكان يوم المبدأ، فرجع يوم المادّة.¹

عاج الكاتب سوء فهم المسلمين لمعنى العيد ولمغزاه الحقيقي، الذي يتمثل في الاتحاد والتعاقد فاستعمل أسلوبا جذابا، يمزج بين الخبر والإنشاء، بين البديع و البيان دون إفراط، و اعتمد على الإيجاز لإيصال الفكرة بكل سهولة.

02/ المقال الصحفي:

هو الكتابة الفنية التي تتيح للمحرر الصحفي -استنادا إلى فكر متميز ومن خلال قيامه بمسؤوليات وظيفته- تسجيل الأحداث المهمة الحالية والمتجددة، ونقل الوقائع و التفاصيل والصّور الظاهرة والخفية، وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة، وتبني الظواهر والأنشطة والمشكلات المختلفة².

فالمقال الصحفي يتطرق إلى حدث ما في مختلف المجالات السياسية، أو الثقافية، أو الدينية، أو الرياضية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، وينشر في مطبوعة صحفية: يومية أو دورية (أسبوعية، شهرية، سنوية) يحررها الكاتب بلغة بسيطة ومفهومة، يخاطب بها المتخصصين وغير المتخصصين، وعلى هذا المفهوم يمكن رصد أهم خصائص المقالة الصحفية في ما يلي:

-اللغة المفهومة و الأسلوب الواضح البعيد عن التعقيد "وقد يتزل المقال الصحفي إلى أن يكون قريبا من العامية في التحرير، وذلك في المجالات والصحف التي تؤثر أن تصطنع أقرب لغة إلى الإفهام"³.

- القدرة علي تحليل القصايا و الموضوعات و نفذ جوانب منها .

¹ - وحي القلم: مرجع سابق، ص 27.

² - عبد الجواد سعيد ربيع: فنّ الخبر الصحفي دراسة نظرية وتطبيقية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص 16.

³ - فنّ المقال في ضوء النقد الأدبي: مرجع سابق، ص 73.

- الإيجاز حيث ينبغي أن يحدد المقال الصحفي بحجم معين لتستوعبه صفحة المقالات
- التزود بالمعلومات والآراء، والاستشهاد بالأحداث الماضية والراهنة.
- ونجد المقال الصحفي تنوع بدورها حسب شكلها ومضمونها ورسالتها في الصحيفة:
- المقال الافتتاحية** : وهدفها إقناع جمهور القراء بموقف الصحيفة في القضية المعالجة، سواء كانت تمثل حكومة أو حزبا، ولها موقع ثابت ومساحة شبه ثابتة .
- العمود الصحفي** : هو مقال قصير يهتم بأمور حياتية و معيشية، له مكان و عنوان ثابتان في الصحيفة، ولا يتقيّد بالضرورة بتوجه الصحيفة.
- مقال الرأي** : يعبر فيه كاتبه عن رأيه، وطريقة فهمه، وموقفه الشخصي ما يطرأ من أحداث فتنعكس فيه خلفياته الثقافية والإيديولوجية.
- الخاطرة** : مقال قصير يخلو من كثرة التفصيلات، يعرض فيه الكاتب فكرة حول موضوع ما هدفه الوضوح والواقعية، بأقل قدر من الكلمات.
- المقال الساخر** : يتناول الواقع بكثير من السوداوية، فيركز على الجوانب السلبية، ويكثر من التشاؤم دون أن يجافي الحقيقة.

4-المقال الإصلاحى فى المشرق العربى ومغربه

فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بدأت أفكار المصلحين فى المشرق العربى تلقى إقبالا من طرف الطبقة المتعلمة، التى دبّ فيها الوعي بالظروف القاهرة التى كانوا يعيشونها من ظلم وبؤس، فانخرطوا فى درب العمل على تجديد صلة الشعوب الإسلامية بدينها وتوعيتها بواجب مقاومة الاحتلال الغربى الجاثم على صدورهما، وقبل الخوض فى هذه الجهود الإصلاحية، نحاول أن نسلط الضوء على مفهوم الإصلاح وأسبابه.

4-أ - فن الإصلاح :

اقترن لفظ الإصلاح في القرآن الكريم بضده أي الإفساد، ويأتي الإصلاح دائما في مقام المدح، لأنه عمل الوجهاء من الناس، يقول الله تعالى : {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} ﴿٥٦﴾ سورة الأعراف.

والإصلاح من أعمال البر المنجية، يقول تعالى : {وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} ﴿48﴾ سورة الأنعام.

و يأتي الإصلاح حلا لفك التراعات بين الأفراد و الجماعات قال الله تعالى: { وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } سورة الحجرات .

ومن جسد إيمانه بالإصلاح فان جزاءه الفلاح في الدنيا و الآخرة يقول الله تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الآية 67 من سورة النحل.

على ضوء هذه التعريفات يكون الإصلاح تجسيدا عمليا للقيم والأخلاق الحميدة على أرض الواقع، المشوه بمظاهر الفساد، ولا يتم الإصلاح إلا بوسائل التغيير المختلفة، كالدعوة إلى إحياء القيم الأخلاقية، والتشبث بالفضائل ونبد الرذائل، وقد يتخذ الإصلاح شكل التضال السياسي، الذي هو سبيل موصل للثورة العارمة مثلما حدث في الجزائر مع ثورة الفاتح نوفمبر 1954 التي هدّت أركان المستعمر الفرنسي.

4-ب / الإصلاح و الحركة الإصلاحية:

تعتبر الحركة الإصلاحية بمعناها العام وسيلة لتغيير أوضاع المجتمع المتردّية، وتختلف أسباب هذا التردّي من بلد لآخر، فيمكن أن يكون استبداد الحكّام أو طغيان الاحتلال، أو تفسخ المجتمع نفسه وانحلاله، بسبب بعده عن قيمه ودينه، وتعتمد الحركة الإصلاحية على منطلقات فكرية تُلبّي حاجات المجتمع الأساسية سواء تعلّقت بالحياة الثقافية أو الحياة الاجتماعية، أو الحاجيات الاقتصادية، أو القضايا السياسية، أو الدينية، ومن هذا المنطلق فالحركة الإصلاحية

تعبير عن ضمير كل أمة متخلفة تتوق إلى الالتحاق بالركب الحضاري. و لا يمكن للإصلاح أن يؤدي أكله إلا إذا كان ضمن مشروع متكامل، يهدف إلى النهوض بالمجتمع في شتى المجالات، وقد شهد العالم شرقا و غربا حركات تغيير في شتى المجالات، لعل أشهرها في المجال الديني حركة الإصلاح الديني في أوروبا¹ وحركة محمد عبد الوهاب في المشرق العربي، و في المجال الاقتصادي الشيوعية الاشتراكية و الرأسمالية. و تجدر الإشارة أن معظم منظري هذه الحركات الإصلاحية وظفوا الكتابة الأدبية والصحفية لنشر أفكارهم وآرائهم. وبذلك حملت المقالة الأدبية والصحفية العبء الأكبر في نشر دعوات الإصلاح.

وقد زخر المشرق العربي ومغربه بثلة من الأدباء المصلحين، أمثال جمال الدين الأفغاني و تلميذه محمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وعبد الحميد ابن باديس، و محمد البشير الإبراهيمي و محمد بن علي السنوسي وغيرهم كثير، واشترك هؤلاء المصلحون في عدة أهداف منها:

- محاولة توحيد العالم الإسلامي.
- عدم فصل السياسة عن الدولة لأن الإسلام شريعة وعقيدة، ودين ودولة، و إصلاح جانب دون آخر يضعف المسلمين.
- الوقوف ضد حملات التنصير.
- محاربة البدع و الخرافات التي لا تمت للإسلام بصلة.

ج/ المقال الإصلاحية في العالم العربي : يندرج المقال الإصلاحية ضمن المقال الأدبي الذي يعنى بالقضايا الاجتماعية والسياسية و الدينية يظهر فيه الكاتب رأيه الخاص في الموضوع المتناول بهدف إيقاظ وعي الجماهير، و قد عرف العالم العربي هذا النوع من المقال منذ طلائع النهضة لعدة أسباب منها:

أ- انتشار الصحافة كوسيلة بديلة و أسهل من الكتابة التي لم تكن في متناول كل الناس.

¹ - أشهر حركتين دينيتين في الغرب و الشرق حركة الإصلاح البروتستانتي قامت في القرن السادس عشر بهدف إصلاح الكنيسة فادها الألماني مارتن لوثر 1483-1546م الذي هاجم متاجرة الكنيسة بصكوك الغفران ترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية الدارجة فكان لذلك اثر كبير في تطوير الأدب الألماني.

ب- شغف الكتّاب المصلحين لإبداء آرائهم بحريّة تأسيا لما عند نظرائهم في الغرب.
ج- اختلاف اتجاهات المفكرين العرب حول طرق الإصلاح ما خلق بينهم جوا للتنافس الشديد.

لقد دفعت الظروف العصبية التي كانت تعيشها الشعوب العربية تحت وطأة الاحتلال، الأدباء والمفكرين والمصلحين العرب إلى الكتابة في الصحف، والانخراط في هذه المهنة المصيرية، و كانت "مقالاتهم شديدة الحماسة، دافئة العاطفة بل حارّتها، قويّة اللّهجة، مشبعة بالإيمان الشديد بالمبدأ الإصلاحي، وكانت تعمل عملها في القلوب تؤتي أكلها الطيّب في الإبان المطلوب¹

ومن بين هؤلاء الكتّاب المصلحين الذين أسهموا في النهضة العربية والإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغاني رفقة تلميذة محمد عبده في باريس، و قد تميّزت المقالات التي كان يكتبها الأفغاني باللّغة القوية، و المعاني الواضحة، والتّسلسل المنطقي في عرض الأفكار، مع التفصيل الذي يجعلها طويلة أحيانا.

ويقسم الباحثون إنتاج السيد جمال الدين الفكري إلى:

- 1- **المقالات و الرسائل:** مثل رسالة الرد على الدهريين، أو مقالاته التربوية والأخلاقية والثقافية، التي نشرت في الهند وإيران.
- 2- **التعليقات والمقالات، و الرسائل الكلامية الفلسفية و العرفانية، ومعظمها كانت حصيلة إقامة السيد في أفغانستان، ومصر، و إيران، و تدريسه الفلسفة.**
- 3- **مقالات و رسائل اجتماعية:** صدر أغلبها في صحف مصر، وباريس، و لندن.
- 4- **الرسائل و المكاتيب:** والتي كتبت في أيّة فترة، وفي أيّ بلد حسب قضايا الساعة². وهذا مقتطف مقالته التي سمّاها (ماضي الأمّة و حاضرها و علاج عللها)، إذ وضع يده على ممكن الداء و أسباب علّة الأمّة، بعد أن استهل مقاله بتذكير القراء بدستور الحياة المبني على

¹ عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر -1931-1945- ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983،

ص 151.

² جمال الدين الافغاني و الشيخ محمد عبده العروة الوثقى مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، 2002 ص 14.

التغيير الذي من شأنه أن يبعث الأمل من جديد لنهضة الأمة، ألا وهو قوله تعالى ((سنة الله في الذين خلوا من قبل و لن تجد لسنة الله تبديلا)) سورة الأحزاب الآية 62 .

ثم ذكر بأجداد الأمة في عصرها الذهبي، لأخذ العبرة والتأسي بأبطال الإسلام الذين صنعوا ملاحم التاريخ، يقول الكاتب: " أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئا مذكورا، ثم انشقق عنها عماء العدم فإذا هي بحميّة كل واحد منها، كون بديع النظام، قويّ الأركان، شديد البنیان، عليها سيّاج من شدّة البأس، ويحيطها سور من منعة الهمم، تحمد في ساحاتها عاصفة النوازل، و تنحلّ بأيدي مديريها عقد المشكلات. نمت فيها أفنان العزّة بعدما ثبتت أصولها، ورسخت جذورها، وامتدّ لها السلطان على البعيد عنها، والدّاني إليها، ونفذت منها الشوكة، و علت لها الكلمة، وكلمت القوّة فاستعلت آدابها عن على الآداب، و سادت أخلاقها و عادتها على ما كان من ذلك لسابقيها، و معاصريها.¹

ثم عرّج متأسّفا من الدرك الذي بلغته الأمة من انحطاط وتخلّف، مع إعطاء الأسباب التي أدّت بها إلى هذا الوضع) وبعد هذا كلّه و هي بناؤها، وانتشر منظومها، وتفرّقت فيها الأهواء، وانشقت العصا، وتبدّد ما كان مجتمعا، وانحلّ ما كان منعقدا، وانقصمت عرى التعاون، وروابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عمّا يحفظ وجودها.²

وبعد أن استعرض مختلف الآراء المتداولة حول مفاتيح التّهضة، ونقدتها بالأدلة والبراهين، راح يوضّح مذهبه في علاج الداء: "فعالجهما الناجع إنّما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، و إرشاد العامة بمواعظه الوافية، بتطهير القلوب، وتهذيب الأخلاق، و إيقاد نيران الغيرة، وجمع الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة³

عندما حلّ السيد جمال الدين الأفغاني بالديار المصرية العام 1869م، اتّصل به محمد عبده الشاب الأزهري الطموح، الذي كان في العشرين من عمره، فتتلمذ عليه و لازمه أشدّ الملازمة، فتأثر بأفكاره، و انتهج نهجه في الإصلاح، ولقد عانى السيد من سوء المعاملة من قبل الإدارة المصرية، وضيّق عليه، و منع من الاجتماع بتلاميذته، فاختار الرحيل إلى الهند، ثم إلى

¹ - المرجع السابق: ص 107.

² - المرجع نفسه: ص 107.

³ - نفسه: ص 114.

باريس، فالتحق به تلميذه الوفي محمد عبده، وكتب معه في مجلّة العروة الوثقى، وحينما توفي الأستاذ 1897 أكمل التلميذ المسيرة، وحمل مشعل الإصلاح¹

كان للشيخ محمد عبده رأي في منهج التغيير مستندا على التعليم أولا، و قد رأى أن تحرير الفكر لا يتحقق إلا بتحرير التربية والتعليم من الاتباع والتقليد، و تؤكد مقالاته التي صدرت هنا وهناك على تهذيب النفوس، وتعليم العقول قبل أي شيء آخر، ورغم مناهضته للاحتلال و عملائه، إلا أنه اختلف مع أحمد عرابي² في أوج الثورة على الخديوي في الخطة و الطريقة، وعارضه في اندفاعه، وحذره من الاحتلال الإنجليزي لمصر، وذلك ما وقع بالفعل. و هذا مقتطف مما قاله للزعيم أحمد عرابي: "إنما علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع... و ليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن نستعد له، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد، فيفسد المال و يفضي إلى الهلكة³

لقد أسس الشيخ محمد عبده منهجه في الإصلاح على الجمع بين الأصالة والحداثة، و كان كتابه رسالة التوحيد آخر ما ألفه، ومضمونه الإصلاح و الدعوى الإصلاحية، وهدفه توسيع مجال سماحة الإسلام و انفتاحه، وهو دستور لما بعده. وقد نشط الإمام بالسياسة، والدين، والفكر، و شغله ما كان يعيش المجتمع من أوضاع، فلم يكتف بالتنظير والجلوس في برج عاجي، بل كان في الصفوف الأولى في العمل الخيري والدعوي سواء في مصر أو خارجها، وعانى من نفي الخديوي وقهره له، مثله مثل أستاذه جمال الدين، إلا أنه ظلّ متشبثا بما كان يراه حقا، حتى وافته المنية، وقد كتب عنه المفكر محمود عباس العقاد واصفا إياه بالمصلح الفيلسوف: "فهو مصلح فيلسوف بكل ما شئنا من معاني الإصلاح والفلسفة، وهو مصلح يتصل إصلاحه بالتفكير كما يتصل بالعلم و هو فيلسوف حين تكون الفلسفة حكمة، يروض

¹ - ينظر : جمال الدين الافغاني و الشيخ محمد عبده العروة الوثقى مرجع سابق، ص64-66.

² - أحمد عرابي 1841-1911 م زعيم عسكري مصري أعلن الثورة على الخديوي توفيق عام 1882 حكم عليه بالإعدام ثم استبدل الحكم بالنفي إلى سيلان، ينظر معجم أعلام المورد للبعليكي.

³ - عباس محمود العقاد عبقرية الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده، دار مصر للطباعة، مصر، د.ت، ص

بها الحكيم نفسه على المسلك الذي ينبغي له كما يراه، والغاية التي يسعى لها كما هداه الفكر إليها¹

وعلى نهج الإصلاح التربوي والسياسي حمل عبد الرحمان الكواكي على عاتقه كغيره من المصلحين مهمة الإصلاح والتّجديد، وكان تشخيص المرض حسبته هو السبيل إلى وصف الدواء، و رأى أنّ الانحطاط الذي آلت إليه الأمة الإسلامية أسبابا متعدّدة، تكمن في الإعراض عن الدّين، والتّفاسع عن العمل به، وغياب الحرّية في الفعل والرأي في الممارسة السياسية، و تفشّي الآفات الاجتماعية كالجهل، والفقر في الحياة الأخلاقية والاجتماعية، ونشر كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الذي جمع فيه مقالاته التي كانت تصدر في بعض الصحف بمصر، و علّق على هذا الكتاب قائلا: "إنّي نشرت في بعض الصّحف أبحاثا علمية سياسية في طبائع الاستبداد، منها ما درستّه، ومنها ما اقتبسته، غير قاصد بها ظالما بعينه، ولا حكومة مخصّصة، إنّما أردت بذلك تنبيه الغافلين بمورد الدّاء الدفين، عسى أن يعرف الشرقيون أنّهم هم المتسبّبون لما هم فيه، فلا يعتبرون على الأغيار، ولا على الأقدار."²

لقد أبدع الكواكي في روايته (أم القرى) في الوقوف على داء الأمة، واقتراح العلاج، بعد أن نسج خياله حادثة انعقاد مؤتمر إسلامي في مكة، ينظر فيه نخبة من المسلمين حالة الأمة، من كلّ الجنسيات، ويقترحون الحلول الناجعة للنّهوض بها.

و لقد دعا لمحاربة الاستبداد و الطغيان و إلى إصلاح الرّاعي والرّعية، وتخليص الإسلام من البدع و الخرافات، وكذلك إلى الثّورة والتّغيير، وضرورة العودة إلى مشارب الإسلام الصّافية، فالنّهضة حسبته لا تقوم، والاستقلال لا يتحقّق دون ذلك. و لقد كان الخوض في الموضوعات السياسية من الموضوعات المحرّمة، لأنّها تمسّ نظام الحكم من قرب، وتفهمّ الشعوب حقوقهم وواجباتهم، وتفهمّهم على مناحي الظلم والعدل، و تهيئهم للمطالبة بالحقوق إذا سلبت، والقيام بالواجبات إذا أهملت، وهذا أبغض شيء لدى الحاكم المستبد.³

¹ المرجع السابق: ص 237.

² أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مرجع سابق، ص 254.

³ المرجع نفسه: ص 252.

إنّ من يعقد مقارنة بين رائدي الإصلاح في المشرق العربي جمال الدين الأفغاني، و عبد الرحمان الكواكبي، سيرى أنّ الأول أشغله العدو الخارجي وهو المحتلّ الأجنبي، أمّا الثاني فقد وضع نصب عينيه العدو الداخلي، والمتمثّل في الحاكم المستبد، فقد نظر الأفغاني إلى العوامل الخارجية للمسلمين فدعاهم إلى أن يناهضوها، ونظر الكواكبي إلى العوامل الداخليّة للمسلمين فدعاهم إلى إصلاحها، فإنّها إن صلحت لم تسطع السياسة الخارجية أن تلعب بها، ولذلك كانت معالجة الأفغاني للمسائل معالجة التآثر، تخرج من فمه الأقوال نارا حامية، ومعالجة الكواكبي معالجة الطبيب، يفحص المريض بهدوء، ويكتب الدواء بأناة.¹

لقد مرّت دعوة الإصلاح في المشرق الإسلامي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى بظروف تاريخية حاسمة، كان لها الأثر الكبير في المغرب الإسلامي و لقد أدّت سياسة أتاتورك في فصل الدين عن الدولة ومن ثمّ إلغاء الخلافة الإسلامية إلى التأثير على دعاة الإصلاح، إذ ظهر صراع فكري بين تيارات عدّة أهمها تيار المحافظين الذين دعوا إلى تجاوز التقليد، و إلى الانفتاح على العلوم التجريبية، وإلى تعلّم اللغات الأجنبية، وإصلاح المناهج التعليمية دون الانسلاخ من الدين الإسلامي باحترام التقاليد والقيم، وتيار المحدثين الذين انبهروا بالمدنيّة والتّقدم العلمي اللذين وصلت إليهما أوروبا، فدعوا إلى عصرنة المجتمعات العربية الإسلامية، وتحرير الأفراد من الجهل، لا سيّما المرأة، ثم جاء بعدهم من دعا إلى العلمانية كحل لتحقيق الرّقي الحضاري.

ب- المقال الإصلاحي في المغرب العربي :

تعدّ الحركة الإصلاحية في المغرب العربي امتدادا لنظيرتها في المشرق، وقد كان جامع الزيتونة بتونس منارة العلم، تكفّلت بتخريج جيل من العلماء الأفذاذ أمثال محمد الطاهر بن عاشور، و لعلّه الأكثر تأثيرا على منطقة المغرب العربي، لريادته وسبقه في حمل راية الإصلاح طوال عمره الذي بلغ التسعين في خدمة العلم والتربية والقضية الوطنيّة، ففي مجال التربية والتعليم فقد تشرف بالتدريس في جامع الزيتونة ذي النّظام التقليدي، ثم بدأ يدرس في المدرسة الصادقية، و يحاضر بجملة من المحاضرات في الجمعية الخلدونية²، وقد أدّى احتكاكه بمختلف طرق التعليم

¹ المرجع السابق: ص 278.

² إسماعيل الحسني: نظريّة المقاصد عند الإمام الطاهر بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1995، ص 88.

بسبب انتقاله بين مدارس عدّة، إلى اكتساب خبرة طويلة جعلت فكره الإصلاحى منصّباً على ضرورة ردم الهوة بين تيارى الأصالة والمعاصرة، الذي قسّم المجتمع التونسي. ودون آراءه هذه في كتابه النفيس أليس الصبح بقريب؟ حيث شرح رؤيته للإصلاح.

ج/ فنّ المقالة في الأدب الجزائري الحديث:

عرفت الجزائر بُعيد الاحتلال الفرنسي بعض الصحف الاستعمارية الوليدة، والتي كانت تسعى لتوطيد أركان المحتل الفرنسي في الجزائر، وكانت جريدة الأخبار التي صدرت بالجزائر العاصمة سنة 1839م باكورة الصّحف الاستعمارية ثمّ تلتها جريدة المبتشر (1847) التي تُعدّ اللسان المبين للإدارة الاستعمارية في مخاطبة الشعب الجزائري، وتبلغه ما يصدر من الولاية العامة من قرارات وإجراءات تعسّفية في حقّ الجزائريين. وتعدّ هذه الجريدة الثالثة في الساحة العربية بعد أن سبقتها كلّ من جريدة الحوادث اليومية الصادرة 1799م بمصر، وجريدة الوقائع المصرية سنة 1828م.

وفي الحقيقة لا يمكن أن تُدرج جريدة المبتشر ضمن الجرائد العربية لأنّها فرنسيّة الروح والهوى، فكانت مجرد ترجمة لما يصدره الاحتلال الفرنسي من أوامر عسكرية وإدارية، بوصفها مزدوجة اللّغة، فضلا على أنّ النسخة العربية كانت هزيلة ركيكة من حيث المستوى اللّغوي.

وقد ظهرت صحف أخرى أنشأها فرنسيّون ومعمّرون، تدور كلّها في فلك الاستعمار وتسعى لخدمته، غير أنّها لم تُعمّر طويلا، كجريدة النصيحة، والأخبار، والمغرب، وغيرها، غير أنّ جريدة النجاح¹ لصاحبها عبد الحفيظ الهاشمي، والتي كانت في مطلع إنشائها تُعدّ من الصّحف الوطنية، وقد أسهم في تأسيسها والكتابة فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس، لكنّه تخلّى عنها وقاطعها، بعد أن وضعت نفسها في ركاب المستعمر الفرنسي، وراحت تُناوئ الحركة الوطنية والإصلاحية، فأرّخى لها الاستعمار الحبل ولم يُضايقها، لذلك تُعدّ من أطول الصحف العربية عمرا، بمجموع سنين يُقدّر بحوالي سبع وثلاثين سنة²، وهو رقم قياسي في عمر

¹ - الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، مرجع سابق ص 48.

² - يبدو أنّه سقط سهوا من الأستاذ محمد ناصر فقدّر عمرها بسبع وخمسين سنة، والصحيح أنّه حوالي سبع وثلاثين سنة (1956/1919).

الصحف العربية زمن الاستعمار الفرنسي، مقارنة مع بعض صحف جمعية العلماء المسلمين، التي لم يكن يصدر منها إلا أعداد حتى تُعدم، مثل جريدة الصراط السوي، الشريعة، السنة النبوية، أو جريدة "الشعب" لحزب الشعب الجزائري التي لم يصدر منها إلا عدد واحد فقط، والعدد الثاني تحت الطبع، حتى صدر قرار إعدامها.

وقد حفز ظهور هذه الصحف المستعمرة همم بعض الوطنيين المخلصين، فبادروا إلى إنشاء صحف جزائرية لغةً ومنهاجا وغاية. في محاولة منها لنشر الوعي واليقظة في أوساط الشعب الجزائري، الذي كان يئنّ تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، وما صاحبه من جهل، وفقر، وأمراض، ومجاعة، وتهجير. فكانت جريدة الحق¹ أول صحيفة عربية وطنية، سنة 1894، وعُرفت بلهجتها الشديدة، ضدّ اليهود المرابين، لذلك دُبرت لها الدسائس ولم تُعمر طويلا. والمصير نفسه تعرّض له جريدة الجزائر للشيخ الوطني المناضل عمر راسم، إذ لم يبرز منها سوى عددان اثنين فقط². بسبب ضائقة مالية كانت قد ألمت به، فحالت دون مواصلة إصدار الجريدة وما تتطلبه من أعباء وتكاليف مادية، ثمّ لا تُغفل المضايقات التي كان يتعرّض لها الشيخ عمر راسم وهو يجلس بأرائه في غير موارد ولا خوف، ويطالب بحقّ الجزائريين فيقول: يجب أن نتعلم لكي نشعر بأننا ضعفاء.. يجب أن نتعلم لكي نعرف كيف نرفع أصواتنا في وجه الظلم.. يجب أن نتعلم لكي ندافع عن الحق، وتأبى نفوسنا الضيم، ولكي نطلب العدل والمساواة بين الناس في الحقوق الطبيعية، وفي النهاية لكي نموت أعزاء شرفاء ولا نعيش أذلاء جبناء.

كان للدعوة التي قادها الأستاذ جمال الدين الأفغاني أثر كبير في نشر الفكر الإصلاحية في الجزائر، فعلى الرغم الحصار الذي ضربه المستعمر لعزلها عن العالم الإسلامي، إلا أنّ وشائج الأخوة ظلّت مترابطة و متماسكة، وتوّجت بتلك الزيارة التاريخية للشيخ محمد عبده -تلميذ الأستاذ جمال الدين- الجزائر عام 1903م، واجتمع بعدد من علمائها، منهم الشيخ محمد بن الخوجة، والشيخ عبد الحليم بن سماية، كما ألقى في الجزائر تفسير سورة العصر. وقد كان لجلّة

¹ - المرجع السابق - ص 25.

² - المرجع نفسه. ص 36.

العروة الوثقى ومجلة المنار، تأثير كبير على المثقفين من أبناء الجزائر، الذين اعتبروا دروس العقيدة التي كانت تنشرها (المنار) للإمام محمد عبده، بمثابة حبل الوريد الذي يربطهم بأمتهم. وقد استمر الاتصال الفكري بين الجزائر وغيرها من البلاد الإسلامية ولم ينقطع، فقد شارك الشيخ عمر بن قنبر بقلمه في جريدة (الحضارة) بالآستانة، و(اللواء) و(المؤيد). بمصر سنة 1914م، وقد كانت هذه الجرائد والمجلات تدعو إلى نهضة العرب والمسلمين، وكانت رائجة في بلاد المغرب والجزائر خاصة.

وشعر الفرنسيون بأنّ هناك مجرى سرياً، ولكنه غزير ومتواصل، من الصحف والمجلات الشرقية التي أعانت المغاربة في مجهوداتهم الإصلاحية، وجعلتهم مرتبطين أبداً بالرأي العام العربي، وصدق توجّس الفرنسيين فقد ظهرت في الجزائر خلال تلك الفترة صحافة وطنية عربية، ساهمت مساهمة فعالة في بعث النهضة الفكرية والإصلاحية الحديثة عاجلت في صفحاتها كثيراً من الموضوعات المهمّة، منها: الدعوة إلى تعليم الأهالي، وفتح المدارس العربية لأبناء المسلمين، والتنديد بسياسة المستعمرين واليهود، ومقاومة الانحطاط الأخلاقي والبدع والخرافات. كما ظهر في هذا الميدان كتاب شاركوا بمقالاتهم وتحليلاتهم في تشخيص الداء الذي ألمّ بالأمة، واقترح الدواء الناجع لذلك، من هؤلاء الشيخ المولود بن الموهوب، والشيخ عبد الحليم بن سماية، والأستاذ عمر بن قنبر وغيرهم.

ولعلّ جريدة " الإقدام"¹ للأمير خالد، تُعدّ قفزة نوعية في الصحافة الوطنية، من حيث سقف المطالب الذي كانت ترفعه الجريدة، إذ كان لهذه الجريدة خطة وطنية تهدف إلى حصول الجزائريين على بعض أو كلّ الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون، والتي تضمن لهم المساواة بينهم وبين الفرنسيين ليس في الواجبات فحسب، بل في الحقوق أيضاً. وكانت لهجتها شديدة ضدّ المعمرين، والمتفرنسين من الجزائريين، لذلك عارضت فكرة الإدماج بقوة، فالمساواة التي دعا إليها الأمير خالد مع الفرنسيين لا تعني إطلاقاً محو الشخصية الوطنية والارتقاء في أحضان المستعمر، بل أساس الفكرة هو التجنيد الإجباري الذي فرض على الجزائريين إبان الحرب

¹ - الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954: مرجع سابق، ص 53.

العالمية الأولى، فكان واجبا عليهم أداء الخدمة في صفوف الجيش الفرنسي، لذلك طالب بالمساواة بين الجنود الجزائريين ونظرائهم من الفرنسيين.

هذه الدعوة الوطنية التي كانت تُشيعها جريدة الإقدام أفضت مضاجع الفرنسيين وغلاتهم، فلم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام حركة الأمير خالد وجريدته ومناصريه، زاعمين فيه أن هذه الحركة تُثير الشعب، وتدعو للبلشفيّة والوطنية، فرجع نائب قسنطينة " مورينو " شكوى ضدّ الجريدة، مُتّهما إياها بثلب الأعراس، فحكمت المحكمة على الجريدة بألف فرنك غرامة وخمسة آلاف فرنك تعويضات، الأمر الذي أرهق كاهل الأمير خالد، "فتوقفت الجريدة عن الصدور نهائيًا في مارس 1923، وكان قد صدر أمر بنفي الأمير خالد من الجزائر في شهر فيفري من نفس السنة."¹

وتعدّ جريدة المنتقد² لابن باديس الفاتحة الميمونة في سجلّ الصحافة العربيّة بالجزائر، إذ حملت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن ثوابت الأمة الجزائريّة، وعن هويّتها العربيّة الإسلاميّة، وتصدّت لموجات الفرنسة والاندماج. وكانت هذه الجريدة فجرا جديدا للنّهضة الفكرية والأدبية في الجزائر. هذه الجريدة عرّفت الشعب الجزائري بمفهوم الوطنية، من خلال ذلك الشعار الخالد الذي كانت ترفعه في صفحتها الأولى " الحقّ فوق كلّ أحد، والوطن قبل كلّ شيء"، في زمن كان فيه التلّفظ بهذه الكلمة يُعدّ من الكبائر في نظر الاستعمار الفرنسي.

وتعدّ المنتقد نقلة نوعيّة في تاريخ الصحافة العربيّة في الجزائر، ذلك أنّها جمعت أقلاما إصلاحية لجيل من الشباب تلقّى تعليمه في الزيتونة والأزهر الشريف، والشام والحجاز، وعادوا إلى أرض الوطن، وكان الهدف واحد وهو إصلاح أوضاع المجتمع الداخليّة، وتصحيح معالم عقيدته، وتعريف الشعب الجزائري بوطنه المتمايز عن فرنسا في الدين واللغة والعوائد. وقد ضمّ ابن باديس خيرة الأقلام الجزائريّة كالطيبّ العقبّي، ومبارك الميلي، والشيخ أبو اليقظان، وكان من الأدباء العرب من يكتب في المنتقد عن طريق المراسلة، لذلك تميّز أسلوبها بسلامة اللغة، وعمق الأفكار مقارنة مع الصحف التي واكبتها أو التي سبقتها.

¹ المرجع السابق، ص 55.

² المرجع نفسه.

وفي افتتاحية العدد الأول أراد ابن باديس أن يبين أهدافه وغاياته وأراد أن يعرف دعوته للناس فكتب يقول: "باسم الله، ثم باسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون... وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها.

نحن قومٌ مسلمون جزائريون، فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كمال إنساني، ونحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر¹.

واستطرد الإمام قائلاً: "إن الدين قوة عظيمة، لا يستهان بها، وإن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته، وتجلب عليه وعليها الأضرار"².

لقد صال وجال بكلماته ليضع أمام القارئ إطار فكره، ومضمون دعوته، وبدأ يخطو في ذلك خطوات هادئة ناجحة، في كل خطوة من هذه الخطوات حيطة وحذر وذكاء، حتى لا يقع في مواجهة مع المستعمر المتسلط قبل أن يسمعه الناس، ويجمعوا حوله.

وفي العدد الثاني الصادر من جريدة المنتقد، أكد من جديد على استقلالية الجريدة وشرح فلسفتها التي تعتمد على الوفاء للوطن، والجرأة في بيان الحق، "إننا لسنا لإنسان، ولا على إنسان، وإنما نخدم الحق والوطن... ونكرر القول إن "المنتقد" لا يباع ولا يشتري"³. وأصبحت هذه الصحيفة منبراً لتوجيه وتوعية الجزائريين وقناة لنقد الوضع الاستعماري المفروض على الجزائر وصوتاً لمناصرة القضايا الكبرى للمسلمين في فترة العشرينيات كثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي ومساندة الشعب الليبي.

ثم أعلن الرجل من على منبر "المنتقد" دور هذه الصحيفة قائلاً: "إننا سننتقد الحكام، والمديرين، والنواب، والقضاة، والعلماء، والمقاديم، وكل من يتولى شأنًا من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسيين والوطنيين، ونناهض المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين"⁴.

¹ - المنتقد: السنة الأولى- العدد 01- 02 جويلت 1925م/ 11 ذي الحجة 1343هـ.

² - المصدر نفسه .

³ - المنتقد: السنة الأولى- العدد 02- 09 جويلت 1925م/ 17 ذي الحجة 1343هـ.

⁴ - المنتقد: السنة الأولى- العدد 01- 11 ذي الحجة 1343هـ/ 02 جويلت 1925م.

وقد نشرت في عددها السادس مقالاً للميلي تحت عنوان "العقل الجزائري في خطر"¹، كما نشرت في عددها الثامن قصيدة للعقبي تحت عنوان "إلى الدين الخالص"² ومثل هذه القصيدة وذلك المقال يُعدّان جراءة كبرى في ذلك العهد لتناولهما العادات المألوفة بالنقد والتجريح.

وكعادة الإدارة الاستعمارية فقد امتدّت إليها يدها الآثمة بالمنع والتعطيل، بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً، والسبب يعود إلى لهجتها الحارّة، وحملتها الشديدة ضدّ البدع والخرافات التي كان يقاتل بها رؤوس الطرقيّة ومن ساندهم من رجال الدين الرّسميين.

وهكذا كان لصحيفة المنتقد دور كبير في عرض آراء ومقترحات عبد الحميد بن باديس، ولكنه لم يستسلم، ولم تفتّر عزيمته، وواصل طريقه من خلال الصحافة. وتعتبر الافتتاحية المشار إليها أنفاً مهمّةً لكونها أول افتتاحية يكتبها ابن باديس، بعد أن دخل عالم الصحافة، ولأنّه أيضاً شرح فيها مبادئه التربوية وآراءه السياسية كما وضح فيها منهجه في النقد الاجتماعي والسياسي بكل وضوح ودقة .

وفي نفس السنة (أي في سنة 1925م) وبعد أن أوقف الاستعمار جريدة "المنتقد" أصدر الشيخ جريدة "الشهاب"³ وكانت في أول الأمر أسبوعية ثم تحوّلت في فبراير من سنة 1929م إلى مجلة شهرية، تحتوي افتتاحية، ومقالات وفتاوى وقصصاً وأخباراً و طرائف وتراجم وغير ذلك ... وكان في السنوات الأولى يكتب معظم مقالاتها بنفسه ويوزعها أيضاً بنفسه، إلا أن هــ هذه المرّة اتّسمت الشهاب بعدم الصّدام مع السلطة، فاصطبغت بالصبغة الدينية في غالب موضوعاتها من تفسير للقرآن الكريم، و شرح للأحاديث النبوية الشريفة، مع ربط المسائل الدينية بالواقع الجزائري.

ومن خلال استقراء موادّ مجلة "الشهاب" نجد أنّ أهداف الكاتب الإصلاحية من خلال هذه الجريدة هي الأهداف نفسها التي سطرّها وسارت عليها الجمعية، والتي كانت محصورة في محورين اثنين وهما :

¹ - المنتقد: السنة الأولى- العدد 06- 16 محرّم 1344هـ/ 06 أوت 1925م.

² - المنتقد: السنة الأولى- العدد 08- 30 محرّم 1344هـ/ 20 أوت 1925م.

³ - الصحف العربية في الجزائر من 1847 إلى 1945: مرجع سابق، ص 64.

- تصحيح عقائد الناس وأعمالهم على وفق ما كان عليه سلف هذه الأمة.

- الاهتمام بالتعليم.

فهاتان القضيتان كانتا أهم الملامح التي تشكلت سمة الخطاب الإسلامي في هذه المجلة الرائدة، فعلى صعيد إصلاح عقائد الناس وأعمالهم أفصح الشيخ عن المنهج الذي تبناه فيها، فكتب قائلاً : " قمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف والصحيح من السنة الشريفة وقد عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من مصاعب وقبح في طريقهم من وضع الذين شبوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل في الزيادات والذبول التي ألصقتها بالدين المغرضون أو أعداء الإسلام الألداء والغافلون من أبناء الإسلام.¹"
أمّا على صعيد التعليم ، فقد كان يرى فيه أمضى سلاح لمقاومة المعتدي و طرده من أرض الجزائر، لذلك اهتمّ به اهتماماً عظيماً و أولاه كل عنايته و وقته و مَلَكَاته، حتى وصفه الأستاذ أنور الجندي رحمه الله بقوله : "وهو الذي ينشئ المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس يفتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهر، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء.
وإذا خرج من المعهد ذهب رأساً إلى إدارة جريدته "الشهاب" يكتب و يرسل "البصائر" ويجيب على الرسائل فيقضي موهناً من الليل، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول"².

وكانت مجلة "الشهاب" إلى جانب هذا مهمة بقضايا الأمة الإسلامية وبالخصوص قضية فلسطين مما جعل لها شهرة في العالم الإسلامي وشهد بفضلها كبار العلماء والمصلحين .
كتب الإمام حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب التي أسسها في القاهرة في نهاية الأربعينيات كلمة تقدير وجهها للإمام عبد الحميد بن باديس ومجلته الشهاب فقال: "قامت مجلة الشهاب الجزائرية التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد، مستمدة من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم سيدنا محمد. وإنا لندرجو أن تقفوا "الشهاب" المصرية الناشئة أثرها وتجدد شبابها، وتعيد في الناس سيرتها في

¹ - آثار ابن باديس: ج.03، ص 253.

² - أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا- دار القومية للطباعة القاهرة، 1965م، ص46.

خدمة دعوة القرآن وتجليه فضائل الإسلام، على أن الفضل للمتقدم وفضل السبق ليس له كفاء¹.

وهكذا، كانت مجلة "الشهاب" في مسيرتها المباركة مشعل نور، ونبراس هداية يضيء للجزائريين الطريق ليتلمسوا نحو الخلاص، في تلك الظلمات الحالكة والظروف العصيبة التي مرت بها الجزائر، إلا أن الشيخ بسبب هذا التأثير الإعلامي القوي والفاعل لهذه المجلة، واجه الكثير من المصاعب والعقبات التي وقفت في سبيله، حيث توقفت المجلة غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية في شهر سبتمبر من عام 1939 م، على يد السلطات الفرنسية. وبعد حوالي ثماني سنوات من صدور "الشهاب" أصدرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد تكوينها بسنتين أول جريدة باسمها هي جريدة "السنة النبوية"² وكان أول عدد منها في الثامن من ذي الحجة سنة 1351هـ (1933 م)، وسرعان ما أوقفتها الإدارة الاستعمارية بحيث صدر آخر عدد منها في 10 ربيع الأول سنة 1352 هـ الموافق لـ 03 جويلية 1933 م .

بعدها أصدرت الجمعية جريدة أخرى هي " الشريعة"³ في 17 جويلية سنة 1933م، أي بعد توقيف "السنة النبوية" بأربعة عشر يوما فقط، و أوقفتها هي الأخرى الإدارة الاستعمارية في 29 أوت سنة 1933م أي أنها لم تستمر في الحياة سوى واحد وأربعين يوما. ثم أصدرت الجمعية جريدتها الثالثة تحت اسم "الصراط السوي"⁴ في 11 سبتمبر 1933م، أي بعد أقل من شهر من توقيف "الشريعة المطهرة" إلا أنها هي الأخرى تم توقيفها من طرف الإدارة بعد قرابة أربعة أشهر فقط من صدورها وذلك في شهر يناير سنة 1934م . وموازاة مع غلق " الصراط السوي" أصدرت السلطات الفرنسية قرارا يقضي بمنع الجمعية من إصدار أية جريدة باسمها.⁵

¹ - افتتاحية العدد الأول من السنة الأولى من مجلة الشهاب المصرية التي أنشأها الإمام البنا .

² - الصحف العربية الجزائرية: من 1847 إلى 1954، مرجع سابق، ص 147/146/145.

³ - المرجع نفسه: ص 168/167/166.

⁴ - نفسه: ص 201/200.

⁵ - نفسه.

و لم يقتصر إصدار الصحف على أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فحسب، بل ظهرت بعض الصحف الإصلاحية من طرف بعض العلماء والمصلحين الذين كانوا أيضا من بين المؤسسين لجمعية العلماء، فاضطلعت بالدور نفسه الذي لعبته جرائد ابن باديس والجمعية، وأهم هذه الجرائد هي:

جريدة "الجزائر"¹ أشرف على إصدارها الشاعر والصحفي "محمد السعيد الزاهري" عطلتها وأوقفتها السلطات الفرنسية فور صدورها مباشرة .

جريدة "الحق"² صدرت سنة 1936 م بمدينة بسكرة .

كما أصدر الشاعر والأستاذ الكبير بل أحد أعمدة الصحافة الإصلاحية في الجزائر أبو اليقظان مجموعة من الجرائد، أولها " وادي ميزاب " حيث كانت البداية لجهاد مرير دام ثلاث عشرة سنة أصدر خلالها ثماني جرائد أسقطت واحدة تلو الأخرى لحرارة لهجتها، وجرأة معالجتها لمختلف القضايا ، وهي كالتالي:

(وادي ميزاب) 119 عددا، من 1926/10/01 إلى 1929/01/18 م.³

(ميزاب) عدد واحد، 1930/01/25 م.

(المغرب) 38 عددا، من 1930/05/29 إلى 1931/03/09 م.

(النور) 78 عددا، من 1931/09/15 إلى 1933/05/02 م.

(البستان) 10 أعداد، من 1933/04/27 إلى 1933/07/13 م.

(النبراس) 6 أعداد، من 1933/07/21 إلى 1933/08/22 م.⁴

¹ - المرجع السابق: ص 61.

² - المرجع نفسه: ص 86.

³ - نفسه: ص 72 / 79 / 101 / 118 / 155.

⁴ - نفسه: ص 170 / 181 / 252.

(الأمّة) 170 عددا، من 1933/09/08 إلى 1938/06/06.

(الفرقان) 6 أعداد، من 1938/07/08 إلى 1938/08/03.

وبعد حرمان الجمعية من إصدار أيّة جريدة لمدة قاربت السنتين (من يناير سنة 1934 م إلى سبتمبر سنة 1935م) وبعد جهود كبيرة بذلتها الجمعية لأجل الحصول على رخصة من الحكومة الفرنسية بإصدار جريدة باسم الجمعية، صدرت في 27 سبتمبر 1935م جريدة "البصائر"¹ والتي تُعدّ الصحيفة الرابعة التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين، وهي أهم صحفها، و من أكبر الصحف العربية الجزائرية شهرة و انتشارا، لما خلّفته من أثر عميق في مجرى الحياة الوطنية من جميع نواحيها، صدرت عام 27 ديسمبر 1935 بعدما أفلتت مرارا من التوقيف إذ ظلّت تصدر بانتظام إلى عام 1939 وسميت (البصائر) بصائر اقتباسا من قوله تعالى {قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه و من عمي فعليها، و ما أنا عليكم بحفيظ} سورة الأنعام - الآية 104 حيث وشّحت صدرها هذه الآية الكريمة غير أن هذه الآية حذفت منها فيما بعد، و يصفها الإبراهيمي أنّها أحدّ الألسنة الأربعة الصامته للجمعية العلماء المسلمين، وكانت الآية الكريمة مكتوبة تحت العنوان و ذلك في أعداد البصائر التي صدرت في عاصمة الجزائر و ذلك ابتداءً من العدد 1 إلى 83.

أمّا العدد الأول من الجريدة فقد صدر بالجزائر العاصمة يوم الجمعة 1935/12/27 مدير ورئيس تحريرها العقبي الطيّب، صاحب الامتياز الشيخ محمد خير الدين، و بعد العدد 183 انتهى الصدور بالجزائر و انتقل إلى قسنطينة، وتغيّرت إدارتها إلى المليي مبارك بعد أن اتّهم العقبي بمقتل محمود كحول، و سُجن و اضطرّ إلى التقليل من نشاطه، واتّخذ الحذر فتخلى عن إدارة البصائر، أما صاحب الامتياز فبقي الشيخ محمد خير الدين، ويلاحظ أنّ العدد الأخير 83 الذي صدر بالعاصمة لا يوجد به اسم العقبي الطيب، وإتّما جاء باسم مدير الجريدة المسؤول وصاحب الامتياز الشيخ محمد خير الدين، ثم ابتداءً من العدد 84 بدأ صدورها بقسنطينة إلى تاريخ 1939/08/25 حيث توقّفت في هذا التاريخ و قد صدر منها 180

¹ - الصحف العربية الجزائرية: من 1847 إلى 1954، مرجع سابق: ص 212.

عددا في ظرف أربع سنوات بتاريخ 1939/08/25 بعد اندلاع الحرب العالمية الكبرى الثانية وهي سجلّ تاريخي حافل لا يستغني عنها الباحث كالشهاب وغيرها.

وبعد الحرب العالمية الثانية صدرت الجريدة في سلسلتها الثانية بالعاصمة الجزائر، بدءاً من سنة 1947 إلى 1956، تحت إدارة وإشراف العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، علامة الجزائر، صاحب العلم الغزير و القلم السيال الراقى في الدفاع عن الوطن و العروبة والإسلام، وقد طُبعت في عدّة مطابع بالجزائر، وكانت توشح الجريدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، وحكم عربية تحت من آداب القرآن من آداب السنة النبوية من حكم العرب، وتارة لا تجعل ذلك بسبب الظروف و المقام .

وقد استمرّت مدّة تؤدي رسالتها وتوقفت قبل الحرب العالمية الثانية، ثم استأنفت صدورها من جديد في سلسلتها الثانية ابتداء من 25 يوليو سنة 1947م واستمرت إلى أن توقفت ثانية في السادس من أفريل سنة 1956 م أي بعد حوالي سنتين من قيام الجهاد المسلح سنة 1954 م .

وعن أهميتها كجريدة عربية إسلامية إصلاحية ساهمت هذه الجريدة بالتعريف بالقضايا الإصلاحية، فكانت هذه البصائر جريدة معروفة في كل المشرق الإسلامي فكانت ذات صيت كبير وواسع، وقد كان جمهور القراء يتهافت على جمع أعدادها، فجريدة البصائر تهتم بشؤون المسلمين وخاصة ما يجري بفلسطين و شبهته كما يجري في الحرمين كما قال بن باديس، مثلما دافعت عن الملك المغربي محمد الخامس، ووقفت موقفا مشرفا مع باي تونس، فما من قضية إسلامية إلا ودافعت عنها بكل مالها من قوة و عزم و إرادة.

و قد تحدّث الكثير من الباحثين عن البصائر الأولى (1935-1939) و هذا لقيمتها الأدبية و آثارها الثقافية الغنية، و الدور الذي لعبته في الميدان السياسي و الفكري الكبير و ساهم في إعداد هذه الجريدة - البصائر بسلسلتها - عدّة شخصيات ذات وزن ثقافي وفكري كبير، نذكر أهمهم و أبرزهم : عبد الحميد بن باديس، محمّد البشير الإبراهيمي - بن الدراجي، أحمد بن الديّاب، أبو يعلى الزواوي، حمزة بوكوشة، علي المرحوم، وأحمد بن دراجي، عبد الحفيظ الثعالبي، المكي الشاذلي، إسماعيل بن يعلى،

أمّا الشعراء فنذكر محمد العيد الخليفة، أحمد سحنون، محمد الشبوكي، أحمد بن ذياب، محمد التبسي، العباس بن الحسين، أحمد توفيق المدني، محمود بوزوزو وغيرهم.
وتعدّ البصائر من أهم الجرائد التي أصدرتها الجمعية لأنها وإن كانت صدرت لتكون لسان حال الجمعية وتدافع عن قضايا العروبة والإسلام إلا أنّها كانت تناقش جميع القضايا التي تهتمّ الأمة الجزائرية والعالمين العربي والإسلامي.

أما بالنسبة لأبواب الصحيفة فإن العدد الثاني منها يوضح لنا الموضوعات التي طلبت البصائر من الكتاب أن يتناولوها بأقلامهم وهي :

1- حقائق الإسلام ومحاسنه، شرحها وبيانها.

2- إحياء السنن الميثة التي تركها الناس وذلك بالقول والفعل.

3- التاريخ الإسلامي : عبره وعظاته وسير أجماده .

4- الأمراض الاجتماعية.

5- الحث على العلم وتنبيه الناس إلى أهميته.

6- الكتابة في موضوع اللغة العربية و آدابه.

مما لا شك فيه ، أن الثورة الجزائرية التي اعتبرتها فرنسا الاستعمارية عند قيامها مجرد سحابة عابرة يمكن القضاء عليها في أيام قلائل ، قد برهنت منذ بدايتها على أنها ثورة شعبية وراء قيادة منظمة سياسية وعسكرية وإن كانت تفتقر في البداية إلى التجربة الكافية والاحترافية والتباين الكبير عددا و عدة بين إمكانياتها وإمكانيات العدو، و ما أشيع عنها من شكوك لم تنقص من عملها السياسي والعسكري بل كانت تداعياتها ونُعوتها التي روجتها عن الثورة بمثابة حقن مهيّجة حيث أخرجت الثورة من فضائها الضيق إلى فضاء واسع. وقد سبق قيام الثورة ، جملة من الصحف و الجرائد و المجلات و المؤلفات التي عبّرت عن موقفها الصريح والمعادي للمظالم التي اقترفتها السلطات الفرنسية ، فإذا كانت قرارات وأرضية مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 قد ركّزت في إحدى فصولها على الجانب الإعلامي كونه أحد العناصر الهامة إلى جانب

الكفاح السياسي و الكفاح العسكري فُترجم ذلك بظهور صحيفة " المجاهد " اللسان المركزي لجهة التحرير الوطني لأول مرة كنشرة للثورة الجزائرية في جوان من سنة 1956 بالجزائر، باللغة الفرنسية ثم تُرجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية . وقد جاء في افتتاحية العدد الأول ما يلي: ستكون " المجاهد " بالإضافة إلى جريدة " المقاومة الجزائرية " اللسان الناطق المأذون له أن يتكلم باسم جبهة التحرير الوطني كما سيكون المرآة التي تنعكس فيها نشاطات جيش التحرير الوطني وستتبع "المجاهد" مكانتها لتكون سمع الرأي العام، وبصره، وصوته، ولتزود الشعب بالأخبار الحقيقية، فتكون صلة الوصل بينه وبين مجاهدي جيش التحرير الوطني"¹. وبذلك أصبحت رسمياً اللسان المركزي الوحيد لجهة التحرير الوطني والمعبر عنها، وتحوّل شعار الصحيفة من (لسان حال جبهة التحرير الوطني) إلى (اللسان المركزي لجهة التحرير الوطني) كما تمّ حذف شعار (الثورة من الشعب وإلى الشعب) ثم عاد من جديد ابتداءً من العدد التاسع.

ومنذ ذلك الحين قامت صحيفة "المجاهد" بدور فعال وأساسي في إبلاغ الرأي العام الدولي بحقيقة الثورة الجزائرية، وكانت أداةً لتعبئة الرأي العام الداخلي وتوجيهه في التقاط المعلومات الحقيقية التي هو في حاجة ماسّة إليها، قصد تتبع مسار الثورة وجنود جيش التحرير الوطني في عملياتهم المتواصلة ضدّ القوات الاستعمارية، وسرد مراحل المقاومة الباسلة التي يديها الشعب الجزائري.

صدرت المجاهد في المرحلة الأولى كنشرة مسحوبة على الرونيون²، ولم يتجاوز سحبها للعدد الواحد 2000 نسخة مما أدّى إلى ضياع بعض الأعداد. وقد وصلنا منها 116 عدداً تضمنت مادة إعلامية موزّعة على الأنواع الصحفية- ما عدا الأخبار- كالاتجاهيات، والمقالات، والتقارير والأعمدة الصحفية، والدراسات.

وقد تركّزت المادة الخبرية على الدفاع والتعبير عن أفكار جبهة التحرير الوطني، وإبراز أصالة الشعب الجزائري، والعمل على تدويل القضية الجزائرية، وفضح أساليب ودعاية العدو

¹ - المجاهد: العدد 01- جوان 1956.

² - عواطف عبد الرّحمان: الصحّافة العربية في الجزائر، دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية 1954-1962، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، الجزائر، 1985م، ص 54.

أمام الرأي العام المحلي والعالمي، فلم يعد أحد يصدّق البلاغات الزائفة التي يخلّتها المكتب النفساني الثاني التابع للجيش الفرنسي، ليتبرع بتوزيعها على وكالات الأنباء في العالم أجمع، ومما يمكن قوله باختصار أنّ الدّعاية الإعلامية المخصّصة للرد على دعاية الاستعمار الفرنسي قد احتلّت حيزاً كبيراً. حيث فضحت الدعاية الاستعمارية وكشفت أساليبها، وفضحت جرائم الاستعمار الفرنسي أمام الرأي العام العالمي وبذلك حصّنت الشعب الجزائري من التّضليل الإعلامي الذي مارسته فرنسا، والأخبار المزيفة والمفكّقة التي كانت تُذيعها الدوائر الاستعماريّة، ومواجهة الصحافة الاستعمارية على المستوى الدولي. ففي أول عدد تكشف المجاهد عن هوية محرّري الأخبار الاستعمارية وهم أعضاء المكتب الثاني التابع لمخابرات الجيش الفرنسي إذ تقول: "إننا نعرف زيف البلاغات الفرنسية ولا يصدقها أحد منا، إنهم لا يعرفون كيف يكذبون، وفي كثير من المرّات كنا نعيش بأنفسنا الوقائع الصارخة التي تكذب بلاغات القيادة الفرنسية...".¹

إنّ دراسة محتوى صحيفة المجاهد يحتاج إلى وقت طويل لا يسمح به المقام، ولكننا سنركز فقط على بعض المقالات كعينة. ففي الرد على الصحافة الفرنسية كتبت تحت عنوان (صحافي أجنيبي يشهد أن فرنسا تخبئ الهزائم العسكرية التي تتكبدها في الجزائر): "يبين تحليل الحالة أنّ الأمن والنّظام قد ازداد تغيرهما خلال شهر جوان وجويلية، وقد صرّح روبر لاكوست الوزير المقيم بالجزائر في الأسبوع الأخير أمام مجلس الوزراء أنّ الثورة قد رُدعت، وأنّ الحالة أصبحت في تحسّن مستمر. لكنّ الثوار قتلوا من الجنود الفرنسيين خلال شهر (جويلية) أكثر مما قتلوا منهم في شهر (جوان)... هذا ومن الظاهر أنّ البلاغات الرسمية لا تعطي صورة صادقة عن الحالة الراهنة في الجزائر التي لا نشك في أنّها أردأ مما تفصح عنه التصريحات الرسمية. كما اهتمّت المجاهد بتنوير الرأي العام بأهداف الثورة. ففي العدد الثاني وتحت عنوان (لماذا نكافح) كتبت الصحيفة قائلة.

ولتبيان وحشية المستعمر للرأي العام الوطني والدولي كتبت الصحيفة في العدد الثالث مقالا تحت عنوان: "كيف يقتل جنود الاستعمار النساء الحوامل" كما اهتمّت الصحيفة بما تناولته الصحافة الدولية عن الجزائر، فاقتبست العديد من المقالات، وخصّصت صفحات للحديث عن

¹ - المجاهد: العدد - 01.

الأحداث كنصف الشهر السياسي، ونصف الشهر العسكري، وردود الأفعال الدولية حول قضية الجزائر.

وعلى العموم لا يمكن التطرق بالتحليل لمختلف المواضيع التي تناولتها الصحيفة طيلة سنوات صدورها ولكن يمكننا القول بأنها ركزت على النقاط التالية:

01- التركيز على كشف الزيف وتعرية الإشاعة والدعاية المضادة، وبيان الكذب والتناقض فيها لإسقاط فاعليتها، وتوجيه ردّ الفعل ضد مروجيها، ومجابهة العدو وتحديده، وكشف تناقضه وتآمره، وكذبه وتضليله، مما يعرّيه أمام الرأي العام، وتشكيل الحواجز بينه وبين المساحة البشرية التي يسعى للتأثير عليها فيفقد ثقته وتجاوبها معه.

02- استعمال الإسقاط كأسلوب إعلامي آخر ذا فاعلية نفسية لهزّ العدو من داخله وإشعاره بتفاهة شخصيته ومواقفه ليكون المهزيم في أعماقه النفسية، ويسلب منه الروح المعنوية، والقدرة على المواجهة، بتوجيه الخطاب إليه كطرف هزيل يوضع موضع الاستهزاء والسخرية.

03- استعمال أسلوب الاستمالة والتأثير، وذلك بمخاطبة الجانب الوجداني المؤثر في الطرف المتلقي، بتوجيه الخطاب اللين، والكلمة الجذابة، ليشعر المتلقي باحترام الإعلام الموجه إلى شخصيته، وحسن نية الجهة التي تخاطبه، وحرصها على حفظ مصالحه وكرامته، فيكسب ودّه وثقته، ويتقبل أفكاره.

04- استعمال الموضوعية والإقناع المنطقي، فكما يخاطب الإعلام الجانب النفسي والعاطفي عند الإنسان، ويستعمله كمدخل لشخصية المتلقي للخطاب الإعلامي، وللتأثير على مساحات واسعة من الرأي العام فإنه يستخدم الإقناع المنطقي، والأسلوب العقلي، والموضوعية العلمية، ليُشعر العدو وأتباعه، بثقته بنفسه، ومن ثم يُشكّكه في قناعاته ويضعه في موضع الضعيف المتهم.

05- تحطيم الرموز المعادية، إذ تشكل الرموز المعادية الهدف الأول للإعلام، والحرب النفسية المضادة. ذلك أن الرّمز والقيادة هي القوة المركزية والموجه الحركي للجماعة والأمة، وكلما كان للجماعة والأمة ثقة برموزها، وتقديس لقيادتها، وارتباط وثيق بها، صعب اختراق الإعلام المعادي لتحسيناتها الفكرية والدعائية، لذا فإنّ مثل هذا الموقف يتطلّب من الخطاب الإعلامي المضاد تحطيم الرّمز المعادي، وعزل تأثيره، وتدمير الثقة به. ويستخدم الإعلام هذا الأسلوب لتعرية المنحرفين، وكشف زيفهم، وجنابتهم على الإنسانية، وتحطيم التأثير النفسي

على الرأي العام.

هذه هي الخطوط العريضة التي كانت تهدف إليها صحيفة المجاهد خاصة، وإعلام الثورة عامة، وهي الحرب الأخرى للمقاومة، وقد تعاملت السلطات الاستعمارية مع الصحافة بازدواجية فاضحة، إذ كان موقفها إيجابيا من الصحافة التي كانت تروج لها وتخدم أهواءها، وميؤها وتوجهاتها و تمجد دورها الحضاري. وسلبيا من تلك التي كانت على العكس من ذلك، لذلك كانت الصحف العربية الوطنية عرضة لمقص الرقابة، وللتعطيل والتوقيف، والمتابعات القضائية للكاتب وأصحاب الجرائد. غير أن التضييق على الصحافة العربية إبان الثورة المظفرة، زاد من لهيب التضامن العربي والإسلامي والعالمي معها كثورة إنسانية في المقام الأول، وانعكس ذلك من خلال المؤلفات و الدواوين الشعرية، والمقالات السياسية الساخنة والأمسيات الشعرية والندوات الفكرية، وغيرها من النشاطات التي تصبّ كلّها في التضامن مع الثورة الجزائرية وشعبها المكافح. ففي سوريا كان ديوان سليمان العيسى أكبر دليل على موقف هذه البلدان من الثورة، يُضاف إلى ذلك مؤلفات مصطفى طلاس، و بسّام العسلي وغيرهم، وفي العراق ديوان شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري، والأستاذ علي الوردي، والعلامة الشيخ محمد رضا.

إنّ هذه الهبة التضامنية مع الثورة الجزائرية جعلت السلطات الفرنسية الاستعمارية بالجزائر، تضرب حصارا خانقا على كلّ الجرائد والمجلات والدوريات العربية، في محاولة يائسة منها لعزل الثورة الجزائرية.

و من المنشورات التي أوقف بيعها وتوزيعها قبل الثورة مؤلف "الإخوان المسلمين" الذي كان يطبع في بيروت، ومجلة "العالم العربي" المصرية، والتي كانت تصدر في القاهرة إلى جانب الجرائد الأخرى كجريدة "الدعوة" و "منبر الشرق" و جريدة "المصري".

وعلى الرغم من هذا التضييق والحصار المضروب على الصحف العربية تواصلت نشاط الصحف العربية في العام الأول للثورة بالرغم من المضايقات التي كانت تعانيها، لكن صبر السلطات الاستعمارية لم يدم طويلا فأصدرت عدّة قرارات بمنع الصحف العربية من مختلف الأقطار، وكانت البداية بالصحف المصرية، وذلك بحظر أربع دوريات مصرية من البيع والتوزيع في الجزائر وهي: "الإذاعة المصرية" و "الأخبار المصرية" و "الثورة"

و"الجمهورية"، وبعدها بنحو عشرة أيام لحقت بها جريدة "رابطة الشباب". وقد لقيت الصحافة السورية المصير نفسه، ممثلة في جريدة "كفاح المغرب العربي". كما أبدت السلطات الاستعمارية موقفها أيضا من الصحافة المغاربية، فصدرت أوامر شبيهة في شأن الصحف والجرائد التونسية من بينها "البلاغ الجديد"، ثم جريدة "العمل" بمقتضى وجريدة "الأخبار" وجريدة "كل شيء على المكشوف". من خلال العناوين السابقة الذكر، يتضح جليا مدى الذعر الذي خلفته هذه الصحف العربية في الإدارة الاستعمارية الدخيلة بسبب مواضيعها و مقالاتها ولأن - الدول العربية - كانت هي الأخرى قد تذوقت المآسي و تجرعت الآلام ، فكانت كتابات الأشقاء تعبيرا منهم عن نُبل موقفهم الذي استمدّوه من وحي تجاربهم السابقة، وإيمانهم الراسخ بعدالة القضية الجزائرية.

الفصل

الثاني

الفصل الثاني : المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث: على الصعيد الداخلي

أولا /التجنيس

ثانيا/التمثيل النيابي

ثالثا: الهوية الوطنية

أ/ الدين الإسلامي

ب/ اللغة العربية

ج/ الوحدة الوطنيّة

د/عنصر التاريخ

رابعا/المؤتمر الإسلامي 1936

خامسا/مجازر 08 ماي 1945

سادسا/ثورة نوفمبر 1954

أ/ اندلاع الثورة التحريرية

ب/أساليب التعذيب والإبادة المنتهجة من طرف الاستعمار الفرنسي

ج/مخططات الاستعمار لإجهاض الثورة -مشروع شال ومشروع قسنطينة-

ه/فصل الصحراء:

و/ القضية الجزائرية على الصعيد العالمي

ز/ المفاوضات وإعلان الاستقلال

لقد عاجلت المقالة السياسية في هذه المرحلة قضايا عديدة وشائكة كانت تمس جوهر ثوابت المجتمع الجزائري وهويته، والتي كانت تتنازعها أهواء شتى، يأتي في مقدمتها خطر التفرنس والتغريب الذي سعى الاستعمار الفرنسي كل ما في وسعه لفرضه على الشعب الجزائري، في محاولة منه تذويب مقومات الأمة ومحو شخصيتها، باعتبارها الخطر الأول الذي يهدد وجوده ويُقوّض سلطته المحكمة التي فرضها بمنطق الحديد والنار على أبناء هذا الوطن المفدى.

ومادام حديثنا يدور حول المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث فإنه من الأهمية بمكان الإشارة والتنبيه لمفهوم الاندماج الذي قد يعده البعض مظهرا اجتماعيا خالصا لا تربطه رابطة بالشق السياسي، والحقيقة أن هذا من الخطأ البين الذي لا ينبغي الوقوع فيه وربما سعى الاستعمار الفرنسي لتعميم هذا المفهوم حتى تنطلي حيلته على الشعب الجزائري، وذلك بترويجه لفكرة أن الاندماج داخل المجتمع الفرنسي مسألة شخصية تدخل في نطاق الحرية الشخصية لكل إنسان، من خلال التجنس بجنسيته والاحتكام لقوانينه المدنية التي تتنافى مع روح الشريعة الإسلامية الغراء باعتبارها المصدر الأساس للتشريع عند المجتمع الجزائري، ولأن هذا المظهر الغريب والهجين على الشعب الجزائري لم يسبق له -الاندماج- أن عرفه المجتمع الجزائري إلا مع الاحتلال الفرنسي للجزائر، إذن فالاندماج فرع من أصل والفرع يتبع الأصل في الحكم. فالاستعمار سياسي ديني في المقام الأول فكذلك يعد الاندماج مظهرا من مظاهره السياسية.

والحقيقة أن مسألة الاندماج لم تكن وليدة الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى فحسب، وإنما تمتد جذورها إلى قانون "سناتوس كونسلت" الصادر بتاريخ 14 جويلية 1865 الذي قضى بحق الجزائريين في الحصول على الوظائف المدنية والعسكرية، وحق الجنسية الفرنسية شريطة التخلي عن الأحوال الشخصية، أي حق المواطنة الفرنسية بالتجنيس.

غير أن قانون التجنيد الإجباري الصادر سنة 1912¹، والذي فرض على الشعب الجزائري وزُجَّ بأبنائه في أتون حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، شجع بعض الأصوات الجزائرية على

¹-)Ministre de la guerre, Rapport au président de la république Française , « le Mobacher»
N.5436, Samedi 02 mars 1912 , p 01

المطالبة بنفس الحقوق التي يتمتع بها الجندي الفرنسي، وتطور الأمر ليُجعل منه البعض الآخر مطيِّبة للمطالبة بالجنسية الفرنسية ومن ثمة الذوبان في العنصر الفرنسي، وانعكس ذلك بشكل جليّ على هؤلاء المندمجين، فتزوجوا الفرنسيات، وخضعوا لأحكام القانون المدني الفرنسي عوضاً عن قانون الأحوال الإسلامية، واتخذوا من الفرنسية لسان حال ومقال.

إنّ الباحث المتتبع لمجموع الصحف العربية الصادرة خلال الفترة الممتدة (1925-1945) يجد شبه إجماع بين كتاب المقالة السياسية - باختلاف مشاربهم وتوجهاتهم الفكرية سواء أكانوا إصلاحيين أو طرفيين أو استقلاليين- على التصدي لفكرة الاندماج والاندماجين ورفضها، وذلك من خلال تسويدهم لمقالات كلها نقد لاذع لكل من اختار طريق الاندماج في المجتمع الفرنسي أو من خلال تبيان مساوئها وأخطارها على وحدة الشعب الجزائري، وشق صفه، وتفكيك بنيته، مثلما اضطلعت مقالات أخرى بإيضاح حكم الإسلام في هؤلاء المندمجين، وذلك بنشر سلسلة من فتاوى علماء الجزائر وغيرهم من علماء أقطار العالم الإسلامي.

فجريدة الشهاب¹ لصاحبها عبد الحميد بن باديس، نجدها قد شنت حرباً ضروساً على المندمجين ودُعاهم، ذلك أنّ فكرة الاندماج تتعارض إلى حدّ التصادم مع مشروع الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان يهدف إلى إعادة إيقاظ الأمة الجزائرية وتنبيهها، لتعود إلى هويتها وثوابتها ومرجعيتها الدينية الإسلامية، والتي اختزلها شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في شعار مُحكم: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا.

ففي مقال للشيخ عبد الحميد بن باديس بعنوان " كلمة مُرّة لأنها صريح الحق ولُبّاب الواقع" بيّن فيها بجرأة سياسية نادرة حقيقة الوطن الجزائري والأمة الجزائرية التي لا تقبل ولن تقبل أن تكون أو تصير فرنساً مهما حاول الاستعمار الفرنسي ذلك بمعية أعوانه، هذا المقال دبّجه ابن باديس وهو بصدد الحديث عن قضية الاندماج، وهو ردّ مباشر صريح على مقال كتبه فرحات

¹ - ثاني جرائد الشيخ عبد الحميد بن باديس وأطولها عمراً صدرت من (12 نوفمبر 1925 إلى أوت 1939)، ينظر: الصحف العربية الجزائرية، من 1847 إلى 1954، مرجع سابق، ص 64.

عباس¹ زعيم تيار الاندماجين، ينفي فيه وجود أمة جزائرية تماما، ويدعي أنه سأل حتى الأموات عن حقيقة هذه الأمة لكن لم يجبه أحد، ولم يثبت له أحد وجودها، في مقال عنوانه "فرنسا هي أنا" والحقيقة أن دلالة المقال غنيّة عن كل شرح أو تفسير، وتعكس بصورة جليّة درجة الافتتان والانبهار التي هوى فيها بعض الجزائريين بفرنسا والحضارة الأوروبية بصفة عامة، لا سيّما تلك الشريحة الواسعة من الجزائريين الذين تعلّموا في المدارس الفرنسية أو ما يصطلح عليهم باسم "النخبة"، مع الإشارة أن هذا الحكم نسبي لا يمكن تعميمه على كل من انتسب للمدارس الفرنسية، فهناك من تعلم الفرنسية ووظفها للدفاع عن وطنه وأبناء وطنه، ولنا في رواد الحركة الوطنية المثال الحيّ، ولعلّ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد فصل في هؤلاء المتعلمين بالفرنسية، وذلك حين قسّمهم إلى أقسام ثلاثة: "صنف تعلم الفرنسية ليعيش، وصنف ثان تعلمها ليدوب ويندمج في فرنسا، وصنف ثالث تعلمها ليدافع بها عن قومه وجزائريته ووطنه"².

ومن الذين كانوا يزورون "ابن باديس" في إدارة مجلة "الشهاب" المحامي "آيت قاسي" المعروف في الأوساط الفرنسية والجزائرية بفصاحته وقوة عارضته في الدفاع عن حقوق الجزائريين، حتى كان يقول عنه "ابن باديس": "إنه من الرجال القلائل الذين سيؤثرون في مجرى تاريخ الأحداث في الجزائر إذا مدّ الله في أجله، لأنّه الرجل الجزائري الذي أراد الاستعمار أن يضربنا به وبأمثاله، فسبقناه وضربناهم به جميعا"³.

إنّ المقال الذي كتبه فرحات عباس والذي زعم فيه أنه فتّش عن الوطن الجزائري ولم يعثر له عن أثر، بل ونفى وجود أمة جزائرية بقوله: "لو أنني اكتشفت الأمة الجزائرية، لصرت وطنيا

¹ - فرحات عباس (1985/1899) رجل سياسي ومؤسس حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وأول رئيس للحكومة الجزائرية المؤقتة، ينظر: عاشور شرقي: معلمة الجزائر القاموس الموسوعي، دار القصة للنشر والتوزيع، د.ط، 2009، ص 1005.

² - باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسيين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، منشورات الخبر، الجزائر، 2007، ص 31.

³ - المرجع نفسه.

ولا أخجل من ذلك... إن الجزائر كوطن قومي هو مجرد أسطورة، بحث عنه فلم أجده، ساءلت التاريخ، ساءلت الأموات ومعهم الأحياء، زرت المقابر، ولا أحد أجابني"¹.

هذه الكلمات المحففة المتجنبة، الضاربة لتاريخ الجزائر ورجالها من فجر التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، استفزت كل جزائري وطني غيور، للردّ عليها وإرسال رسالة مفادها أن الشعب الجزائري راشد، لا يقبل الوصاية من أحد، وأنّ كل ما يصدر من أراء تمس جوهر الأمة الجزائرية ومقوماتها لا يُعبّر بالضرورة عن ضمير الأمة، وإنما يعكس رؤية أصحابها وتوجهاتهم الفكرية، وكان من بين المقالات التي سجلها التاريخ في السجل الذهبي للصحافة العربية في الجزائر، مقال الشيخ عبد الحميد بن باديس، والذي استهله بماته المقدمة التي تعكس تحكّم الكاتب في أدوات وفتيات المقال، يقول ابن باديس: " إن تربيتنا العلمية الدراسية، المبنية على بيان الحقيقة وإجلالها على ما هي عليه، صيرتنا لا نستطيع شيئا من المواربة والتلبيس.

نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون- وربما عن سوء قصد- تاريخنا ومقوماتنا، ويودون لو خلعنا ذلك كلّه واندجنا في غيرنا، وكنا نرد عليهم بالقول في كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة الخاطئة، ووقع أن كتب بعضهم- وهو ممن له قيمة معتبرة عندنا- ما هو صريح أو كالصريح في ذلك الضلال المهلك، فرأينا من الواجب علينا أن نردّ عليه بكلمة صريحة، نُعرب بها في يقيننا عن الحقيقة التي يعتقدونها الشعب الجزائري -إلا الشاذ- في صميم نفسه"².

إن هذه المقدمة الرائعة التي استهلّ بها ابن باديس مقاله، والتي تبين إلى جانب إلمامه بفتيات كتابة المقال، تكشف كذلك عن أسلوبه المهدب في الردّ عن من يخالفه الرأي، دون أن يقدح في شخصه، أو يُشكك في وطنيته، لذلك نجد الكاتب يلمح لشخصية فرحات عباس دون أن يسميه بالاسم، ويُترّفه عن السقوط في خطأ سياسي فادح كهذا، وذلك عندما أوجد ابن باديس العذر لفرحات عباس فما ذهب إليه من إنكار لوجود أمة جزائرية لها تراثها

¹ -L'Entente Franco-Musulmane , n=24 , jeudi 27 fevrier 1936 , P.1.

² - عبد الحميد بن باديس: الشهاب: دار الغرب الإسلامي، ط.01- 1421هـ/2001م- ج09- مج 13- رمضان 1356هـ/ نوفمبر 1937م- ص 403.

وخصوصيتها، التي تميزها عن باقي أمم الدنيا، بقوله: " نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا يُنكرون- وربما عن غير سوء قصد- تاريخنا ومقوماتنا"¹.

عبر ابن باديس عن ذلك كله بأسلوب لطيف عطوف، وأدخل هؤلاء-المشككين في تراث الأمة ووجودها- في زمرة الأبناء، وذهب أبعد من ذلك، عندما أرجع سبب إنكار هؤلاء لثوابت أمتهم، لجهلهم لهذا التاريخ عن سوء قصد، بحكم تعليمهم النظامي في المدارس الفرنسية، التي كانت تُلقن الجزائريين أضرابا وأوهام وأغلاط تاريخية، من قبيل الجزائر قطعة فرنسية، والفاتحون المسلمون غزاة محتلون، والعرب جنس غير متحضر.

وبعد أن قدّم الكاتب لمقاله هذا، انتقل إلى الرد على المشككين في هوية الأمة الجزائرية وتاريخها التليد، في قالب حجاجي مُفحم: " الأمة الجزائرية أمة متكونة موجودة، كما تكونت ووُجِدَت كل أمم الدنيا، وهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة، وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمم الدنيا. ثم إن هذه الأمة الجزائرية والإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وفي أخلاقها، في عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة."²

وبعد أن قطع ابن باديس الشك باليقين، في ما تعلق بوجود الأمة الجزائرية، وباستقلال شخصيتها عن الدولة الفرنسية، وبتفردّها عن المجتمع الفرنسي والأوربي في العوائد والأخلاق واللغة والدين، يختم الكاتب مقاله بالإشارة إلى الغرض المقصود من وراء تديججه لهذا المقال: " فجلينا بكلمتنا هذه الحقيقة مكشوفة في وضوح النهار، وقطعنا الطريق على كل مُتَقَوِّلٍ بالباطل، وأرْحْنَا كل باحث ومتردد من بحثه وتردده."³

وبنظرة الحكيم الذي يقدر عواقب التحنس بالجنسية الفرنسية، وما ينجرّ عنها من مخاطر وخيمة، تحتث الجزائري من أصله، وتفصله عن أرومته، وترجُّ به في مجتمع ينبذه ويلفظه،

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

³ - نفسه - ص 404/403.

وتجرده من كل أوامر الأخوة التي تربطه بأبناء جلدته، فيغدو هيكلًا بلا روح، وإن كان لأمتين أن تندمجا مع بعضهما، مع اختلافهما في الدين واللغة والعوائد، فإن هذا الاندماج ظريفي فقط، لأن مآله ذوبان إحدى الأمتين في الأخرى أو استقلالها بشخصيتها وهويتها، لاسيما إذا كان هذا الاندماج في ظل هيمنة استعمارية صليبية حاكمة، يقول ابن باديس: "من الممكن أن يدوم الإتحاد بين شعبيين مختلفين في الجنسية القومية، إذا تناصفا وتخالصا مما ارتبطا به من الجنسية والسياسة، التي قضت بما الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة، فإذا لم يرتبطا بالجنسية السياسية فلا بدّ لهما من أمرين: إما أن يندمج أضعفهما في أقواهما بانسلاخه من مقوماته ومميزاته فيندمج من الوجود، أو يبقى الضعيف محافظا على مقوماته ومميزاته فيؤول أمره - ولا بدّ - إلى الانفصال، وبعد فنحن الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية، وقد دلّت تجارب الزمان والأحوال على أنّنا أشدّ محافظة على هذه الجنسية القومية، وأننا ما زدنا مع الزمان إلا قوة فيها، وتشبّثًا بأهدافها، وأنه من المستحيل إضعافنا فيها فضلا عن إدماجنا أو محونا".¹

وإيماننا منه بخطورة التجنس بالجنسية الفرنسية على هوية الجزائر ووجودها، أصدر الشيخ عبد الحميد بن باديس فتوى جريئة تقضي بالردّة على كل متجنس، كان ذلك في شهر جانفي 1938، حيث تقضي الفتوى بتكفير كلّ مسلم جزائري أو تونسي أو مغربي يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية باختياره، ويتجنس بالجنسية الفرنسية للتمتع بالحقوق المدنية، قال ابن باديس: "ما أكثر ما سألنا عن هذه المسألة، وطلب منا الجواب في الصحف، ومن السائلين رئيس المتجنسين الأستاذ التركي (الذي لم يجد من يفتيه في تونس) وكاتبنا برسالتين، فأدبنا الواجب بهذه الفتوى: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله: التجنّس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة الإسلامية، ومن رفض حكما واحداً من أحكام الإسلام عدّ مرتدّاً عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنّس مرتدّاً بالإجماع، والمتجنس - بحكم القانون الفرنسي - يجري تجنّسه على نسله، فيكون قد جنى عليه بإخراجه من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من شرّ الظلم وأقبحه، وإثمها متجدّد عليه ما بقي له نسل في الدّنيا، خارجا عن

¹ - مجلة الشهاب، العدد 1، ربيع الثاني 1344هـ/ نوفمبر 1925، ص 326-327.

شريعة الإسلام بسبب جنائته... والعلم عند الله... "خادم العلم وأهله" عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء".¹

وقد أتت هذه الفتوى الصارمة أكلها في أوساط المتفرنسين من أبناء الوطن، إذ استطاعت أن تُقلص من عدد المتجنسين، وخفتت تلك الأصوات النشاز التي كانت إلى وقت قريب تدعو إلى الانغماس في حمأة التأورب والتغرّب، بل وبلغ صدى هذه الفتوى الأقطار الشقيقة الخاضعة لسلطة الاحتلال الفرنسي فأحجم جمهور واسع ممن تشبع بالثقافة الفرنسية على التحسّس بجنسية المحتل.

ولعل أول خطوة في طريق الاندماج تتم عن طريق التزوج بالأجنبيات، الأمر الذي يهدد كيان الأسرة الجزائرية، بوصفها الخلية الأساسية للمجتمع، ومن الظواهر السلبية التي حاربها المصلحون وتصدّوا لها ظاهرة شاعت بين المثقفين كثيرا هي الزواج بالأجنبيات، وعلى الخصوص الفرنسيات، ونّبها لما في ذلك من خطر على تربية الأولاد وشخصيتهم، فينشئون نشأة مشوّهة ممسوخة.

وهذا ما تناوله الشّاعر الأمين العمودي، بأسلوب ساخر، بسبب زواج الدكتور سعدان من فرنسية، والتي رُزق منها بولد سمّاه هو محمد الصّالح، وأصرّت هي على أن تناديه بموريس. يقول الأمين العمودي:

حيُّوا الحكيمَ ولا تنسوا قرينتهُ	فهو سليمانُ والمدامُ بلقيسُ
له غلامٌ أطل الله غرّتَهُ	تنازعَ العُربُ فيه والفرنسييسُ
لا تعذّلهُ إذا ما خانَ أمّتَهُ	فنصفهُ صالحُ، والنّصفُ موريسُ. ²

كما أفتى - ابن باديس - في قضية تزوج المسلم الجزائري بالفرنسية على الرغم من أنّ الإسلام يبيح الزواج بالكتابية فد أفتى بجرمة زواج الجزائري المسلم بالفرنسية، وعلّل ذلك بكون النتيجة التي تؤدي إليها هذا الزواج هي الخروج عن حظيرة الإسلام، لأن القانون

¹ - البصائر: السلسلة الأولى - السنة الثانية - العدد - 79-12/1937/08/20 جمادى الثاني 1356 هـ و العدد 95 السلسلة الأولى - السنة الثالثة - 12 ذي القعدة 1356 هـ/14 جانفي 1938م.

² - محمد الهادي الحسني: أشعة الشروق - دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع - الجزائر - طبعة 2010 - ص 327.

الفرنسي يقضي بأن أبناءه منها يتبعون جنسية أمهم في خروج نسله عن حظيرة الإسلام. فإن كان راضيا بذلك فهو مرتدّ عن الإسلام، جانّ على أبنائه، ظالم لهم، وإن كان غير راض لهم بذلك، وإنما غلبته شهوته على الزواج، فهو آثم بجنايته عليهم، وظلمه لهم، لا يخلصه من إثمه هذا إلا إنقاذهم مما أوقعهم فيه

وفي ذات الموضوع أصدر فتوى أخرى في قضية دفن أبناء المتجنسين في مقابر المسلمين :
سأل أحد أهالي (ميشلي) من القبائل الكبرى عن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسية هل يجوز دفنهم في مقابر المسلمين ؟ فكان جواب ابن باديس كما يلي : بعد الحمد لله والصلاة والتسليم على النبي وآله: "فابن المطورني، أي (المتجنس) إذا كان مكلفا، ولم يُعلم منه إنكار ما صنع أبوه والبراءة منه، فهو مثل أبيه لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، وإن كان صغيرا فهو مسلم على فطرة الإسلام، يدفن معنا ونصلي عليه" كتبه خادم العلم وأهله : عبد الحميد بن باديس.¹

وقد حدث أن مات بعض المتجنسين، فلم يرض المسلمون أن يدفنوا في مقابرهم، كما لم يرض الفرنسيون أن يدفنوا في مقابرهم، وعدّهم كل فريق أجنب عنهم، فلا إلى هؤلاء، ولا إلى أولئك انتسب المتجنسون، "فلا هم مسلمون ولا هم مسيحيون، وكانوا عبرة عظيمة لغيرهم، وحاول عقلاؤهم والمتفلسفون منهم أن يجعلوا التجنس مسألة سياسية لا دخل للدين فيها، ولكن عامة المسلمين والمسيحيين رفضتهم... وكما أفزعت هذه الفتاوى المجنسين والمتفرنسين من أبنائنا، أفلقت كذلك السلطات الفرنسية، والدوائر التبشيرية، وأذناهما، ورأوا فيها معارضة خطيرة لمخططاتهم الجهنمية في سبيل القضاء على الشخصية القومية في الجزائر الفرنسية، وكانت تلك الفتاوى ضربات قاضية لهذا النوع من المسخ والدوبان في الغير، فأوقفت هذا التريف القاتل للهوية الجزائرية والشخصية الإسلامية"²

والحق أن مسألة التجنيس لم تضطلع بمهمة هدمها ومقاومتها الحركة الإصلاحية لوحدها، بل حتى التيار الطرقي قد جاهر برفضه لهاته الآفة الخطيرة، التي بدأت تنخر جسد الأمة الجزائرية،

¹ - البصائر - السلسلة الأولى - العدد 79 - مصدر سابق.

² - محمد الصالح رمضان: مجلة الثقافة - العدد 83 - السنة الرابعة عشر - ذو الحجة - محرم 1405/1404 هـ / سبتمبر - أكتوبر 1984م - وزارة الثقافة والسياحة - الجزائر - ص 361.

ولعل هذه المسألة هي المسألة الوحيدة التوافقية بين الحركة الإصلاحية و التيار الطرقي، فقد أفردت جرائد الطرفين حيزا واسعا لهذه القضية، وسوّدت مقالات بشأنها، فجريدة البلاغ¹ مثلا أعلنت عن رفضها الكلي لمسألة التجنيس: "أصبحنا نسمع في قطرنا وممن ينتمي إلى العلم من أبناء ملتنا أنه لا بأس أن يترك الإنسان جنسيته، وأن يتساهل في ميزته، وأنه يكفيه أن يكون مسلما بقلبه، وكلاما هذا مفاده ومن الغد يحتمل أن يقال لنا من هذا النوع لا بأس بالرجل أن يتخنث، وبالمرأة أن تترجل، وبالإنسان أن يكشف عورته، وييدي سواته، وما هو من هذا القبيل".²

كما دّبح كاتبها المولود المحافظي مقالات عديدة، بيّن فيها خطر التجنيس على الإسلام والمسلمين في الجزائر، واستنكر محاولة بعض المتجنسين الجدد، فرض التجنيس على أبناء جلدتهم جبرا، يقول الكاتب: "الأمر الذي غاظنا وغاز كل مسلم ومسلمة، هو أنهم لم يقتنعوا بالتجنيس الاختياري، فبابه مفتوح لكل راغب، فليس لأحد أن يعترض على أحد في هذا الباب. لكن كل واحد أمير نفسه، حر في شخصيته وفي رأيه، بل هذا الفريق المتجنس أو الراغب في التجنيس، يسعى جهد طاقته في تجنيس المسلمين والمسلمات الهادئين المطمئنين، الذين أعظمهم بسطاء وعوام لا يعرفون ولا يتصورون معنى التجنيس، ولا علاقته بالدين، إن كان يصادمه أو لا ضرر فيه ولا يصادم نصوصه.

أما الذين يعقلون معنى التجنيس وعلاقته بالدين، وأنه لا يبقى هناك إسلام من التجنيس، فهم يتبرؤون منهم براءة الذئب من دم بن يعقوب، يفضلون أن يبقى لهم دينهم وهو أعز عزيز عليهم وكفى".³

إن القارئ لمقالات الشيخ عبد الحميد بن باديس السالفة الذكر، ولهذين المقالين المقتطفين من جريدة البلاغ، يقف على الفروق الجوهرية بين أسلوب جريدة الشهاب التي تعكس احترافية كاتب المقال بها، وتمرسه في الكتابة، وبين كاتب جريدة البلاغ الذي تكاد تكون لغته تقريرية محضة.

¹ - البلاغ (1926-1943): صحيفة علمية، إرشادية، دعوية، أسسها أحمد بن عليوة، شيخ الطريقة العليوية. ينظر: محمد بن صالح ناصر، مرجع سابق، ص 87.

² - البلاغ: العدد 304- 11 جمادى الأولى 1352هـ/الموافق ل 1933/08/21م.

³ - البلاغ: العدد 340- 1354/06/07هـ/الموافق ل 1935/09/06م.

ولم تتحلَّ صحف الشيخ إبراهيم أبو اليقظان عن الخوض في مسألة التجنيس، من خلال موقفها الثابت إزاءه، إذ رفضته رفضاً مطلقاً، ودعت إلى محاربة التجنيس والمتجنّسين دون هوادة، وهذا ما حملته على عاتقها جريدة الأمة¹، التي تصدّت لكل نزعات الفرنسة والمسخ، والإدماج، فقد تناول أحد كتاب الجريدة واسمه "الفاروقي" مقالا بعنوان "زارة من عرين" ودلالة اسم المقال تحمل في طياتها معنى التحذير والرهبة، فزئير الأسد دليل على نفاد صبره، واقتراب موعد بطشه بعدوه، تطرّق الكاتب في مقاله إلى موضوع التجنيس، وخطره على الشخصية الجزائرية العربية المسلمة، ونّبّه لضرورة مقارعة دعاة التجنيس أينما كانوا، وحيثما وجدوا، فهم أصل البلاء، ورأس الفساد: "... لا بدّ ثم لا بدّ من أن تسعوا وتجتهدوا في إحداث شيء يحفظ الدين والقومية، وتدعوا إلى ذلك جميع طبقات الأمة على اختلاف نحلهم، لعلهم تجمعهم كلمة دين ووطن، ولقطع دابر المفسدين أرى أول واجب محاربة التجنيس والمتجنّسين، لأنهما رأس الفساد."²

وقد أثار هذا المقال الشديد اللهجة، ردود أفعال كثيرة بين طائفة من كتاب تلك المرحلة من تاريخ الصحافة العربية الجزائرية، ومن بين الذين أيّدوا ما ذهب إليه الفاروقي في مقاله الشيخ أبو العباس أحمد بن الهاشمي التيجاني³، والذي حبر مقالا اختار له الآية الكريمة عنوانا {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} ﴿٣٨﴾ سورة محمد. وهو في ذلك يبرأ ذمته، واضعا القضية على بساط الدين، فيقول "أنّ دعاة التجنيس أينما توجهوا، وأينما حلّوا وارتحلوا، وجدوا الآيات المحكمات سادّة لكل سبيل في وجوههم، اللهم إلا سبيل الاختيار بين أحد الشقّين وإحدى الشيعتين"⁴

¹ - الأمة (1933-1938)، أشهر صحف الشيخ أبي اليقظان، وأغزرها مادة، وأطولها عمرا. ينظر: محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، مرجع سابق، ص 181.

² - الفاروقي: زارة من عرين، الأمة، العدد 78 - 1936/06/09م.

³ - أحمد التيجاني، مؤسس جمعية القيم بالجزائر، وهو أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، استقر بالرباط ثم مالبت أن نفته السلطات الاستعمارية إلى "آسفي" سنة 1936 ثم إلى مراكش بعد ذلك، نشر مقالات عدّة في كل من الشهاب والإصلاح والبصائر. ينظر: "جبهة التحرير تحرش ضد جمعية القيم الفتية"، جريدة الشروق اليومي، بتاريخ 2013/03/16م.

⁴ - الأمة: العدد 81 - 1936/06/30م.

ثانيا/التمثيل النيابي:

لقد حاول الاستعمار الفرنسي بشتى الطرق والوسائل بسط سيطرته ونفوذه على ربوع هذا الوطن الطاهر، ولما استشعر قوة الشعب الجزائري وضموده، الذي لم تنطفئ جذوة مقاومته وجهاده ضد المحتل الغاصب، منذ أن وطأ أول جندي فرنسي تراب هذا الوطن الطاهر، لجأ - الاستعمار - إلى طرق دنيئة للالتفاف على مطالب الشعب العادلة والإنسانية، وذلك بإلقائه لفتات من المناصب النيابية لنواب جزائريين حتى يقيم الحجّة على رواد الحركة الوطنية، وعلى كل الأصوات المنادية بالحقوق السياسية للشعب الجزائري هذا من جهة، ولتلمّع فرنسا صورتها أمام الرأي العام الدولي وتظهر في صورة الدولة المتحضّرة المتمدّنة التي مخّرت أساطيلها عجاج البحر لا لشيء سوى لتمدّن الشعب الجزائري وتحضّره، وتنتشله من براثن الجهل والتخلف. وهي أسطوانة لطالما ردّدها الاستعمار الفرنسي حتى صمّت الآذان من سماعها

إن هذا التمثيل النيابي الذي اتخذ شكل الهبة السياسية التي تجود بها الإدارة الاستعمارية على من رضيت منهم قولا وعملا، ممن ينتسبون للجزائر ظلما وبهتاناً، وعلى الرغم من التوزيع الجائر لهذه المناصب إذ يستولي المعمرون وأعوان الاستعمار على جُلّها، وهم أقلية يومئذ مقارنة بالجزائريين، فضلا عمّا تمتد له يد الإدارة الغاشمة من إقصاء وتزوير لكلّ من تشم فيه رائحة الإخلاص للوطن، أو لمن يثبت عندها أنّه حضر مجلسا لجمعية العلماء أو حزب الشعب، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الأصوات الجزائرية من حجز مكان لها في الساحة السياسية الفرنسية.

غير أن السواد الأعظم من النواب الذين كانت تتفنن الإدارة الاستعمارية في اختيارهم كانوا جُهّالا سدّجا، لا يعرفون حتى توقيع إمضاءاتهم على الورق، فلا هم قد أتوا حظا من العربية التي هي لسان حال قومهم، ولا الفرنسية التي هي لغة الخطاب والنقاش في هذه المجالس، لذلك لا غرابة أن يصوّت هؤلاء النواب على مشاريع سببت الويلات والدمار لأبناء وطنهم. بل قد يصل به الجهل والتحجر إلى التوقيع على شهادة وفاته وهو لا يعرف ما صنع.

وقد كتب محمد السعيد الزاهري مقالا كله سخرية وتهكم، من ممثل بالمجلس النيابي كان قد صوّت ضد نفسه دون أن يدري: "لقد حدث أن البلدية عزمت على أن تقطع مرتّباً قدره مائة وخمسون فرنكا، كان يتقاضاه نائب أهليّ، فجمعت الأعضاء لهذه المهمّة، فوافقوا جميعا على قطع هذا المرتب، ووافق معهم هذا العضو الأهليّ النائب على ذلك، ولما جاء الوقت الذي كان

يقبض فيه، طلب مرتبه، وألح في طلبه إلحاحا جاهلا، وأنكر كل إنكار أن يكون وافق على قطع رزق له..¹

إنّ هذا المثال الذي ضربه الزاهري لهذا النائب النائم في غياهب الجهل والأمية، لصورة مصغرة عن نماذج لنواب لا يفكرون إلا في بطونهم الفضفاضة، ومصالحهم الدنيوية الضيقة. والحقيقة أن منصب النيابة لم يجلب لأصحابه سوى المذلة والخزي والعار لا سيما أولئك الذين نذروا أنفسهم لخدمة الاستعمار والتسييح بحمده بكرة وعشيا، ولعله "مما يلفت النظر أن لا يجد الباحث مقالة واحدة تقرظ النواب أو تذكر مساعيهم بالشكر، فإن جُلّ المقالات، كانت على العكس من ذلك، فقد اتخذ أكثرها طابع الانتقاد العنيف، والاستنكار الشديد، فقد كان يكمن وراء هذا السخط على النواب غير المرغوب فيهم، سخط على السياسة الاستعمارية التي تفرض على المسلمين أناسا لا ينتمون إليهم، ولا يرتضونهم متكلمين، من عميل للاستعمار خائن لبني جلدته، أو متجنس بالجنسية الفرنسية منسلخ عن دينه وقوميته، أو جاهل بليد لا يفقه من أمور السياسة سوى أن يقول نعم لكل ما يملئ عليه."²

ولو عدنا قليلا إلى الوراء لوجدنا جريدة المنتقد وفي افتتاحيتها مقالا ساخنا، موقّع باسم "القسنطيني" وهو اسم مستعار، يتعرض فيه صاحبه إلى حق الانتخاب والتمثيل، وقد استهل الكاتب مقاله بتشبيه الإنسان الحرّ بالنبات الذي لا يحيا ولا يستوي على سوقه إلا إذا توافرت له عناصر العيش من ماء وهواء وتربة خصبة، ناهيك عن فضاء رحب وواسع، في إشارة ذكية منه إلى حرية الإنسان وكرامته: "لا ينمو النبات ويزهو إلا إذا كان في نطاق واسع من الفضاء والهواء والمنتبت، يجد فيه الحرية للنمو والازدهار، وبقدر ما يضيق نطاقه يكون ما يصيبه من اليبس والذبول.

هكذا الإنسان تنمو مداركه وتحمده، وتقوى إرادته وتضعف، وتحسن أعماله و تقبح، بقدر ما يكون له من الحرية الصحيحة في الحياة"³.

¹ - العربية والنواب: جريدة البرق، العدد 18، بتاريخ 1927/07/11.

² - محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها، من 1903 إلى 1931. مج 01، الطباعة الشعبية للحيش، الجزائر، 2007، 351/350.

³ - المنتقد: العدد 16، 26 ربيع الأول 1344هـ الموافق ل 15 أكتوبر 1925م.

وبعد أن قدّم الكاتب لمقاله ، راح يفسر ويحلل مفهوم الحرية الحقّة وشروطها: " ولا تسلم حرية الفرد من الأذى وكرامته من المساس إلا إذا كانت هذه الهيئات منه لا من غيره، والطريق الموصل إلى تكوين هذه الهيئات هو الانتخاب العام الحر، الذي تعرب فيه جميع طبقات الأمة عن إرادتها في اختيار هيئاتها.. الهيئات المنتخبة من الشعب كما تكون حاكمة عليه بإرادته هي كذلك في الوقت نفسه ممثلة لقوميته، ونفسيته، ورغائبه و أفكاره، ولا يكون تمثيلها له صحيحا إلا إذا كانت منه، تحس بإحساسه، وتشعر بشعوره، وتألّم بألمه." ¹

الحق أن صاحب المقال - أغلب الظنّ أن يكون ابن باديس، فهو من اعتاد أن يوقع مقالاته باسم مستعار وهو " القسنطيني" - عرف كيف يتسلل إلى نفسية القارئ، دون أن يشعره بممل أو رتابة، فبعد أن مثّل له حرية الإنسان بذلك النبات الذي لا يستقيم إلا في الفضاء الرحب المتسع، دلف به إلى عمق مقاله وهو حق الحرية في اختيار الأمة من يمثلها، وحقها في انتخاب من يحكمها، وهما حقان إن توافرا فهو الاستقلال بعينه، كل ما في الأمر أن الكاتب لم يصرح باسمه.

ويواصل الكاتب تحريض الأمة الجزائرية على التمسك بحقها في اختيار من يحكمها ومن يمثلها في هيئاتها: " وتكون فوق ذلك منتخبة انتخابا حرا لا دخل ليد سلطة فيه، فالانتخاب والنيابة القومية إذا هما الكفيلان بحرية الأمة وتمثيلها، وبها تعرف درجة الأمة في الرقي، ومترلتها بين الأمم.... فيا أيتها الأمة الجزائرية المحبوبة أقدري هذين الحقيين قدرهما، وأسعي في نيل غايتهما." ²

هذه اللهجة الحماسية الشديدة، والجرأة في التعبير، والبراعة في التحليل، عجّلت بتعطيل جريدة المنتقد، التي امتدت لها يد الرقابة الاستعمارية وأعدمتها مع صدور العدد السابع عشر، أي العدد الموالي للعدد الذي صدر فيه هذا المقال. وهذا ديدن الاستعمار مع كل الأصوات المنادية بالحرية والانعقاد من ربقته الاستعبادية.

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

لكن هذه التضييق على حرية التعبير في الجزائر، ومحاولة وأد كل فكرة سياسية ولو كانت على صفحة جريدة، لم تفتُ من عضد الكتاب الجزائريين، بل زادتم إصرارا وعزيمة على مواصلة درب الكفاح والنضال، بالكلمة الصادقة النبيلة، دون مواربة للاستعمار أو مهادنة له. أمّا العربي التبسي فقد كتب مقالا بعنوان " كلمة الجزائر المسلمة إلى النواب المسلمين " يعيبُ فيها عليهم صمتهم المطبق، عندما أوصدت المساجد في وجه العلماء المصلحين، الأمر الذي استنكره كلٌّ حرّ غيور، حتّى من الفرنسيين أنفسهم، بينما لم يُحرّك نوابنا ساكنا بخصوص هذه المسألة.

ولعلّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كان المثال الرائع والفريد، بين أقرانه الكتاب، إذ عالج قضايا سياسية شائكة، كان مجرد ذكرها يُعدُّ سببا كافيا للزجّ بصاحبه في غياهب السجون، وظلمة الأقبية والزنازن الموحشة. ومن بين هذه القضايا مسألة الانتخاب والتمثيل النيابي، فقد ألقى الإبراهيمي اللائمة على هؤلاء النواب وهم لا يحملون من النيابة إلا الاسم، فأضحوا عوناً للمستعمر على أبناء جلدتهم، يقول الإبراهيمي في مقال بعنوان (كتاب مفتوح إلى الأعضاء المسلمين بالجلس الجزائري): " أيها السادة:

اسمحو لنا حين سميناكم أعضاء ولم نسّمكم نوابا، فإننا ممن لا يكذب على الحقيقة، وكل عاقل يعرف الوسيلة التي تذرّعتم بها إلى هذا المنصب، يستحي أن يسميكم نوابا بمعنى النيابة الذي يعرفه الناس، وإنما أنتم أعضاء تألّف منها هيكل غير متجانس الأجزاء لا يجمع بينها إلا معنى بعيد، وعامل غريب، ومصالحة ليس لكم ولا للأمة منها شيء، وإنما أنتم موظفون، لكم من النيابة لفظها وحروفها، ولكم من الوظيفة معناها وحقيقتها، ومادامت الانتخابات بالعصي فأبشروا بطول البقاء في هذه الكراسي".¹

بعد هذا التقرّيع العنيف من صاحب المقال، لهؤلاء النواب الذي سّماهم صراحة بأنهم مجرد موظفين عند الاحتلال الفرنسي، يصيرهم كما يشاء، ويصرفهم أنّى شاء، يصوّر الإبراهيمي حال الإنسان الجزائري وهو يختار من لا يريد، بسبب الترهيب والوعيد الذي يلحقه وهو يدخل قاعة التصويت، معتمدا أسلوب المقارنة بينه وبين الأوربي: " إن من المناظر التي تثير العبر، وتسيل العبرات في هذه الانتخابات أنكم كنتم ترون كما يرى الناس صندوقين

¹ - البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثانية- العدد 33- 16 جمادى الثانية 1367هـ/26 أفريل 1947م.

للانتخاب في قرية واحدة، أو شارع واحد، يدخل الأوربي إلى أحدهما منشراح الصدر، باسم الثغر، حرّ التصرف، مطلق الارادة والاختيار، فيعطي ورقته لمن يشاء، معتقدا أنه أدّى شهادة خالصة للحق، لم يراع فيها إلا مصلحة جنسه ورضى ضميره.

ويدخل العربي إلى الآخر خائفا وجلا مترعجا، مسلوب الإرادة والحرية، لا يرى حوله إلا إرهابا وسلاحا، وألسنة تتوعد، وأيديا تتهدد، وأعيناً ترمي بالشرر، ويعطي ورقته لمن يراد منه لا لمن يريد، إن من يرى هذا المنظر لا يعجب إذا رأى بعد ذلك أن الفائزين في الصندوق الأول نواب وإن اختلفوا في المبادئ، وأن الفائزين في الصندوق الثاني نواب وإن سمو أنفسهم مسلمين.¹

" إن أقواما قبلكم وصلوا إلى ما وصلتكم إليه، وارتقوا على أكتاف الأمة إلى كراسي النيابة، ولكنهم خانوا العهد، وأضاعوا الحقوق، فسجّل عليهم التاريخ خزي الأبد، وكلة المقت، فحذار حذار أن تكونوا مثلهم.

وفي الماضي لمن بقي اعتبار، وإن أيام النيابة معدودة فاعمروها بالصالح الباقي.² ونختم هذا العنصر بقول الشيخ محمد السعيد الزاهري الذي وصف مصائب التمثيل النيابي في الجزائر وصفا دقيقا حينما جعلهم في مرتبة الأصنام التي لا تسمع ولا تعقل، وأول من يذوق وبال أمرهم هو الشعب الذي انتخبهم، يقول الزاهري:

ألا لا أراني بعد اليوم ناخباً فلست أرى النواب إلّا نوابا
إذا انتخب الأحجارَ شعبٌ مجلس فلا بدّ يوماً أن يذوق المصائباً³.

ثالثا: الهوية الوطنية:

لقد حملت المقالة السياسية على عاتقها إبان الحقبة الاستعمارية المظلمة واجب الدفاع عن مقومات الأمة الجزائرية وثوابتها، في وجه الآلة الاستعمارية التي عملت كل ما في وسعها لطمس ومحو الشخصية الوطنية الجزائرية، وقطع أوداجها عن انتمائها العربي الإسلامي. لذلك نجد هذه الموضوعات تتصدر مطالب الصحف الوطنية والإصلاحية آنذاك، لأن تلك المقومات

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

³ - الإصلاح: العدد 06 - 1929/10/24م.

تمثل السد المنيع في وجه فرنسة الشعب الجزائري واجتثاثه من جذوره، أو بمعنى آخر ثوابت الأمة هي مناعتها الفكرية.

وأهم القضايا التي دُبجت مقالات عديدة بشأنها يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- الدين الإسلامي.

ب- الوحدة الوطنية.

ت- اللغة العربية.

ث- التاريخ الوطني.

أ/ الدين الإسلامي:

لقد عبّرت جريدة الصراط السوي¹ عن أصالة الشعب الجزائري، وتمسكه بثوابته الوطنية وعلى رأسها الدين الإسلامي، الذي يعدُّ الدرع الواقي لكل محاولات تغريب أو تنصير هذه الأمة التي بقيت شامخة على الرغم من صروف الدهر وتقلب الأيام: " دلّت التجارب المتعدّدة، والمواقف المختلفة، على أن الأمة الجزائرية من أشدّ الأمم محافظة على جنسيتها، ومن أقواها تمسكاً بها، ممّا أكسبها احترام كل معترّ بجنسه.... هذه هي الأمة الجزائرية في المحافظة على جنسيتها فهل هي كذلك في المحافظة على دينها؟ إي- والله- إنها ليهون عليها أن تفارق أرواحها أبدانها، ولا يهون عليها أن يفارق دينها قلوبها."²

بيد أن الاستعمار الفرنسي لم يرض بوجود صحف من هذا القبيل، تنشر الوعي في أوساط الشعب الجزائري، وتربط حاضره التعميس بماضيه التليد، علّها توقظ فيه شيئاً من روح الإسلام الثائر على كل أنواع القهر والظلم والاستعباد. لذلك سعى الاستعمار الفرنسي جاهداً من أجل ترويض الإسلام وتدجينه، تارة بالترغيب وذلك بالإغراءات المادية للعلماء العاملين، حتى إذا خاب ظنّه بهم وانكشفت حيلته عدل إلى وسائل التهيب، والتعذيب، والنفي تارة، وتلفيق

¹ - إحدى جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1933-1934) لم يصدر منها سوى سبعة عشر حتى امتدّت إليها يد الاستعمار فأعدمتهما. ينظر: محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 200.

² - الصراط السوي: العدد التاسع، السنة الأولى، 25/ رجب/ 1352هـ الموافق ل 13/ نوفمبر/ 1933. المقال صاحبه مجهول.

التهم الجائرة تارة أخرى، وما أبرع الاستعمار الفرنسي في النوع الثاني فهو مدرسة قائمة بذاتها.

كثيرا ما تشدّقت فرنسا بمدنيتها وثوبها العلماني الذي يقضي بوجود فصل الدين عن الدولة، ولطالما نافحت عن شعارها هذا في المحافل الدولية، وعدّته كشفا من كشوف ثورتها، غير أن هذا الأمر وإن طبقته على أرضها، فرفعت يدها عن الكنائس، ثم أطلقت فيما بعد حرية اليهود في ديانتهم، ولم تتدخل في ممارستهم لشعائرهم الدينية من قريب أو من بعيد، إلا أنّها ناقضت نفسها، وتنكرت لمبادئ ثورتها، ورفضت أن تفصل الدين الإسلامي عن الحكومة المسيحية اللأثكية في الجزائر المستعمرة، وراحت تُضيق الخناق على المسلمين في حريتهم الدينية، بل وذهبت أكثر من ذلك عندما أصبح الإداري المسيحي يعين الإمام المسلم، وما هو بإمام في حقيقة الأمر إنما مجرد موظف رسمي لدى الإدارة الاستعمارية، ولو أشرب حبّ الإسلام واستلهم معانيه السمحة، لما رضي بهذا التعيين الشاذ بتاتا.

ونحن نتصفح المقالات التي تناولت هذا الموضوع بالاحتجاج والاستنكار، لا نجد أحدا قارع الاستعمار بالحجّة الدامغة، - وإن كنا لا نغمت الكتاب الآخرين حقهم - والبيّنة الساطعة، مثل الشيخ البشير الإبراهيمي، وبأسلوب أدبي سياسي راقٍ، وبشحنات متدفقة من السخرية القاتلة، وتحليل منطقي مفحم. يقول الإبراهيمي في سلسلة من المقالات أفردها لموضوع فصل الدين عن الدولة - تجاوزت خمسة وعشرين مقالا في البصائر الثانية فقط.

يستهلّ الإبراهيمي سلسلة مقالاته بمقال عنوانه فصل الدين عن الدولة طلائع ومقدمات، طالب فيه النواب المسلمين أن يرفعوا عريضة مطالب أمام المجلس الذي ينتسبون إليه، يطالبون فيها بتدخل الحكومة الفرنسية، في شؤون الدين المسيحي ووضع يدها على أملاكه من كنائس وأموال ورجال، والأمر نفسه مع الديانة اليهودية، وفقا لما تقتضيه مبادئ العدالة والقانون الطبيعي من خلال المساواة بين الديانات الثلاثة في الجزائر.

فبعد أن قدّم الكاتب لمقاله، عرض إلى صلب الموضوع، ولم ينس توظيف بعضا من السخرية والتعريض بالحكومة الاستعمارية من قبيل وصفها بالعدالة والمنصفة.

يقول إبراهيمي: " يجب على النواب أن يطالبوا بهذا ويتشدّدوا فيه، لأنه هو الديمقراطية، وحكومة الجزائر ديمقراطية، ولأنّه إنصاف وعدل، وحكومة الجزائر منصفة عادلة، - تبارك الله أحسن الخالقين "1".

ثمّ يواصل الكاتب عرض أفكاره في أسلوب مشوّق ساحر، معتمداً على المحاجة: " فإنّ أبي عليهم ذلك زملاؤهم من النواب الفرنسيين واليهود، وقالوا: إنهم لا يتدخلون في الأديان، أو أبت الحكومة، وقالت: إنّها حكومة لا يكيّة، فليقلّ النواب المسلمون في صراحة وحق: والإسلام؟... لماذا يبقى غريباً شاذاً بعيداً عن هذه اللايكية؟ إنّ الأديان في الوطن ثلاثة. فمن الواجب أن تعامل معاملة واحدة، وإنّ المسلمين ومعابدهم أكثر عدداً، فمن الإنصاف أن يكونوا هم القاعدة في المعاملة، والأصل في وضع الأحكام، ومادام دينهم (مستعمراً) فمن العدل أن يكون الدينان مستعمران أيضاً."2.

لا يتلکأ الكاتب في تسمية الأشياء بمسمياتها، ولا يتوانى في وصف الموصوفات بأوصافها، فنجد في جرأة بالغة منه يصرّح بحقيقة الاحتلال ويصفه بالمستعمر، الذي لم يكتف باستعمار البلاد وشعبها بل تعدّى ذلك ليشمل الدين الإسلامي وحرّمته.

وفي مقال بعنوان " كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهورية الفرنسية" وذلك بمناسبة زيارة قاده إلى الجزائر، يتطرّق الكاتب إلى موضوع الوحدة بين الشعبين الجزائري والفرنسي والذي يبدو أن الرئيس الفرنسي جاء مروّجاً له، وهو أمر مستحيل التحقق والوقوع بين أمتين تقفان على طرفي نقيض، في العقيدة واللغة والعادات والتقاليد كما يرى الكاتب: "لا يسبغ منطق ولا عقل، كيف تكون الوحدة بين سيّدٍ ومَسودٍ، وكيف تُتصور بين حاكم مزهوٌ بعصبية جنسية تُظاهاها عصبية دينية، وبين محكوم؟ وكيف تتفق في وطن ساكنوه صنفان، وقوانينه صنفان؟ وكيف تتمُّ في بلد كنيسته حرّة، ومسجده مستعبد؟ وكيف تتجاور في عقيدة أو لسان مع السيادة الفرنسية التي تلوکها الألسنة، وتنضح بها الأقلام وخصوصاً هذه الأيام"3.

1 - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 57-20 محرم الحرام 1368هـ/22 نوفمبر 1948م .

2 - المصدر نفسه.

3 - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 81-02 شعبان 1368هـ/30 ماي 1949م.

إنّ موقف الإبراهيمي من هذه الوحدة المزعومة، أو الوحدة المسمومة، لثبُّ عن معدنه الأصيل وعن رؤيته البعيدة، وبصيرته الثاقبة، لأنها في جوهرها مجرد مناورة لتثبيت أركان المستعمر الغاشم بربوع هذا الوطن الطاهر، وإطالة عمره حتى يستترف خيرات الأمة وعرقها، وذلك بإخراجه لمسرحيات هزلية سمجة، لا تنطلي حيلتها إلا على ذوي النفوس المريضة التي صدّقت تلك الشعارات البرّاقة والتي ما يفتأ يرفعها المستعمر كلّما ضاق الخناق عليه، من قبيل شعارات الأخوة، والحرية، والمساواة، والاندماج والوحدة بين الشعبين.

ولا يكلّ الإبراهيمي من تديج مقالات حول مسألة فصل الدين عن الدولة، قمينٌ بما أن تكتب بماء الذهب، يكشف الإبراهيمي نفاق فرنسا الاستعمارية وازدواجية المعايير التي تعمل بها عندما يتعلّق الأمر بالجزائر: "سلمنا أن فرنسا دولة مستعمرة من ذلك الطراز الاستعماري اللاتيني الأزرق، وأنها تمتاز بادعاء أنّها ممدّنة العالم ومعلّمتة، وناشرة لواء الحرية فيه، وأنّها السابقة إلى نبد الأديان، وقطع الصلّة بين الله وأتباعه، وأنّها واضعة نظام اللايكية التي معناها وضع سور بين الحكومات وبين الأديان كيفما كان نوعها... أما هي فتضايق الإسلام في الجزائر وتحتكر معابده وشعائره، وتمتحنُ رجاله، وتبتلع أوقافه، فلا مسجد إلّا ما فتحته، ولا إمام إلّا ما نصّبته، ولا مفتي إلّا من (حنّفته) أو (ملّكته)¹، ولا شيخ طريقة إلّا من (سلّكته)²، ولا حاج إلّا من حجّجته أو نسّكته، ولا صائم ولا مفطر إلّا على يد لجنّتها، ولا هلال إلّا ما شهد برؤيته قاضيها"³.

ويبلغ السخط مبلغه من الاستعمار الصليبي الحاقد، فيصفه الإبراهيمي بذلك الوصف الدقيق إذ يجعله من أعمال الشيطان وأقذرهما، وليس من وسيلة لتطهير اللسان من ذكره سوى إمطاره الاستعمار - بوابل من اللعنات: "الاستعمار كله رجس من عمل الشيطان،... ولولا ما بلوناه من شرّ الاستعمار الفرنسي على ديننا ولغتنا، وما تجرّعناه في سبيل إحيائها من غُصص، وما كابدنا في إنقاذها منه من بلاء، لما ذكرنا الاستعمار بخير، ولما أجريناه على ألسنتنا إلّا مقرونا باللّعة مصحوبا بالسخط"⁴.

¹ - نسبة إلى كل من الإمامين الجليلين أبي حنيفة النعمان، ومالك بن أنس.

² - أحازته في الطريقة.

³ - البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثانية-العدد 83- 16 شعبان 1368هـ/13 جوان 1949م.

⁴ - المصدر نفسه.

ثمّ يختم الكاتب مقاله بتنبية دقيق لكل من له قلب سليم من أبناء وطنه، وذلك بضرورة العمل الجاد والحزم والعزم، في تلميح منه إلى وجوب الاعتماد على النفس إن لم نقل دعوة صريحة للثورة على المستعمر واجتثاثه من جذوره: "إنّ المسألة خطيرة، وإنّ الأمة الجزائرية المسلمة في قلق عظيم، وإنّ أصحاب الأغراض والمنافع من حكومة وحكوميين يعثون بديننا ونحن ننظر.

فلنقف الوقفة الحازمة التي توقف كلّ عابث عند حدّه.¹

وحول موضع السياسة كتب الإبراهيمي مقالا معرّضا فيه بسياسة فرنسا اللائكية في ظاهرها، الصليبية الحاكمة في مخبرها، وشخص حال فرنسا حالما تعلم بوجود جزائريين يخوضون في مواضيع سياسية أو يمارسونها: "...ولكنّ السخافة في كل هذا التبذل الذي أصبحت معه كلمة (السياسة) كلفظ (البيع)، هذا يخوّف به الصغار ولا حقيقة له، وتلك يخوّف بها الكبار ولا معنى لها. وما جاء هذا البلاء إلّا من الوضعية الشاذة التي بني عليها نظام الحكم الاستعماري في الجزائر: حكومة لائكية في الظاهر، مسيحية في الواقع، جمهوريّة على الورق فردية في الحقيقة، تجمع يديها على دين المسلمين وديانهم، وتتدخل حتى في كيفية دفن موتاهم، ومادامت هذه السيادة سائدة، ومادامت هذه العنصرية موجودة، فإن هذه اللفظة (لفظة السياسة) تبقى ذليلة، مهينة مجرّدة من جلالها وسموها، نجدها في باب الإجرام والانتهاك أكثر مما نجدها في باب الإكبار والاحترام."²

يسلّط الإبراهيمي أضواءه الكاشفة على التناقض الموجود في تركيبة الذهنية الاستعمارية، إذ يحضّر أشياء هي في قاموسه من أقدم مقدّساته، بل ويباهي بها الأمم على أنّها من أسس المدنيّة وقيم الجمهورية، ولا أدلّ على ذلك من شعار الحرية الفردية في المعتقد، فمن جهة يدّعي أنه حاميا وناصرها، وأنّ اللائكية ركيزة من ركائز الجمهورية الفرنسية، ويقبرها ويدوس عليها من جهة ثانية إذا ما تعلق الأمر بالدين الإسلامي، فنجدّه يحشر أنفه القبيح في ألزم لوازم المسلمين في الجزائر، وهذا ما يدحض دعواه بأنّ فرنسا منظرّة العالم في مبادئ وشرعة الإنسان.

¹ - المصدر السابق.

² - جمعية العلماء موقفها مع السياسة والساسة: البصائر: السلسلة الثانية - السنة الأولى - العدد 03-21 رمضان

1366هـ/08 أوت 1947م.

وفي مقال آخر يتناول الإبراهيمي مسألة فصل الدين عن الدولة، معرّضاً بالدولة الفرنسية وسياستها، التي تزعم أنّها منارة الحرية الدينية، فيقول بأسلوب ساخر: "قرأنا سير الإنكليز في الهند، فوجدناهم بالغوا في إعطاء الحرية للأديان حتى بلغوا حدّ السخافة، وسوّوا في تلك الحرية بين (قرأء البقرة) بالحق، وبين (عُباد البقرة) بالباطل."¹

ولا يبرحُ الإبراهيمي يُدينُ الاستعمار الفرنسي ويفضحه على صفحات البصائر، ويكشف نفاقه المستتر تحت أقنعة المديّة والحضارة وحقوق الإنسان، فهاهو يعرّيه ويكشف سوءاته فلا تخفى إلا على ذوي النفوس المريضة، التي دانت رقابها للإدارة الاستعمارية، وأضحت ظهورها مطية لها تأتيها أتى شاءت، يحدثنا الكاتب بمرارة عن ذلك التدخل السافر في شؤون الجزائريين، لا سيما في أقدس مقدّس لديهم ألا وهو الدين الإسلامي: "هلمّ إلى الدين تجد الاستعمار الذي كفر بالأديان يقول لك بصريح القول والعمل: أنا أحق منك بالتصرّف في دينك، فلا تدخل المسجد إلّا بإذني، ولا تُصلّ إلّا من وراء إمامي، ولا تحج إلّا برخصتي، ولا تصمّ إلّا على رؤيبي، ولا تُزكّ إلّا بعد استشارتي، ولا تضع زكّاتك إلّا حيث أريد. لا حيث تريد، ومعنى هذا كلّه نسخ آية من القرآن، بآية من وحي الشيطان، ولم يبق إلّا أن تتلوها كما يريد، قل إن صلّاتي ونسكي ومحياي ومماتي للاستعمار"² وكذب الشيطان الرجيم، وأفك الاستعمار الذميمة.³

إنّ القارئ لمقالات الإبراهيمي السياسية في السلسلة الثانية لجريدة البصائر، يجد تلك اللّهجة الشديدة تجاه الاستعمار الفرنسي، ولعلّ السبب الكامن وراء ذلك هو تخلص الجزائريين من عقدة الخوف، لا سيما بعد أن شاهد العالم كيف تساقطت المدن الفرنسية في يد الألمان الواحدة تلو الأخرى كما تتساقط الأوراق الميتة في فصل الخريف، وسقطت معها أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وأكذوبة الدولة التي لا تُهزم، كما أنّ الجرائم الوحشية والإبادة الجماعية التي تعرّض لها المدنيون العزل في الشرق الجزائري في الثامن ماي 1945، جعلت الجزائريين بجميع أطيافهم السياسية وتوجهاتهم الفكرية يُجمعون على أنّ ما أُخذ بالقوة لا يستردّ إلّا

¹ - البصائر: السلسلة الثانية-العدد 83- مصدر سابق.

² - يقول عز وجل {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ﴿١٦٢﴾ سورة الأنعام.

³ - حدثونا عن العدل فإننا نسيناه: جريدة البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثالثة- العدد 119- 28 رجب 1369هـ/

بالقوة، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي كان من الأوائل الذين أُعتقلوا وُزجَّ بهم في السجن، بعد أن وُجِّهت له اتهامات بالتحريض على مظاهرات الثامن ماي، إذن لا غرابة من هاته اللهجة الشديدة التي تُدين الاستعمار، وتحرض على الثورة عليه تلميحا وتصريحا، وتمرغه في وحل السخرية والتهكم.

ويجَلُّ الكاتب الذهنية التي جُبِلَ عليها المستعمر الفرنسي في معاملته للشعب الجزائري، ذهنية تقوم على تمجيد العنصر الفرنسي واحتقار الجنس العربي المسلم وازدراءه والخط من قيمته، والحقُّ أنَّ هذه التزعة العنصرية إنما زرعها بعض من رجال الدين الصليبيين الذين لازالوا يعيشون على أوهام الحروب الصليبية، من أمثال الكاردينال لافيغيري، وميشال دي فوكو، ولويس ماسنيون.

وفي موضوع أوقاف المسلمين وممتلكاتهم، طالب الإبراهيمي بضرورة رفع الاستعمار الفرنسي عن أوقاف الجزائريين، من مساجد، وأراض زراعية، وعقارات، ومكتبات، وغيرها وترك حرية التصرف المطلقة لأهلها، وأهلها هي الأمة الجزائرية العربية المسلمة، يقول الإبراهيمي في هذا الشأن: " لا ندري في أيِّ قسم تُعدُّ هذه الحكومة مساجدنا التي استبدت بها، وأوقافنا التي احتجنتها؟

إن كانت تُعدُّها غنائم حرب، فهي قد حاربت الحكومة التركية وأخذت أموالها، ولم تحارب الله حتى تأخذ ماله... وإن كانت تُعدُّه ميراثا، فقد أفهمناها أن الدين لا يرثه الأجنبي عنه مع وجود الوارث الأصيل، وإن كانت تُعدُّه مال يتامى فقد كبر اليتامى ورشدوا، وإن كانت تُعدُّه مال مفقود، فقد رجع المفقود قبل الأجل المحدود، فالأحجى بها أن تقول: هو مال مغصوب، لنسألها: ومن المغصوب منه؟ لتقول: هو الله... فإذا قالت ذلك أَلقت إلينا بالمعاذير.¹

ونحن نتصفح جريدة المرشد²، عثرنا على مقال لشيخ الزاوية العليوية عُدَّة بن تونس خليفة الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المشهور بابن عليوة، يطلب من الحكومة الاستعمارية أن تُبقي المساجد تحت تصرفها على أن تضعها تحت تصرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأيمُّ الله

¹ - خصمان فمن الحكم؟: البصائر - السلسلة الثانية - السنة الرابعة - العدد 158-29 شعبان 1370هـ / 04 جوان 1951م.

² - لسان حال الطريقة العليوية بمستغمام - صدرت ما بين 1952/1946. ينظر محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، مرجع سابق، ص 262.

إنّه لموقف يدعو إلى الدهشة والاستغراب، من شخصيّة دينيّة كان الأجدر بها أن تطلب تسليم هذه الأوقاف إلى طُوبل¹ على أن تترجى الحكومة الاستعمارية إبقاء سلطتها على أوقاف الأمة ومساجدها، لا لشيء إلا لأنها على خلاف فكري مع جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، يقول صاحب المقال: "قلنا أنّ هذه المسألة مهمة كبرى، وأنّ أهمّ ما فيها، هو إعطاء أحباسها سواء إلى (الأمة)، أو إلى طائفة من طوائفها (كالطائفة الوهابية)، التي يرأسها الشيخ... وأقول أنّ الأحباس على فرض انفصالها عن الحكومة، هي ضعيفة على كلّ حال، وهيئات أن تقوم بواجب المتوظفين الحيوي، ما هي عليه الأحباس الآن، وإذا انفصلت- لا قدر الله- عن الحكومة طبعاً، تتشكّل لها وزارة وإدارة ومستخدمين."² وفي مقال آخر لا يجد الكاتب حرجاً في أن يُثني على الحكومة الاستعماريّة عما قدّمته من جلائل الأعمال خدمة للإسلام والمسلمين في الجزائر على حدّ زعمه، بل ويصفها بأنّها ممن يُعمرُ مساجد الله، وفاته أن فرنسا ممن يُدمرُ مساجد لها، وإن جارينا الشيخ فلا شك أنّ إبليس ممن يُعمرُ هذه المدانس لا المساجد: "وقلنا أيضاً ينبغي للحكومة أن تحتفظ بماليّة الأحباس، وأن تستبقّيها تحت يديها، وبجميع ما تحتاج إليه بيوت الله: من فراش وتنوير، إلى غير ذلك من الإصلاحات اللازمة كما كانت تقوم به من قبل... أمّا المُتقولون المتحاملون، فكيفما يقولون، فإنّنا نقول لهم: إنّ الحكومة وإن مع ما ترجمونها به، فهي قائمة بعمارة المساجد الإسلاميّة، منذ ما ينوف عن القرن، وإن مع شيء من المحافظة على سياستها، والسياسة أمر طبيعي لا يتأتّى لأية حكومة أن تتخلى عنها، ولو كانت حكومة إسلامية بحتة، ولا ينكر هذا إلا من يكابرون في الحق، وبيغونها عوجاً."³

ونعود إلى الإبراهيمي واستماتته في الدفاع عن مسألة فصل الدين عن الدولة، ففي مقال له بعنوان " لجنة فرانس - إسلام " يتحدث الإبراهيمي عن استحالة الجمع بين الإسلام والاستعمار الفرنسي، لأنّ الأول يهدم الثاني، والثاني يحاول تدجين وتمييع الأول، وإفراغه من معانيه السامية الرافضة للظلم والاستعباد، والتي تُقرّر أنه من مات دون عرضه فهو شهيد. يقول الإبراهيمي في تحليل منطقي مقنع، وفي أسلوب أنيق ممتع " كلمتان أكرهتا على الجوار في اللفظ والكتابة،

¹ - تصغير لكلمة طالب، و لفظة طالب في الثقافة الشعبية الجزائرية تنصرف لكلّ حافظ لكتاب الله عزّوجل أو لجزء منه، وهناك من يطلقون لفظة الفقيه في بعض المناطق كتلمسان.

² - إلى لجنة الأحباس الجزائريّة بالجزائر: المرشد- السنة الرابعة-العدد 45- ربيع الثاني 1370هـ/يناير 1951.

³ - قضية الأحباس والمساجد الجزائرية: المرشد- السنة الخامسة-العدد 56-جمادى الأولى 1371هـ.

فجاءت كل واحدة منهما ناشرة عن صاحبها، نائية عن موضعها منها، لأنهما وقعتا في تركيب لا تعرفه العربية ولا يقبله الذوق العربي، في العربية تركيب الإسناد والإسلام لا يرضى أن يُسند لفرنسا الاستعمارية، ولا أن تُسند هي إليه، وفي العربية التركيب الإضافي، والإسلام لا يسمح أن يُضاف إلى فرنسا، ولا أن تُضاف هي إليه، وفي العربية التركيب الوصفي، والإسلام لا يقبل أن يوصف بالفرنسي، ولا توصف فرنسا بالإسلامية، وفي العربية التركيب المزجي، والإسلام وفرنسا كالزيت والماء لا يمتزجان إلا في لحظة التحريك العنيف، ثم يعود كل منهما إلى سنته من المباينة والمنافرة".¹

هذا الخطاب السياسي الذي يلبس حلة بلاغية راقية جدًا، يبيّن بوضوح براعة صاحب المقال في توصيل أفكاره للمتلقي دون أن يضُرّ باللّغة، معتمدا في ذلك إلى جانب معارفه اللغوية وثقافته الموسوعية، أسلوب محاججة الخصم وتبكيته بالحجّة الدامغة، فالإبراهيمي يستند في أسلوب الحجاج على ثلاث ركائز ثقافية:

- 01- تمكّنه من اللّغة ومن أساليب التّحاة في الجدل والمناظرة.
 - 02- إلمامه بالفقه ومنهج القياس الذي يعتمده الفقهاء المجتهدون.
 - 03- إحاطته بالفلسفة والمنطق ووسائلهما في إثبات الموقف ودحض حجج الخصوم.²
- أمّا كتاب جريدة المجاهد، فلم يعرضوا كثيرا لقضية الدين الإسلامي إلا حينما تدعو الضرورة لذلك، -على الرغم ممّا عُرف عن الاستعمار الفرنسي من تعصّب وروح صليبيّة بغيضة، تؤكّدها مواقفه المتوالية ضدّ كلّ ما هو إسلامي- وربّما هي استراتيجية اعتمدها الثورة حتى لا يشوّه الاستعمار بدعايته المغرضة صورتها الإنسانية النبيلة، ويجعل منها حربا دينية مثل الحروب الصليبيّة التي كان يباركها بابواهم. ولم يتناول كتاب المقالة السياسية في جريدة المجاهد الجانب الديني إلا عندما أعدّ ديغول مشروعا لتعديل القضاء الإسلامي، ودستور المرأة الجزائرية، فكتبت المجاهد مقاليتين إحداهما عن هذا المشروع وهي بعنوان "حرب ديغول الصليبيّة على الجزائر" والثانية تحت عنوان "ما يعانيه القضاء الإسلامي في الجزائر تحت السيطرة الفرنسية".

¹ - البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثالثة- العدد 114- 15 جمادى الثانية 1369هـ/ 03 أفريل 1950م.

² - محمد محي الدين: ثقافة البشر الإبراهيمي وأثرها في أسلوبه (عيون البصائر نموذجاً)- مذكرة ماجستير- جامعة تلمسان، قسم اللغة العربية وآدابها، 2007/2008، ص 216/217.

ففي المقال الأول تناول الكاتب نغمات التغريب والشك والضياع التي كانت تنادي بها الإدارة الاستعمارية، لضرب الأسرة المسلمة في صميم مكوناتها بشعار التمدن والتعصن والذي يقضي بسفور بنات الجزائر، وبتفرنس شباب الوطن واندماج هذا الشعب في حمأة التغريب والتأورب، يقول الكاتب في اعتزازه بهوية الشعب وإصراره على المقاومة، وتأكيد على استحالة الاندماج: "إنّ ظمأ دي غول إلى إدماج الجزائر في فرنسا، وإصراره الأعمى على تحقيق ذلك مهما كانت التكاليف هو علامة على الحمق وعلى الحيرة الكاملة... وليس لبناتنا-إذا أردن نزع الحجاب- أن يُدعننّ في بطحاء دار الحكومة بعاصمة الجزائر إلى أوامر جنود المظلات، إنّ بناتنا يُفضلن الاعتصام بالجبال الثائرة، فهناك-وبكلّ حرّية- يُعوّضن الحجاب بالبدلة العسكرية. الواقع أنّ دي غول يصطدم بحقيقة بسيطة، سيتعثّر فيها طول مدّة تجربته الاستعمارية.

هذه الحقيقة هي: ليس في الأرض ولا في السماء قوة تجبر الجزائريين على الاندماج قهراً.¹

أمّا في المقال الثاني فقد أشار الكاتب إلى الروح الصليبيّة التي وسمت فرنسا الاستعمارية مع تعاقب حكوماتها ورؤسائها، يقول الكاتب: "وهكذا يتأكد القارئ أنّ فرنسا في عهدها الحالي بقيادة دي غول لم تتغيّر قيد أنملة عن فرنسا الجمهوريات الماضية فما يخصّ معاملة الدين الإسلامي، وأنّ الروح الصليبيّة التي كان يحملها الغزاة الفرنسيون أمثال (بيجو، وسانت أرونو) هي نفس الروح التي يحملها اليوم رجال الجمهورية الخامسة، وهي نفس الروح التي يجعلونها أساس معاملتهم للمسلمين بالجزائر.²

ب/ اللغة العربية:

لم يكن حال اللغة العربية بأحسن حال من شقيقتها الإسلام، إذ تعرّضت لشتّى صنوف الأذى والتضييق، فقد أقصى المستعمر الفرنسي اللغة العربية من ميدان التعليم والتدريب والتدوين والإدارة، بل حتى من لغة التخاطب والمعاملات، ولجأ كعادته إلى إصدار القوانين التعسفية لخنق اللغة العربية وتميئها، لأن وحدة اللغة مظهر من مظاهر وحدة الأمة والشعب، وذاك ما لا يريده المستعمر أن يحدث، ففي الثامن من مارس من سنة ثمان وثلاثين تسع مائة

¹ - المجاهد: العدد 44- 08 ذو الحجة 1378هـ/14/06/1959م.

² - المجاهد: العدد 46- 08 محرم 1379هـ/ 13 جويلية 1959م.

وألف (1938/03/08)، أصدرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية ممثلة في وزير معارفها حينذاك "شوتان" قرارا يقضي بمنع تدريس اللغة العربية في الجزائر واعتبارها لغة أجنبية. إن قرار 8 مارس 1938، هو قرار جائر مجحف، الهدف منه تضيق دائرة التعليم العربي الحر، ومنع العلماء من التدريس حيث نص القرار على: "إغلاق المدارس العربية الحرة التي لا تملك رخصة العمل، ومنع كل معلم تابع للجمعية من مواولة التعليم في المدارس المرخصة إلا بعد أن يتحصل على رخصة تعليم تقدمها له السلطات المعنية"¹. ظاهر النص القانوني يحمل صبغة التعميم أي بمعنى أنه يسري على جميع من يعلم العربية أو يحفظ القرآن الكريم إلا أنه في الواقع كان يقصد مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المقام الأول ومدارس حزب الشعب الجزائري، والتي ظهرت ثمرة جهدها في عديد المدارس التي كانت منتشرة في ربوع الوطن بعدما مضى على وجودها- الجمعية- زهاء ثماني سنوات من العمل الجاد والمضني. لقد أثار هذا القرار الجائر موجة سخط عارمة بين كل الوطنيين الغيورين على لغتهم وهويتهم، ودينهم، -بمختلف انتماءاتهم السياسية- حتى فرحات عباس المفرنس، والذي يعد في مرحلة ما عراب فكرة الاندماج، عبّر عن رفضه وسخطه لهذا القرار الذي يهدف إلى قبر اللغة العربية في الوطن، ووجه نقدا لاذعا للسلطات الاستعمارية من على صفحات جريدته الوفاق ورأى أن هذا القرار "ضربة قاتلة للدين لأنه يجعل التعليم العربي كالحيال"².

ويقف الشيخ عبد الحميد بن باديس كعادته في دفاعه عن مقومات الأمة وثوابتها، وقفة يسجلها التاريخ بأحرف من نور، عندما هاجم هذا القرار ومصدره، ولم يأل جهدا في إرسال برقيات الاستنكار والاحتجاج إلى السلطات الاستعمارية، ودبج مقالات عديدة بهذا الشأن، ففي مقال له يحمل اسم ذلك القرار الجائر في افتتاحية بعنوان "يوم 08 مارس: يوم حزن وحداد على تعاليم الإسلام، ولغة الإسلام" يقول: "هبت الجزائر المسلمة- بمنبهات داخلية وخارجية- من نومها، فأتجهت رغبتها للعلم، تجتنيه بلغتها وغير لغتها. وأقبلت متعطشة على تعلم دينها، ولغة دينها، فأخذت تفتح المدارس، وتشيد المباني، وتؤسس الجمعيات، وتجلت هذه

¹ - الجريدة الرسمية الفرنسية-العدد 15/3071 مارس 1938.

² - فرحات عباس: الوفاق - 1939/03/10م.

في جميع طبقات الشعب، وأسّرت هذه الحركة في جميع جهات الوطن¹. وبعد هذه المقدمة يخلص ابن باديس صلب المقال، ويُنجي باللائمة على فئتين مفرطتين في الغلوّ والحقد على الجزائر وشعبها، وإن لم يسمّهما بالاسم لكن دلّ عليهما الوصف، هما: فئة المستغلّين والمتفعين بوجود الاستعمار الفرنسي، وفئة المعمرين الذين أعماهم الحقد الدفين على الأمة الجزائرية العربية المسلمة. والتي رأت في هذا القرار فرصة لثني أبناء الشعب الجزائري عن تعلّم لغتهم ودينهم، وتشغيلهم عبداً في الحقول والمصانع مقابل قوت يومهم. يقول ابن باديس: "هال- ويا للعجب! ويا للأسف!- هذا طائفتين من الناس لهما الحول والطول في هذه البلاد، والكلمة المسموعة في إدارة شؤونها: هما طائفة المستغلين الذين يريدون بقاء الشعب في جهله وجموده، لينبوا ثرواتهم على فقره، وسعادتهم على شقائه! وطائفة المتعصّبين الذين لا يريدون أن يبقى الإسلام في الجزائر! وإن بقي فليبق صورة مشوهة مباينةً لحقيقته، تهبّط بمن تمسك بها من أبناءه إلى دركات الجهل والشقاء²."

ويواصل ابن باديس كشف نوايا الاستعمار الخبيثة، والمؤامرات التي حيكت ضدّ جمعية العلماء المسلمين التي تمثل صوت الشعب وكيّنونته، والحارس الوفيّ للغة ودينه ومقومات وجوده، هذه المؤامرات والذسائس آخرها قانون 08 مارس المشؤوم، يقول ابن باديس: "لقد وضعوا في طريق هذه الحركات كلّ ما استطاعوا من العراقيل، ورموها بكلّ ما تخيلوا من البهت، وكادوا لها كلّ وجوه الكيد، فلم يجدوا منها ضعفاء، ولا وجدوا عليه في القانون مؤاخذاً.. فاجتهدوا جهدهم، ودبّروا كيدهم، وأجمعوا أمرهم، وضربوا ضربتهم القاضية.. وصدر قانون 08 مارس المشؤوم، القاضي بالسجن والتغريم، على كلّ من يعلم بدون رخصة³."

ولا يتوانى ابن باديس في توجيه سهام النقد اللاذع لرؤوس الطرقيّة في الجزائر وشيوخها، الذين استكانوا في خضوع مهين، لا تقرّه المروءة ولا الكرامة الإنسانية، ولا الإباء الجزائري، وليتهم اكتفوا بصمت الأموات بخصوص هذا القانون الجائر المشؤوم، لكان خيراً لهم، بل

1 - البصائر: السلسلة الأولى - السنة الرابعة - العدد 156 - 18 محرم 1358هـ / 10/مارس/1939م.

2 - المصدر نفسه.

3 - نفسه.

اجتهدوا في التنقيب عن أعذار ومبررات للإدارة الاستعمارية في إصدارها لهذا القانون، رجاءً منهم لرحمتها، وخوفاً من عذابها، فقد كتب مقالا تحت عنوان "رؤوس الطريقة يؤيدون قانون 08 مارس: أعلى هذا يكون الإتحاد؟" يفضح فيه ابن باديس العمالة الواضحة والتواطؤ المخزي للطرفيين الذين تحولوا إلى باشوات وآغا، يقول ابن باديس في لهجة حماسية شديدة، وفي تقرير وتشنيع واضحين: "هكذا يطعن رؤوس الطريقة الإسلام ولغة الإسلام من خلف... ثم مع هذا يدعون في اجتماعهم إلى الاتحاد! علام نتحد؟ أعلى قتل الإسلام ولغة الإسلام؟ أعلى إغضاب الله وإرضاء شياطينكم؟ أبعد موقفكم بقي لمسلم معكم اتحاد؟"¹.

وفي ختام مقاله يعلن ابن باديس براءته والأمة المسلمة من تلك الدّمي التي باعت دينها وشرفها وضميرها، وسخرت الإسلام لتقتات من فتات مائدة الاستعمار الفرنسي، يقول ابن باديس: "...أما اليوم وقد مدّوا أيديهم وألستهم بالسوء للإسلام ولغة الإسلام، وألقوا إلى ذلك القانون المشؤوم بالموذّة، فضلّوا سواء السبيل، فقد أيست من صلاحهم، وبرئت إلى الله منهم ومن عملهم."²

وفي السياق نفسه يردُّ ابن باديس -في مقال بعنوان "جريدة ((لاديش)) تدافع، ولكن بالغش والتدليس"- على افتراءات وأباطيل جريدة فرنسية³، دافعت عن هذا القرار بإيعاز من المخابرات الفرنسية وإدارتها الاستعمارية: "بين يومين من الأسبوع الماضي، كتبت صحيفتان استعماريّتان تصدران بقسنطينة، تُدافعان عن قانون 08 مارس المشؤوم، إحداهما تكتب بالعربية، والأخرى ((لاديش كوسطانتين)) فأما الأولى فجرت على عادتها في ((نباحها)) وليس لها ولا لأمثالها عندنا إلا قول ذلك الشاعر ومن يعضّ الكلب إن عضّ؟

ونحن لا يسعنا على كلّ حال، إلا أن نردّ على أباطيل ((لاديش))، وأضاليلها في الأعداد الآتية، كائنا ما كان مصدرها...."⁴

لقد خاض ابن باديس ومعه ثلة من رفاقه المصلحين، حربا فكرية على أكثر من جبهة، فقد تصدّى للاستعمار الفرنسي بقلمه، وكشف مخططاته الدنيئة، مثلما تصدّى للمعمّرين الحاقدين

¹ - البصائر: السلسلة الأولى - السنة الرابعة - العدد 163 - 08 ربيع الأول 1358هـ / 28/أفريل/1939م.

² - المصدر نفسه.

³ - جريدة La Dépêche. كانت تصدر بقسنطينة.

⁴ - البصائر: السلسلة الأولى - السنة الرابعة - العدد 168 - 13 ربيع الثاني 1358هـ / 02/حوان/1939م.

الناقمين على الجمعية ورجالها، الذين كانوا يملكون جرائد تنطق باسمهم وتشن هجومات على ابن باديس وجمعيته، وتحرض الإدارة الاستعمارية ضده، كما جابه ابن باديس أرباب الطريقة الضالة المنحرفة، الذين استعمروا الشعب الجزائري استعماراً روحياً، ونصب شيوخها أنفسهم آلهة للناس من دون الله، فزعموا أنهم يمنحون الشفاء للسقيم، ويهبون النسل للعقيم، حتى قيض الله رجالاً مخلصين لهذه الأمة من أمثال ابن باديس والإبراهيمي والتبسي وغيرهم، فأخرجوها من ظلام الاستعمار والطريقة إلى نور الهداية والعلم الصحيح، والتصوف الحقيقي. وفضحوا خزعبلات الطرفين، وكشفوا بالدليل الساطع عمالتهم للاستعمار. فبعد أن كانت الزوايا يُعقد فيها لواء الجهاد، ومنها تتفجر تكبيرات النفير، ولنا في الأمير عبد القادر والشيخين الجليلين المقراني والحدّاد المثل الأوفى، أضحت هذه الزوايا بعدما سيطر عليها أناس لا حظ لهم من العلم ولا المروءة ولا الاستقامة شيء، أداة طيعة في يد الاستعمار الفرنسي، ومطية ذليلة يأتيها أنى شاء ويصرفها أنى شاء، وثالثة الأثافي في كل هذا عندما تحولوا إلى معول هدم لوحدة الأمة وتمزيقها، وعامل نصب وخفض لهامة الأمة وشعبها. وأضحى همهم الأول التسبيح بحمد الاستعمار والانصياع لأوامره مقابل ما يُعقد عليهم من مناصب وهمية، وما ينثره عليهم من دريهمات بخسة.

إنّ القارئ لمقالات ابن باديس ومقالات الإبراهيمي السياسية، يلمس الفرق الجوهرى بين الكاتبين، فالأول يهدف إلى إيصال الفكرة في صورة بسيطة، خالية في الغالب من الخيال الفني، أمّا الثاني فيزواج بين الفكرة والأسلوب، فتراه يحلل الفكرة بعمق واستدلال منطقي، معتمداً على الحجاج العقلي، موظفاً السخرية الأدبية حسب ما تقتضيه طبيعة الموضوع المعالج، وإن كانت هذه الخاصة - السخرية - تغلب على كتاباته، كلّها هذا في قالب فني بديع، وفي تأنيق لفظي من غير إسفاف، لا نظير له بين الكتاب الجزائريين، ولا نُغالي إن قلنا بين نظرائه العرب من معاصريه على الأقل.

والواقع أنّ الاستعمار الفرنسي شدّد من الإجراءات التعسفية لتقف حاجزاً حقيقياً أمام المدارس التي لم تكن لها رخص تسمح لها بمزاولة نشاطها، لأن الإدارة الفرنسية رفضت أن تمنح لها الرخص على الرغم العديد من الطلبات التي سبق وأن تقدمت بها، ومن بين العراقيين التي وضعتها الإدارة الفرنسية في وجه المعلمين المنتسبين إلى جمعية العلماء، أنّها تشترط على كل من

يتقدّم بطلب للحصول على رخصة الموافقة لممارسة التعليم، إتقانه اللغة الفرنسية وهو الشرط الذي يفتقر إليه معظم معلمي المدارس التابعين لأعضاء الحركة الإصلاحية، ويعد شرطاً تعجيزياً يُفضي في النهاية إلى المنع"¹.

وقد ردّ الشيخ عبد الحميد بن باديس ردّاً عنيفاً على القرار الفرنسي، سواء في خطبه أو في كتاباته الصحفية، وعدّ ذلك محنة للسان العربي، فكتب مقالا بعد مضي شهر فقط من صدور القرار — المشؤوم : "قد فهمنا - والله - ما يراد بنا، وإنما لنعلن لخصوم الإسلام والعربية، أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي - بعون الله - في تعليم ديننا ولغتنا، رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء، فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا، وإنما على يقين من أن العاقبة - وإن طال البلاء - لنا، وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا قد عزمنا إيماناً، وشاهدنا عياناً، أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما، ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما.

سيرى الذين دبروا المكيدة، والذين لم يتفطنوا لها فشاركوا في تنفيذها أنهم ما أصابوا بهذه المكيدة إلا سمعة فرنسا في العالم الإسلامي والعربي، في الوقت الذي تنفق فيه الملايين على تحسين سمعتها فيهما، ومكانتها عند الجزائريين في أخرج أوقاتها، وأشدّها حاجة إلى الأمم المرتبطة بها"²: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}³

ولم يستسلم رجال الحركة الإصلاحية لهذا القانون الجائر، بل بحثوا جميع السبل لإجبار إدارة المستعمر العدول عن قرارها العنصري، ومما يدل على ذلك توجيه الشيخ عبد الحميد بن باديس دعوات لجميع أعضاء الفروع التابعة لجمعية العلماء لعقد مؤتمر عام يجمعهم في نادي الترقّي بالعاصمة حدد تاريخه يوم 27 مارس 1939، قصد البحث عن الأطر القانونية والطرق الكفيلة التي تسمح لهم بالدفاع عن التعليم العربي الحر، والمطالبة بإلغاء هذا القانون. وقد حدد في نص الاستدعاء ظروف تعليم اللغة العربية، وملاحقة رجال التعليم، والعقوبات المسلطة عليهم بموجب هذا القرار، ويتعهد في نص الرسالة بقوله: "وسأبذل كل جهدي في مقاومة

¹ - محمد الصالح رمضان، عبد القادر فضيل، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، دار الأمة، د.ط، الجزائر، 1998، ص83.

² - البصائر: السلسلة الأولى - السنة الثالثة - العدد 107 - 107 محرم 1357هـ / 08 / أفريل / 1938م.

³ - الآية 43، سورة فاطر.

ذلك القرار الجائر، لاقيا ما لقيت من عنت وبلاء، واعتقادي الجازم هو أنكم لا تقصرون عني غيرة على دينكم، ولغتك، وعزيمة في حرمتها، والدفاع عنهما"¹. قال تعالى: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}².

يقول الشيخ ابن باديس في هذا الصدد: "لقد فهمت الأمة من المعلمون المقصودون؟، فهم معلمو القرآن والإسلام، ولغة القرآن والإسلام، لأنهم هم الذين عرفت الأمة كلها ما يلقون من معارضة ومناهضة، وما يجدون من مقاومة ومحكمة، بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان، والمروجون للنصرانية في السهول والصحاري والجبال بين أبناء وبنات الإسلام في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال، وهم الذين إذا طلبوا الرخص بكل ما يلزم للطلب أجبوا بالسكوت والإعراض، أو أعلن لهم بالرفض من غير ما سبب من الأسباب، فهم الذين إذا طلبوا اليوم رخصة كان كما بالأمس السكوت أو الرفض جوابهم، ثم إذا أقدموا على التعليم بلا رخصة كان التغريم الثقيل والسجن الطويل جزاءهم، وإذا أحجموا واستسلموا تم لأعداء الإسلام والعربية مرادهم، وقضوا على القرآن والإسلام ولغة القرآن والإسلام قضاءهم."³

يفضح ابن باديس أساليب الإدارة الاستعمارية المبنية على المماثلة والتسويق، فهي تشترط وجود رخصة التعليم للمعلمين الأحرار، وبالمقابل تمتنع عن إعطائها لهم كلما طلبوها، أو تضع بينهم وبينها جبالا من الشروط التعجيزية حتى تُبئسهم منها. ويُطلق الشيخ عبد الحميد بن باديس صرخة استغاثة مدوية، تنزل أركان المستعمر الغاشم، فيقول: "يا لله والإسلام والعربية في الجزائر، كل من يُعلم بلا رخصة يغرم يغرم ويسجن. لما رأوا تصميم الأمة على تعلم قراءتها ودينها ولغة دينها، واستبسال كثير من المعلمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقرآن واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتغريم، لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم وبذلوا جهدهم حتى استصدروا هذا العقاب الرهيب"⁴

¹ - رابح تركي: الصراع بين جمعية العلماء وإدارة الاحتلال الفرنسي للجزائر بين 1933 - 1939، مجلة الثقافة، ربيع الثاني 1405هـ، يناير وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1985 العدد 85. ص. 199.

² - الآية 146، سورة آل عمران.

³ - محمد الحسن فضلاء، الشذرات من مواقف الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبعة دار هومة، 2001، ص 118.

⁴ - محمد الملي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ط. 02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 150.

ولم تكن فرنسا بمرسوم شوتان المشؤوم، بل أردفت بمرسوم آخر أشأم من سابقه وذلك بتاريخ 27/ نوفمبر/ 1944، والذي يعدُّ من أكثر القرارات تعسفاً، إذ نصَّ على غلق المدارس الحرّة، وإجبارية تعليم اللّغة الفرنسية إلى جانب العربية، ناهيك عن إجراءات تعسفية جديدة في حقّ المعلّمين.

وقد حاول الاستعمار من خلال هذه القرارات الجائرة تعطيل تعلّم اللّغة العربية وتهجينها، بعدما أجبر تعليم اللّغة الفرنسية، وبذلك ينشأ جيل هجين، لا هو أتقن لغته الوطنية وحفظ بها مقومات وجوده، ولا هو حذق في لغة عدوّه علّه ينازله بها، فالاستعمار الفرنسي كان يهدف إلى تكوين جيل مشوّه لغويا وعقائديا وحضاريا من الشعب الجزائري، حتى يستطيع إحكام قبضته وسيطرته عليه.

وقد عارض أبناء الشعب الجزائري هذه القرارات التعسفيّة ورفضوها جملة وتفصيلا، وعلى رأس هؤلاء الشيخ المصلح الطيّب العقبي الذي نشر رسالة على صفحات جريدة الإصلاح¹ موجّهة إلى مدير الشؤون الأهليّة يطلب منه فيها التراجع عن هذا القرار: "فنحن نتوجّه إلى هذا المشروع ونحن أقوياء بحقنا، أقوياء بما قدّم لنا من صريح العهود والوعود.... الأمر الذي لا يفهم ولا يتوصل لفهم كنهه هو إجباركم على الخضوع لشيء ليس هو في طاقتهم - المعلّمين - ولا مقدرتهم، وكيف يمكن أن نطلب من المسلمين وجوب معرفة اللّغة الفرنسية دون أن تكون أبواب المكاتب مفتوحة على مصراعها أمام الجميع دون مميّزٍ أو إجحاف"²

بيد أنّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كان له فضل السبق في ما دبّجه من مقالات حول موضوع اللّغة العربية، وحرية تعليمها، لا سيما في جريدة البصائر السلسلة الثانية التي كان يرأس قلم تحريرها، هذه المقالات المتوالية تباعا حول مسألة التعليم الحرّ، أو التعليم العربي والحكومة، لا نجد لها شبيهاً إلّا في سلسلة المقالات التي خطّها الإبراهيمي حول مسألة فصل الدين عن الحكومة، ولعلّ القارئ لمقالات الشيخ الإبراهيمي يقف على هاته الملاحظة الدقيقة وهي أنّ مقالات الكاتب السياسية قد استحوذت فيها مسألة الدين الإسلامي واللّغة العربية

¹ - جريدة ذات خطّ إصلاح، لصاحبها الطيب العقبي، كانت تصدر بمدينة بسكرة، صدر العدد الأول منها في 08/09/1927 لم تكن منتظمة الصدور، توقفت نهائيا في 03/03/1948 بعد أن صدر منها ما يقرب من ثلاثة

وسبعين عددا. ينظر: محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 98/93.

² - جريدة الإصلاح: السنة العشرون، العدد 52، 12 جوان 1947.

على القسط الأكبر في ما كتب من مقالات. ففي مقال له بعنوان "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرّة، ليس لها ضرّة" يقول: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواحي مع الحاضر، طويلة الأفيان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنّها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على السنة الفاتحين، ترحلُ برحيلهم وتُقيم بإقامتهم"¹. فالإبراهيمي هنا يربط بين وجود وبقاء العربية في الجزائر ببقاء الإسلام الذي "جاء إلى هذه الربوع فاتحاً للعقول والقلوب، فأقام ومعه العربية إقامة الأبد"².

وعلى ذكر الفاتحين المسلمين لا يُفوّت الكاتب الفرصة حتّى يشير إلى مغالطة تاريخية حاول الاستعمار الفرنسي الترويج لها بشتى الطرق والأساليب بين أوساط الشعب الجزائري لا سيّما بين الطلاب الجزائريين - على قتلهم - الذين انتسبوا للمدارس الفرنسية، هذه المغالطة المسمومة مفادها أن الفاتحين العرب غزاة محتلون، وأعراب متوحشون، احتلوا الجزائر عنوةً وأخضعوها بحدّ السيف. ومجارةً لافتراءاتهم يصبح عقبه بن نافع محتلاً والكاردينال لافجيري فاتحاً محرّراً. يقول الإبراهيمي: "كذب وفجر كل من يسمّي الفتح الإسلامي استعماراً، وإنّما هو راحة من الهمّ الناصب، ورحمة من العذاب الواصب، وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض... إنّ العربيّ الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام ومعه العدل، وجاء بالعربية ومعها العلم، فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب، ولكنّه خضوعُ الأخوة، لا خضوع القسوة، وتسليم الاحترام، لا تسليم الاحترام، والعلم هو الذي طوّع البربريّة للعربيّة، ولكنّه تطويع البهرج للجيدة، لا طاعة الآمة للسيّدة.

لنلك الروحانيّة في الإسلام، ولذلك الجمال في اللغة العربية أصبح الإسلام في عهد قريب صبغة الوطن التي لا تنصل ولا تحول، وأصبحت العربية عقيلة حرّة، ليس لها بهذا الوطن ضرّة"³. أمّا فما يُخصّ الإجراءات التعسفية التي وضعتها الإدارة الاستعمارية في وجه المعلمين الأحرار، تضييقاً عليهم ومنعاً لهم من مواصلة رسالتهم الوطنية النبيلة، المتمثلة في الحفاظ على

¹ - البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثانية- العدد 41- 20 شعبان 1367هـ/ 28 جوان 1948م.

² - عبد الرزاق قسوم: اللغة العربية في العهد الاستعماري- مواقف الإمام الإبراهيمي - عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع- ط. 01-2007- ج. 04- ص 07.

³ - المصدر نفسه.

مقومات الأمة الجزائرية، وزرع بذورها في نفوس الناشئة، فإن البشير الإبراهيمي ومن على صفحات جريدة البصائر انبرى للدفاع عن حقّ الجزائريين في تعلّم لغتهم، ولم يتوان لحظة واحدة في إدانة هذا المستعمر الآفك وكشف مثالبه على رؤوس الأشهاد. يقول الإبراهيمي في سلسلة من المقالات بعنوان "التعليم العربي والحكومة": "كلّ الوسائل التي تتدرّج بها حكومة الجزائر لمقاومة التعليم العربي هي: إمّا قوانين أصدرها مجلس الأمة في فرنسا في أوقات مختلفة، ولأسباب متنوعة، وإمّا قرارات إدارية فردية، مصدرها الجزائر، ومبناها على إيعازات بوليسية، توجبها الروح الاستعمارية، والنوع الأوّل غالبه عام مطلق، يشمل كلّ تعليم حرّ لم تباشره الحكومة، بأيّة لغة كان، ومن أيّة جمعية صدر، والثاني خاص بنا نحن معشر المسلمين، مصبّوبٌ علينا وحدنا، موضوع بالقصد المباشر للتضييق على لغتنا وديننا، وقد كثر هذا النوع وتوالد، حتّى أصبح بعضه ينسي بعضه عند المنفذين، مع اجتهادهم وحرصهم، وكلّما زادت الأمة إقبالا على تعلّم لغتها ودينها، زادت الحكومة في القيد تضييقا، حتّى لو أنّها نفّذت تلك القرارات بحذافيرها لما بقي في الجزائر من يكتب حرف هجاء عربيّا."¹

يعرض الكاتب في هذا المقال جملة العراقيل التي تضعها الإدارة الفرنسية في وجه من يريد أن يُعلّم أو يتعلّم لغته ودينه، وهو بذلك يكشف عن خبرته بالسياسة الاستعمارية الدنيئة، كيف لها وهو من اصطلى بنار ظلمها من عهد التمام إلى عهد العمائم. ويصوّر الإبراهيمي حال الجزائريين تتقاذفهم الأعياب و أكاذيب الاستعمار الفرنسي حول منحهم الرخصة الإلزامية لمزاولة التعليم الحرّ، فيعدّهم ويمنّيهم، وما يعدّهم الاستعمار إلّا غرورا. ويعمد الإبراهيمي إلى عقد مقارنة على سبيل الافتراض فقط، بين فرنسي طلب الرخصة لمزاولة التعليم الحرّ وبين جزائري طلبها لنفس الغرض، يقول: "وافرض لو أنّ رجلا فرنسيّا فتح مكتبا حرّا للتعليم الابتدائي، فهل تظن أنّ الحكومة تعارض أو تعاكس أو تعطلّ، أو تعامله بأقلّ من القليل مما تعاملنا به؟ .

تقول الحكومة - هنا - إنّ الإفرنسيّ مهذّب لا يدوس القانون، ومنها طلب الرخصة ولا يأنف منها كما تأنفون. ونقول نحن هنا: لا لا. ولكن الإفرنسي حرّ عزيز، لا يستطيع (كوميسير) أن ينهره، ولا بوليس أن يقهره، ولا حاكم أن يحتقره، ولا هم جميعا أن يماطلوه أو

¹ - البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثانية- العدد 65- 02 ربيع الثاني 1368هـ/31 جانفي 1949م.

يعطّله، فإذا طلب الرخصة صباحا يعطاها مساءً، أمّا المسلم فإنّه يقدّم طلب الرخصة إلى أصغر مكلف فيدخل به في بحر من الإجراءات لا ساحل له، حتى يفرغ جيبه، وتخفى قدماه، ويكلّف ذهنه، زيادةً على السخريّة والاحتقار.¹

إنّ هذه الإجراءات التعسفيّة، والعراقل البيروقراطية، التي كان يُكابدها المعلّمون الأحرار في سبيل الحصول على رخصة تسمح لهم بالقيام برسالتهم الساميّة، ليست ضرباً من الخيال بل هي قطرة واحدة من بحر الظلم والتجبر والاستعباد الذي كان يئنّ تحت وطأته الشعب الجزائري. هذه الرخصة لو أنّ طالبها سيدنا أيوب عليه السلام، لنفد صبره. وليت الأمر توقّف عند هذه الإجراءات فقط، بل تعدّاه إلى تحديد جملة من المعايير والشروط الواجب توفرها في طالب الرخصة، والتي لا يحصل عليها إلّا ذو حظّ عظيم، ولاشكّ أن أول شرط لهذا المحظوظ هو العمالة للاستعمار، والتسبيح بحمده بكرة وأصيلاً: "وما المحظوظ إلّا من قامت الشواهد على إخلاصه للحكومة، وأثبت الفحص الإداري براءته من العيوب صغيرها وكبيرها، وأكبرها أن فيه وسمّاً من جمعيّة العلماء ونسبةً إليها، أو أنّه يحمل فكرتها الإصلاحية، وأصغرها أن يكون اشترك في جمعيّة علميّة، أو حضر في حفل أدبي، أو استمع إلى نشيد قومي، أو انتسب إلى حركة سياسية، فكلّ هذا ممّا يُسجّل في الصحائف، وكل هذا ممّا يوجب لصاحبه الحرمان من رخصة التعليم".²

هذا نموذج حيّ للتسلّط الاستعماري على الجزائريين، وذلك بمنعهم من تعلّم لغتهم، وترجمان حياتهم، والغريب أنّ هذه الإدارة الاستعمارية تجمع بين المتناقضات، فهي تدّعي أنّها من علّمت الناس شرعة حقوق الإنسان، وأنّها منارة العدل وحميته، وبالمقابل تدوس على كل هذه القيم إذا ما تعلق الأمر بالجزائر وهويّتها، فمثلاً في مجال تعلّم الجزائريين للغتهم وذاك حقّ مشروع، ففرنسا لا تسمح ولا ترضى ذلك، وحتى تمنع تعلّم العربية تحتلق شروطاً تعجيزيّة لصرف المعلّمين والمتعلّمين على حد سواء.

في هذا المقال بيّن لنا الإبراهيمي الشروط الواجب توافرها في هذا المحظوظ الذي يتكرّم الاستعمار الفرنسي ويجود عليه بهذه الرخصة، أول هذه الشروط أن لا يكون منتسباً لجمعية

¹ - المصدر السابق.

² - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 65 - مصدر سابق.

العلماء المسلمين أو حتى متعاطفا معها، وأن لا يكون قد استمع إلى نشيد قومي، فذلك مما يهيج المشاعر الوطنيّة، وهو ما تعدّه فرنسا من أكبر الكبائر التي توجب على صاحبها السخط والغضب السرمدي، وأن لا يكون قد حضر يوما حفلا أدبيّا، لأنّ واحدة من هذه كافيّة لمنع الرخصة عن طالبها وحرمانه منها، وموجبة للتوبة العاجلة، فما بالك لو اجتمعت جميعا كما هو الشأن مع أبناء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أو أبناء حزب الشعب والحركة الوطنية على وجه العموم.

كلّ هذه الإجراءات، وكل هذه العقبات، لأجل رخصة مزاولة التعليم الحرّ التي هي أهون من طلب رخصة فتح مقهى"، وإن تفضلت الإدارة الاستعماريّة بمنح هذه الرخصة، فإنّ سعادة المعلّم بما لا تدوم طويلا، فبقاؤها- الرخصة- مرهون بالاستقامة في نظر الحكومة، وقد سبق وأن فصلنا الاستقامة من منظور الاستعمار، يقول الإبراهيمي: "وليت المتاع بما طویل، ولكنّه متاع قليل، بل هي أخطّ وأقلّ من رخصة "فتح مقهى" مثلا، ولا تبقى نافذة إلّا بقدر ما يبقى صاحبها مغفولا عنه، أو مستقيما في نظر الحكومة، فإذا زاغ عن الصّراط أو قصّر في الاشرط، فترعها منه أهون عليها من قصّ قلامه"¹.

على الرّغم من أن حقّ التعلّم حقّ مشروع تُقرّه كافة الشرائع والقوانين إلّا أن فرنسا لا تسائر القوانين والمنطق السليم، بل وتدوس عليها وتخرقها جهارا نهارا، كلما تعلق الأمر بالجزائر. فرخصة فتح مقهى مثلا أو حتّى حانة خمر، قد تكون أصعب من منح ترخيص بتعلّم العربيّة وتعليمها، إلّا أن الاستعمار يركب المخاطر، ويتحمّل الصعاب والشدائد في سبيل منح تراخيص المقاهي والحانات، ليشغل الجزائريين عن تعاطي السياسة، فهو يريد لهم أحلاس مقاهي، أحلاف حانات وملاهي، متسكعي شوارع، لا أن يكونوا طلاب علم مستنيرين لأن ذلك يعني نهايته من هذه الديار.

يفضح الإبراهيمي ازدواجيّة الاستعمار وسياسته المنتهجة في الجزائر القائمة على الكيل بمكيالين، فالتعليم فرض وإلزامي على كلّ طفل بلغ سنّ التمدرس، ويعاقب وليّ الطفل بالغرامة أو السجن إذا ثبت في حقه تقصير أو تقاعس في إلحاق الطفل بالمدرسة، لكنّ الأمر يختلف جذريّا في الجزائر، يقول الإبراهيمي في موازنة بين البلدين: "لا معنى للشمول في القوانين، ما لم

¹ - المصدر السابق.

يصحبه شمول في التطبيق والتنفيذ، وإذا كان واضع القانون ليس منّا، ومُنفّذه ليس منّا، فمن البلاء تطبيقه علينا، ألا إنّ في الاستعمار لفحةً من جهنّم، وإنّ في المستضعفين سماتٍ من أهلها، أظهرها أنّهم لا يموتون ولا يحيون... يُحرّم الاستعمار الإفرتسي التعلّم على مسلمي الجزائر، ويفرضه على أبناءه وفي وطنه، فأعجبٌ لشيء واحد يُحرّم في وطن، ويُفرَض في وطن، ومن عرف الاستعمار معرفتنا به لم يعجب ولم يندهش، خصوصاً في وطن كالجزائر، لغته العربيّة، ودينه الإسلام.¹

اعتمد الإبراهيمي أسلوب المقابلة والتناقض، في كشفه لسياسة الاستعمار المبنية على التناقض والجمع بين الأضداد، فالإدارة الفرنسية تغرّم وتسجن من يُقصر في التحاق أبنائه بالمدرسة ولو ليوم واحد، وفي الجزائر يُسجن ويُشردُّ ويُنفى من تثبت في حقه تُهمة مزاولة التعليم أو حتى المطالبة بهذا الحقّ المكفول بنص كل الشرائع والقوانين. وبجراته المعهودة، يُذكر الإبراهيمي بالجرائم التي ارتكبها هذا المستعمر الغاشم بحق الشعب الجزائري، وكيف استترف خيرات وطنه، وجعل من أبنائه غرباء في أرضهم: "وطن أمّك الاستعمار، فانتزع خيرات الطبعية، من أيدي أهلها، ثمّ تسلّل إلى مكان النفوس ليتزع الإيمان من قلوبهم، بهذه الوسائل التي منها تسيير مساجدهم على هواه، وحرمانهم من تعلّم دينهم ولغتهم، فلما رأهم هبوا ودبّوا، وأيقن ربما أنّهم أوضاعوا وخبوا، رماهم بهذه القوانين التي بعضها يشلّ، وبعضها يغلّ، وجميعها يقتل".²

وعلى سبيل تيسير الاستعمار الفرنسي، من نجاح خططه الخبيثة في القضاء على اللغة العربيّة، وردّ الجزائريين عن دينهم، مهما سلّط على الأمة من فقر، وتجويع، وتنكيل، يقول الإبراهيمي في لهجة تملؤها الثقة بالنفس وبأصالة شعبه: "قلنا للحكومة مرّات - في صدق وإخلاص - إنّ هذه الأمة رضيت لأبنائها سوء التغذية، ولكنّها لا ترضى لهم - أبداً - سوء التربية، وأنّها صبرت مكرهةً على أسباب الفقر، ولكنّها لا تصبر - أبداً - على موجبات الكفر".³

1 - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 66 - 09 ربيع الثاني 1368هـ / 07 فيفري 1949م.

2 - المصدر نفسه.

3 - نفسه.

ولاشك أن لتفاوت مقاييس الفضيلة بين الجزائريين من جهة والاستعمار الفرنسي من جهة ثانية الأثر البالغ في تعقيد الوضع، لاسيما في ظلّ استعمار وحشي لا يؤمن بحق الشعوب في التحرر من ربقة وتقرير مصيرها بنفسه، فهو يجرّم السياسة على الجزائريين، ويحظر عليهم تعاطيها، لأنه يوجس خيفة من ممارستها لأنه يعي جيّدا أنها مرادفة لزواله، يقول الإبراهيمي: "قلت لرجل من رجال الإدارة الحكومية الجزائرية، وهو يفاوضني في هذه القضية مفاوضة رسمية، وكنا يومئذ نتناقش ونبحث الأسباب التي توجب حرمان المعلم من إعطاء رخصة التعليم، فقلت له: يظهر لي أنّه لا يمكن أن نتلاقى معكم في نقطة، مادام مقياس الفضيلة عندنا وعندكم متفاوتا إلى هذا الحد، فنحن نرى-مثلا- أن السياسة ليست جريمة ولا ما هو أهون من الجريمة، وإنما هي حق طبيعي، يمارسه كلّ عاقل، وتزيد عندنا بمعنى، وهو أنّها لم تعد أن تكون أنّها يستريح إليها المظلوم.... وأنتم ترونها- بالإضافة إلينا فقط- جريمة أيّة جريمة، وتعاقبون عليها بالسجن والنفي فضلا عن الحرمان من رخصة التعليم."¹

ثمّ يُعرّج الكاتب على الاختلالات التي يُعاني منها المجتمع الغربي، عامة والفكر الاستعماري على وجه الخصوص، بسبب الانحلال الخُلقي، والخواء الروحي الذي جعل هؤلاء يتخبّطون في وحل الرذيلة والخطيئة، والتي سعى المستعمر جهده لإشاعتها بين أوساط الجزائريين، يقول الكاتب: "نحن نرى أن الزنا والخمر وما أشبههما كبائر تُسقط العدالة والشهادة، ولا نرتضى مرتكبها معلّما لأبنائنا.. وأنتم لا ترونها جرائم، ولا تعاقبون عليها. فللقاضي- مثلا- أن يسكر ويعربد ويفسق ويكفر، ولا حرج عليه لأنّه حرّ... ولا نعتقد أن ميزان الفضيلة اختلّ عندكم إلى هذه الدرجة، ولكنّ شيطان الاستعمار يُزيّن لكم كلّ ما تستقبّحه الأديان، وتستهنه العقول، إذا كان ذلك في المستعمرات.

قلت له: وأنا أوكد لك أنّ كلّ ما زرعتموه في المستعمرات من خبائث ورذائل، وسقيتموه بماء الحرّة لينمو ويترعّرّع، فتفسدوا به أهلها وتهلكوهم، ستجنون ثمراته المرّة في أبنائكم وفي وطنكم، فأنتم تُسخّرون الشيطان للإفساد من حيث لا تشعرون....
جرّنا إلى هذا كلّ حديث ((الرخصة)) فلها الويل: فهي رخصة تعليم أم غصة وعذاب أليم".²

¹ - المصدر السابق.

² - جريدة البصائر: السلسلة الثانية- السنة- العدد 66- مصدر سابق.

وفي مقال آخر يروي الإبراهيمي قصة قرية صغيرة هادئة، انشرح صدرها للجمعية وتعاليمها، فأنشأت كُتّابا لتعليم أبناءها، وتكفّلت الجمعية بإرسال معلّم من مدينة قسنطينة المجاورة، لكنّ الاستعمار استكثر على هذه القرية أن يتعلّم أبناءها لغتهم ومبادئ دينهم الحنيف، فكان مصير المدرسة الغلق، ومصير المتعلّمين التشريد، ومصير المعلّم التنكيل والاستنطاق في مراكز الشرطة الاستعمارية، يقول الإبراهيمي واصفا كل هذا بمرارة وآسى: "وشرع في تعليم أولادنا تعليما ابتدائياً بسيطاً، ليس فيه كيفية تحطيم الذرّة، ولا كيفية تحضير القنبلة الذريّة، وإنّما هو تعليم لأشكال الحروف العربيّة وتركيب الكلمات منها، وما مضت أسابيع حتى هاجت الحكومة ث وماجت... ونشط ممثلها متصرّف حوز مايو وأعوانه نشاطاً... وأحالهم على دائرة البوليس السريّ متّهمين بتهم لفقها أعوانه، وهي تُهم مُحضّرة جاهزة في كلّ إدارة ويبد كلّ مدير، يستعملها كلّما خانه القانون، وخذله الحق، فيرجع إلى تلك التهم لينتقم بها، فاستنطقهم البوليس السريّ لا باللسان بل بالعصا (والكرباج)، وأدخلهم السجن ((رهن الاستنطاق)) كما يقولون.¹

إنّ الآلة الاستعمارية لا تكلّ ولا تملّ، ذلك أنّها لما استشعرت وعي الجزائريين لمخطّطاتها، ولأنّ مكائدها ومؤامراتها لم تُجد نفعاً في ظلّ تمسك الشعب بهويّته وإقباله على تعلّم لغته ودينه على الرّغم من المنع، والنفي والتشريد، واشتراط الرخصة للتعليم. لجأت إلى أسلوب خبيث يعكس دناءة المستعمر وخسّته، وذلك من خلال فتحها لمكاتب إداريّة بها مئات الأقسام، لتعليم الفرنسيّة للجزائريين، بعدما كانت المدارس النظامية موصدة في وجوههم، وحكراً محتكراً على أبناء المستعمر وأبناء المعمّرين، والحقيقة أنّ فتح المدارس للجزائريين ليس بدافع إنساني أو لصحوة ضمير، ولكن بغرض صرف أبناء الجزائر عن الالتحاق بالمدارس الحرّة سواء أكانت تحت يد جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أم تحت إدارة حزب الشعب الجزائري، يقول الإبراهيمي: "لم تقف الحكومة في حرب التعليم العربي ومضايقته عند تلك الحدود التي شرحناها وقبّحناها، وتلك القوانين والقرارات التي جرّحناها وفضحناها، بل أتت في هاتين السنتين الأخيرتين بما هو أقبح وأدلّ على سوء النية في التضييق على مدارسنا والتعطيل لها... رأينا من آثار هذه البرامج في كثير من القرى تساهلاً عظيماً في قبول التلامذة بالمكاتب

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 67 - 16 ربيع الثاني 1367هـ / 14 فيفري 1949م.

الابتدائية الإفرنسيّة، خلافاً للسنة المقرّرة عند الحكومة، وخلافاً لعملها المطلق الذي طالما نعيّناه عليها وأنكرناه، وهو عدم عنايتها بتعليم أولاد المسلمين، وما كان هذا التساهل رحمةً منها بهم، ولكن لتصدّد أكبر عدد منهم من غشيان المدارس العربيّة الحرّة، ثمّ تجبرهم على برنامج فارغ إلّا من التوافه، مضطرب الساعات، فمنهم من يأخذ ساعتين، ومنهم من يأخذ أربعاً، فيخسر التعليم العربيّ، ولا يحصل على التعليم الإفرنسي. والعدر الذي تسمعه منهم على هذا الاضطراب هو عدم وجود الأماكن! ونقول نحن: إذا لم تكن الأماكن كافية لهم، فلماذا تقبلونهم من أول يوم؟ ولو أنصفوا لقالوا: إنّ قصدنا الوحيد هو معاكسة التعليم العربي وكفى.¹

فمن خلال هذه المكيدة التي دبرها الاستعمار الفرنسي لضرب التعليم الحرّ في الصميم، كان يهدف كذلك إلى حبس هؤلاء التلاميذ في هذه الأقسام فلا هم تعلّموا لغتهم في مدارس الشعب الحرّة، ولا هم تعلّموا نظامياً كأترابهم الفرنسيين، فلسان حال الاستعمار يقول أريدك جاهلاً أمياً خاضعاً خانعاً أيّها الطفل الجزائري، لا أريدك أن تتعلّم لغتك، ولا أريد أن أعلمك من لغتي غير فرنسيّة ركيكة لتفهم منّي ما أمرك به وما أمّاك عنه. يقول الإبراهيمي: "هذه البرامج التي تظهر كل يوم لحرب التعليم العربي الإسلامي - ومن فروع هذا البرنامج الواسع - الانهماك في تشييد مئات المكاتب وفتح مئات الأقسام، لتسع أولادنا فتشغلهم بتعليمها عن تعليمنا، وتُعطلّهم عن تعليم مفيد بتعليم ناقص لا يؤهلهم لشيء من طرق الحياة ووسائلها، وإنّما يؤهلهم لشيء واحد هو الاستعباد المريح للسيد... إذ لا يحصلون من وراء هذا التعليم إلّا على كلمات يلوكونها بالفرنسية ويفهمون بها عن الحاكم إذا أمر، وعن المعمر إذا زجر.²"

مرّة أخرى يُثبتُ الإبراهيمي علوّ كعبه ليس فقط في تطويع اللّغة، وصبّها في القالب الذي يشاء، بل في تحليله العميق لما تُبيّته الإدارة الفرنسية، بحكم خبرته الطويلة في السياسة الاستعمارية، ومكائدها وألعيها، فما إن تصدرت الإدارة الاستعماريّة قراراً أو تروّج لمشروع ما قد يلبس ثوب الإنسانية، فإنّ الإبراهيمي يكون أوّل من فكّ شفرته، ويجدّد الهدف المبيّت والمقصود في سرعة وبديهة نادرة.

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 68 - 23 ربيع الثاني 1368هـ / 21 فيفري 1949م.

² - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 74 - 06 جمادى الثانية 1368هـ / 04 أفريل 1949م.

ويبلغ الغضب مداه من الشيخ الإبراهيمي، بسبب هذه الإجراءات التعسفية التي فرضها الاستعمار الفرنسي على تعليم اللغة العربية، والدين الإسلامي الحنيف، فيقول في نبرة لا تخلو من غضب وسخط: " من لي بمن يُسجّلها ويعجّلها لعنة خالدة على الاستعمار؟ ومن لي بمن يُزجّجها ولا يُرجّجها سبّةً تالدة له ولأنصاره في العالمين؟ ومن لي بمن يصبها ولا يغبها دموعاً سخينة على جدث الإنصاف وعلى رُفات المنصفين؟ ومن لي بمن يرسلها صارخةً صاخحةً في أذنياء الديمقراطية ودُعائها والمدّعين لها، أينما حلّوا، أن يتصدّقوا علينا مشكورين بالكفّ من هذه الدعوة الدعية، فقد غثّت ورثت، وسمّجت و(خمجت)*.؟"¹

إنّ هذه المرأة الفريدة التي ميّزت مقالات الإبراهيمي السياسية في تقزيم الاستعمار الفرنسي وتقريبه، أفضت بنا إلى عقد مقارنة بينها وبين مقالات لجريدة المرشد، يطالب فيها صاحبها الحكومة الفرنسية بالسماح لهم بتأسيس جمعية دينية، في خطاب يحمل دلالات الاستكانة والخضوع والتزلف للاستعمار الفرنسي، يقول الكاتب: "...ونزيد هنا، ولا حرج، وبمساعدة الحكومة لهما، ونحن وإن كنّا نشكرها على ذلك العدل، وتلك السماح كلاً الشكر، فإنّنا لازلنا في انتظار بسط تلك الرحمة على (الديانة الإسلامية) وعلى رجالها المومنين، الذين لم يطلبوا من (الحكومة) إلّا حقاً مقدّساً بصيغة معقولة، لا مرء فيها ولا جدال، وتلك الصيغة هي التي عبّرنا عنها في غير ما مرّة فهل سُمع نداؤنا، ولُبّيت دعوتنا؟ إنّنا ما طلبنا من (الحكومة) إلّا أن تسمح لنا بتشكيل هيئة دينية بكل بلدة معتبرة."²

ولم يكن الإبراهيمي يخوض معركة الشريفة لوحده، ولم تكن جريدة البصائر لوحدها في مضمار الذود عن تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، بل شدّ عضده وعضدها ثلّة من الوطنيين المخلصين، الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن الجزائر شعباً، وتراباً، وديناً، ولساناً، وتاريخاً، هؤلاء هم الكتّاب الشباب لجريدة المنار³، ويأتي في مقدّمهم رئيس تحريرها محمود

¹ - البصائر: السلسلة الثانية-العدد 67- مصدر سابق.

*- خمجت: من الفعل خمّج، خمّجت الفاكهة أي نبتت وفسدت وتعفّنت.

² - عدّة بن تونس: الوظائف الدينية-المرشد-السنة 04-العدد 48-رجب 1370هـ/08 أبريل 1951م.

³ - جريدة سياسية، ثقافية، دينية، حرّة، لسان حال حزب "الانتصار للحريات الديمقراطية"، صدرت ما بين (مارس 1951/جانفي 1954)، تعدّ أهم جريدة بعد البصائر في سلسلتها الثانية. ينظر: محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية في الجزائر من 1847 إلى 1954، مرجع سابق، ص 266.

بوزوزو، وعبد الحميد مهري، ومولود قاسم نAIT بلقاسم وغيرهم كثير. هذه الجريدة التي فجّرت ثورة ثقافية على صفحاتها، تمهيدا للثورة الحقيقية التي كانت جريدة المنار إحدى إرهاباتها، فقد تبارت أقلام كثيرة في استنهاض همم جميع فئات الشعب وتجنيدتها للمطالبة بحق تقرير المصير والاستقلال. ولا غرو إن قلنا أن جريدة المنار تنبأت للثورة التحريرية المباركة قبل اندلاعها بما يربو عن سنتين، من خلال ذلك الاستفتاء حول اتحاد الشعب الجزائري بجميع أطيافه السياسية وتوجهاته الفكرية، الذي اشترك فيه زهاء واحد وثمانين شخصا من أدباء ومفكرين وطلبة و سياسيين جزائريين، أدلوا بمقالات على صفحاتها بخصوص هذا الموضوع.¹

فبخصوص اللغة العربية وما تعرّضت له من تعسّف وحيف وجُرم من طرف الإدارة الاستعمارية، نجد أن كتاب جريدة المنار لم يدّخروا جهدا في الدفاع عن ثوابت الأمة الجزائرية وعلى رأسها دينهم الإسلامي الحنيف واللغة العربية. فقد كتب أحدهم مقالا بعنوان " الاستعمار في حربه للعربية"، وقد وقّع مقاله باسم " مطالع" ولا ندري إن كان هذا اسمه الحقيقي أو اسم مستعار كعادة كتاب تلك الحقبة الذين كانوا غالبا ما يلجؤون إلى الكتابة بأسماء مستعارة. يقول صاحب المقال: " هال الاستعمار الفرنسي المتحضّر، ما أصبح يشاهد كلّ مطلع شمس، من الصراع العنيف، والجهاد المرير الذي تقوم به الشعوب التي وضعتها الأقدار تحت جحيم سلطته الجائرة، فراح يُمعنُ في العدوان ويبالغ في تضيق الخناق على الشعوب التي فرض حكمه عليها بشريعة الطغيان والجروت، ولم يدع آية وسيلة من وسائل الكبت والاضطهاد إلّا واستعملها، ولا ناحية من نواحي الحياة والنشاط إلّا ومدّ يده إليها بالسوء والإثم المبين."²

استهلّ الكاتب مقالته بهاته المقدمة التي بين فيها ذهنية الاستعمار الفرنسي القائمة على مبدأ الاستعباد، والتجبر والاستغلال، ومحاولته محو الشخصية الوطنية واجتثاثها من جذورها، وتجدد الإشارة أن لمسة السخرية لا تخفى على القارئ الكريم، وذلك لما عرضَ صاحب المقال بالاستعمار الفرنسي ونعته بالاستعمار "المتحضّر". ويواصل الكاتب كشف مخططات الاستعمار

¹ - ينظر مقال: حاجتنا إلى جبهة تحريرية- العدد 09- السنة الثانية 15/08/1952. وكذا الأعداد 17/18/19/20/ السنة الثانية.

² - المنار: السنة الثانية- العدد 01- 16 رجب 1371هـ/ 11 أفريل 1952م.

المهادفة إلى فصل الشعب الجزائري عن هُوِيَّته، وردّه عن دينه، ومنعه من تعلّم لغته، على الرّغم من تشدّد سياسة فرنسا في المحافل الدوليّة بحريّة التعبير، وحرية المعتقد، وغيرها من سراب الشعارات البرّاقة الزائفة، يقول الكاتب: "إنّ الذي يسمع إلى دويّ التصريحات التي ما انفكّ يردّها بين آن وآخر رجال السياسة والتّربية الفرنسيون، ليُخيّل إليه أنّ الحكومة الفرنسيّة من أحرس الدّول على نشر المعرفة، وتشجيع المؤسّسات الثقافيّة في الأقطار التي تحكمها مباشرة، وتفرض رقابتها على مناحي النّشاط الفكري فيها. ولقد كانت الأمّة الجزائريّة أول أمّة وقعت تحت حكم الاستعمار الفرنسي، وهي من أشدّ الأمم العربيّة محافظة على عروبته وإسلامها، فظلّ الكفاح شديدا بين أمّة لا تُريد بعروبته وإسلامها بدلا ولا بديلا، وبين استعمار يؤلمه أن يراها متمسّكة بعروبته، محافظة على دينها إلى أقصى حدود المحافظة. وتوات هجمات الاستعمار على اللّغة العربيّة والدين الإسلامي، محاولا طمس معالمها، ومحو آثارها كي يتسنى له تحقيق الإدماج."¹

يكشف الكاتب في تحليل دقيق مكائد المستعمر الفرنسي، المهادفة إلى طمس الشخصية الوطنيّة وعلى رأسها الدين الإسلامي واللّغة العربيّة، لأنّهما العقبة الكوود في سبيل تمّيع الأمّة الجزائريّة، ومحوّ وجودها. ثمّ يعرّج الكاتب على قانون 08 مارس المشؤوم، والذي أراد به المستعمر الفرنسي ضرب اللّغة العربيّة في الصميم، وإصابتها في مقتل، يفصلّ الكاتب في موقف المستعمر من اللّغة العربيّة فيقول: "إنّ القوانين الاستعماريّة ناطقة باعتبار اللّغة العربيّة لغة أجنبيّة مغربيّة بتحجيز تعليمها وعدم السماح بفتح مدارس لتعليمها كلغة قوميّة، مع أنّ هذه المدارس لا تطلب من الحكومة الفرنسيّة أكثر من كفّ عدوان شرطتها عنها، وعدم التّعرض للقائمين بأمرها من معلّمين وأنصار. من الذي نسي قانون 07 مارس 1938²، القاضي بجبر كلّ متعاطٍ للتّعليم العربي الحرّ بطلب رخصة؟"³

ويلتقي كاتب المقال مع الإبراهيمي فيما يُخصّ الرّخصة التي تشترط الإدارة الفرنسيّة شروطا لمنحها، وأوّل هاته الشروط الولاء الأعمى أو العمالة الفاضحة للاستعمار: "ثمّ إنّ هذه

¹ - المصدر السابق.

² - هكذا هو التاريخ في الجريدة، قد يكون تصحيحا أو خطأ عند طباعة المقال. الصواب أن القانون صدر بتاريخ 08 مارس 1938.

³ - المنار: السنة الثانية-العدد 01-مصدر سابق.

الرخصة لا تُمنح إلا لمن تشهد له تقارير شرطة الاستعلامات بحسن الولاء للاستعمار.... ولا قيمة للشهادات العلمية التي تمنحها مشيختنا الزيتونة والقرويين أمام شهادة شرطة الاستعلامات الاستعمارية. لقد عمدت السلطة الاستعمارية في الأسبوع الماضي إلى غلق مدرسة حرّة بالحراش ذنبها الوحيد أنّها تأوي عشرات من أبناء الجزائر المرشدين في الشوارع، تُعلمهم تعليماً عربياً، وتُربّهم تربيّة إسلاميّة.¹

وفي مقال آخر بعنوان " الطلبة المسلمون يُضطهدون"، تناول "المطالع"² صورة أخرى من صور اضطهاد الاستعمار الفرنسي لكلّ طالب يشتُم فيه نسائم الشرق وحضارته، وعبق الإسلام وإشراقه، ومن بين هؤلاء الذين طاردتهم يد الشرّ وضيق عليهم في السفر لطلب العلم أو لتعاطي التعليم في وطنهم الجزائر، الطلبة الزيتونيون والقرويون، فقد منعتهم الإدارة الاستعمارية من السفر لتحصيل العلم في تونس والمغرب، ومن أسعفه الحظُّ وأفلت من عين الاستعلامات الفرنسية، لحقته حيث سافر، ولاحقته وأحصت حركاته وسكناته، وفي كثير من الأحيان اقتحمت عليهم مهاجمتهم، وقادتهم إلى مخاferها بعد أن أبرحتهم ضرباً، وأسمنتهم من الشتائم والسباب ما يحدش الكرامة الإنسانية: "..... لو كانت المظالم الاستعمارية المنصبة على شعوب المغرب العربي هي ما ذكرنا فحسب لصحّ أن نقول أنّه استعمار كسائر الاستعمارات التي عرفها العالم منذ أقدم العصور، ومقتها وناصبها العداة الشديدة، لكنّه استعمار من نوع آخر لا ينبئك عنه مثل عرب الشمال الإفريقي، وخاصة عرب الجزائر.

ما قولك في استعمار يحارب الديانة الإسلامية، كما يُحارب الوباء والطاعون في الأمم المتمدّنة، ويُقاوم الثقافة العربيّة كما تقاوم الآفات الاجتماعية، ويطارد روادها كما تُطارد السباع والوحوش المفترسة المخيفة الجانب. لقد ظلّ الاستعمار يُقيم الحواجز في طريق الطلبة الجزائريين الذين يؤمّون إحدى الجامعتين الإسلاميتين بالمغرب العربي: جامعة الزيتونة، وجامعة القرويين طلباً للثقافة الإسلامية، بعدما حُرّموا منها في وطنهم الجزائر.... لقد اقتحم أعوان البوليس الاستعماري مدارس سكنى الطلبة، ومدارس البنات، شاكين أسلحتهم، وأمعنوا في الضرب وفي الاستفزاز، قصد صدّ الطلبة المسلمين والطالبات المسلمات عن ارتياد مدارسهم

¹ - المصدر السابق.

² - الاسم الذي وقّع به الكاتب مقاله.

ومعاهدهم... لكن هيئات هيئات أن يثبت زبد الاستعمار أمام تيار الوطنية العريية الجارف
 {كذلك يضرب الله الحق والباطل} فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي
 الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾¹.

هذه اللهجة الحارة، وهذه الجرأة في نقد وتقريع الاستعمار أهم ميزة وسمت بها جريدة المنار
 وكتابها، ولا نكاد نلفي هذه اللهجة العنيفة في التشنيع بالاستعمار وفضح دسائسه ومخططاته
 الدنيئة، إلا في مقالات الشيخ البشير الإبراهيمي، وإن كان قد طبع المقالة السياسية بطابع
 إبراهيمي خالص لا يكاد يجاريه فيه أحد من معاصريه.

وفي مقال آخر يُصوّر الكاتب الاضطهاد الذي يتعرّض له المعلّم الحرّ، والذي يُعدُّ لقمة سائغة
 لرجال الشرطة الاستعمارية، مجرد أن يتناهى إلى أسماعهم أن التلاميذ يترددون على مدرسة بها
 معلّم حرّ، فيدهمونها، ويطردون التلاميذ ويحرقون الكتب، دون أدنى اعتبار لحرمة العلم وقداسته
 المدرسة، أمّا المعلّم فجزاؤه التنكيل والتشريد والحبس، معطوف عليهم سيل من الإهانات
 والشتائم.

يعطينا الكاتب في مقال بعنوان "اضطهاد التعليم العربي الحرّ" صورة مصعّرة لما يُكابده
 المعلّم الحرّ في سبيل نشر رسالته النبيلة، الصورة لمدرسة حرّة بمستغانم، يقول الكاتب: " في شهر
 أكتوبر سنة 1951، هاجمت قوات البوليس المدرسة الحرّة بمستغانم، وفتشت الحجرات،
 وأخذت الكراريس والمصاحف، ثمّ ساقّت المعلّم الشيخ ابن الدّين إلى السّجن بدعوى أنّه يُحفظ
 تلاميذه أناشيد ثورية، إنّ الشّرخ المضطهد لم يقترف أدنى ذنب يؤاخذ به قانونيا، وإنّما لم يألُ
 جهدا في تأديّة رسالته التربويّة، التي لم تخرج قط عن دائرة التّعاليم الإسلاميّة الخالدة، ومن هنا
 فالتّهمة التي اعتمدت عليها السّلطة المحليّة لتودع معلّما حرّا في غياهب السّجون، لا أساس لها
 من الصّحة، ذلك أنّ المعلّم المذكور، لم يُخض يوما ما تلاميذه على حمل السّلاح، أو إهدار
 الدّماء، أو هتك الأعراض، بل كان يعلمهم لغة دينهم."²

كلّ هذا لم يشفع لهذا المعلّم الذي حاول تأديّة رسالته السامية، وواجهه الأوكد تجاه أبناء
 شعبه وأمّته، هذا الواجب يراه المستعمر خطرا محققا يُهدّد وجوده، لأنّ هذه التّعاليم التي يُلقنها

¹ - سورة الرعد الآية 17.

² - المنار: السنة 02- العدد 12- 11 ربيع الأول 1372هـ/ 28 نوفمبر 1952م. المقال صاحبه مجهول.

المعلم للتلاميذ مستمدّة من تعاليم الإسلام، والإسلام جاء ليقوّض أركان الظلم والطغيان، الإسلام دين عزّ وكرامة إنسانيّة، الإسلام يصنع رجالاً أباءً لا يرضون بالصّيم. وهذا ما يخشاه المستعمر.

ويتبنّى الكاتب قضيّة هذا المعلم الذي نطقت العدالة الاستعماريّة بحكمها الجائر ضده، وسلّطت عليه أقسى عقوبة، دون الأخذ في الاعتبار أبسط قواعد العدالة الإنسانيّة ومبادئ القانون الطّبيعي التي تُنصّ على وجوب وجود تناسب بين الجريمة والعقوبة، هذا إذا افترضنا أن تعلّم اللغة الوطنيّة جريمة، والحقُّ أنّ الاستعمار الفرنسي يعدّها إلى جانب الدين الإسلامي من أكبر الكبائر، ومن الجرائم التي تُصنّف في خانة الجرائم الماسّة بأمن الدولة واستقرارها، وبالفعل فالإسلام والعربيّة يمسان بأمن الاستعمار، ويُهدّدان وجوده. ويطلق الكاتب نداء استغاثة لكلّ من فيه مثقال ذرّة من نخوة وطنيّة، للتنديد بهذا التعسّف، والجور الذي يقع على اللّغة العربيّة، والدين الإسلامي، وعلى هذا المعلم المكافح: "إنّ الشّيخ بن الدّين قد حُكم عليه أخيراً بأربع سنوات سجن، وعشرات الآلاف تغريماً، وتلك صورة صادقة للمعاملات التي يعامل بها رجال الدّين والعربيّة، في وطن العروبة والإسلام.

إنّ كلّ جزائري- بقطع النظر من معتقداته الدّينيّة ومذاهبه الفلسفيّة- أُوتيّ مثقال ذرّة من الشّرف، لا يسعه إلّا أن يُندّد بالتدابير الرّجريّة ضدّ تعليم اللّغة العربيّة، ويطالب بإطلاق سراح الشّيخ بن الدّين.

وعلى كلّ فإنّ محاربة اللّغة العربيّة لن تنال من إيمان الجزائريين، لأنّها لغة النور الإلهي الذي لا يطوّه ظلم الظالمين.¹

في هذا الجوّ المشحون، ووسط هذه المعركة الضّارية التي تخوضها أقلام المصلحين، وأبناء حركة الانتصار للحريات الديمقراطيّة جنباً إلى جنب، في الدّفاع عن الأمتّة الجزائريّة ومقوماتها ضدّ الهيمنة الاستعماريّة، والمنع والتضييق الذي يتعرض لها الإسلام والعربيّة، تُطلّ علينا جريدة المرشد، ومن مدينة مستغانم- ولعلّ هذا من سخرية القدر ومفارقاته- بمقال لشّيخ الزاوية عدّة بن تونس خليفة الشّيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المشهور بابن عليوة، ليس فيه تلبية لصرخة ذلك المعلم الحرّ المقهور الذي سُجن وغرّم بسبب تعليمه لأبناء مدينة مستغانم تعاليم دينهم

¹ - المصدر السابق.

ولغتهم الوطنيّة، كما أنّه خالٌّ من أيّة إشارة لقانون 08 مارس 1938، أو عتاب للإدارة الاستعماريّة حتى لا نقول هجوماً، فذاك ما لا يخطر على بالها بتاتا فضلاً أن يقع، بل المقال كلّ هجوم على الحركة الإصلاحية، وعلى رموز جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ممثلة في شخص "الشيخ السعيد الزموشي" معتمد الجمعية بوهران، وسنكتفي بإدراج المقال كما هو دون تعليق، والحكم للتاريخ وللقرّاء التّابه. يقول الكاتب: "برح الخفاء، ولم يبق ولا واحد ممّن له إمام بالحركة الإصلاحية يجهل ما أصبحت عليه (جمعية المصلحين) المسماة (بجمعية العلماء) من التّهافت على جمع المال، وصرّفها في سبيل شهواتهم، وبثّ تعاليم مذهبهم الوهابي، تحت ستار (تعليم اللّغة العربيّة)، والرّجوع بالأمة الجزائريّة إلى الدّين الصّحيح، أي دين (محمد بن عبد الوهاب) الذي كان شعلة نار على نفسه، ثمّ على قومه، ثمّ على كافّة أتباعه الذين لازالت شعلته تُرى على وجوههم، وألسنتهم، وأفكارهم، بانشقاق المسلمين وتكفيرهم. وبهذه المناسبة نذكر أنّ الشيخ (الزموشي معتمد جمعية المصلحين) بمدينة (وهران)، قد قدم إلى مدينة (مستغانم)، وطاف في طول البلاد وعرضها، ومهما يجتمع بأحد إلّا اشتكى له، وبكى حالة الجمعية، وحالة (الحركة الإصلاحية)، وطلب منه الإعانة، أو حباله أخرى بمدينة مستغانم.... هذا هو الذي يظهر جليّاً من حركة (جمعية المصلحين)، ومن الشيخ الزموشي بالخصوص، الذي جاء يتسلّل الطرق، والشوارع، كالذّئب الخليع، لعله يجد فريسة باردة أو يسطو عليها، وهي في بيت صاحبها، ومن يأمن الذّئب على نفسه أو بيته، فقد أغرّ بنفسه، وارتكب شططا في رأيه.

لو أنّ عاقلا تأمّل قليلاً فيما جمعه (جمعية العلماء) من الأموال الطائلة، منذ تلبسها على الأمة، من أنّها جمعيّة تدعو إلى العلم، وإلى الدّين الصّحيح، لو جد عدداً قد تضيق عنه الأرقام لكثرت، ولكن ويا للأسف، ما ذهبت تلك الأموال كلّها أو جلّها إلّا في بثّ (المذهب الوهابي) الذي ابتليت به (الأمة الجزائريّة) زيادة على بلاياها الفاتكة: من فقر، وجهل، وتفرقة. وما كانت (الوهابيّة) من بينها إلّا داعية فساد، وسلب، ونهب لأموال الأمة سعياً وراء الأمانى الفارغة الكاذبة. وإذا كانت تلك الأعمال هي الغاية التي تنالها الأمة من وراء (المصلحين

الوهابيين)، فتبنا لإصلاحهم، وسحقا لمذهبهم، وإنا نعوذ بالله (من شرّ ما خلق ومن شرّ غاسق إذا وقب) (والله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).¹

المقال ينضح بما فيه، لذلك ارتأينا أنه من الحصافة ترك حرية التعليق والحكم للقارئ الكريم. ج/ الوحدة الوطنية: لا يختلف اثنان على أن ما يُميّز الظاهرة الاستعمارية بصفة عامة، والفرنسية منها على وجه الخصوص، أنها قائمة على مبدأ فرق تسد، لذلك عمل الاستعمار الفرنسي قسارى جهده حتى لا تجتمع كلمة الشعب الجزائري، لأنّ في اجتماع كلمتها اجتماع وحدتها، وفي وحدة الأمة النهاية الحتمية للاستعمار.

وقد نوع المستعمر في أساليب تفرقة الأمة الجزائرية، وشقّ صفها، فتارة يُثير التّعرات القبليّة لا سيّما فكرة العروشيّة، وتارة يُثير فكرة الجهويّة، وأخطر هذه الوسائل هي الادّعاء بوجود أقليّات في الجزائر، ثمّ أنّ هذه الفكرة الخبيثة لم يسمع بها الجزائريون إلّا في ظلّ الحكم الاستعماري، لأنّها لم تُطرح أو تُثر من قبل، فالشعب الجزائري واحد، أبوه الإسلام وأمّه العربيّة، وما جمعه يدُ الله لا تُفرّقه يد الاستعمار الشيطاني.

ولو أردنا البحث عن المقالات السياسية التي عاجلت هذا الموضوع، فإنّ أول جريدة تفتّنت لمخطّطات الاستعمار الهادفة إلى تفتيت الوحدة الوطنيّة، فلا شك أنّها جريدة المنتقد التي رفعت شعار "الحق فوق كلّ أحد، والوطن قبل كلّ شيء". فمدلول الشعار غنيّ عن كلّ شرح أو تفسير، فابن باديس يضع الوطن فوق كلّ اعتبار، فوق الحسابات الحزبيّة الضيقة، فوق الاختلافات الفكرية والإيديولوجية، فوق عرض الدنيا الزائل، أو بمعنى آخر أنّه يُعلّم الجزائريين تغليب المصلحة العليا للوطن على المصالح الشخصية، والمآرب النفعيّة. ولتذّب جميع الخصومات الفكرية والسياسية عندما يتعلّق الأمر بالوطن ووحدة الأمة. يتحدّث ابن باديس في خطبة² خالدة بعنوان "ما جمعه يد الله لا تُفرّقه يد الشيطان"، عن وحدة الشعب الجزائري، ووحدة تجلّت مظاهرها بين العرب والأمازيغ، الذين انصهروا في بوتقة

¹ - تمّافت المصلحين على جمع المال: المرشد- العدد 53- 1371هـ/1951م.

² - خطبة ارتجلها الشيخ عبد الحميد بن باديس تعقيا على خطبة ألقاها الشيخ يحيى حمودي باللغة الأمازيغية، بمناسبة مأدبة أقامها نادي الترقّي تكريما لجمعية العلماء المسلمين، ونظرا لصلة الخطبة بالموضوع المتناول ارتأينا أن ندرجها هنا لصلتها الوثيقة بالموضوع، خاصة و أنّها نشرت في كل من جريدتي الشّهاب والبصائر السلسلة الأولى.

الإسلام، وزالت عنهم الروح الجاهليّة القبليّة العصبية. يقول ابن باديس: "إنّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ، قد جمع بينهما الإسلام منذ بضعة عشر قرناً، ثمّ دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدّة والرّخاء، وتؤلّف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء، حتّى كوّنت منهم منذ أحقاب عديدة عنصراً مسلماً جزائرياً، أمه الجزائري، وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتّحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محاربتهم في مجالس الدرس لخدمة العلم."¹

براعة واقتدار، وبتمكّن في تاريخ أمته ونضالها، وما تقلّب عليها من صروف الدهر ومحنه وإحنه، يُبين ابن باديس عراقية وأصالة الشعب الجزائري، الذي ورث عن عدنان نخوته وسجاياه الكريمة، مثلما ورث عن مازيغ إباءه وعشقه للحرية، ويوضّح الكاتب كيف انصهرت الأمتان العريقتان لتكوّنا أمة أصيلة اسمها الأمة الجزائرية، التي رفع أبنائها لواء الإسلام شامخاً، ولنا في طارق ابن زياد والأمير عبد القادر المثل الأسطع، مثلما لم يتقاعسوا عن طلب العلم وتحصيله ونشره، فسجّلوا أسماءهم في ساحات العلم ومجالسه، فكان ابن معطي الزواوي وابن رشيق المسلي والمقري وغيرهم كثير.

ويؤكّد ابن باديس على استحالة التفريق بين العرب والأمازيغ، لأنّهم أصبحوا اسماً لمسمّى واحد وهو الشعب الجزائري، مادام الإسلام حارساً لوحدهم واتّحادهم. يقول ابن باديس: "فأيّ قوة بعد هذا- يقول عاقل- تستطيع أن تُفرّقهم، لولا الظنون الكواذب والأمانى الخوادم! يا عجباً لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي؟ كلّاً والله، بل لا تزيد كلّ محاولة للتفريق بينهم إلّا شدّة في اتّحادهم، وقوّة لرابطتهم، ذمّي بما أقول رهينة وأنا به زعيم، والإسلام له حارس، والله عليه وكيل."²

ومن مظاهر الوحدة الوطنيّة أنّ الشيخ عبد الحميد بن باديس كانت له فلسفة خاصّة مع خصوم الجمعية أو قل إن شئت مع من يخالفونها الرأي في السعي لخدمة الوطن وإن اختلفت السبل، ما لم يثبت في حقّهم العمالة للاستعمار أو التواطؤ معه، فهو- ابن باديس- يُغلب

¹ - البصائر: السلسلة الأولى-السنة الأولى- العدد 03- 22 شوال المبارك 1354هـ/ 17 جانفي 1936م.

² - المصدر نفسه.

المصلحة العامة على المصلحة الذاتية، ويحرص على أن يجادل بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد مرّ بنا موقفه مع فرحات عباس الذي أنكر وجود الأمة الجزائرية - عن جهل منه - فلم يُغلظ له الشيخ القول بل أوجد له العذر، ونعته بالابن " نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا يُنكرون - وربما عن غير سوء قصد - تاريخنا ومقوماتنا." ¹

لا شك أن كلمة فرحات عباس المنكرة لوجود أمة جزائرية قد حزّت في نفس الشيخ ابن باديس مثلما حزّت في نفوس المخلصين من أبناء الشعب الجزائري، إلا أن الشيخ بحكمته السديدة رأى أنه ليس من الحكمة أن يدخل في صراع مع فرحات عباس لأن العدو الأول للجزائر هو الاستعمار الفرنسي، ثم ليقينه أن الوطن يحتاج جميع أبنائه لخوض المعركة حتى وإن بدت منهم سقطات أو هنات، إلا أنه لا يمكن لأيّ كان أن يتقول أو يُشكك في وطنية عباس أو مصالي الحاج. فكلّ هذه التيارات السياسية والفكرية كانت تسعى لهدف واحد هو تحرير الوطن من براثن الاستعمار، فقط كان الاختلاف في السبيل الموصلة لذلك.

هذا الموقف الحكيم من ابن باديس يعكس حرص الشيخ وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين على وحدة الصفّ الجزائري لأنّ في تفرّقه وتشرذمه خدمة جلييلة للمستعمر الغاصب. وهناك موقف آخر يعكس حرص أعضاء جمعية المسلمين الجزائريين على الوحدة الوطنية لا سيّما في الأوقات التي تتكالب فيها الإدارة الاستعمارية عليهم، نُسجّل هنا موقفا مشرفا لجريدة الشهاب عندما رفعت عقيرتها بالاحتجاج والاستنكار على صفحتها، بمناسبة تعطيل أو إعدام الحكومة الاستعمارية لجريدة "الشعب" ²، إذ تقول: " في الوقت الذي تتمتع فيه الصحافة الفرنسية بالجزائر على اختلاف أغراضها ومناحيها بكلّ حرية رغم ما يكون فيها... يُضيق على الصحافة العربية الخناق، وتُضرب بالتعطيل... وقد نُفّذ هذا أخيرا على جريدة (الشعب)، فعُطلّ عددها الثاني وهو تحت الطبع، فنحن نأمل مع الرصيفة في مصابها، ونحتجّ باستنكار تام على هذه المعاملة الاستثنائية الجائرة." ³

¹ - الشهاب: ج09- مج 13- ص 404/403- مصدر سابق.

² - لسان حال حزب الشعب الجزائري الذي كان يتزعمه مصالي الحاج، صدر العدد الأول منها 27 أوت 1937، رئيس تحريرها مفدي زكرياء، صدر منها عددان فقط، وصدر قرار منعها وتعطيلها. ينظر: محمد بن صالح ناصر:

الصحف العربية في الجزائرية من 1847 إلى 1954، مرجع سابق، ص 230/229.

³ - الشهاب: الجزء 08- المجلد 13- شعبان 1356هـ/ أكتوبر 1937م- ص 397.

كما شرح ابن باديس البعد الوطني الذي تنشده الجمعية، والذي يقوم على دعمتين أساسيتين هما: الإسلام والجزائر، وحينما نقول الجزائر فليس المقصود بها الحدّ الجغرافي كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما المقصود الجزائر الهوية، الانتماء، الجزائر اللغة، التاريخ. يقول ابن باديس في مقال بعنوان "من أعيش أنا؟ أعيش للإسلام والجزائر": "...أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليّ تلك الروابط لأجله - كجزء منه - فروضا خاصة، وأنا أشعر بأنّ كلّ مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة"¹

ولأنّ الكاتب يهدف بمقاله إلى إيصال الفكرة للمتلقّي في أبسط صورها، يستعين بضرب الأمثلة لإيضاح مقصوده، يبدو المثال بسيطا في الوهلة الأولى لقراءته، غير أنّه يحمل دلالات سياسية عميقة، فهو وإن ذكر الجماعة فقد قصد الأمة، وإن أشار إلى البيت فقد قصد ولايات الجزائر ومناطقها، وإن تكلم عن القرية فقد قصد الوطن. يقول ابن باديس: "ولن نستطيع أن نؤدّي خدمة مثمرة لشيء من هذه كلّها، إلّا إذا خدمنا الجزائر، وما مثلنا في وطننا الخاص - وكلّ ذي وطن خاص - إلّا كمثّل جماعة ذوي بيوت من قرية واحدة، فبخدمة كل واحد لبيته تتكوّن من مجموعة البيوت قرية سعيدة راقية، وبقدر قيام كل واحد بأمر بيته تترقى القرية وتساعد، وبقدر إهمال كلّ واحد لبيته تشقى القرية وتنحو إذا كان في الإسلام الحبُّ في الله والبغض في الله من علامات كمال الإيمان² مصداقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، فإنّ ابن باديس يسبقُ جميع دعاة الوطنيّة، وعرّابي السّيّاسة، فيأتي بمفهوم جديد وهو الحبُّ في الوطن، والبغضُ في الوطن، يقول ابن باديس في العدد الأوّل من جريدته الأولى المنتقد: "...نُحبُّ من يُحبُّ وطننا ويخدمه، ونبغضُ من يبغضُه ويظلمه، فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري، وتحبيب بنيه فيه، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوئ كلّ من يناوئه من بنيه ومن غير بنيه."³

¹ - الشهاب: ج10 - مج 12 - شوال 1355هـ/جانفي 1937م - ص 426/425.

² - عن أبي امامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع لله فقد استكمل الإيمان) [رواه أبو داود والضياء، وهو صحيح]

³ - المنتقد: العدد 01 - السنة الأولى - 11 ذي الحجة 1343هـ/ 02 جويلية 1925م.

وعلى نهج ابن باديس سار الشيخ أبو اليقظان في الدعوة إلى الحفاظ على الوحدة الوطنية، والتنبه للمكائد والدسائس التي تُحاك في الظلام، وتُحركها أيدٍ خفية كدمى "القرقوز"، يدبج الشيخ مقالا حول حوادث قسنطينة أو ما أُصطلح على تسميتها بحادثة الجامع الأخضر¹ بقسنطينة، بين اليهود والمسلمين والتي سقط فيها قتلى من الجانبين، غير أن الغلبة كانت حليفة الجزائريين، وبعد هذه الأحداث التي أبان فيها الجزائريون على معدن أصالتهم، سعت طائفة من اليهود للإيقاع بين الجزائريين فيما بينهم، فروّجوا لإشاعة مغرضة، مفادها أن التجار الإباضيين في قسنطينة يحتكرون التجارة، ومن ثم يفرضون الأسعار الفاحشة على هواهم، وشنوا حملة لمقاطعتهم، وكاد ينساق وراءها بعض الجزائريين المالكين، والحقيقة أن هذه الفتنة التتة واضحة للعيان إلا على ذوي النفوس المريضة، فكلمة جزائري مسلم جامعة مانعة، لا حاجة للتذكير أن هذا إباضي وذاك مالكي، فالجزائر لم تعرف شرّ الطائفية على مرّ عصورها، فقد عاش المالكي في حسن تجاور مع أخيه الإباضي يتقاسمان الآلام والآمال، وصاحب المقال هذا كان من الرعيل الأول الذي وضع لبنة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. يقول أبو اليقظان كاشفا خيوط المؤامرة، مخذراً من عواقبها الوخيمة في مقال نُشر بجريدة الأمة بعنوان "اليهود يُخرون بالفلفل": "حذار حذار أيها المسلمون من استغلال اليهود لحسن نيتكم، ولشدة حاجتكم، واختلاف منازعتكم، فيضرب بعضكم بعضا، ويركب بعضكم رقاب بعض، فيرقص اليهود على مصائبكم ومناحاتكم سرورا وطربا، ويضحكوا شماتة وسخرية على بلهكم وغفلتكم. نحن على يقين أن اليهود، لا سيّما يهود قسنطينة منهم، لن يهدأ لهم بال، ويلذ لهم عيش، إلا عندما يرونكم تُخربون بيوتكم بأيديكم، مبددي الشمل، مفرقي الكلمة، مهددي الشرف، مُداسي الكرامة، ولبلوغهم هذه الغاية السافلة تراهم هذه الأيام يُخرون بين المسلمين بالفلفل! وسيسمع العالم الإسلامي ما يتصاعد من مسلمي الجزائر من الحكّة والسعال

¹ - ينظر أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج.03، ط.04، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 51/50/49/48.

إذا لم يفتحوا عيونهم للمؤامرات التي تُدسُّ لهم في طيِّ الخفاء، ويتداركوا أمرهم بكلِّ صدق وإخلاص وصفاء.¹

يقف أبو اليقظان بقلمه أمام هذه المؤامرات المدسوسة، التي تسعى إلى تقسيم الأمة الجزائرية إلى شيع وطوائف، بعضها يضرب رقاب بعض، ويمثل وقفات كهاته تمكّن الشعب الجزائري من وأد هذه الفتن في مهدها وإخمادها، ولم تنطلّ مكيدة اليهود على الشعب الجزائري، بفضل فطنة ويقظة أبنائه العاملين المصلحين.

كما يرُدُّ محمد السعيد الزاهري، على مقال نشرته جريدة الليالي² تحت عنوان "أسطورة إخواننا في الدين"، يدعو فيه صاحب المقال إلى إيقاظ الفتنة، وزرع الفوضى في أوساط الأمة الجزائرية، بالعزف على وتر الطائفية بين المالكيين وإخوانهم الإباضيين، ولم يجد الشيخ السعيد الزاهري بُدًّا من أن ينبري للردِّ عليه بمقال عنوانه "صرخة غضبان في وجه زعفان، حول أسطورة إخواننا في الدين"، يقول الزاهري وهو ممن لا تُعجزهم الكلمة، ولا تخونهم المعنى، ولا تعوزهم الحجّة: "نشرت جريدة الليالي الانتقادية مقالا كلفه فتنة وانتهاك للحقيقة والواقع، فضلا عن كونه طعنا صريحا وتهجُّما قبيحا غير شريف على بني ميزاب "إخواننا في الدين" وإخواننا في الوطن، واللغة والتاريخ، تربطنا بهم جميع الروابط والصلات"³. ويواصل الزاهري مقاله مصحّحا لخصمه أغلاطا تاريخية، يكون قد وقع فيها، وخلطا لمفاهيم واضحة بيّنة قد تحبّط فيها صاحب الليالي، ولو أقسم صاحب الليالي بأقدس مقدّس لديه، لما أفلح في تبرئة ساحة المستعمر الفرنسي من التّهم التي كالحا لإخواننا الإباضيين، التي يكون قد أوحى له بها، وتكفّل هو بنقلها على جريدته أو لنقل ترجمة معانيها، يقول الزاهري: "من هم المستعمرون؟ حيث كان "زعفان" قد اتّهم الإباضية الميزابيين بأنهم مُستعمرون.

أمّا أنّ إخواننا الإباضيين مُستعمرون فهو مُنكرٌ من القول وزورٌ، وكيف نصفهم بالمستعمرين وهم منّا وإلينا؟ وكيف نسميهم مُستعمرين وهم ليس لهم بنوك ومصارف مالية كبرى ولا شركة "ترام" ولا غير ذلك من مشاريع الاستعمار والمالية العليا، وغاية ما هنالك أنّهم

¹ - الأمة: العدد 08 - 1934/11/06 م.

² - صدرت ما بين (1936-1937)، جريدة انتقادية فكاوية، مديرها ومحرّرها علي بن سعد. ينظر: محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954 - مرجع سابق ص 227/221.

³ - الأمة: العدد 80 - 1936/06/23 م.

تجار من الدرّجة الثالثة والدرّجة الرابعة، يكسبون أرزاقهم وأرزاق أطفالهم وأهلهم من هذا الوجه الحلال، فإذا كان فيهم من كسب ما نسميه مالا كثيرا بعرق الجبين وكدّ اليمين، فإن كثيرا منهم قد ضاعت أرزاقهم في السنوات الثلاث الأخيرة، قد أكلها إخوانهم وعملاؤهم من المالكية، وما أنت بواحد في الجزائر من أقصاها إلى أقصاها، ولا تاجرا واحداً من الميزابيين إلّا وقد أكله إخوانه المالكية مئات الآلاف، ومع ذلك فبنو ميزاب يقابلون كل ذلك بالصبر الجميل، ولا يحملون حقداً على إخوانهم الذين أكلوا أموالهم، بل يدعون الله أن يفرّج عليهم هذه الأزمة الخانقة التي أهلكت الزرع والضرع.¹

وبعد أن عدّد الكاتب مناقب إخواننا الميزابيين، ومسارعتهم للخيرات، ومشاركتهم في الحركة الإصلاحية، بالأموال والأقلام، يوجّه سهمًا نافذا لصاحب جريدة الليالي، فيصيبه في مقتل، حيث يقول الزاهري: "وماذا يقول "زعفان" هل عاون مدرسة من مدارسهم أو مشروعا آخر من مشاريعهم بفرنك واحد؟ حتى يتسنّى له أن يقول فيهم ما ليس فيهم حقًا كان أو باطلا.²

ومادما نتحدّث عن الوحدة الوطنية، نُعرّج على مفهوم الوطنية الحقّة كما يراها أبو اليقظان، فهل هي مجرد شعارات برّاقة تلوح في الأفق كلّما حلّ موسم انتخابات وترحل برحيله، أم أنّها شعور متّقدّ يذوب في الفرد في مصلحة الجماعة، ومصلحة الوطن أولى من مصالحه الآنيّة، فليس من الوطنية في شيء تشييد الملهي والمراقص، وليس من الوطنية في شيء قضاء وقت الشباب بين المخامر والمقاهر والمقاهي، بل الوطنية هي العمل - كلّ واحد حسب موقعه في الحياة - على رقيّه وازدهاره، الوطنية الحقّة تتجلّى مظاهرها في السلوك الحضّاري من خلال الحفاظ على الممتلكات العامة، في احترام القوانين والنّظم، يقول أبو اليقظان: "...يُشيّدون المراقص فيقولون لعمارة الوطن، يفتحون المقامر فيزعمون: أنّها لإعلان شأن الوطن، يعلنون على الخمرور فينادون أن شجّعوا بضائع الوطن، يستجلبون أنواع الملهي والمقاصف، فيموّهون أنّ ذلك لتمدين الوطن، يُنظّمون حفلات الرقص والغناء فيختلط الحابل بالتابل، فيعلنون بلا

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

خجل إنَّ ما يتجمّع منها لفائدة المشروع الخيري الوطني، وليتها لم تزن ولم تتصدّق، كأنّما الوطن فندق متداعي الجدران، والوطنية فؤوس ومعاول تُقتنى لهدمه واكتساحه.¹

يُصحّح أبو اليقظان المفهوم الخاطئ للوطنية، التي أفرغها صنف من الناس عن جهل أو قصد من مضمونها الخالص النبيل، فصيّروها محصورة في ارتداء هندام بعينه، أو تنطع بكلمات جوفاء، أو ارتكاب موبقات وشرور بداعي نشر الوطنية والحفاظ على الوطن، وليت شعري إن كانوا يدرون ما صنعوا بالوطن والوطنية الحقّة، يُحدّد الكاتب معنى الوطنية الحقّة فيقول: "ليست الوطنية الجهل بتاريخ البلاد، ومجد البلاد، وعظماء البلاد، ولسان البلاد، ودين البلاد، و آداب البلاد، ومشخصات البلاد. ليست الوطنية التفاخر بتاريخ الغير ومجده، وعظمائه و لسانه، ودينه و آدابه، ليست الوطنية في تعديل القوام وتحسين الهندام و الجري وراء القصف و المجون، إنّما الوطنية شرارة نارية يقذفها الله في النفس فيلتهب بها الدماغ و ترسل أشعة نورها إلى القلب فتحرك حرارتها الأعضاء، وتنير تلك الأشعة الساطعة أمامها سبيل العمل. إنّما الوطنية الحقّة أن يسعى الإنسان قدر جهده لجلب الخير العميم لوطنه و دفع الضر عنه بمقتضى العقل و الحكمة و الشرع و القانون. إنّ الوطنية الحقّة أن تفنى في مصلحة العموم مصلحة الذات و يضحى بهذه لأجل تلك. إنّ الوطنية الحقّة أن يشقى الإنسان ليسعد وطنه، ويذلّ ليعز، و يفقر ليستغنى، و يموت ليحيى، كما فعل مصطفى كامل، و فريد، و زغلول، و الباروني، و الثعالبي، و شكيب و أضراهم.

تلك هي الوطنية الحقّة التي على أساسها تُشيد دعائم العمران، إذا نُفخ روحها في الشعب، و غُذي بها جسم الأمة، و ما عداها فعداوى فارغة، لاحظ لها من الوطنية إلا ما للزبد من المنفعة.

ليس الوطني الحقيقي من يُظهر رأسه عند الرخاء، وإذا جدّ الجد اختفى و توارى عن الأعين، فإنّ هذا النوع من الوطنية تشاركه حتى الأرانب، و لكنّ الوطني الحقيقي كالأخ الصديق، إنّما تظهر صداقته ومودته عند البلاء، و الحن، و المضائق، هذا نحو أخيه العزيز، وذلك نحو وطنه المحبوب²

¹ - وادي ميزاب: العدد 52 - 1927/10/07م.

² - المصدر نفسه.

ويضرب الكاتب مثالا للوطنية الزائفة، التي يعتقد البعض أنها مجرد مظاهر، أو مجرد حُطَب رتانة، وفأنهم أنّ الوطنية مَهْرُها غال، لاسيما في زمن الاستعمار الفرنسي، فمن تثبت في حقّه هذه التهمة، فمصيره بين الاعتقال والتشريد والنفي والقتل، يقول أبو اليقظان عن الوطنيين الزائفين الذين ضلّوا وأضلّوا: "يبرزُ أحدنا في الميدان بداعي الوطنية، فإذا مُسِّ بمسك في نفسه، أو عرضه، أو ماله، تحيّل أن القيامة قد قامت، فتوارى عن الأعين، و انزوى في كسر بيته كأنه يحسبُ الوطنية تمرا يأكله، أو رغيفا يقتاتُ به، وإذا برز إلى الميدان و لم يعتقد أنّه لا بدّ في مبارزته من مصائب ومحن فلماذا برز؟

و قد كان الأحرى به أن يُقاسم أهله أشغال البيت، من الكنس و الطبخ و تربية أولاده، وهذا أولى من أن يكون فارّا من الميدان، ذا وطنية فرّارة، فيفشل و يفشل به غيره، فيكون السبب فيما يحل بالشعب من الفشل و الالهزام، إنّ لنا قرآنا، و سنّة، و آثارا، و تاريخا، و عبرا، تُرينا كيف يجب الثبات و الصبر على المكاره، و الذود عن الحوض، و الحمى، بكل صدق و إخلاص، و بهذا نحرز على لقب الوطنية الحقة"¹.

ويقاسم الشاعر مفدي زكريا - كان يكتب تحت اسم مستعار هو اسم "أبو فراس" - الشيخ أبا اليقظان فكرة الوطنية الحقيقية، ويضفي عليها بعدا جديدا وطنيا للطلبة الجزائريين الذين ألهوا دراستهم، وهم بصدد الرجوع إلى أرض الوطن لتأديّة رسالتهم النبيلة في مزاولة التعليم، يقول مفدي زكريا في رسالة من سجنه بعنوان "ملاحظات نزيهة من رسالة صديق"²: "ليست الجزائر بحاجة إلى رجال يرفعون الفاعل وينصبون المفعول به، ويخفضون المضاف إليه، ويحرّكون ويُسكّنون أواخر الكلمات (لا غير)، وإنما هي بحاجة إلى رجال يرفعون رأسها عاليا، وينصبون أقلامهم وأفكارهم للذود عن حماها، والدفاع عن كرامتها، ويخفضون رؤوس المتفوقين، والخنونة المنافقين، ويحرّكون المؤسسات، ويُسكّنون عواصف الظلمات، أولئك هم الرجال الذين تحتاجهم الجزائر اليوم، ويحتاجهم المغرب الأعظم

¹ - المصدر السابق.

² - ارتأينا إدراجها هنا لصلتها بالموضوع المتناول، وهي من بين المقالات التي كتبها مفدي زكريا في السجن، وكانت تُنشر له في جريدة "تونس الفتاة" تحت إمضاء "الفتى الوطني" أو "أبو فراس". ثمّ أُلغيت الرسالة - تُصنّف ضمن الأدب السياسي.

الجبار. فماذا يهمننا قيام زيد أو قعود عمر مادام الاستعمار قائما لا يقعد، والشعب قاعدًا لا يقوم.¹

يلفتُ مفدي زكريا انتباه جمهور الطلبة المقبلين على تأدية رسالة نشر العلم في أوساط شعبهم، إلى ضرورة نفخ الروح الوطنية في هذه النفوس المتعطشة لمعاني الوطنية ومفهوم الكرامة الإنسانية التي امتتها الاستعمار الفرنسي، كما يطالبهم بضرورة تسخير علومهم لخدمة أبناء وطنهم، وأن لا تبقى هذه العلوم مجرد علوم نظرية صرفة، بل عليها أن تُمسّ شغاف قلوب الأمة وإيقاظ الشعور الوطني في وجدانها.

وحتى تُنهي حديثنا عن الوحدة الوطنية ومفهوم الوطنية الحقّة، نختم هذه النماذج التي انتقيناها من بطون صفحات الجرائد آنذاك، بهذا المقال الفريد للشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي يُعبّر فيه عن الوطنية المادية والروحية أصدق تعبير، ويُذكّر بمبدأ الجمعية المبني على قاعدة غرس فكرة الوطنية في نفوس الشعب الجزائري، يوم كان مجرد التلّفظ بكلمة الوطن كافيا بأن يُلقب بصاحبها في غياهب السجون، ولعلّ هذا المقال أبلغ ردّ على بعض المتقولين الذين يحاولون اختزال دور جمعية العلماء المسلمين في خاتمة الإصلاح الديني فقط، وينفون عنها أي دور سياسي، بل هناك من يتجرأ ويرميها بتهمة مهادنة الاستعمار الفرنسي، يقول ابن باديس سنة 1938: "أعلن ((الشهاب)) من أول يومه و((المنتقد)) الشهيد من قبله أن ((الوطن قبل كل شيء))، وما كانت هذه اللفظة يومئذ تجري على لسان أحد، بمعناها الطبيعي الاجتماعي العام، لجهل أكثر الأمة بمعناها هذا، وعدم الشعور به، ولخوف أقلها من التصريح به، أمّا اليوم فقد شعرت الأمة بذاتيتها، وعرفت هذه القطعة من الأرض التي خلقها الله منها ومنحها لها، وإنّها هي ربّتها وصاحبة الحقّ الشرعي والطبيعي فيها، سواء أعترف لها به من اعترف أم جحد من جحد، وأصبحت كلمة الوطن إذا رتّت في الآذان حرّكت أوتار القلوب، وهزّت النفوس هزّا."²

¹ - محمد قنانش ومحفوظ قداش: حزب الشعب الجزائري 1937-1939، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص 238.

² - الشهاب: محرم 1357هـ / مارس 1938م.

د/عنصر التاريخ:

لأنّ التاريخ هو ذاكرة الأمة، فبدونه لا تستطيع أن تنهض نهضة صحيحة إلا إذا فهمت ماضيها أحسن فهم، واتخذت منه في حاضرها جسرا للعبور إلى المستقبل، لذلك عمل الاستعمار الفرنسي كل ما بوسعه لتحريف وتزييف تاريخ الأمة الجزائرية المسلمة، وبتري ماضيها الممتدّ عبر حقب التاريخ ببطولاته وانتكاساته، وروّج الاستعمار الفرنسي لأكذوبة تاريخية كبرى وهي أنّ تاريخ الجزائر يبدأ من ساعة رُسوّ أول سفينة حربيّة فرنسية بشاطئ سيدي فرج 1830، وأنّ قبل هذا التاريخ كانت الجزائر محتلة من قبل الأتراك، وأنّ المسلمين الفاتحين غزاة، وأنّ الجزائريين من أصل "غالي" نسبة إلى الغالين "les Gaulois"، بل وفرض الاستعمار الفرنسي على أبناء الجزائريين في المدارس الفرنسية أن يُنشدوا: "كان أجدادنا من الغالين، وكانت بلادنا في القديم تُسمّى (غليا) (la Gaule) وأن يتشرّفوا بالانتساب إليهم"¹.

بمثل هذه المغالطات حاول الاستعمار الفرنسي تشويه الهوية الوطنيّة، ومحو تاريخ الأمة الجزائرية، لذلك عمل رجال الإصلاح على إعادة الجزائريين لماضيهم ولتاريخهم النضالي الطويل، لا سيّما في صفحاته المشرقة، حتى يتأسوا بأجداد الأمة ورجالها الذين صنعوا ملاحم تاريخية ولقّنوا الغزاة من رومان ووندال وبيزنطيين دروسا في الذود عن الحمى، وتعشّق الموت في سبيل حياة الوطن والأمة، وإدراكاً منها بدور التاريخ في حياة الأمة ونهوضها من تعثراتها، ركّزت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على إحياء تاريخ الأمة وتعريفها به لتصل حلقات الماضي بالحاضر، وبذلك تُخطّ صفحة المستقبل، وفي هذا الصدد يقول الإبراهيمي: "ولو نشاء لقلنا إنّنا أحيينا اللسان العربي، والنخوة العربية، وأحيينا دين الإسلام وتاريخه المشرق، وأعدنا لهما سلطانهما على النفوس، وتأثيرهما في العقول، والأرواح، وشأنهما الأول في الاعتاظ والأسوة، فأحيينا بذلك كله الشعب الجزائري فعرف نفسه فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال، ويطلب بدمه الحياة السعيدة، والعيشة الكريمة ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر، بتاريخه الغابر"².

¹ - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج01، ط01، دار اليقظة العربية، بيروت، 1968، ص 51/50.

² - محمد البشير الإبراهيمي: أنا، مقال كتبه بمناسبة تعيينه عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق، ينظر: مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، العدد 87-شعبان/رمضان 1405هـ-مايو/يونيو 1985م، ص 32/31.

كما أن الشيخ مبارك الميلي وهو أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد ألف كتابا نفيسا، كانت الأمة الجزائرية أحوج ما تكون إلى مثله، هذا الكتاب هو " تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، الذي قرّضه وأثنى عليه الشيخ عبد الحميد بن باديس، بل سمّاه حياة الجزائر، وبالفعل كان حياة للجزائر من خلال ربطها بماضيها التليد الذي أجبرت على هجره هجرا غير جميل بسبب سياسة المستعمر الفرنسي، يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس عن هذا الكتاب: "وقفت على الجزء الأول من كتابك ((تاريخ الجزائر في القديم والحديث)) فقلت لو سميت ((حياة الجزائر))، لكان بذلك خليقا. فهو أول كتاب صورّ الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوّية، بعدما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك، وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما سيقبها حية على وجه الدهر، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلاء، وتخطّه بيمينها في كتاب الخالدين.

أخي مبارك!

إذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا، فكيف من أحيا أمة كاملة؟ أحيا ماضيها وحاضرها وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها، فليس-والله- كفاء عملك أن تشكر الأفراد، ولكن كفاؤه أن تشكر الأجيال¹.

إنّ هذا الثناء والتقدير الذي حظي به الشيخ مبارك الميلي من رفيق دربه الشيخ عبد الحميد بن باديس لدليل قاطع على العناية القصوى التي أولاهها رجال الإصلاح لعنصر التاريخ، باعتباره الركن الأساس في الحفاظ على هوية الأمة وشخصيتها من الزوال والانحلال، فإحياء تاريخ الأمة وأمجادها، وماضيها الأجدد، هو إحياء لها، وبعث لها مما هي فيه من خمول وركون وركود، وتحفيز للهمم من أجل النهوض لتغيير الواقع البائس.

لقد سعى عبد الحميد بن باديس إلى إحياء الذاكرة الجزائرية، وغرسها في النفوس التي شوّهت افتراءات الاستعمار وأباطيله حقيقتها، حتى كادت تذوب ذاتيتها وتضمحل لولا العناية الإلهية، وجهود المخلصين من أبناء الوطن، يؤكّد ابن باديس في مقال له بعنوان " الشعب الجزائري لن يموت" على تفرّد الأمة الجزائرية بخصوصيتها، وتمسكها بهُويتها، وربط حاضرها

¹ - مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، د.ط، ج01، ص 10/09.

بماضيها حتى تعرف وجهتها في المستقبل: "إننا شعب خالد ككثير من الشعوب، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جديرٌ بأن يتخذ لنفسه منزلة لاحقة به في هذا الوجود، ولا رابطة تربط ماضيها المجيد بحاضرنا السعيد إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية لغة الدين، لغة الجنس، لغة القوميّة، لغة الوطنية المغروسة."¹

ومن نباهة الشيخ عبد الحميد بن باديس أنه كتب مقالا بعنوان "رمز وطنيّة كلّ أمة يتجلّى في الاحتفال بأعيادها"، يتحدث فيه عن الأعياد الوطنية والاجتماعية، بوصفها مظهرا من مظاهر تمسك الإنسان بماضيه وتاريخه وخصوصيته، وشكل من أشكال استعادة الأمة لكلّ مقوماتها الحضاريّة عبر التاريخ، يقول ابن باديس في هذا الموضوع: "كلّ أمة من الأمم - مهما كانت مكانتها من نباهة الذكر أو الضّعة والحمول - لها مرمى ترمي إليه في كلّ ما تظهر به من المظاهر الخلابّة الشاذة عن مظاهرها الاعتياديّة عند حينونة موسم من مواسمها، وإذا حاول الباحث تَقصّي أسباب احتفال كلّ أمة بكل عيد من أعيادها، أمكنه تعليل كل ذلك بسهولة متى استرشد التاريخ العالمي، ذلك أنّه يجد السبب يحوم حول ما نسميه بالظهور بالوحدة... أجل كلّما كثرت أعياد أمة، وكلّما بالغ شعب في العناية بمواسمه كان ذلك دليلا قويا على شدّة الاحتفاظ بالوحدة المنشودة، وعلى قوة الإرادة والعزيمة في تقوية روح التماسك، وتجديد ربط الأواصر التي هي على وشك الانحلال."²

أمّا جريدة المنار، فنجد كتابها قد أولوا عناية خاصة لعنصر التاريخ في مقالاتهم السياسية الجريئة، ففي مقال بعنوان "أهدافنا من تعلّم التاريخ"، تساءل كاتب المقال - "المطالع" - عن الغاية من دراسة التاريخ، وعن الكيفيّة أو الشكل الذي ينبغي أن يقدمه المعلّم لتلاميذه، فهو ليس مجرد أحداث وقصص للمسامرة، وإنما هو عبرٌ ودروس وعظات، يجب أن تُنمّي في نفس التلميذ حبّه للوطن وأن يُعرّفه سير أبطال وطنه وبطولاته. يقول الكاتب: "يهدف المعلّمون بتعليم التاريخ إلى إعداد المواطن الصالح، وتكوين الشخصية الاجتماعية، وخلق الذوق التاريخي الذي يساعد التلميذ في مستقبل حياته على حلّ مشاكله المتنوّعة، ويزرع فيه الثّقة بنفسه..... يجب أن نرمي في محاولتنا إلى إقناع التلميذ بأنّ الوطن الجزائري مثلا ملك للأمة

¹ - البصائر: السلسلة الأولى - السنة الرابعة - العدد 171-05 جمادى الأولى 1358هـ / 23 جوان 1939م.

² - الشهاب: ج05- مج07- محرم 1350هـ/ماي 1931م - ص 310/309.

الجزائريّة منذ أقدم العصور، لم تغتصبه بقوة الحراب ولم تهاجر إليه فراراً من فقر أو ظلم، وإنّه جزء من الوطن العربي الأكبر الممتد من الخليج الفارسي شرقاً إلى بوغاز جبل طارق غرباً... وهنا يجب أن نذكر للتلميذ الحروب التي قام به أجداده دفاعاً عن هذا الوطن، وما له من تراث هو منه كالدّعائم بالنسبة للبيت، وتُعددها له قائلين: اللغة القوميّة، والدين المتّبع، والعوائد الجارية.¹

ثمّ يُشدّد الكاتب على ضرورة تطهير عقول التلاميذ الجزائريين الذين سبق لهم أن درسوا في المدارس الفرنسية، من تلك الأساطير الكاذبة التي زرعها في نفوسهم أساتذتهم من الفرنسيين، من قبيل تشويه صورة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بوصفه الأسوة والقدوة الأولى للمسلمين، أو من خلال تقزيم دور الحضارة الإسلامية وفضلها على الحضارة الإنسانية وحصره في دور ساعي البريد فقط، يقول الكاتب: "...فقد تواتر آتهم-الفرنسيين- لا يفترون يعملون على إماتة روح العزّة والثقة بالنفس في أبنائنا الذين يتلقون التعليم في مدارسهم، بما يُلقّنونهم من الحقائق المشوّهة، كأنّ يعلموهم أنّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كان راعياً للغنم، قصد الحطّ من قيمته، وكأنّ يقولوا لهم عن عبد الرحمان الغافقي الذي نشر ألوية الإسلام على مدينة ((بور دو)) بأنّه شنّ غاراته بغية الحصول على الغنائم.²

إنّ ما أشار إليه الكاتب ليس وهم خيال، وإنّما هو حقيقة تاريخيّة ساطعة، تُثبتها شهادات حيّة لتلاميذ جزائريين كانوا عرضة لمحاولات طمس هويّتهم، وضرب مقوّمات أمّتهم، من خلال تغييب رموز الأُمّة وأبطالها، وإنّ ذكرت للتلميذ فعلى سبيل الاستهزاء والتحقير والتشكيك فيها، فيشيبُ التلميذ الجزائري وهو ناكرٌ لأصوله، منبهر بالآخر، ساعٍ للدوبان في شخصيته أو تقليده على الأقل بالتشكيك في رموزه الوطنيّة.

وفي مقال آخر بعنوان " التاريخ في خدمة القوميّة " يتحدّث فيه -المطالع- عن دور التاريخ في تنمية الشعور القومي لدى الأفراد، وتقوية أواصر المحبّة بين أفراد الشعب، لشعورهم بوحدة الأصل والمصير، لذلك فإنّ التاريخ يصبح عنصر إلهام بالنسبة للشعوب التي كانت عرضة للاستعمار والطغيان، فهنا واجب عليها أن تُلقّن الناشئة سير أبطالها القوميّين، وأن تضرب على

¹ - المنار: السنة الأولى-العدد 15- 06 جمادى الأولى 1371هـ/01 فيفري 1952م.

² - المصدر نفسه.

هؤلاء الأبطال سيّاجا من الاحترام والتبجيل، لأنهم صوت الأمّة وضميرها الحيّ وعلى الخصوص عندما تدلّهم عليها الخطوب، فتتشكّل صورة نبيلة لهؤلاء الأبطال في نفوس الناشئة، فيكبرون وقد استوت عندهم موازين الفضيلة والشرف وعزّة النفس، يقول الكاتب: "فالأمّة التي أذيقّت أنواعا وأشكالا من الحكم الأجنبي، وعرفت الحرمان من التمتع بأبسط الحقوق من الحريّات الأساسيّة كالأمّة الجزائرية مثلا، التي ابتليت بالاستعمار الروماني البغيض، والاستعمار الفرنسي وارث الوحشية الرومانية، خليق بقيادة حركتها الثقافية أن يُعنوا العناية التامة بتدريس كفاح أبطالها ضدّ الغزاة المستعمرين، إلى جانب أعمال العنف وحرب العدوان التي شنّها أعداؤها طلبا للاستعمار، وحبّا في الاستعباد والتحكّم في الرّقاب، لتنشأ الأجيال مطبوعة بالطابع القومي الذي يجعلها تحبّ من يجب أن تُحبّه، وتبغض من يجب أن تُبغضه، فيدفعها الحبُّ إلى رفع شأن الوطن وإعزازه، ويحملها البغض على مكافحة الغاصب المحتل وإرغامه على الاعتراف بالحقّ المسلوب، والتّخلي على الوطن المغصوب".¹

رابعا/المؤتمر الإسلامي 1936:

لا غرو أنّ موضوع المؤتمر الإسلامي أسال حبرا كثيرا على صفحات الجرائد باللغتين العربية والفرنسية، سواء أكانت صادرة بالجزائر أو بفرنسا، بوصفه نقطة تحوّل في الوعي السياسي للحركة الوطنية وللنخبة السياسية في ذلك الزمن، فضلا عن نتائجه التي فرّقت التحالفات الظرفية بين الخصوم السياسيين بعد أن جمعتهم مطالبه في بدايته. وتجدر الإشارة أنّه تعذّر علينا الاطلاع على المقالات السياسية للتيار الاستقلالي وموقفه المعارض والمندّد بهذا المؤتمر وبالمشاركين فيه، ذلك أنّ هذا التيّار عبّر عن موقفه في جريدته الأمّة والبرلمان الجزائري الناطقتين بالفرنسيّة. لذلك سنحاولُ تسليط الضوء على المقالات السياسية المنشورة في صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تناولت موضوع المؤتمر الإسلامي باعتبار مشاركتها فيه نقطة تحوّل هامة في تاريخ الجمعيّة بل وفي تاريخ حركة المقاومة السياسية في تاريخ الجزائر الحديث.

إنّ المتصفح لقانون جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، يفهم أنّها جمعيّة دينيّة تهديّة، تعمل على تطهير الدين الإسلامي ممّا علق به من خرافات وبدع، وكذا إحياء اللغة العربيّة والحفاظ

¹ - المنار: السنة الأولى - العدد 17 - 04 جمادى الثانية 1371هـ / 29 فيفري 1952.

عليها، لكنّ المتتبع لنشاطاتها يُدرك بكلّ وضوح أنّها كانت جمعيةً سياسيّةً وطنيّةً بامتياز وخير دليل على ذلك هو مشاركتها في المؤتمر الإسلامي 1936 والذي قدّم مطالب سياسية في المقام الأول لسانسة فرنسا حين ذاك. فقد ساعدت التّغيرات السياسية التي حدثت في الجزائر وفي فرنسا على حدّ سواء، من خلال وصول الجبهة الشعبيّة إلى الحكم في فرنسا بتاريخ 04 جوان 1936 والتي كانت تتكوّن من أحزاب اليسار المختلفة ومن بينها الحزب الشيوعي، والحزب الاشتراكي، على تحريك آمال خامدة، متمثلة في التحرّر والتقدّم والعدالة الإنسانيّة، وقد ساعدت ظروف أخرى وأحداث على تخمّر فكرة انعقاد مؤتمر إسلامي خاص بالجزائريين "ومن بين هذه الأحداث كثرة المؤتمرات الإسلاميّة خلال العشرينيات والثلاثينيات منها: مؤتمر الخلافة الإسلاميّة الذي انعقد بالقاهرة، والمؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس، ومؤتمر مسلمي أوروبا الذي انعقد بجنيف.."¹

وفكرة المؤتمر الإسلامي الجزائري تُنسب إلى الشيخ ابن باديس، وفي يوم السادس من شهر جوان 1936 اجتمعت كلّ القوى الجزائرية على اختلاف مشاربها، للتشاور حول مستقبل الأمة الجزائرية وتبني مطالبها. يقول ابن باديس عن هذا المؤتمر: "...أمّا بعد فيا أيها الوفود الكرام، قدّمتم خير مقدم، جمعتم عقيدة الحقّ والخير، وقادتكم فكرة الواجب، وساقكم شوق النفوس الزكيّة إلى مشاهد الفضل، ومواقف الجحد، ومطارح العمل الصالح الذي يرضي الخالق وينفع المخلوق، فجنّتم أطراف القطر معتزّين بالإسلام، مُمثّلين للجزائر، مكرمين للعلم، كلّ ذلك بحضوركم اجتماع جمعيتكم: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فحيّاكم الإسلام الذي حفظتموه فحفظكم، وحيّتكم الجزائر التي تأبون إلّا أن تكونوا أبناءها، وتأبى إلّا أن تكون بحقّ أمّا لكم، وحيّاكم العلم الذي هو أساس سعادتكم بإسلامكم وجزائريّتكم، وحيّاكم الله فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من عند الله مباركة طيّبة، والله أكبر."²

أمّا الشيخ البشير الإبراهيمي فقد وصف هذا اليوم بأنّه "يوم الجزائر"، لما ينطوي عليه من المقاصد العليا التي تتطلّع إليها الجزائر، أدناها بثّ الوعي الفكري والسياسي في أوساط الشعب،

¹ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج03، مرجع سابق، ص 151.

² - قال ذلك في خطاب له في الاجتماع العام لجمعية العلماء المنعقد يوم الأحد 1355هـ/27 سبتمبر 1936م. مركز الجمعية بنادي الترقّي بالعاصمة. ينظر: الشهاب: ج08- مج 12- شعبان 1355هـ/ نوفمبر 1936- ص 352.

وأعلاها السير نحو إعلان الثورة المباركة، يقول إبراهيم عن الوفود التي تقاطرت للمشاركة في المؤتمر، بأسلوب بليغ بديع على عادته: "من الوفود تترامى بهم قُطْرُ الحديد من كلِّ فجِّ سحيق، وتتهادى بهم السيارات من مختلف النواحي والجهات، تهوي أفئدتهم إلى مدينة الجزائر، ولو كان وراء البحر مطلب لخاضوا البحر إليه، أو كان في أعماقه مأرب لغاصوا في لججه عليه."¹

ويقول عن العلماء الذين اعتاد الناس أن يروهم في المساجد للصلاة أو في المقابر لتشيع الجنائز، أو للإباحة والتحریم إذا ما استفتوا، ويوضح الكاتب أن تلك الصورة النمطية قد انمحت ودرست، وأضحى أصحاب العمائم يخوضون غمار السياسة في كلِّ ما يمسُّ مصلحة الأمة ومصيرها: "مَنْ العلماء؟ يزجون المواكب، ويقودون الكتائب، ويقدمون الصفوف، ويمهدون لأنفسهم مكان العامل في الجملة، والطلّيع من الحَمَلَة والبسملَة من اللوح، يشاركون في الرّأي، ويساهمون في المشورة، ويرتجلون الفتيا في المشاكل المستعصية، فتأتي كفلق الصبح، وتعلو أصواتهم بالدعوة إلى الاجتماعات، والخطابة في المجتمعات، يُراعُ حِمى الدين فإذا هم ذَادَةٌ، وتدعى الأمة إلى العظام فإذا هم قادة، ويمثلون للأمة علماء سلفها الذين كانوا معاقلها المنيعَة عند حلول التّوائب، وأعلامها الهادية عند اشتباه المسالك، ومراجعها إذا ناب خطبٌ أو حَزَبَ كربٌ، بعد أن كان الظنُّ بهم أنّهم قرّاء فواتح، وكُتّاب خواتم، وأحلاس معابد، أكبر شأنهم في الأمة أن يقولوا: هذا حرام، وهذا حلال."²

والحقيقة أنّ مشاركة ابن باديس في هذا المؤتمر لم يكن بغرض بيع الجزائر في المزاد العلني مثلما تُروّج له بعض الأقلام المفلولة، وإنّما كان بغرض الحفاظ على الشخصية الوطنيّة، ومقوّمات الأمة وثوابتها في خضمِّ مطالب اجتماعية واقتصادية كثيرة. وبعد عودة الوفد من باريس أعلن دعوته إلى تجمّع شعبي بالملاعب البلدي في العاصمة، ليعرض على الأمة نتائج المساعي التي قام بها لدى الدوائر الفرنسية، وذلك يوم 02 أوت 1936م الموافق ل 14 جمادى الأولى 1355هـ، وقد وصفت الشهاب هذا اليوم: "من الأيام المشهودة... كان يوما وحيدا في تاريخ الجزائر الحديث، يوما تجمّع فيه ما يزيد عن العشرين ألفا من أشبال جاؤوا من كلِّ حذب

¹ - الشهاب: ج 04- مج 12- ربيع الثاني 1355هـ/ جوليت 1936م-ص 192.

² - المصدر نفسه- ص 193.

وصوب، لاستماع كلمات الوفد، ولمعرفة مقدار ما لاقته الفكرة من نجاح، وما سارته الحركة من خُطى، فكانوا في جموعهم وهم كالبحر الزّاحر يُمثلون ذاتا معنويّة واحدة هي الأمل. وأهم ما قيل بشأن هذا اليوم كلمة الشيخ عبد الحميد بن باديس التي جاء فيها: "أيّها الجزائري التاريخي القديم، المسلم الصّميم، كلمته من كلمة الله، وإرادته من إرادة الله، وقوّته من قوّة الله، أوّلستَ منذ شهر كوّنّت مؤتمراً كما ينبغي أن يكون جلالاً وروعةً... وكوّنّت هذا الوفد الكريم فحملته مطالبك، فاضطلع بها وأدّى الأمانة... وفداً مُتحداً متعاوناً متسانداً، زار الوزارات والأحزاب وأرباب الصّحف، فعرفك إليها، ورفع صوتك"¹

وقد لَمَح ابن باديس بعد عودته صائفة 1936 إلى أنّ المشاركة في المؤتمر كانت محطة من محطات استرجاع النفس، لمواصلة معركة الاستقلال والحرية، يقول ابن باديس: "أيّها الشعب إنك بعملك العظيم الشّريف برهنت على أنّك شعب مُتعثّق للحرية، هائمٌ بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنّا الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل بها، وكيف نحيا لأجلها، إنّنا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا، وفتحنا قلوبنا، فإنّ مدّت إلينا يدها وملأت بالحبّ قلوبنا فهو المراد، وإن ضيّعت فرنسا فرصتها هذه فإنّنا نقبض أيدينا، ونغلق قلوبنا فلا نفتحها إلى الأبد، أيّها الشعب لقد عملت وأنت في أول عملك، فاعمل ودّم على العمل وحافظ على النّظام، واعلم أنّ عملك هذا على جلالته، ما هو إلّا خطوة ووثبة، ورائها خطوات ووثبات، وبعدها إمّا الحياة وإمّا الممات."²

بيد أنّ فرنسا غلاة الاستعمار لم يرقّهم هذا الوعي السياسي الذي بدأت شرارته تسري في أوساط الجماهير، وأوجسوا خيفة من هذا التكتل الوحدوي الجديد بين الأطياف السياسية الجزائرية على اختلافها وتباين وُجهاث نظرها، عمدت الإدارة الاستعماريّة إلى تدبير مكيدة خبيثة مكيدة، لشقّ صفّ دعاة المؤتمر، ولتشتيت كلمتهم، وكان ذلك عن طريق اغتيال الإمام محمود كحول وهو من المعارضين للحركة الإصلاحية من جهة، ومعارض لسيطرة الحكومة الاستعمارية على الأوقاف الإسلامية بالجزائر، وألصقت التهمة بالشيخ العقبي بصفته قائداً بارزا في جمعية العلماء المسلمين، وبذلك ضربت عصفورين بحجر، فمن جهة تخلّصت من الشيخ

¹ - الشهاب: ج 06 - مج 12 - جمادى الأولى/جمادى الثانية 1355هـ/أوت-سبتمبر 1936م - ص272.

² - المصدر نفسه.

كحول الذي سبب لها صداعا مزمنا، وشوّهت صورة جمعية العلماء حتى ينفضّ عنها الناس وحلفاؤها من جهة ثانية، ويررّ أحد كتاب الشهاب الدوافع الخفيّة من وراء هذه الجريمة الشنعاء المتمثلة في اغتيال الشيخ كحول، والتّهمة الباطلة التي رُميت بها الجمعية: " كان يلزم أن يقع عمل شنيع يبرهن للحكومة على أن أمّة الجزائر لا تزال فاقدة الصفات السياسية التي تؤهلها للإحراز على الحقوق، وأنها لا تزال أمّة سائرة مع العواطف الجاحمة، وأنّ الذين وقفوا على رأس الحركة السياسية والدينية والاجتماعية فيها، إن هم إلّا قوم يسترّ ظاهرهم اللطيف باطنهم الخبيث، وأنّهم لا يتأخرون عن أكثر الأعمال هولا وفضاعة، تشقيا لأنفسهم وانتقاما من خصومهم، وأنّ الحرّية الدنيّة إن أرجعت لهم فإنّ نتيجة ذلك ستكون شرّا ووبالا على الأمّة، وبداية فتنة داخلية لا يعلم إلّا الله عقباها... "

إذا كان الشيخ محمود كحول هو الضحية التي يجب أن تقدّم على هذا المذبح لكي ينسب جرم اغتياله إلى خصومه، ولكي يخاف الناس شرّ الانتقام الإداري والحكومي، فتنفضّ الجماهير من حول المؤتمر والوفد وجمعية العلماء، وتفرّق الأمّة تحت تلك الضربات فلا تقوم لها من بعد قائمة.¹

يريد الاستعمار الفرنسي بهذه الجريمة أن يثبت للعالم أن الجزائريين تنقصهم أهليّة التمتع بالحقوق وأداء الواجبات، وأنّ فرنسا تعمل ما في وسعها لتمدينهم ولترقى بهم إلى مستوى الإنسان المتحضّر، ودليلها في ذلك أن نخبة الجزائر وعلماءها لا يتورعون عن سفك دماء بعضهم بعضا، لا لشيء إلا لأنهم مختلفون سياسيا، فهاهم يقتربون جريمة ويقتلون صاحبهم بعيدَ عرضٍ مطالبهم في باريس.

بقي لنا أن نذكرّ هنا بموقف حزب نجم شمال إفريقيا الذي اتخذ موقفا رافضا للمؤتمر الذي رأى فيه محاولة بيع لهويّة الجزائر وشخصيتها، وللارتقاء في حضن المستعمر ومن ثمّ الذوبان فيه، وقد أعاب الحزب كثيرا على جمعية العلماء مشاركتها وتبنيها لمطالب المؤتمر، وخير دليل على هذا الرفض

تلك الأبيات الشعريّة الحارة التي كانت يصدحُ بها مناضلوا حزب النجم بعيد المؤتمر، في

نشيد فداء الجزائر:

¹ - الشهاب: المصدر السابق - ص 274/275.

فلسنا نرضى الامتزاجا ولسنا نرضى التجنيسا
 ولسنا نرضى الاندماجا ولا نرتدّ فرنسيسا
 رضينا بالإسلام تاجا كفى الجهّال تدينسا
 فكل من يبغى اعوجاجا رجمناه كإبليساً¹

مجازر 08 ماي 1945:

ما إن وضعت الحرب العالميّة الثانية أوزارها، وفي غمرة احتفال العالم بانتهاء هذه الحرب التي جلبت الخراب والويلات لشعوب المعمورة، حتى ظهرت فرنسا بمظهر المنتصر في محاولة منها لإعادة الاعتبار لكبريائها المسحوق على يد غريماتها ألمانيا، ولم تجد وسيلة لتحقيق ذلك إلّا بإطلاق العنان لجنودها المسعورة لتقتل وتذبح وتقتل شعبا أعزل ومدنيين أبرياء، خرجوا صبيحة 08 ماي 1945 في سطيف وخرّاطة وقلمة حاملين الأعلام الوطنيّة، يُعبّروا عن فرحتهم بانتهاء الحرب وليذكروا فرنسا الاستعماريّة بما قطعت من وعود على نفسها بإعطاء الجزائريين حقهم في تقرير مصيرهم بعدما ألفت بخيرة أنبائهم في أتون حرب قاسية. الأمر الذي أزعج الاستعمار الفرنسي فأقدم على ارتكاب مذبحه لم يشهد لها التاريخ الحديث مثيلا في حق الأبرياء العزل، وقد اشترك في هذه الجريمة الجيش الاستعماري مدعوما بالمعمّرين الأوروبيين الذين عبّروا عن حقدهم الدفين لكل ما هو جزائري، وقد استمرت آلة القتل والقصف والتدمير أكثر من أسبوعين دون انقطاع، وقد أسفرت عن ثمن باهض من الشهداء قُدّر بأكثر من خمس وأربعين ألف شهيد، ناهيك عن الجرحى والآيامي واليتامي، أمّا السجون والمعتقلات فقد ضاقت على شساعتها واتساعها بعدد المعتقلين، لم تفرّق الحملة الاستعمارية المسعورة بين زعماء الطبقة السياسية، وفرحات عبّاس كان على رأس الموقوفين ولم يشفع له اعتداله ولا تشبّعه بالثقافة الفرنسية في ذلك، أمّا مصالي الحاج فقد نُفي إلى برزافيل، بينما أعتقل البشير الإبراهيمي والدكتور سعدان ولم يُطلق سراحهم إلّا في سنة 1946

¹ - مولود قاسم نابت بلقاسم: إنبة وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، الجزائر، 1395هـ/1975م، ص243.

بمعية فرحات عباس¹.

إنَّ أوَّل ما يُسجِّله الباحث في الصحافة العربيَّة في الجزائر بُعيد هاته المجازر الوحشية، أنَّه يجد فراغا جليًّا في المقال السياسي حولها، ولا يمكن لأيِّ مُهتم بشؤون الصحف أن يقول قد أغفلت الصحف حدثا كهذا، كانت قد ندّدت به الصحافة العالميَّة من أقصى العالم إلى أقصاه، والجواب بسيط للغاية، فزعماء الحركة الوطنيَّة كانوا رهن الاعتقال، وصحفهم معطّلة وممنوعة من الصدور، والصحف الأخرى التي كانت تسير في ركاب الاستعمار لم تنبِس بنبت شفة حول هذا الموضوع وكأنَّ شيئا لم يحدث.

كان لهذه الجريمة النكراء الأثر البالغ في نفوس الجزائريين، وكانت صدمتهم أكبر، لم يصدّقوا ما كان يحدث من قتل وتعذيب وانتهاك للمحرّمات، وعبث بالمقدّسات، وقد سُجّلت هذه الجريمة الشنعاء بأقلام عدّة كتّاب، ومن بينهم مقالة كتبها "باعزيز بن عمر" بعنوان "ذكرى ثامن ماي"، يقول في مطلعها: "إنَّ عهود الاستعمار كلّها عهود ظلم وإرهاب، واعتداء على الحرّيات والحرّمات، وأيامه كلّها سود في تاريخ البشريَّة، وصحائف تاريخه كلّها تمجيد للطغيان، وسفك للدماء، وقتل للمواهب، وخنق للحرّيات، وتمكين للاستبداد، وإبادة للشعوب والأمم.

والاستعمار بمعنى غزو أمةٍ لأخرى، واعتداء شعب على آخر، قوّة عمياء تُغذيها الفوارق القائمة بين الأمتين أو الشعبين في الجنس واللغة والدين والمصلحة، وتوجّهها العنصريَّة المسلّحة، فتسير في الأرض لا تعرف قانونا، ولا تدين بشريعة إلّا ما تضعه وتسنّه، وذلك كلّه يتلخّص في شيء واحد: القضاء على الأمة المغزوّة المغلوبة بوسائل مسطورة يرثها الخلف عن السلف، وفي مقدّماتها تجريدتها من مادّيّاتها ومعنويّاتها كلّها: فلا غنى ولا دين، ولا علم ولا أدب، ثمّ الزجر والقمع والرّدع عن طريق الإكثار من المذابح والجرائم والضّحايا التي يلجأ إليها المستعمر كلّما أحسَّ بانقباض النفوس، وانطواء القلوب على كرهه."²

يبدو أنّ الكاتب قد أطلّ بعض الشيء في هذه المقدمة التي استهلّ بها مقاله، لكن الموضوع أكبر من أن تفويه حقّه مؤلّفات وكتب ومجلّدات -فضلا عن أسطر معدودة في بداية مقال-

¹ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 03، مرجع سابق، ص 240/239/234.

² - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 79 - 11 رجب 1368هـ / 1949/05/09م.

لهول الفاجعة، ولفظاعة الجريمة، فالكاتب يسعى من وراء ذلك لوضع القارئ أمام حقيقة الاستعمار الفرنسي، ويرسم صورته دون طلاء أو مساحيق تجميل، مُسقطاً عنه بذلك تلك الشعارات الزائفة من حرية وعدل وإخاء. ثمَّ يُلْخِصُ الكاتب إلى صلب موضوعه فيقول: "ولو ذهبنا نُحصي مآسيه وضحاياه وجرائمه، منذ نزل بأرضنا، لما استطعنا أن نُحصيها! فذكرى ثامن ماي، هي ذكرى ضحاياه التي بلغت 40000 ألفاً، حصدتهم قوته العمياء بقنابلها ومدافعها بين عشية وضحاها، فسقط الشيخ والكهل والشاب والفتاة وربّة البيت والرضيع، ومن يجبو من الصبية والأطفال، صرعى وحشية جنوده، وضحايا رصاصه!. فاض الاستعمار في هذا اليوم المشؤوم كالبركان، فقذف كلَّ ما في أحشائه من الحمم واليحموم والنار، فذبح تذيحاً، وقتل تقتيلاً!.

فذكرى ثامن ماي مؤلمة إيلاًما شديدا لا يفتأ يُحزُّ في النفوس إلى الأبد، وإنَّها لهولها وعموم فظائرها، لتكاد تُنسينا ما قبلها من ذكريات الألم والظلم والعدوان.¹ وفي ختام المقال وبلهجة سياسية تحريضية ضد الاستعمار الفرنسي، يُلحُّ الكاتب على الشعب الجزائري أن يتخذ من هذا اليوم درسا في علاقته بالاستعمار، لا بدّ للشعب أن يتعلّم معنى الثبات والعزيمة والاتحاد لاجتثاث هذا المُستعمر ومحوه من الوجود، لأبداً أن يتعلّم الشعب الاعتماد على النفس، وأن لا يثق بوعود فرنسا، وأن يعي جيّدا معنى ما أُخِذَ بالقوّة لا يُسترجعُ إلّا بالقوّة، وأن لا يكتفي بالتّحبيب والبكاء في كلِّ ذكرى تحلُّ، يقول الكاتب: "فتعسا لشعب لا تُعلّمه آلامه وأحزانه وذكرياته، غير البكاء والدعاء بالرحمة والضروان لضحايا الظلم والاستعمار! وتعسا لمن لا يفهم عنها إلّا أنّها محنة تولّت، ويوم نحس يطويه التاريخ من بين أيّامه السود طيّاً."²

ولو جئنا للمقالات السياسية المتألّقة من حيث المستوى الأدبي التي كتبت حول هذه المجازر، نُلفي بلا منازع مقالات الشيخ البشير الإبراهيمي، والذي أبدع في تصوير الفاجعة وفي تحليل ذهنيّة الاستعمار الغاشم، ومقارعتة بالحجّة التي تدمغه فإذا هو زاهق، يصف الإبراهيمي ذلك اليوم المشؤوم فيقول: "يوم مظلم الجوانب بالظلم، مُطرّز الحواشي بالدماء المطولة، مقشعر

1 - المصدر السابق.

2 - المصدر نفسه.

الأرض من بطش الأقوياء، مبهج السماء بأرواح الشهداء، خلعت شمسها طبيعتها فلا حياة ولا نور، وخرج شهره عن طاعة الربيع فلا ثمر ولا نور، وغابت حقيقته عند الأفلام فلا تصوير، ولا تدوين.¹

بعد هذه المقدمة الشعرية، ينتقل الإبراهيمي إلى تصوير الفاجعة بواقعية وألم، وينبري على المستعمر الغاشم بالتقريع والتشنيع لسوء فعلته، وخبث طويته، فيقول: "يوم ليس بالغريب عن (رزانة الاستعمار) الإفرنسي بهذا الوطن، فكم له من أيام مثله، ولكن الغريب فيه أن يُجعل - عن قصد - ختاماً لكتاب الحرب، ممن أمهكتهم الحرب على من قاسمهم لأواءها، وأعانهم على إحراز النصر فيها، ولو كان هذا اليوم في أوائل الحرب لوجدنا من يقول: إنه تجربة، كما يجرب الجبان القوي سيفه في الضعيف الأعزل.

إثنان قد خلقا لمشأمة الاستعمار والحرب، ولحكمة ما كانا سليلي أبوة، لا يتم أولهما إلا بثنائهما، ولا يكون ثانيهما إلا وسيلة لأولهما، وقد تلاقت يدهما الأثمتان في هذا اليوم في هذا الوطن، هذا مودع إلى ميعاد، فقعقة السلاح تحيته، وذاك مزع أن يقيم إلى غير ميعاد، فحث القتلى من هذه الأمة ضحيته.²

وفي لحظات سخط على المستعمر الفرنسي، يصف الإبراهيمي الجنود الجزائريين في الخطوط الأمامية للدفاع عن فرنسا وشرفها، في الحرب العالمية الثانية، وكيف دفع هؤلاء حياتهم في حرب لا تعينهم من قريب ولا بعيد، فلا مجد ولا شرف يرجونه من وراء هذه الحرب، في حين أكباد أمهاتهم تحترق شوقاً للقائهم وتنفطر خوفاً من الجهول، يقول الإبراهيمي: "أمة كالأمم حلت بها ويلات الحرب كما حلت بغيرها، وذاقت لباس الجوع والعري والخوف، وتحيفت الحرب أقواتها وأموالها، وجرعت الثكل أمهاتها واليتم أطفالها، وأكلت شبابها، وقطعت أسبأها، وصلبت نار الحرب ولم تكن من جناتها، وقدمت من ثمن النصر مئات الألوف من أبناءها قاتلوا لغير غاية، وقتلوا من غير شرف، في حين كانت الأمم تقتتل على الملك، والملك مجد وسيادة، وعلى الحرية، والحرية حياة وعزة، أما هذه الأمة فكانت تُقاتل لخيال من أمل، وذمء من حياة، وصبابة من رجاء، وخبب من وعد،... فلما سكن الإعصار وتنفست الأمم

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 35 - 01 رجب 1367هـ / 1948/05/10م.

² - المصدر نفسه.

في جوّ من السلم، وتهيأت كل أمة أن تستقبل بقايا النار من شبائها، وكلّ أم أن تعانق وحيدها، عاودت الاستعمار ألوهيته وحيوانيته في لحظة واحدة، يحادّ الله بتلك، ويغتال عباده بهذه، وعاد بالتقتيل على من كانوا بالأمس يمدّون حياته بحياتهم، ليريهم مبلغ الصدق من تلك الوعود.¹ ويُغلظُ الإبراهيمي القول للمستعمر الغاشم، الذي تجرّد من كلّ معاني المروءة والإنسانية، فلم يكتف بإخلاف الوعود فحسب، بل عضّ اليد التي أحسنت إليه، وصوّب رشاشه لمن كان يُصوّب بالأمس القريب دفاعاً عنه، يقول الإبراهيمي: "لك الويل أيها الاستعمار! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام، ويجوع أهله وأهلك بطان، ويثبتُ في العواصف التي تطير فيها نفوس أبنائك شعاعاً؟ أيشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في الغنيمة - ولعلّ فرحه بانتصارك مساو لفرحك بالسلامة - فيجد الأب قتيلاً، والأم مجنونة من الفزع، والدار مهدومة أو محرقة، والغلة متلفة، والعرض منتهكاً، والمال نمبا مقسماً، والصغار هائمين في العراء؟".²

ويختتم الإبراهيمي مقاله بالإشارة إلى أن ما حدث يوم الثامن ماي أكبر من أن تحوّه الأيام، أو تطوي ذكره السنون، لأنّه أحدث قطيعة أبدية مع عهد المهادنة والجري وراء سراب الوعود الاستعمارية الكاذبة، وأسس لعهد جديد وهو عهد الاعتماد على النفس والتجهز لتفجير الثورة، فبين الجزائر وفرنسا جبال من الأرواح وأهوار من الدماء والدموع،: "يا يوم! ... لك في نفوسنا السمة التي لا تُمحي، والذكرى التي لا تُنسى، فكن من أية سنة شئت فأنت يوم 08 ماي وكفى. وكل مالك علينا من دين أن نُحيي ذكراك، وكل ما علينا لك من واجب أن ندوّن تاريخك في الطّروس لئلا يمسه النسيان من النفوس".³

أمّا جريدة الشعلة⁴ فقد أفردت مقالا بمناسبة الذكرى الخامسة لمجازر الثامن ماي، والمقال يحمل دلالات سياسية توحى بالانقلاب الحاصل في الوعي السياسي لدى الشعب الجزائري،

1 - البصائر: السلسلة 02 - العدد 35 - مصدر سابق.

2 - المصدر نفسه.

3 - نفسه.

4 - رئيس تحريرها الشهيد أحمد رضا حوحو صدرت ما بين (1951/1949). ذات اتجاه إصلاحى وطني. يُنظر

الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، مرجع سابق، ص 264.

والدروس المستقاة من تلك المحنة الأليمة، عنوان المقال " الخندق الفاصل، حوادث 08 ماي 1945"، وتجدر الإشارة أن المقال خالٍ من أي توقع أو إشارة تدلُّ على صاحبه، وإن كانت بصمة أحمد رضا حوحو تبدو جليّة وواضحة في المقال، يقول الكاتب: " يا لله لتلك الجراحات التي لا تكاد تنحبر حتى يأتي عليها ثامن ماي فتدمي على ذكراه من جديد ! ربّاه إنّها ليست بالجراحات التي تضمّد فتبرأ، وتتوالى عليه الأيام فلا يبقى منها إلّا الأثر، بل ما هي إلّا أغوار عمقها في ملايين القلوب لا يُسبر، وإصابات بليغة عمقها في بركائها في ملايين الأفئدة، لن يهدأ ولن يسكن، ووقعها في النفوس جمرات تتوقّد، وقد أُلّف أن النسيان يأتي على الحوادث فيطمس آثارها، إلّا حوادث ماي فإنّها عدت على النسيان فمحت وجوده من البشر.¹"

أمّا صاحب جريدة المنار "محمود بوزوزو" فقد وقف عند مجازر 08 ماي 1945 كلّما حلّت ذكراها، ففي الذكرى السادسة والسابعة والثامنة دبّج مقالات في غاية الأهميّة من حيث الناحية التاريخية، لأنّها تعكس درجة الوعي السياسي والتحوّل الجذري الذي شهده الخطاب السياسي بعد هذه المجازر الشنيعة، فقد طُرحت كلّ السبل السلميّة والسياسيّة جانبا، وأصبح الخطاب السياسي خطابا تحريزيا على الثورة بالتصريح تارة وبالتلميح تارة أخرى.

اختار بوزوزو لمقالته عنوان " ذكرى وعبرة"، والتي يصف فيها الشرارة الأولى لتلك المجزرة الرهيبة فيقول: " ولكن ما كاد ركب المظاهرات يتحرّك حتى فوجئ بحملة عدوانيّة، فمزّقت اللافتات وديست، وقُتل حاملوها، واعتُقل عشرات الآلاف من الشبان والكهول والشيوخ، ونُكّل بهم شرٌّ تنكيل، وأقيمت مجزرة رهيبة ذهب فيها خمسة وأربعون ألف جزائري ضحايا الظلم والعدوان، فيهم الشيوخ والعجائز والنساء والصبيان، وخربّت الديار، وأُتلفت الحقول والمزارع، وانتُهكت الحرمات، حتى خيّل للنفوس أن الحرب انتقلت من أوروبا إلى الجزائر² ". ويلتقي الكاتب مع البشير الإبراهيمي في وصفه لحال الجنود الجزائريين لدى عودتهم إلى وطنهم وهم لا يُصدّقون أنّهم نجوا من مخالب الموت، غير أن صدمتهم تكون أكبر وخيبة أملهم أشد عندما يجدون أكوأخهم أثرا بعد عين، وأهليهم مُشتتّون بين المقابر والسجون، فيقول: " وعاد الجنود الجزائريون إلى وطنهم وآثار الحرب لا تزال مساورة لهم، إلّا أنّهم واثقون بمغادرة دار

¹ - الشعلة: العدد 22-24 رجب 1369هـ/11 ماي 1950م.

² - المنار: السنة الأولى - العدد 03-27 رجب 1370هـ/04 ماي 1951م.

حرب إلى دار سلم، يجدون فيها السلوى والراحة وحسن الجزاء. ولكن سرعان ما خابت ظنونهم حين وجدوا منازل خربة، ومزارع مُتلفة، ورأوا آباءهم وأمهاتهم وأزواجهم وأبناءهم جثثا هامدة، وأشلاء مبعثرة.¹

ويعود محمود بوزوزو في الذكرى السابعة لتلك المجازر، ويوقعُ مقالا بعنوان "08 ماي" يتناول فيه التضحية الكبيرة التي قدمها الجزائريون على خط النار، وساهموا بقسط كبير في دحر الجيوش النازية وانتصار الحلفاء، لكن عوض أن تعترف فرنسا بدور هؤلاء الأبطال أبت إلا أن تُسجّل يوم النصر الذي صنعه أيد جزائرية إلى يوم قتل وتشريد وتهجير، يقول الكاتب: "أقدم الغرب على الفتنة يُوقظها، وعلى النار يوقدها، منشدا أناشيد الحرية والتحرير، ليسوق عشاق الحرية معه، فانطلق الجزائريون باذلين النفس والنفيس في سبيل العهد المنشود، عهد التحرير. فكان النصر حليف الحلفاء الذين انساق معهم الجنود الجزائريون، وجاء وقت اقتسام المغنم بعد دفع المغرم فادحا. فما كان حظّ الجزائريين؟ أطلق عليهم الاستعمار الفرنسي نيرانا أبادت ما يُجاوز أربعين ألف مسلم، فكان يوم 08 ماي 1945 للجزائريين يوم أتراح يندبون فيه سوء حظهم، يتوالى المدى وجرحهم باق، ولكنّه إلى جانب ذلك يوم درس وعبرة، ونعم الدرس ما جاء من الجراح والآلام."²

ولا تفوتُ الذكرى الثامنة لمجازر 08 ماي 1945 دون أن يتوقف عندها صاحب جريدة المنار كعادته، ففي مقال افتتاحي يكتب بوزوزو تحت عنوان "08 ماي 1945/1953" عن هاته الذكرى الأليمة التي لا يُمكن لحقب الدهر أن تمحوها، فهي جريمة ضدّ الإنسانية في المقام الأول، ولا يمكن أن تسقط بالتقادم بلغة القانون، فالدموع لم تجف، والمفقودون لم يظهر لهم أثر، والسجون ضاقت بتزلائها، والاستعباد مُتواصل: "يوم بيننا وبينه 08 سنوات، ولذكراه في النفس حسرات، وفي العين عبرات، يوم فيه أزهقت أرواح بريئة، وأريقتم دماء زكية، وعُقلت السنة فصيحة، ومُلئت سجون ومحتشدات فسيحة، ونُكثت عهود وثيقة، وزلزلت آمال وطيدة، ونُثرت عقود نضيدة، وفُصمت وحدة فريدة.

¹ - المصدر السابق.

² - المنار: السنة الثانية-العدد 03- الجمعة 13 شعبان 1371هـ/09 ماي 1952م.

يوم تراءت فيه للأمة الجزائرية من مطامحها قطوف دانية، فسارت أفواجا إلى شجرة الحرية... ولم تكن تتوقع أن سيرها إلى التعميم ينتهي بها إلى الجحيم، وأن يوم المغنم أشأم من يوم المغرم، تجني فيه الشوك بدل الحب، وتُصحح المثل ((إنك لا تجني من الشوك العنب))¹.

ويخلص الكاتب إلى نتيجة حتمية ألا وهي ضرورة أن يحفظ الجزائريون الدرس من ذكرى 08 ماي 1945، وأن يعتمدوا على أنفسهم، ويستعدوا لليوم المنشود وهو الثورة الكبرى ضد المستعمر الغاصب، ثم أن الجزائريين ليس لهم ما يُحاذرون عليه، وليس لهم ما يخسرون، فلم يُبق لهم الاستعمار الفرنسي موضعا للألم، يقول محمود بوزوزو موجها نداءه للشعب الجزائري في أسلوب سجع لا يخلو من التكلف-لعله حاول مجازاة الإبراهيمي في ذلك مع أن الإبراهيمي أسلوبه يتدفق بعفوية بعيدا عن الصنعة المتكلفة-: "أيها الشعب! استجّل العبر من مختلف الغير، واستقبل الغد بالحزم والحذر! فبوادر الفتن تلوح في الآفاق وتعلو، فتحتجب وتبدو، وتبتعد وتدنو، لا تدري متى تطير الشرارة، وللمفاجأة مرارة، وكل آت قريب، ووعدها الخصم مُريب. إنك تستقبل من الهول شراً مما استدبرته، فها أعددت للمستقبل عدته، وأخذت من الماضي عبرته، أم لا تبالي أن تعثر عشرين، وتلدغ مرتين؟".

ويختتم الكاتب مقاله بتحريض الشعب على التمرد وإعلان الثورة، مادام أن لا شيء تغير من 1945 إلى 1953، فنار الظلم تكوي الشعب الجزائري، والفقر والجوع والمرض حليف وفي للاستعمار، والانتخابات مُعدة سلفا بالتزوير، والديمقراطية أكذوبة العصر، فما عليك أيها الشعب المثخن بالجراح، المثقل بالأمراض والأغلال إلا أن تأخذ بأسباب الخلاص، وتشق طريقا نحو الحرية والاستقلال، والعناية الإلهية ترعاك وتؤازرك: "فالتفت إلى ثامن ماي 1945، وانظر ثامن ماي 1953 تجد المظالم موصولة الحلقات، منوعة الأشكال، مرتبطة الأوصال، فالسياسة سخافة، والديمقراطية خرافة، والحرية سحرية، والانتخابات انتحابات، والقوانين للمظلوم أغلال وللظالم ضمانات، بها يتحصن دون أن يطمئن، شأن المجرم عديم الأمان رغم الضمان، والظلم ليس له قرار، والعدل الإلهي بالمرصاد وأنت له في انتظار..خذ بالأسباب، وأت

¹ - المنار: السنة الثالثة- العدد 42- الجمعة 24 شعبان 1372هـ/08 ماي 1953م.

البيوت من الأبواب، تجد الوعد الحق بالاستخلاف والتمكين، والأمن بعد الخوف في الدنيا والدين. واذكر ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)). ولن تجد لسنة الله تبديلاً.¹ هكذا تناول كتاب المقال السياسي مجازر 08 ماي 1945، التي تخلص فيها الشعب الجزائري من عقدة الخوف، وكانت هذه المجازر بمثابة المخاض العسير الممهّد لاندلاع الثورة التحريرية المباركة بعد تسع سنوات على تلك الجريمة الفظيعة، ونحن نُقلّب صفحات الجرائد الرثة الصادرة في الفترة الممتدة من 1945 إلى 1954، لفتت انتباهنا ملاحظة دقيقة، وهي أنّ صحف الطرفين لم تُشر من قريب أو من بعيد لهذه الجريمة التي هزّت كل أحرار العالم، حتى ممن لا يدينون بديننا، ولا ينطقون لغتنا، ولا يجمعنا بهم بر أو بحر، فتعاطفوا ونددوا وتضامنوا، وبذلك أثبتوا أنّهم يشاركون الشعب الجزائري مأساته، صونا لوشائج الإنسانية وذلك أضعف الإيمان. فجريدة البلاغ² - تُعدّ الناطق الرسمي باسم الزاوية العلوية بمستغانم - مثلاً عاصرت الأحداث الجسام التي مرّ بها الشعب الجزائري، كمجازر 08 ماي 1945، غير أنّها لم تنبس ببنت شفة، بل ولم تُبد حتى التأسف على أرواح الشهداء الذين حصدتهم الآلة الاستعمارية الممجية، ولعلّ قائلًا يقول أنّ الجريدة كان هدفها ديني تربوي محض، فنجيب هذا المخلص العاذر فنقول: وهل المقالات التي نشرتها البلاغ وكلها مدح وإطراء لفرنسا الاستعمارية، وتهجّم على ألمانيا التي نعتها بالنازية وإيطاليا بالفاشية، هل يدخل هذا ضمن الإصلاح الديني والتربوي؟! ولعلّ أغرب ما سيق من أعداء لسكوت هذه الجريدة عن هذه الجريمة التي أضحكت الموتى في اللحد، والرّضّع في المهود، العذر الذي ساقه محمد الصالح آيت علجت في كتابه الموسوم بـ صحف التصوف الجزائريّة من 1920 إلى 1955 لدفع الشبهة عنها عندما قال: "هذا وإذا كان موقف صحيفة البلاغ تجاه مجازر 08 ماي 1945 قد كان موقفاً سلبياً، فإنّ لذلك الموقف آثاره التي كانت مأمولة منها الجانب الإيجابي في بقاء الصحافة مستمرة في قيامها

¹ - المصدر السابق.

² - يذكر محمد بن صالح ناصر أنّ جريدة البلاغ كانت تصدر من 1926/1943، بينما يذكر محمد الصالح آيت علجت أنّ العدد 703 في 08 جمادى الأولى 1367هـ الموافق لـ 19 مارس 1948 هو آخر عدد صدر لها. ينظر كل من محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، مرجع سابق ص 90. و صحف التصوف الجزائرية من 1338هـ إلى 1373هـ - 1920م إلى 1955م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1422هـ/2001م، ص 74.

بالوعظ والإرشاد، والتبليغ للدعوة الإسلاميّة، وخاصة وأنها الجريدة التي تكاد أن تكون الوحيدة في هذا الميدان"¹

لسنا ندري -والله- أيّ وعظ هذا الذي يُجيز لك أن تسكت عن عرضك المنتهك؟ وعن أيّ معنى لتبليغ الدعوة الإسلاميّة ووطنك يُستباح؟ ثمّ ما مضمون هذا التبليغ؟ اللهم إلا إذا كان هذا التبليغ يُسائرُ ركاب المستعمر من تحذير للعقول باسم الدين كخرافة "اعتقد ولا تنتقد" والاستعمار الفرنسي قضاء وقدر "يجب الرضا به والتسليم به و له".

لقد كان الشعب الجزائري بحاجة إلى صرخة مُدوّية بُعيد تلك المجازر، صرخة تنادي من صوامع الزوايا والمساجد "حيّ على الجهاد" حيّ على الجهاد" فقد أهلك هذا المستعمر الزرع والنسل، واستباح الحرمات، وانتَهك الأعراس، وأحرق الديار والثمار، ثمّ ما ضرّ هذه الصحيفة إن عُطّلت أو أُعدمت مثلما عُطّلت البصائر وغيرها من الصحف الوطنيّة؟

وعلى نفس المنوال سارت جريدة المرشد لسان حال الزاوية العلوية بمستغانم، فلم تنبس بدورها ببنت شفة، وكأنّ هذه المجازر وقعت في الربع الخالي، فلم يصلها نبأها إلّا بعد مرور سنين عددا، وفي الحقيقة هناك جرائد طريقيّة قد آثرت السّلامة من أول يوم صدرت فيه، كجريدة الرشد² التي لم تُخف مسألتها للحكومة الاستعماريّة و كانت صريحة في إعلان توجهها وخطّها منذ البداية، وفي تحديد علاقتها بالمستعمر الفرنسي: "أمّا موقفنا من الحكومة الفرنسيّة فهو موقف المسألة الشريفة، بحيث نراعي الحكمة التّبويّة فيها وهي (لا ضرر ولا ضرار))، بل نراعي المصلحة المشتركة لأننا رأينا وجربنا وجرب من هو أشدّ تمردا من جادة الاعتدال والاستقامة أنّ طريق منفعة الأمّة إنّما يكون بسلوك طريق المسألة، والمحبة، ما يقضي به ديننا الحنيف أمام الأمّة على اختلاف طبقاتها، وعناصرها المتساكنة، وأمام الحاكم أيضا."³

إنّ هذا السكوت المخزي، ينبأ عن تواطؤ فاضح بين الاستعمار الفرنسي وبين بعض من مشايخ الطريقيّة الذين شوّهوا صورة التصوّف الساميّة، وأضحوا وصمة عار في جبين الأمّة وفي تاريخ علم السلوك، الذي من أوجب واجباته إنكار الذات والتضحّيّة في سبيل الآخرين، فمالهم

¹ - محمد الصالح آيت علجت: صحف التصوف الجزائرية، مرجع سابق، ص 101.

² - الرشد (1938/1939): لسان حال جامعة الزوايا والطرق الصوفية، ينظر: محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، مرجع سابق، ص 251/250/249/248.

³ - الرشد: العدد 345-05 رجب 1358هـ/21 أوت 1939م.

سكتوا- لو كانوا زهادا عبّادا مخلصين أصفياء- عن مجازر 08 ماي 1945 حتى أنك لا تُحس منهم من أحد ولا تسمع له ركزا.

ثورة نوفمبر 1954: اندلعت شرارة الثورة التحريرية في غرّة شهر نوفمبر 1954، ثورة انطلقت من عمق الإنسان الجزائري الذي اغتصبت أرضه، وامتهنت كرامته، واستترفت خيرات وطنه، فكان لا بدّ لها أن تكون ثورة الشرف والعرض والاعتاق. وقد واكبت الكلمة الصادقة رصاصة جندي جيش التحرير في مداشر الجزائر وجبالها وصحاريها، لتشدّ من عضده ولترفع معنوياته، ولتضعه في مقام المسائر لأخبار الثورة في داخل الوطن وخارجه من جهة، ولتسف ادعاءات المستعمر وإشاعاته المغرضة، ولمواجهة الحرب النفسية التي كان يُديرها جنرالات فرنسا ضدّ الشعب الجزائري وجيش وجبهة التحرير الوطني من جهة أخرى. وقد اضطلعت بهذه المهمة الجسيمة جريدة المجاهد باعتبارها اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني سنة 1956، بناءً على قرارات مؤتمر الصومام¹.

ولأنّ جريدة المجاهد أخذت على عاتقها نقل الصورة الصحيحة عن كفاح الشعب الجزائري لاسترجاع استقلاله، ولتحرير وطنه، تفتيداً لما كانت تُروّج له الأطروحة الاستعمارية بأنّ المجاهدين قطاع طرق، وأنّ ما يجري في الجزائر مجرد أحداث سببها الخبز والجوع في المقام الأول. لذلك نجد أنّ المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث عرفت في هذه الفترة أزهى مراحلها، لأنّ المعركة السياسية على صفحاتها كانت لا تقلّ شراسة عن المعارك التي يخوضها بوسائل جيش التحرير الوطني في مختلف ربوع الوطن.

ومن أبرز المقالات السياسية التي عاجلتها المجاهد:

أ/ اندلاع الثورة التحريرية واحتضان الشعب لها.

ب/ أساليب التعذيب والإبادة المنتهجة من طرف الاستعمار الفرنسي.

ج/ مخططات الاستعمار لإجهاض الثورة كمشروع قسنطينة.

ه/ فصل الصحراء.

و/ القضية الجزائرية على الصعيد العالمي.

¹ - عواطف عبد الرّحمان: الصحافة العربية في الجزائر-دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية 1962/1954- مرجع سابق، ص 54.

فبالنسبة للثورة الجزائرية فقد استطاعت المجاهد أن تعكس صورة صادقة لها، مثلما استطاعت أن تُقنع بعض المشككين في إمكانية القضاء على الاستعمار الفرنسي وتحقيق الاستقلال التام، كما أنّها وجّهت ضربات قاضية للدعاية الفرنسية المغرضة حول الثورة الجزائرية، إذ بدأ العالم يعي تماماً أنّ القضية ليست شأنًا فرنسيًا محضًا، وإنّما هي قضية تصفية استعمار لشعب أراد تقرير مصيره بدمه وجماعه أبنائه، ففي مقالة بعنوان " ثورة خلقت شعباً" تناول فيه الكاتب حال الشعب الجزائري قبل الثورة وبعدها، في أسلوب مقارنة يكشف مدى التغيير الجذري الذي مسّ مختلف جوانب حياة الشعب الجزائري لا سيّما مفاهيمه ووعيه، يقول الكاتب: كان الشعب الجزائري، ولا نقصد جماهيره بل حتى كثيرًا من إدارته المثقفة، قبل إعلان الثورة يعتقد أنّ مسألة تخليصه من استعمار فرنسا هي مسألة معجزة من المعجزات، وليست مسألة كفاح يعتمد فيه على نفسه، ويحقق به وجوده الحرّ... إنّ الطفل الجزائري الذي يعيش في حياة التشرّد ولا يجد في الشارع أيّ مظهر من مظاهر قومية بلاده، فلا يعرف علماء وطنيًا، ولا يشاهد بذلة رسمية ترمز إلى السيادة، ولا يسمع بعيد قومي، ولا تُلقى في أذنه كلمة واحدة عن أجداده وهو على كرسي المدرسة. وإنّ الجندي الجزائري الذي تموت منه الأجيال تلو الأجيال تحت العلم الفرنسي، ولا يعرف إلّا الموت من أجل فرنسا... هذا الجزائري المُشّتت الهائم في مجاهل التاريخ، فقد نفسه، ونسي خصاله وشخصيته ومظاهر قوميته، وأصبح لا يؤمن بنفسه ولا يثق فيها، ولا يتصور مجالًا للحياة غير الذي ألفه في ظلّ هذه الأمراض.¹

ويبيّن الكاتب التغييرات الجذرية التي أحدثتها الثورة في نفس الإنسان الجزائري، الذي كان ينهشه الجهل والبؤس والضياع، وبفضل الثورة التحريرية أصبح الجزائري يؤمن بالجزائر أرضاً وأمةً وشعباً، يقدم روحه فداءً لها، وبذلك حققت له الثورة إنجازين عظيمين، الأول هو اكتشاف الجزائري لنفسه، لذاته، لطاقته، والثاني اكتشاف العالم له، يقول الكاتب: " إنّ ثورة أول نوفمبر 1954 قد خلقت الشعب الجزائري خلقاً، وأنشأته إنشاءً، وحوّلت غباره المبعثر المبدّد إلى بذور تحمل الحياة، وتفتّح في وجه العاصفة... إنّ الفرد الجزائري اليوم أصبح يؤمن بالجزائر، ويشعر بما كلّها قطعة منه، وقد كان قبل الثورة لا يشعر إلّا بأنّه فلان، وأنّ قبيلته أو عائلته كذا.

¹ - المجاهد: العدد 31-01 نوفمبر 1958م.

إذا كانت هناك معجزة تحقّق بها تحرير الجزائر، فليست شيئاً آخر غير اكتشاف الشعب لطاقته، وصبره على النّضال، وقوّته على تحمل التّضحيات في سبيل مثل أعلى، كان لحدّ الآن مدار نضال بين الشعوب الراقية وحدها. أمّا اكتشاف الشعب الجزائري للعالم واكتشاف العالم للشعب الجزائري في هذه الثورة فأمر ليس من الضروري أن نتركه للمؤرّخين بعد الثورة، لأنّ ثماره ناضجة قبل نهاية الثورة.¹

ويوضّح الكاتب جوانب اكتشاف الجزائريين للعالم، بعدما كان مختصراً في فرنسا فقط، مثلما بيّن الانتصارات الباهرة التي أحرزتها الثورة الجزائرية في المحافل الدولية لدى الكتلتين الآسيوية والشرقية، والتي تُرجمت بالاعترافات المتتالية بحقّ الشعب الجزائري في تقرير مصيره، واسترجاع استقلاله، وفي الاعتراف بحكومته المؤقتة، يقول الكاتب: "كان الشعب لا يعرف من العالم إلّا فرنسا، بل لا يعرف من فرنسا إلّا قبعة الجندرمي وسجون الشرطة، كان الشعب لا يعرف تونس ولا المغرب فضلا عن معرفته للعالم العربي برمّته... أمّا الثورة فإنّها مزّقت هذه الحدود الخارجية التي تفصل الشعب الجزائري عن الشعوب الشقيقة، كما مزّقت الحدود الداخلية التي كانت تفصل أبناءه بعضهم عن بعض، وتمكّنت جماهيرنا من الاحتكاك بالجماهير التونسية والمغربية والليبية وحتى المصرية والسورية، وأمکن لطلّابنا الذين كانوا لا يعرفون إلّا كليات فرنسا أن يلتحقوا بالمعاهد العلمية في ألمانيا وأميركا وروسيا، فضلا عن أعدادهم المتزايدة في الشرق العربي وفي تونس والمغرب... لقد اكتشفت الجزائر مركزها الحقيقي بين مختلف شعوب العالم، وخاصة بين الشعوب المتحرّرة أو المكافحة من أجل حرّيتها في قارتي آسيا وإفريقيا، كما اكتشفت الجزائر دورها الهائل الذي تمثّله في معركة التحرير العالميّة."²

ب/أساليب التعذيب والإبادة المنتهجة من الاستعمار الفرنسي: لم يألُ الاستعمار الفرنسي جهداً للقضاء على الثورة الجزائرية ووأدها في المهّد، وقد استخدم كلّ الوسائل المحرّمة دولياً وإنسانياً في سبيل تحقيق غايته، من إبادة جماعيّة للمدنيّين العزل، وتهجير للسكان وتجميعهم في محتشدات، واعتقال تعسفي واستنطاق بوليسي رهيب، فقد طالت الإبادة الكبار والصغار، والنساء والشيوخ الطاعنين في السن، مثلما لم يسلم الأطفال وهم في زهرة العمر من الآلة

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

الاستعمارية الهمجيّة، فكانت الإعدامات الفردية والجماعية تُنفذ لمجرد الشبهة، وكانت القرى والمزارع والغلال عرضة للنهب والحرق لتجويع الشعب الجزائري في محاولة استعمارية يائسة لإخضاعه وعزله عن ثورته وجيشه. وقد استعرضت المجاهد صفحات مخزية لمختلف الأساليب الهمجية التي لجأت إليها السلطات الاستعمارية لتعذيب وإبادة الشعب الجزائري، ومن أبرز مقالاتها في هذا الصدد، مقال تحت عنوان " طابع الإبادة في حرب الجزائر يزداد خطورة" يقول الكاتب كاشفاً التناقض الفاضح الذي يتخبّط فيه الاستعمار، بين ما يُرفع من شعارات زائفة كالحضارة والمدنيّة، وبين ما يُرتكب في الجزائر من جرائم ضدّ الإنسانية: " في هذا الوقت الذي كثرت فيه الشائعات الفرنسية حول استعداد الجنرال ديغول لإعلان مبادرة جديدة من شأنها أن تضع حدّاً للحرب.... وفي هذا الوقت الذي يتكلّم فيه ديبري بكلّ وقاحة، ويجرّؤ على الزعم بأنّ حكومته تحافظ على الديمقراطية في فرنسا والجزائر، وفي هذا الوقت الذي يطلب فيه رئيس الحكومة الفرنسية في لهجة هي مزيج من التّضرع والإلحاح والتّحدي¹ العاجز، من الحلفاء الغربيين أن يؤيّدوا فرنسا بالجزائر لأنّ قضيتنا بالجزائر هي قضية الغرب والحضارة الإنسانيّة. وفي هذا الوقت بالذات يحسّن أن نكشف للعالم مرّة أخرى مظهرها ((عاديًا)) يومياً من مظاهر هذه الحرب التي يؤكّد رئيس وزراء فرنسا أنّها تُخدم ((قضية الحضارة الإنسانية))، حتى يعرف العالم حقيقة هذه ((الرسالة الفرنسية)) التي تتلخص في جملة قصيرة: محاولة وحشية لإبادة شعب كامل.²

ويضرب صاحب المقال أمثلة عن صور الإبادة الممنهجة التي كان يتعرّض لها الشعب الجزائري على يد جنود الاستعمار الفرنسي وقوات اللّيف الأجنبي، ففي مقال بعنوان " هكذا يحارب الجيش الفرنسي" تناول فيه الكاتب مجزرة ((ترشيوى)) التي حصدت فيه الآلة الاستعمارية أرواح المدنيّين العزلّ بالقنابل المحرّمة والغازات السّامة، إضافة إلى إلقاء أطنان من القنابل على القرى والمداشر، والقصف من البوارج البحريّة، يُفسح المجال لجنود المشاة التي تعيث في الأرض فساداً، يقول الكاتب: " أمّا قمع جنود المشاة فهو الذي يُبيّن لنا بوضوح أكثر ما تنطوي عليه النفسية الانتقامية الفرنسية في حطّة وهمجيّة، إذ أنّهم عندما يدخلون إلى المشتة

¹ - الكلمة غير واضحة في النص الأصلي، ولعلّها مثلما أثبتناها وفقاً للسياق.

² - المجاهد: العدد 49 - 20 صفر 1379هـ/1959/08/24م.

أو الدوار يُوجّهون ضرباتهم إلى النساء، ويختارون منهم الحُبليات، ويتلذذون بتمزيق جثث الأطفال الصغار، وقد أصبحت عندهم هذه-اللذة- مرضاً مزمناً كالإدمان على الخمر، بحيث لا يستطيع المرء أن يتصور تدهور الأخلاق عند الإنسان إلى هذا الحد. وهو ما جعل الكثيرين من جنود فرنسا يصابون بشبه جنون، وبهزّات عصبية من كثرة إفراطهم في أعمال التشفي الوضع ضدّ النساء والأطفال.¹

أمّا عن التعذيب فقد استحدث الاستعمار الفرنسي أكاديمية قائمة بذاتها لتلقين فنون التعذيب النفسي والجسدي ضدّ أبناء الشعب الجزائري، وقد تنوعت أساليب التعذيب وتطوّرت لأنّ "الجلادين الفرنسيين كانوا يتنافسون في اختراع واستنباط وسائل التعذيب، ويتباهون بذلك، ويرون أجدرهم بالتقدير والاختراع، ذلك الذي يفوق الشيطان في هذا المجال، فإذا كان أهل العلم والمعرفة يجذّون في اكتشاف وسائل الترفيه عن الإنسانية وتطبيب حياتها، فإنّ هؤلاء الجلادين يجذّون في البحث عن وسائل تدمير الإنسان الجزائري."²

وقد تناولت جريدة المجاهد مسألة التعذيب في مقالات عديدة، وكشفت للعالم الوجه البشع لفرنسا الاستعمارية، الأمر الذي أحدث هزّة عنيفة لدى أصحاب الضمائر الحيّة من مختلف نخب ومفكري العالم بل حتى من بعض الفرنسيين أنفسهم، وتماطلت بيانات التنديد بجرائم الاستعمار الفرنسي، وبذلك أحرزت المجاهد نصراً سياسياً للثورة المباركة، ومن بين هذه المقالات مقال تحت عنوان "التعذيب الاستعماري في الجزائر" عرض فيه الكاتب صوراً وحشية لأساليب التعذيب التي كان يتفنّن جلاّدو الاستعمار في تجريبها على الجزائريين من تعذيب بالكهرباء في المناطق الحساسة من جسم الإنسان إلى التعذيب بالماء إلى الحرق بأعقاب السجائر، والتعليق بالحبل وغيرها من الأساليب الجهنّمية التي تعكس درجة البهيميّة واليأس الذي يتخبّط فيه الاستعمار، يقول الكاتب معدداً طرق و أفانين التعذيب في الجزائر: "تواصلت الدولة الفرنسية الغربيّة المسيحيّة في أرض الجزائر منذ ثلاث سنين، حملة من الجرائم ضدّ الإنسانية، ملأت شدتها ووحشيّتها شعوب العالم فرعاً واثمئزازاً، ويسجّل الجنود والمدنيّون الفرنسيون كل يوم بما

¹ - المجاهد: العدد 42- 11 ذو القعدة 1378هـ/18/05/1959م.

² - محمد الصالح الصديق: كيف ننسى وهذه جرائمهم، دار هوم، الجزائر، 2009، ص 142.

يُميّزهم من الخطاط خلقي وأدبي صفحات هي أدمى وألم ما شهده تاريخ هذا القرن العشرين.¹

يصف الكاتب فظاعة التعذيب بالكهرباء وبالماء والحديد والحبل، يقول: "التعذيب بالكهرباء، هذه العملية تُنجز بدقة فائقة، تمتاز بشناعتها إذ لا تُبقي أثرا باديا للعيان إذا عولجت بقاياها، وتقع هذه العملية ليلا، فيمدد المتهم عاريا على -طاولة العمليات- وتُقيد رجلاه ويده، ثم يُفرغ على جسمه وعاء من الماء لتعميم التيار الكهربائي عند إرساله، وهناك يُسلط التيار على الأعضاء الحساسة من جسم الرجل أو المرأة المعذبة، وهي الأذنان واللسان والأعضاء التناسلية والنهدان، وتبلغ الآلام درجة من الشدة تُجاوز كل وصف... التعذيب بالنار وهاهي بعض ألوانه: يجلس المعذب على كرسي يوثقه بظهره الجلادون وهو عاري الصدر، ثم ينفخ الجندي الذي يستنطقه على عينيه دخان التبغ، ثم يطفئ لفافته المشتعلة في صدره ونهديه... التعذيب بالحديد: يحرق بالمكواة صدر المعذب وذراعه وأصابع رجله... يقطع الجلاد بسكين حاد مسنون قطعا من لحم المعذب ثم يُوسّع الجراح ويُحكها بالملح الحجري... التعذيب بالحبل: عملية الجراب - يوثق المعذب من رجله ويديه مجموعة بحبل كالماشية، ثم يُعلق ويُرفع بالعجلة نحو السقف وهناك يُطلق الحبل فيهبوي المعذب إلى الأرض، واقعا على رأسه وظهره كالجراب. وتُكرّر العملية مادام المتهم لم يعترف ولو كذبا أو لم يُدل بأسماء تُملى عليه ليُلقي القبض على أصحابها، فإذا امتنع من ذلك يُعذب حتى يموت ضحية ثباته وجنون مُعذبيه.²

هذه المقالات السياسية التي دُبجت حول مناهج التعذيب وأفانينه في الجزائر، كشفت سوأة الاستعمار الفرنسي، وأسقطت قناع الحضارة والمدنية التي جاءت فرنسا لنشرها في ربوع الوطن الجزائري حسبما كانت تتشدق به الدوائر الاستعمارية آنذاك.

ج/مخططات الاستعمار لإجهاض الثورة - مشروع شال ومشروع قسنطينة -: أدى تولي الجنرال ديغول سدة الحكم في فرنسا إلى تطبيق سياسة القبضة الحديدية على الثورة الجزائرية، هي السياسة التي كانت مبنية على مشاريع ومخططات جهنمية، تهدف أساسا إلى خنق الثورة

¹ - المجاهد: العدد 08 - 15 أغسطس 1957م.

² - المصدر نفسه.

وعزلها عن الشعب، وتشديد الخناق على جيش التحرير الوطني، من خلال إقامة المناطق المحرّمة والمحتشدات والسجون.

-إنشاء خطي شال وموريس:

لقد أمر وزير الدفاع الفرنسي "أندري موريس" بإقامة خط شالك مكهرب بين الحدود الجزائرية التونسية في أواخر عام 1956، أطلق عليه اسمه. وقد انتهى من بنائه في أيلول (سبتمبر) 1957¹. يمتد هذا الخط المكهرب من شاطئ البحر شرقي مدينة عنابه إلى جنوب مدينة تبسه على مشارف الصحراء. وفي نفس الوقت أقيم خط مماثل على الحدود الجزائرية المغربية يمتد من مرسى بورساي العربي بن مهدي قرب السعيدية إلى بشار جنوبا على مسافة 700 كم². وفي خريف 1958 شرعت القوات الاستعمارية في بناء خط شال الشالك المكهرب والملغم، وقبل نهاية سنة 1959 كان الخط مكتملا ليدعم الخط السابق. وهكذا وقع دعم خط موريس بخط جديد ابتداء من القالة مرورا بالطارف لينتهي بسوق أهراس. ويتواصل من هناك في اتجاه الجنوب ابتداء من سوق أهراس مرورا بحمام تاسة، قمبيطا، ونزرة، المريج، عين الزرقة، الكويف. غير أن كثافة العمل في خط شال كانت قد تركزت في الشمال بين سوق أهراس و القالة³.

فقد تصدّت المقالة السياسية لكلّ ادعاءات الاستعمار بأنّه نجح في خنق الثورة التحريرية، وفي عزل الشعب الجزائري عن أشقائه بعدما حوّل الجزائر إلى سجن كبير، ففدّت جريدة المجاهد كلّ هذه الإدعاءات الباطلة، وبيّنت أن هذه المشاريع الجهنمية لم تزد جنود جيش التحرير إلّا عزيمة على مواصلة مسيرة التحرّر والكفاح، وأكدت أنّ جلّ انتصارات المجاهدين كانت على التماس مع خطي شارل وموريس، يقول الكاتب محمود الشريف: "إذن فموريس وزير الدفاع الفرنسي في حكومة بورجيس مونوري الفاتنة، يدّعي أنه عثر على السلاح السري للقضاء على الثورة وجعل حداً نهائياً لهذه الحرب التي تكلف بلاده الإفلاس من نواحي

¹ - محمد لحسن أزغيدى: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 182.

² - غالي غربي: فرنسا والثورة الجزائرية 1954-1958، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 276.

³ - يوسف مناصريه وآخرون، الأسلاك الشائكة وحقول الألغام، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 166.

شقي. هذا السلاح السري يشتمل على شبكة عظيمة من الأسلاك الشائكة توضع على حدود القطر الجزائري في الشرق وفي الغرب، وقد قامت فرنسا بدعاية صاحبة تعدُّ بقرب هزيمة ((الخارجين عن القانون)) بعد أن يقطع عنهم مصادر تموينهم وسلاحهم وأمتعتهم.... وفعلا فإن هذا الجهاز الضخم الثمين لم يستطع إلى حد الآن أن يقلل لا من عدد هجمات وحدات جيش التحرير الوطني ولا الاشتباكات المتكررة التي تخضعها في وسط المدن مثلما يقع باستمرار في تلمسان وسيدي بلعباس وتبسة. فنتيجته في هذا الباب تشبه وتحاكي نتيجة حائط الأطلنتيك الذي بني لرد نزول الحلفاء في فرنسا.

هذه الشبكة القوية الموجودة بين المغرب وعمالة وهران هي وحدها عبرة ومثل، فقد وضعت في أواخر سنة 1956 وكانت تبدو كأنها حاجز فعال إذ حرص الفرنسيون على أن يجعلوا منه ((جدارا حديديا)) لا يمكن اجتيازه ودسّوا خلاله الألغام، وأطلقوا فيه التيار الكهربائي، ونصبوا فيه أنواع شتى من الأفخاخ مثل الصاروخ الواثب إلى جرس الإنذار، وأقاموا المراكز العسكرية، لا تتجاوز المسافة بينها كيلو مترين في بعض الأحيان، وهي مزودة بمدافع قوية توجه قنابلها لأدنى إنذار.

وبالرغم من هذا كله فإن الحرب وهجمات مجاهدي جيش التحرير الوطني ما تزال مستمرة على العدو وهي تزداد قوة وشدة كل يوم بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أنها أصبحت اليوم أقوى في الحدود منها في المناطق الأخرى. وأنّ الشباك المكهرب لا يفيد أهله شيئا، وأنّ أسلحة جيش التحرير الوطني تؤخذ كلها من العدو، نرى وزير الدفاع موريس رغم هذه الحقائق كلها يلحُّ بمضاعفة استعمال هذه الأسلاك الشائكة التي أصبحت اليوم تغطي مسافة مئات الكيلومترات على الحدود التونسية والمغربية.¹

وتكشف المجاهد الأسباب الحقيقية وراء إصرار وزير الدفاع الفرنسي " أندري موريس " على ضرورة مضاعفة الأسلاك الشائكة المكهربة على طول الحدود الشرقية والغربية للجزائر، والتي من بينها أنّ شركة تصنيع هذه الأسلاك تعود أسهم ملكيتها لابنه، وبذلك فإنّه اتخذ من ذريعة حماية المصالح الفرنسية بالجزائر ومنع جيش التحرير من التزوّد بالسلاح من تونس والمغرب وغيرها من البلدان الشقيقة والصديقة ذريعة للثراء والإغناء من جيوب الفرنسيين

¹ - المجاهد: العدد 11 - 01 نوفمبر 1957م.

أنفسهم عن طريق ما يدفعونه من ضرائب، وبهذا يكون كاتب المقال السياسي قد نجح إلى حد بعيد في تأليب الرأي العام الفرنسي ضد وزير الدفاع مورييس وضد الاستعمار الفرنسي الذي أنهك الخزانة الفرنسية بالنفقات المتزايدة في حربه مع الجزائر، يقول الكاتب: "وأن هذه المضاعفة سببها أن مورييس رغم صفته كوزير دفاع قد استفاد من الناحية المالية استفادة مالية معتبرة ولا بأس بها وذلك من عمليات الأسلاك الشائكة، لأن ابنه هو أحد كبار المساهمين في المؤسسات التي تتبع الأسلاك الشائكة، فكلما ازداد استعمالها تزداد أرباحه، والغريب في هذا هو أن المجاهدين الجزائريين الذين وعد أندري مورييس بالقضاء عليهم يشاركون كل ليلة في إغناؤه بإتلافهم لعشرات الكيلومترات من شبائك الأسلاك التي تبذل بأخرى على نفقة الأهالي الفرنسيين الذين يؤدّون الضرائب، إن سعادة البعض في شقاء الآخرين."¹

وقد هللت الصحافة الفرنسية لهذا المشروع الجهنمي، وراهنّت الدوائر الاستعمارية على أن مسألة وأد الثورة مسألة وقت لا أكثر، بل وذهب الكثير منهم إلى تحديد مهلة سنة على الأكثر لإخماد جذوة الثورة للأبد، وقد تصدّت المقالة السياسية الثورية على صفحات جريدة المجاهد لهذه الدعاية المغرضة التي تُحاول ضرب معنويات الثورة في الصميم، فقد نشرت مقالا بعنوان "خط مورييس بين الحقيقة والخيال" فنّدت فيه بالدليل القاطع الفشل الذريع الذي مُني به مشروع خط مورييس، وهذا بشهادة القواد الفرنسيين أنفسهم، مما لا يدع مجالاً للشك بأن الاستعمار الفرنسي ضرب حصاراً خانقاً لا على جيش التحرير الوطني مثلما كان يأمل بل على قوّاته العسكرية وآلياته المدرّعة، يقول الكاتب: "منذ أن انتهى الفرنسيون من بناء خط مورييس وتمديده من عنابة إلى تبسة في أواخر 1957، وقد مدّدوه بعد ذلك إلى نقرين جنوباً، وهم ينشرون دعاية ضخمة واسعة النطاق حول فعاليته في ((حقن الثورة)) وفي الحيلولة دون تنقل فرق جيش التحرير عبره، ومنذ ذلك الحين ونحن نقرأ في كلّ تصريح رسمي فرنسي يدور حول الجزائر أن: خط مورييس يستحيل اجتيازه، وأتته جعل جيش التحرير ((يصطدم بعدة مصاعب تتعلق بالتموين والذخيرة)) بل إنّ الحملة التي شنتها الصحافة الفرنسية في خريف 1957 حول قرب انتهاء الثورة، كانت إلى حدّ بعيد تعتمد على خط مورييس، وبقدر ما كان الفرنسيون

¹ - المصدر السابق.

يعملون على تعزيز الخط والألغام والمراكز العسكرية المتفاوتة، والمصفحات المتقلّة على طوله ليل نهار، والمدفعية المسيّرة بالرّادار، بقدر ما كانت الدعاية الفرنسية تتضخم. وفي الأخير كانت نتيجة هذه الحملات الدعائية الواسعة أنّ الفرنسيين وحدهم هم الذين كانوا ضحية دعاية صدّقوها، وتوهّموا أنّها هي الحقيقة، وأنّهم يستطيعون أن يناموا مطمئنّين خلف هذا الخط.¹

وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسا تحاول إحكام قبضتها على الثورة الجزائرية وخنقها من خلال المشاريع العسكرية الجهنميّة وحرب الإبادة التي كانت تشنّها على الشعب الجزائري برمّته، لجأت إلى مناورة أخرى لفصل الشعب عن ثورته، وذلك عن طريق رفع مستوى المعيشة وتحسينه لدى السكان بناء المساكن وتوزيع الأراضي الزراعية وإلحاق أبناء الجزائريين بالمدارس النظامية الفرنسية وغيرها من الإغراءات المادية، فالمشروع في حد ذاته كان يهدف إلى فصل الشعب عن الثوار فإنه لم يحقق أهدافا، ذلك أنه لم يكن برنامجا اقتصاديا بقدر ما هو مشروع استعماري دعائي لإجهاض حلم الجزائريين بالانعتاق والتحرّر من الرقبة الاستعمارية. وقد كتبت المجاهد عدّة مقالات عن مشروع قسنطينة وأسباب ومظاهر فشله من بينها مقال بعنوان "مشروع قسنطينة رثة لا تتنفس" أشارت فيه إلى الخطاب الذي ألقاه السيد (ديري) أثناء زيارته لقسنطينة وعنابة بمناسبة مرور عامين على مشروع قسنطينة، وأوضحت فشل المشروع في الميدان الزراعي بسبب استمرار الحرب واستحالة توزيع الأراضي على الجزائريين الفقراء لأنّها مسرح للمعارك بين جيش التحرير الوطني وقوات الاستعمار الفرنسي، وأنّ الشعب الجزائري لا يقبل بأنصاف الحلول فقد اختار بكلّ حرية ومسؤولية طريق الكفاح بالدم والأرواح، فإمّا الاستقلال الكامل التام عن فرنسا وإمّا الفناء، يقول الكاتب: "إنّ الجزائريين لن يقبلوا أبدا بحلّ وسط، لأنّهم يطالبون بالاستقلال، وهم لن يتخلوا عن هذا المطلب ما دامت جبهة التحرير- التي تمثل مطامحهم- قائمة، لأنّ وجودها حتى بجنب حركات أخرى مزيفة، هو الضمان لنجاح فكرة الاستقلال التي هي فكرة المستقبل.

وهكذا يتبيّن فساد الحسابات التي بُني عليه مشروع قسنطينة، لقد أرادوه علاجا اقتصاديا لمرض سياسي، وأرادوا أن يقيموا إلى جنبه حلّا سياسيا مريضا ليس هو بالجزائر الفرنسية ولا

¹ - المجاهد: العدد 37- 15 شعبان 1378هـ/1959/02/25م.

بالجزائر المستقلة، مع أنّ رجل الشعب يعرف بدهائه الواعية أنّه ليست هناك إلّا إحدى نهايتين: الاستقلال أو الاستعمار، وأنّ جميع الحلول التي يقدمها الاستعمار، مهما بالغ في تزيينها وتزويقها لحلول استعمارية، في حين أنّ المستقبل للثورة، أي للاستقلال أي للشعب.¹

د/فصل الصحراء: بدأت محاولات فرنسا لفصل الصحراء عن الجزائر سنة 1957، وذلك بعدما أيقنت أنّ خروجها من الجزائر مسألة وقت لا أكثر، فسارعت إلى إنشاء وزارة خاصة بالصحراء وإلحاقها بفرنسا، بعدما كانت الصحراء تتبع عمالات الجزائر وهران وقسنطينة، وقد ازداد تشبث الفرنسيين بالصحراء بعد اكتشاف الثروات المعدنية التي كانت حقلاً بكرًا بها، لا سيّما أنّها تنام على بحر من احتياطي البترول والغاز الطبيعي، وقد نشرت المجاهد مقالاً سياسياً تحت عنوان " مؤامرة الاستعمار على صحرائنا" ردّ فيه صاحبه على المغالطات الفرنسية حول الصحراء، يقول الكاتب: " إنّ الاستعمار الفرنسي حين أحسّ بأنّ استقلال الجزائر أصبح حقيقة حتمية لا يمكن الوقوف في وجهها، وأدرك من جهة أخرى ما تحتوي عليه الصحراء من ثروات هائلة، بدأ يضع الخطط والمشاريع لفصل جنوب الجزائر الصحراوي عن شمالها، لقد كانت الصحراء دائماً تمثّل جزءاً لا يتجزأ من الجزائر وكانت فرنسا تعترف بهذه الحقيقة، حيث بقيت الصحراء طوال عهد الحكم الاستعماري في الجزائر تتبع سياسياً وإدارياً سلطة الوالي العام الفرنسي في الجزائر، وكانت الخرائط والكتب المدرسية الفرنسية، وكتب التاريخ والجغرافيا، كلّها تذكر الصحراء على أنّها جزء لا يتجزأ من الجزائر، ولم تأت فكرة انفصال الصحراء عن الجزائر إلّا منذ اكتشاف البترول والغاز الطبيعي، مع اشتداد الكفاح التحرري الذي يخوضه الشعب الجزائري ضدّ الاستعمار الفرنسي.²

ويختتم الكاتب مقاله بالتشديد على أنّ الشعب الجزائري لا يمكنه أن يُفرّط في شبر من تراب الجزائر شماله وصحرائه، وأنّ الحكومة الفرنسية بتقديمها جملة من التسهيلات للشركات الأجنبية والغربية منها على وجه الخصوص، للتنقيب عن البترول في الصحراء الجزائرية، تتخبّط في أحلام اليقظة، وأنّ مراهنتها على القوى الاستعمارية الغربية مجرد أوهام لأنّ الدول الغربية تدرك تمام الإدراك أنّه لا يمكن أن تنجح في استغلال البترول الجزائري إلّا برضى الشعب

¹ - المجاهد: العدد 79- 18 ربيع الثاني 1380هـ/ 10 أكتوبر 1960م.

² - المجاهد: العدد 91- 26 رمضان 1380هـ/ 13 مارس 1961م.

الجزائري صاحب الأرض والثروة، ولن يكون ذلك إلا بعد استرجاع الجزائر لاستقلالها، وأنّ تسهيلات فرنسا لها مؤامرة للزجّ بها في حرب خاسرة مع جيش التحرير الوطني، يقول الكاتب: "إنّ هدف الاستعمار الفرنسي من هذا التّساهل الكبير مع الشركات الغربية هو نفسه جانب من جوانب مؤامره على الصحراء الجزائرية، إنّه يرمي من وراء ذلك إلى كسب تضامن المعسكر الغربي الاستعماري معه في عملية فصل الصحراء..... إنّ الدول الغربية وشركاتها لتعرف جيّدا بأنّه لا يمكن استغلال صحراء¹ بدون رضی الشعب الجزائري وضدّ إرادته، وهذه الحقيقة هي التي ستستيقظ عليها فرنسا حينما تتبخّر أمامها خرافة ((الصحراء الفرنسية)) كما تبخّرت قبلها خرافة ((الجزائر الفرنسية))."²

ه/ القضية الجزائرية على الصعيد العالمي: واكبت المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث الجانب الدولي للقضية الجزائرية، فقد أخذت على عاتقها التعريف بعدالة الثورة الجزائرية على صفحات جريدة المجاهد بالنسختين العربية والفرنسية، وبذلك كانت لها إطلالة وافية على العالم الخارجي، مثلما تابعت الجهود التي بذلتها الكتلة الأفروآسيوية من أجل تسجيلها في جدول أعمال جمعية الأمم المتحدة، وقد عرضت المجاهد للتطور الذي طرأ على مواقف الدول من القضية الجزائرية أثناء نظرها في الدورة الثالثة عشر للجمعية العامة في شهر سبتمبر 1958، حيث استغرقت المناقشات أسبوعاً كاملاً. فدبّج مقال تحت عنوان "قضية الجزائر في الأمم المتحدة للمرّة الرابعة" نبّه فيه صاحب المقال إلى ضرورة تحمّل الأمم المتّحدة لمسؤوليتها تجاه الشعب الجزائري بإقرارها بحقه في تقرير مصيره، واعتبار قضيته قضية تصفية استعمار بعيدا عن المناورات الفرنسية لا سيّما وأنّ أشغال هيئة الأمم المتحدة تزامنت مع إعلان الحكومة المؤقتة الجزائرية كأول كيان رسمي جزائري حاز اعتراف دول عديدة أعضاء في هيئة الأمم المتحدة، وبذلك سقطت ذريعة فرنسا الاستعمارية التي طالما تحجّجت بعدم وجود طرف جزائري رسمي لتفاوض معه، يقول الكاتب: "إنّ القضية الجزائرية تُعرض للمرّة الرابعة على الأمم المتحدة، ولا يمكن أن تُعامل هذه المرّة كما عوملت في المرّات السابقة، خاصّة وقد برزت فيها عناصر جديدة تتمثّل في تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي اعترفت بها عدة دول أعضاء في

¹ - هكذا هي في النص الأصلي والأصح أنّها معرفة (الصحراء) على اعتبار أنّها مضاف إليه.

² - المجاهد: العدد 91- المصدر السابق.

الأمم المتحدة، وقد اعترف دي غول نفسه ضمينا وعمليا بأنها الممثل الوحيد للشعب الجزائري عندما اعتبر ردّها على مؤتمره الصحافي ردّا رسميا عليه من طرف الجزائر المحاربة، وبذلك يكون دي غول قد اعترف للحكومة الجزائرية بأنها المفاوض الكفاء الذي طالما تعلّلت الحكومات الفرنسية السابقة لتبرير سياستها الاستعمارية بعدم وجوده، وبأنّها لا تدري مع من تحلّ قضية الجزائر.¹

كما استعرضت المقالة السياسية على صفحات جريدة المجاهد أهم المناقشات التي دارت في الأمم المتحدة، والضغوط والمناورات التي قامت بها فرنسا الاستعمارية وحلفاؤها من أجل عرقلة المصادقة على اللائحة التي أعدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن ضمانات تطبيق تقرير المصير للشعب الجزائري، فقد كتب مقال تحت عنوان "أمريكا في خدمة الاستعمار" أنحى فيه صاحبه باللوم الشديد، والتقريع العنيف، لموقف أمريكا العدائي من القضية الجزائرية التي لم يكفها معارضتها لقرارات الأمم المتحدة بشأن حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره فراحت تضغط وتُحرض الدول الغربية بل وبعض دول الكتلة الآفروآسيوية، وبلغ بها النفاق السياسي أن أخضعت بعض الدول التي تربطها روابط روحية بالشعب الجزائري كتركيا وإيران، وصوّتت ضد القضية الجزائرية تماشيا مع الإرادة الأمريكية المدعّمة لفرنسا الاستعمارية، يقول الكاتب: "إنّ أمريكا بموقفها المخزي من قضية الجزائر، لا تتنكر لتراثها وتقاليدها فحسب، بل تخسر خسارة كبرى مقابل كسب رخيص مشكوك فيه، فهي من أجل استرضاء دي غول بعد أن أغضبته في قضية القنبلة الذرية الفرنسية... تقف الآن موقفاً يكذب تكذيباً عملياً كلّ ما تردّده أبواقها على مسامع العالم من تأييد للحرية، ومناصرة للحركات الوطنية الناهضة في إفريقيا وآسيا."²

ويوضّح الكاتب الطريقة الابتزازية التي عمدت إليها أمريكا لتجبر الدول الأخرى على الوقوف في صفّ الاستعمار، خلافاً لقناعة هذه الدول ودوسا على مبادئها، يقول الكاتب: "لقد استطاعت أمريكا بإمكانياتها الهائلة أن تُقسّم أبناء الأسرة الواحدة، وأن تُجرّ بعض الدول الآسيوية والإفريقية إلى الجانب الآخر من الحاجز السميك الذي يفصل بين الاستعمار وأنصاره،

¹ - المجاهد: العدد 32- 19 نوفمبر 1958م.

² - المجاهد: العدد 57- 14 جمادى الثانية 1379هـ/10/12/1959م.

وبين القوى التحريرية الصاعدة، بل استطاعت حتى أن تجعل بعض الدول الإسلامية التي تربطها روابط روحية متينة بالجزائر مثل تركيا وإيران تقف إلى جانب الاستعمار، فتصدم قبل كل شيء عواطف الإخاء والتضامن لدى شعوبها.¹

و/ المفاوضات وإعلان الاستقلال: تابعت جريدة المجاهد كلّ الأشواط التي قطعتها المفاوضات بين وفد جبهة التحرير الوطني والمفاوضين الفرنسيين، مثلما كشفت للرأي العام الوطني والعالمي المناورات التي كان يقوم بها الاستعمار الفرنسي لإفشال المفاوضات ربحا للوقت أو رهانا على طول زمن الحرب، غير أنّ الثورة الجزائرية أثبتت للاستعمار الغاشم طول نفسها وأنها ثورة شرف وتحرّر وانعتاق.

كتبت المجاهد عدّة مقالات تحليلية تابعت بها قصّة المفاوضات بين فرنسا والجزائر منذ سنة 1956.²

وفي نفس العدد دُبجت مقالة تحت عنوان "أخيرا أذعنت فرنسا للتفاوض لكن...". تعرّض فيه صاحب المقال إلى رضوخ فرنسا لواقع الأمر والجلوس وجها لوجه مع وفد جبهة التحرير الوطني الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، بعد أن رفضت ذلك مدّة ست سنوات، يقول الكاتب: "حول مائدة مستديرة تمثل فيها كلّ التزايدات الجزائرية أو بعبارة أخرى فإنّ دي غول كان ينبغي تمثيل الحكومة الجزائرية للشعب الجزائري، بل إنّ صرّح في مناسبات عديدة أنّه لن يقبل بالتفاوض السياسي مع الحكومة الجزائرية وحدها، لأنّه لا يريد أن يعترف بتمثيلها للشعب."³

وفي مقال آخر بعنوان "المفاوضات يجب أن تنتصر على المناورات"، تعرّضت فيه المجاهد إلى المناورة الاستعمارية الدنيئة التي حاول الوفد الفرنسي لعب أوراقها من خلال اشتراطه على الوفد المفاوض الجزائري وقف إطلاق النار أو هدنة، ومن ثمّة الدخول في المفاوضات، ولم تنطل الخدعة الفرنسية على الجزائريين وصمّموا على أنّ المفاوضات تسير جنبا إلى جنب مع المعارك البطولية التي يخوضها الشعب الجزائري ضدّ الهيمنة الاستعمارية، ولن يتوقف القتال إلّا بإعلان

1 - المصدر السابق.

2 - قصة الاتصالات السرية من 1956 إلى 1960: المجاهد- العدد 92 / 11 شوال 1380هـ/ 27 مارس 1961م.

3 - المصدر نفسه.

استقلال الجزائر كاملا غير منقوص شعبا وترابا، يقول الكاتب: " ما كادت المفاوضات تبدأ في إفيان يوم 22 ماي حتى وضعت أمامها الحكومة الفرنسية بصورة فحائية- وإن لم تفاجئ الوفد الجزائري- أكبر حاجز، كان جديرا بأن يقضي على المفاوضات قبل أن تولد، وكان هذا الحاجز هو الإعلان عن الهدنة الفردية الذي أفردنا له مقالا خاصا في مكان آخر من هذا العدد. ولكن رصانة الوفد الجزائري وتمسكه بالهدوء مكن المفاوضات من أن تتجاز هذا الحاجز الخطير، وتسلك سبيلها المسطر... وكان الوفد الفرنسي يقصد من عملية إيقاف القتال المزعومة صرف المفاوضات عن هدفها الأصلي وهو الاستقلال وتقرير المصير، وإجبار الوفد الجزائري على الدخول معه في مناقشات وقف القتال، إلّا أنّ هذه المناورة التافهة انقلبت على وجه الوفد الفرنسي الذي شعر بالخجل أمام عملية لا تخلو من طابع الغدر... ومّا زاد في خيبة الوفد الفرنسي أنّ الوفد الجزائري لم يضرب الطاولة ولم يظهر غضبه، وإّما أعلن في هدوء ((أنّ المفاوضات مستمرة والقتال أيضا مستمر))".¹

وبعد سبع شداد من الكفاح المرير، والتضحيات الجسام التي قدّمها الشعب الجزائري قربانا على مذبح الحرية، أذعنت فرنسا وهي صاغرة لإرادة شعب أراد الحياة فأعلى الجبين، وأرغمت على الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه، واحترام إرادته في الحرية والاستقلال ذلك ما وقع عليه الوفدان المفاوضان الجزائري والفرنسي، وأعلن للعالم على وقف إطلاق النار والعمليات القتالية في جميع ربوع الوطن الجزائري اعتبارا من منتصف نهار 19 مارس 1962²، وقد خلّدت المقالة السياسية هذه اللحظة التاريخية الفاصلة من نضال الشعب الجزائري بإصدار عدد خاص من جريدة المجاهد لمواكبة هذا العيد الوطني لكلّ أحرار العالم وليس للشعب الجزائري وحده، فقد نشرت مقالات عدّة حول هذا الحدث الهام، ومن بين هذه المقالات مقال بعنوان " الوحدة واليقظة" تعرض فيه صاحب المقال إلى الفرحة العارمة التي اعترت الشعب الجزائري والشعوب الصديقة والشقيقة في مختلف أصقاع العالم، مثلما أشار إلى ضرورة الالتزام بقرار الحكومة الجزائرية المؤقتة القاضي بوقف جميع العمليات القتالية ضد المستعمر الفرنسي ومصالحه في الجزائر، وضرورة الوقوف عند ذكرى الشهداء الأبرار الذين

¹ - المجاهد: العدد 97- 22 ذو الحجة 1380هـ/ 05 جوان 1961م.

² - ينظر: محمد عباس: نصر بلا ثمن، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، د.ط، ص 718.

ضحوا بأرواحهم الزكية لهذه اللحظة التاريخية، والوفاء لتضحياتهم لا يكون إلّا ببناء الجزائر التي كانوا يحلمون بها، يقول الكاتب: "اليوم انتهت مرحلة قاسية من مراحل كفاحنا، واليوم يشعر الشعب الجزائري وأصدقاؤه الكثيرون في العالم بفرحة عميقة لإعلان وقف القتال الذي جاء بمثابة الضمان الراسخ لاستقلال الجزائر.

ولكن إلى جانب الشعور بالفرحة، نشعر في اللحظة نفسها بذكرى فخورة رائعة نحملها لكل إخواننا الذين استشهدوا في الكفاح، أو الذين عانوا ويلات السجون والمعتقلات.

إنّهم هم الذين شيّدوا الجزائر الحرّة الظافرة، وبتضحياتهم البطولية أرسوا قواعد لمستقبلنا لن تنزعزع، وعلينا نحن الذين بقينا بعدهم أن لا نُخلّ برسالتهم المقدسة، علينا نحن أن نحقق في الواقع تلك الجزائر التي حلموا بها، وضحوا في سبيلها وهيئوا طريقها..... إنّ كلّ جزائري وكلّ جزائرية يعتبر نفسه ابتداءً من اليوم مؤتمناً بصفة شخصية، ومسؤولاً على وقف القتال.¹ وتوقّفت المجاهد مطوّلاً عند الاحتفالات العارمة التي عمّت ربوع الوطن، بانتصار ثورة

الشرفاء.. ثورة الشعب الجزائري ضدّ الهيمنة الاستعماريّة، مثلما أشادت بالوعي النضالي للشعب الجزائري من خلال امتثاله لقرار وقف إطلاق النار، يقول الكاتب في مقال بعنوان "الشعب الجزائري يفاجئ العالم بمظهر جديد من نظامه الواعي": "...وقد توالى المظاهرات على هذا المنوال طوال الأيام التالية، فكانت الجماهير تخرج في آلاف عديدة أو في عشرات الآلاف المترابطة في المدن الكبرى مثل قسنطينة وسطيف وبجاية وبسكرة ومستغانم وسيدي بلعباس، وهي تحمل الأعلام الوطنية، وتنشد الأناشيد الوطنية مصحوبة بزغاريد النساء، وبالتهافتات العالية المدويّة بحياة جبهة التحرير وجيش التحرير، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. واتصفت دائماً بالتنظيم والامتثال، فلم تتسبّب في أية حوادث من جانبها، وكانت الآلاف والمئات تخرج من المدن الصغيرة والقرى والمداشر مُعبّرة عن فرحتها بالنصر، والتفافها حول الثورة، وإيمانها بالمستقبل ومُظهرة للعالم أجمع ما يتصف به شعبنا من وعي ثوري ناضج، ونظام محكم متين."²

¹ - المجاهد: عدد خاص - 117 - 14 شوال 1381هـ / 20 مارس 1962م.

² - المجاهد: العدد 118 - 27 شوال 1381هـ / 02 أبريل 1962م.

الفصل

الثالث

الفصل الثالث : المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث : على الصعيد الخارجي

أ/ المغرب العربي

1/المغرب الأقصى

02- ليبيا

03-القضية التونسية

ب/ المشرق العربي

01/فلسطين

02/مصر

03/السودان

02 /العالم الإسلامي

أ/ الخلافة الإسلامية

ب/ باكستان

ج/ اندونيسيا

03/العالم

أ/ المغرب العربي:

المغرب الأقصى:

لقد واكبت المقالة السياسيّة الجزائريّة ثورة الرّيف¹ المغربي، بقيادة المجاهد الأبيّ عبد الكريم الخطابي، ولأنّ الشعب الجزائري كان يعقد آمالا على نجاح هذه الثورة لتكون له مددا في ثورته ضدّ على المستعمر الفرنسي الغاشم، إذ كان يرى في نجاح هذه الثورة مُقدّمة لاندلاع ثورته التي تُخلّصه من براثن الاستعمار الوحشي، ولأنّ الجزائريين يتقاسمون مع المغرب تجربة الظلم والجبروت والاستعلاء الاستعماري، فهم أقرب من غيرهم في فهم الذهنيّة الفرنسيّة الاستعماريّة. لذلك لم يتلکؤوا لحظة واحدة في مؤازرتهم للثورة المغربيّة، وقد انعكس هذا من خلال سلسلة المقالات التي كُتبت حول ثورة الرّيف وتتبع أحداثها بشغف واهتمام كبيرين. فجريدة المنتقد وفي عددها الأوّل تخصص مقالا طويلا بعنوان " الحرب الرّيفيّة" تحدّث فيه صاحب المقال بالشرح والتّعليل عن الأسباب الظاهرة والخفيّة بين أبناء الرّيف المغربي وجيش الاحتلال الفرنسي، يقول الكاتب: " شاءت الأقدار أن يبرز العدد الأوّل من جريدة ((المنتقد)) ونار الحرب تشتعل لظاها، ويستطير شررها، وتشغل أنباؤها أسلاك البرق وأكياس البريد، وتعلو صفحات الجرائد والمجلات بالشرق والغرب."²

بعد هذه المقدمة التي يغلب عليها الطابع الأدبي التراثي، ينتقل الكاتب إلى عرض أسباب هذه الحرب، وموقف المجتمع الدولي منها فيقول: " أسبابها: سبب هذه الحرب في ظاهرها نزاع على الحدود، فالأمير ابن عبد الكريم، يرى أنّ فرنسا قد احتلت شمال وادي ورغة وهو خارج عن منطقتها، ويرى ذلك الاحتلال مُضراً به سياسيا واقتصاديا، وترى فرنسا أنّه داخل في منطقتها، وأنّها إذا لم تحتله تخشى من هجوم الأمير الرّيفي على منطقة احتلالها، واحتلاله مدينة

¹ - ثورة الرّيف المغربي بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي، قاد هذه الثورة ضد كل من فرنسا وإسبانيا. يُنظر: محمد

الأمين محمد، محمد على الرحمان: المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ط، د.ت، ص

261/260/259/258.

² - المنتقد: السنة الأولى - العدد 01 - مصدر سابق.

فاس ومبايعته سلطانا على المغرب بتمامه. فأصبح احتلال وادي ورغة كاحتلال الرين¹ هذا لخشية الهجوم الألماني وذلك لخشية الهجوم الرّيفي.... وقد وقفت انكلترا وإيطاليا في الظاهر موقف الحائد المتفرّج، منتظرة منتهى العراك، غير أنّ المطلّع على السياسة الدولية والتنافس الاستعماري لا يشكّ أنّ هاتين الدولتين لا تسمحان لفرنسا أن تزداد شيئا تقوى به في شمال إفريقيا والبحر المتوسط، وأمّا إسبانيا فإنّها لما تيقّنت أنّ فرنسا لا تطمع في الرّيف الذي هو موضوع معاهدة دولية في منطقة نفوذ إسبانيا رضيت بالتعاون مع فرنسا لقهر الرّيف، فهي تحاول أن تنال بالتعاون ما عجزت عنه وحدها.²

إنّ القارئ لهذا المقال يكشف درجة الوعي السياسي للكاتب، الخبير بقواعد اللعبة السياسية الدولية، وما يدور فيها من تحالفات ظرفية تُملئها المصلحة المشتركة، واقتسام مناطق النفوذ في المستعمرات بين الدول الاستعمارية الكبرى.

ثمّ يجتم الكاتب مقاله بالإفصاح عن رأيه في هذه الثورة، ولعلّ القارئ يلاحظ النبوة الحذرة التي فيها شيء من المهادنة- في غير استسلام- للاستعمار الفرنسي، ولعلّ هذه خاصية وسمت مقالات جريدة المنتقد لا سيّما في أعدادها الأولى. يقول الكاتب ناصحا للاستعمار الفرنسي بضرورة التفاوض مع محمد بن عبد الكريم الخطابي: "ورأينا اليوم أنّ فرنسا تواجه أزمة مالية شديدة، وفي حاجة إلى اليد العاملة من أبناءها، بل إلى القوة العسكرية لإرهاب عدوها القوي الحقيقي الألماني، ففي خيرها ((وخيرنا مرتبط بخيرها)) أن تنتهي هذه الحرب بصلح عادل شريف، وتتساهل في مفاوضة الأمير ابن عبد الكريم الذي تعتبره زعيما ثائرا، وهو في الحقيقة صاحب الحقّ الشرعي في أرض الرّيف."³

وفي موضع آخر يكتب عبد الحميد بن باديس مقالا تحت عنوان "هل تخشى عاقبة الصلح أم تحمد؟"، عالج الكاتب تردّد فرنسا في الرضوخ لعبد الكريم الخطابي، والجلوس معه على طاولة المفاوضات خوفا منها أن تنتشر الثورة في عموم شمال إفريقيا، وحتى لا تظهر بثوب

¹ - منطقة حدودية بين ألمانيا وفرنسا، شهدت بسببه الدولتين صراعا مريرا، يعدّ من أهم أسباب اندلاع الحرب العالمية الأولى. ينظر: نيل.م. هايمان: الحرب العالمية الأولى، ترجمة حسن عويضة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط. 01، 1433هـ/ 2012 م، ص 17.

² - المنتقد: العدد 01، مصدر سابق.

³ - المصدر نفسه.

الدولة المنهزمة الكسيرة، يقول بن باديس: " كثير من يودّ تعجيل الصلح في حرب الرّيف ورئيس الوزراء نفسه صرّح مرارا برغبته في ذلك، وقد قدّمت فعلا شروط الصلح المتفق عليها بين فرنسا وإسبانيا للأمير ابن عبد الكريم، وهي منافية تماما لما صرّح به مرارا بلزومه من استقلال الرّيف التّام، والمُطلعون على مجاري الأمور لا يشكّون في رفضه لهذه الشروط واستمراره على القتال بشدّة."¹

ويطمئن بن باديس فرنسا ويهدئ من روعها، بعدما حامت شكوكها حول إمكانية قيام ثورة في الشمال الإفريقي، وينفي الكاتب هذه الشكوك ويضرب لها مثلا عن التضحية التي قدّمها الجزائريون والمغاربة والتونسيون، في الحرب العالمية الأولى كدليل على حسن النية، وربّما لجأ بن باديس لهذه الحيلة السياسية حتى يرفع الحصار على عبد الكريم الخطابي، ويُعجل الفرنسيون بالتفاوض معه ليخرج من هاته الحرب وهو في موضع قوّة، يستردّ أنفاسه من خلال المفاوضات على الأقل، إن لم يسترد كلّ حقوق سكان الرّيف الأباة. يقول بن باديس: " إن أهالي شمال إفريقيا الذين لم يكف في حسن الظنّ بهم محاربتهم لأبناء دينهم وجنسهم، وما قدّموه من النفوس والأموال في الحرب الكبرى وهذه الحرب نفسها ومنهم أكثر جنودها، ليست لهم فكرة ثورية رغم حرص المتحرّصين² المغرضين، ولو كانت لهم فكرة ثورية لظهرت أيام أطلقت قنابل قوبل وبروزلو على شاطئي سكيكدة وعنّابة، ولو كانت فكرة ثورية لبادر بها المراكشيون وهم أقرب من غيرهم إلى الرّيف... وبعد هذا البيان يحقّ لنا أن نقول الصلح خير مخشي العاقبة على وجه كان، بل محمود العاقبة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا لفرنسا دولة السلام."³

وقد حاول الاستعمار الفرنسي قطع الوشائج التي تربط الجزائر بمحيطها المغاربي والعربي بل وحتى الإنساني، ومن بين الأحداث التي تُبين سعي المستعمر الحثيث لعزل الجزائر وشعبها عن كل ما يربطها به من دين أو لغة أو محيط جغرافي، رفضه منح الترخيص للشيخ عبد الحميد بن باديس للسفر إلى المغرب تلبية لدعوة كان تلقاها لحضور تأيينية العالم المصلح

¹ - المنتقد: السنة الأولى - العدد 07 - 23 محرّم 1344هـ / 13 أوت 1925م.

² - هكذا هي في النسخة الأصلية، ولعلّها " المتحرّصين " وفقا لسياق المقال.

³ - المنتقد: العدد 07 - مصدر سابق.

أبي شعيب الدكالي، عن هذه الحادثة يقول بن باديس: "لما مات الإمام المصلح، العلامة الحافظ، الوزير الكبير، مولانا أبو شعيب الدكالي، فخر الأفرقة والمغرب الأقصى، كان من أقلّ حقوقه علينا أن قامت جماعة من إخواننا المغاربة بإقامة حفل تأبين في أربعين وفاته، ودعت صاحب هذه المجلة لحضور هذه الحفلة باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فلبى الدعوة، ووجه للحكومة طلب رخصة السفر، فسُكت عنه مدّة، مع قرب أجل الحفلة، فجدد الطلب ثانية، فجاءه الجواب بالمنع البات، لأنّ حكومة المغرب لا تأذن في دخوله للمملكة المغربية!".¹

فالشيخ يعي تماما هذه اللعبة القذرة التي يُجيدها الاستعمار في كلّ من الجزائر والمغرب، سعيا منه لتفرقة الشيعين الشقيقين، وللحيلولة بين التقاء زعماء الفكر والإصلاح في القطرين الشقيقين، وخوفا من اجتماع الكلمة واتحاد الصفّ وسداد الرأي القاضي باجتثاث الاستعمار من جذوره، ويعلّق بن باديس على هذا المنع المححف الصادر من دولة تدّعي أنّها لقّنت الدنيا معاني حقوق الإنسان السامية، ولسنا ندري هل سقط من شرعة حقوقها حرية تنقل الأفراد حيث يشاؤون؟!، يعتذر بن باديس عن تلبية دعوة أشقائه مُجبرا فيقول: "ازاء هذا، ما وسعنا إلّا التخلف والاعتذار لإخواننا المغاربة، ثمّ الاحتجاج على هذه الحكومة الاستعمارية التي تحاول بمثل هذا العمل أن تقطع الصلّة بين الذين ساقتهم الأقدار إلى يدها وهي - في الحقيقة - ما تزيده بهذا إلّا ارتباطا وشدّة.

ليت شعري ماذا تخشى الحكومات الاستعمارية من أمثالنا؟ أتخشى أن نقول؟ إنّ أعمالها المشاهدة المتكرّرة أغنت - والله - عن كلّ قول، حتى لم تدع لقائل ما يقول!".²

ولعلّ الحدث البارز الذي تناولته المقالة السياسية بصورة كبيرة، وبانفعال شديد، هي حادثة نفي الملك محمد الخامس، فقد استشاط الشعب الجزائري غضبا وحنقا على الاستعمار الفرنسي الغاصب، الذي سوّلت له نفسه الخيثة بنفي ملك توجّه شعبه على عرش الوطن عن رضى وولاء، ووفاء لتقليد مُتوارث في نظام الحكم بالمغرب الشقيق، والظاهر أنّ حبّ الشعب المغربي

¹ - الاستعمار يحاول قطع الصلّة بين الإخوان: الشهاب - ج07-مج13 - رجب 1356هـ/سبتمبر 1937م - ص

341.

² - المصدر نفسه.

لملكه وولائه له لم يُرض المستعمر الفرنسي، الذي يبحث دائما عن عملاء يستعبدون شعوبهم، ويحرصون مصالح أسيادهم.

ومن بين أشدّ المقالات حماسا، وأصدقها تعبيراً، حول موضوع نفي الملك محمد الخامس مقالة " أرحام تتعاطف " للشيخ البشير الإبراهيمي، يقول الكاتب: "...وحلّت المحنة بالمغرب الأقصى، وجاءت فرنسا بالخاطئة، فأهانت ملكاً، وهدّدت عرشاً، وأذلت شعباً، وروّعت سرباً، وانتهكت حرّماً، واعتقلت أحراراً، وكبتت أصواتاً، وحطّت أعلّياء من مراتبهم، ونصبت أدنياء في غير مناصبهم، واستعانت على العقلاء بالسفهاء، وسلّطت الأخ على أخيه، والرّعية الآمنة على ملكها الأمين، وأشعلت النار بنا، لتُطفئها بنا.. فلا يكون ضرامها في الإشعال والإطفاء إلّا أجسامنا ودمائنا...وجنت- بذلك كله- ثمار ما زرعت من تفريق، ورأينا-رؤية العين- ما كتنا نحذره على المسلمين، ونحذّر منه المسلمين.. رأينا المثال المحسّم من انتصار الاستعمار بالمسلم على أخيه المسلم، وترويع المسلم بأخيه المسلم."¹

يلبس الإبراهيمي حلّة المحلّل النابه - وهو كذلك- فيكشف دسائس الاستعمار ومكائده الرّامية إلى ضرب المسلمين بعضهم ببعض، على الرّغم من أنّ الدين واحد، والوطن واحد، والعدوّ واحد، فإنّ غلب فريق على فريق، فالخاسر هو الإسلام، والمنتصر هو الاستعمار والشيطان. والإبراهيمي بذلك يومئُ إلى بعض العملاء المغاربة الذين اتخذهم الاستعمار سخرياً، ومطيّة ذلولا ليستعبد شعبهم ويستعبد ملكهم. ويبلغ الحنق من الإبراهيمي مبلغه، فيغرق مقاله في سيل من الاستفهامات التي تدلّ على الاستغراب والاستنكار من حالة الخزي والعار التي انحدر فيها المسلمون، فأضحوا ظهيرا ونصيرا للمستعمر على أبناء جلدتهم ومثّلتهم: " من كان يظنّ أو يتوقّع أن يجلب الاستعمار على عرش من عروش الإسلام العريقة، لا بخيله ورجله، بل بخيل المسلمين الذين رفعوا دعائمه ورجلهم؟

من كان يظنّ أو يتوقّع أنّ الاستعمار يبلغ منّا هذا المبلغ، فيدوسنا بأرجلنا، ويُريق دماءنا بأيدينا، وينتصر علينا بنا، ويصير من بعضنا لبعضنا (بعباع²) تخويف، ووحوش إرهاب، ويبلغ

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة-العدد 148- جمادى الثانية 1370هـ/26 مارس 1951م.

² - كلمة عاميّة تعني الوحش القاسي المفترس و تُستعمل عادة لتخويف الصغار ليخلدوا إلى التّوم، أمّا الاستعمار فوظّفها لتخدير الكبار ليُشقّ صفّ الأمة ويفرّق كلمتها.

في ترويضنا إلى حدّ نصبح أذلةً عليه، أعزّة على قادتنا ورجالنا؟ من كان يظنّ لا ذلك ولا ويتوقّعه، فهذا هو ذا مُحقّق غير مظنون، وواقع ير مُتوقّع، ولئن وقع مُتفرّقا في غير المغرب، فقد وقع كلّهُ مُجمعا في المغرب.¹

ويُشير الإبراهيمي إلى نقطة هامة بخصوص هذه القضية، وهي أنّ نفي الملك محمد الخامس كان نعمةً على الشمال الإفريقي والعالمين العربي والإسلامي، إذ توحّدت الصفوف، ودبّت الحياة في المشاعر العربية التي كادت تموت، وأيقنت الدوّل الخاضعة للسيطرة الاستعماريّة الفرنسية أنّها أمام وحشٍ قذر لا يتوانى في فعل أي شيء في سبيل الحفاظ على مُستعمراته ومصالحه الجشعة، يقول الكاتب: " فلم نَرَّ محنة من المحن الت جرّها الاستعمار على الإسلام وعلى الشرق، كانت أجمع للقلوب، وأدعى للتناصر، من هذه المحنة، فقد كانت عاملا إلهيا فتح العيون العمي، والآذان الصم، والقلوب العُلف، وأيقظ الشواعر التائمة، ونبه القوى الخاملة، فتعاطفت الأرحام المتقاطعة، وتعارفت الأرواح المتناكرة، فكانت تلك الموجة الجارفة من السخط والغضب والامتعاض، ظهرت في صحف الشرق، ثمّ سرّت إلى حكوماته وهيئاته، ثمّ انتقلت عدواها إلى الشعوب، فكوّنت إجماعا رهيباً على انتصار المشرق للمغرب، لم يسبق له مثيل، وكانت غضبة إسلاميّة ارتاع لها الاستعمار، وقدّر عواقبها، فلاذ بالحيلة والكيد والتهديد على عادته، وواها لها غضبة لو اعترتنا مرّة أو مرتين قبل اليوم، لما عاش الاستعمار بيننا إلى اليوم!".²

وكعادة الاستعمار فإنّه يوجسُ خيفةً من هذا التعاطف بين المسلمين فيما بينهم، لا سيّما إذا كان من بلدين يثنان تحت وطأة سيطرته، ويزداد الأمر سوءاً وتعقيداً إذا كان هذا التعاطف نابعا من الشعب الجزائري، فهو يعلم علم اليقين أنّ نار الثورة تسري في وجدان الجزائري، وستنفجر في وجهه متى تمّيات لها الظروف وذاك ما يخشاه المستعمر الفرنسي، يردّ الإبراهيمي على تكشير الاستعمار الفرنسي وتبرّمه من تعاطف الجزائريين مع أشقائهم المغاربة بمناسبة نفي ملكهم، يقول الإبراهيمي في أسلوب جميل، وفكر متّقد: " أينقُم منّا الاستعمار أن نتناصر

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 148. مصدر سابق.

² - المصدر نفسه.

بالكلام، وهو سلاح المغلوب، وتعاون بالأقلام وهي بقية المتاع المسلوب، وتتعاطف منّا الأرحام، وذلك أيسر مطلوب، إن صحّ منّا ذلك فلا رضي ولا حظي، ولا زال غضبان حردا. إنّنا لا نلومه، إلّا إذا لُمنا السباع الضارية على الافتراس، وإنّما نلوم أنفسنا أن لا نكون شوّكاً في لهواته، ونغصّاً في شهواته، وسواداً في لونه، وضياعاً في صونه، وخذلانا في عونه، ولو كنّا ذلك لأنصفناه وانتصفنا لأنفسنا منه...¹

02- ليبيا:

شغلت ثورة ليبيا بزعامة شيخ المجاهدين البطل الشهيد عمر المختار² بالجزائريين وتفكيرهم، وأبدوا تضامنهم الكبير مع أشقائهم الليبيين، فجمعوا لهم التبرّعات وهم أحوج منهم إليها، وناصروهم بالدعاء، وضربوا الكفّ بالكفّ حسرةً على قلة الحيلة، وقصر اليد، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألّا يجدوا ما يُنفقون في سبيل ثورة المجد والشرف التي يقودها شيخ زاهد اسمه عمر المختار، قاد الثورة في سنّ الخمسين لمدة عشرين سنة، واستشهد في سنّ الثالثة والسبعين، لم تخّر له إرادة، ولم يُخامرهُ وهن، ولم يتسلّل إلى نفسه المؤمنة الموقنة بوعد ربّها خور أو يأس، هذا هو عمر المختار، أسد الصحراء، الذي أهب نبأ استشهادهِ نفوس الجزائريين بعدما كان قد ألهمها ببطولاته وانتصاراته الباهرة، وها هو ذا قائد نهضة الجزائر ومفكرها، يُخلّد ذكره بمقال يُناسب الذكرى والمذكور، الشيخ "عمر المختار"، الذي كتب عنه تحت عنوان: "سيد الشهداء ورأس الأبرار" ما يلي: «: رحمه الله رحمة واسعة، وحشره مع النّبیین والصّديقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا، اغتالت يد الطّغيان الاستعماري، بطلا من خيرة أبطال العرب ورأسا من أعظم رؤوسهم، ومجاهدا كان يقف في طليعة مجاهديهم، وصنديدا غالبته الأيام فغلبها، وصارعتة الحوادث فصارعها، وحاربتة دولة من أكبر دول الأرض بجنودها ودباباتها وطياراتها، فثبت أمامها ثبات الرّاسيات، متذرّعا بالإيمان متحصّنا بقوة العزيمة مُعتدّاً بالله، ولطالما انتصر وظفر، ولطالما انكسر وانحدر، فما زاده النّصر إلّا عزيمة وما زاده الاندحارُ إلّا ثباتا، واعتكف على قتال المعتدين الظّالمين وحوش الاستعمار الإيطالي،

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 148 - مصدر سابق.

² - بطل من أبطال ليبيا وقائد ثورتها.

فكان في حريمهم شريفا مسلما، مستميت¹ ساعة الملحمة، رؤوف² حليم³ ساعة وضع الحرب لأوزارها.. ذلك هو سيدي "عمر المختار" زعيم السنوسيين بركة، الذي جاهد عشرين عاما دفاعا عن بيضة الإسلام وكرامة الوطن ضد الطغاة المستعبدين، ولم تترك السلطة الإيطالية من وسيلة سافلة وحشيّة إلا ارتكبتها لإخماد مقاومته، فأغلقت سائر زوايا السنوسية في البلاد، وصادرت أملاكها ثم حصرت ثمانين ألفا من بقايا السكان الذين نجوا من المذابح وفظائع القتال الإيطالي، ضمن منطقة محاطة بالأسلاك الشائكة كي لا يلتحقوا "بعمر المختار"، وأقامت على التخوم المصرية حراسة شديدة جدا، كل ذلك وصنديد بركة رابض لا يأخذه في سبيل الله ضعف ولا وهن وكان يجول في ميادين القتال ممتطيا صهوة جواده الأدهم، وقد وهن عظمه ولم يتدارك الوهن قلبه، واشتعل رأسه شيئا واكتست لحيته لون القمر، وما استطاعت الثمانون عاما التي قضاها في طاعة الله وجهاد في سبيله أن تقوِّس له ظهرا أو تضع له هامة.. إلى أن أقام له الإيطاليون كميناً، فأسروه إثر قتال عنيف، وأبت الوحشية الإيطالية إلا أن تقيم برهانا جديدا على فقدها كل شرف، وتجردّها عن كل عاطفة نبيلة، فحكمت عليه حالا بالإعدام، ونفذت ذلك الحكم رميا بالرصاص.

ألا في سبيل تلك الروح الطاهرة النقية التي رجعت إلى ربّها راضية مرضية، تستترل نعمته وسوط عذابه على أدناس الاستعمار الإيطالي المتكالبين، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.⁴

إنّ روح عبد الحميد بن باديس الحزينة المتأثرة بفقد بطل من أبطال الإسلام، وصنديد من صناديد العروبة، تكاد تُطالعنا من بين سطور هذا المقال الكئيب، وحقيقاً بكلّ مسلم عربي بل بكلّ أبيّ أن يأسى لرجل كعمر مختار، النموذج الفريد للمسلم المتصوّف الذي عرف حقيقة نفسه فعرف الله، ومن ثمّ تجلّى نور العرفان على روحه الطاهرة، ففهم أنّ التصوّف ليس تواكلا وركونا للمستعمر، وتسيبها بحمده، وتقديسا له، بل التصوف الحقيقي جهاد ورباط، جهاد النفس وجهاد المستعمر الغاصب، ولو أنس الإيطاليون من الشهيد عمر المختار طمعا في متاع

¹ - هكذا وردت في النسخة الأصلية للجريدة ولعلّه خطأ في الطباعة والصواب "مستميتا".

² - رؤوف : هكذا وردت في متن الجريدة والصواب "رؤوفا".

³ - حليم : هكذا وردت في متن الجريدة والصواب "حليما".

⁴ - الشهاب: ج:10، مج:07- غرة جمادى الثانية 1350 هـ/أكتوبر 1931م- ص648.

الدنيا، أو رغبة في منصب، استجداءً لمتزلة بين قومه لتوجوه ملكا على ليبيا بأسرها، مقابل أن يتخلى عن مُقاومتهم، لكنهم أيقنوا أنهم أمام رجل من طينة الأمير عبد القادر الجزائري لا تُعْرِه الأموال ولا النياشين والألقاب، رجل يصدق فيه قول الشاعر:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله
إنّ الزمان بمثله لبخيل.¹

مثما اهتمّ بن باديس لأمر ليبيا لم يُغفل بدوره رفيق دربه وكفاحه البشير الإبراهيمي مسألة ليبيا وحقيقة استقلالها، بعد حزمة وعود أطلقها الحلفاء غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية، وكان مضمون هذه الوعود ينحصر في ضرورة اشتراك الليبيين إلى جانب الحلفاء في القتال ضدّ كل من ألمانيا وإيطاليا، مقابل وعد بتقرير الشعب الليبي مصيره بكلّ حرية واستقلال، لكن ما إن وضعت الحرب أوزارها وانكشفت معالم الخريطة الدولية الجديدة حتّى تراجع الحلفاء عن وعودهم، والأشنع من كلّ ذلك أنهم راحوا يعقدون الاتفاقيات حول تقسيم مناطق النفوذ داخل ليبيا بين كل من فرنسا وانكلترا، لأجل هذا كتب الإبراهيمي مقالا بعنوان " ليبيا موقعها متنا"، يحذّر فيه الكاتب من مخططات الاستعمار الهادفة لتفتيت وحدتهم الترابية، ويدعوهم إلى أن يكونوا صفاً وصوتا واحداً، ومما جاء في هذا المقال: " وإخواننا الليبيين - أو الطرابلسيين كما نسميهم - علينا حقّ الدين، وحقّ اللغة، وحقّ الجوار، وحقّ الاشتراك في الآلام والمحن، وفي الآمال المقترحة على الزمن، وهذه كلّها أرحام، يجب أن تُبلّ ببلالها، وحقوق في ذمّة المروءة والوفاء يجب أن تُؤدّى، وإنّ من حسن القضاء عند الكرام الأوفياء أن يكون في وقت الحاجة إليه، وإنّ هؤلاء الإخوان اليوم، في طور امتحان عسير معقد، تتخلله الأهواء والمطامع، ويحيط به الكيد والتعنيت من كلّ جانب، وإنّ نجاحهم فيه يتوقّف على جمع الكلمة، وتسوية الصّف، وتوحيد الرّأي، ومتانة الإيمان بالحقّ، والحذر الشّديد من الأشرار المنصوبة، والعُصب الدّخيلة."²

ويستدعي الكاتب ملاحم الشعب الليبي الشقيق، وبطولاته المشرّفة، واستبساله في الذود عن أرضه وعرضه، لاسيّما تلك الصفحات المُشرقة التي خطّ سطورها الشهيد البطل عمر المختار، يقول الإبراهيمي مُذكّراً الشعب الليبي بتضحّياته، ومندّدا بتماطل هيئة الأمم بإعلان

¹ - أبو تمام: الديوان، تقديم وشرح محي الدين صبحي، ج.02، ط.01، دار الأبحاث، 2009م، ص 314.

² - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثالثة - العدد 112-01 جمادى 1369هـ / 03/20/1950م.

استقلال ليبيا: "قاوم هؤلاء الإخوان الكرام، الاستعمار الإيطالي، ووقفوا في وجهه وقفة المُستميت، لم يُنْهَمِ التَّقْتِيلُ والتَّشْرِيدُ، حتَّى إذا استيأسوا، وظنّوا أنّ هذا الجَبَّارَ العنيدَ ختم عليهم بالعبوديّة المؤبّدة، جاءت الحرب الأخيرة، وعاد الرّجاء، ونبض عرق البطولة، وهبّ المغاوير من سلاّتل العرب، يثارون لعمر المختار، والشهداء الأبرار، حتّى إذا اشتفوا، وأوبقت إيطاليا جرائرها، فأبادهها الله، وما كان إخواننا يدرون أنّهم يُعينون استعماراً على استعمار، وأنّهم سينتقلون من شذق الأفعى إلى ناب الأفعوان، ولكنّهم لم يهنوا ولم يفسلوا في طلب استقلالهم، فصمّت الآذان عن سماع صوتهم حيناً، ثمّ تصادمت المطامع، فكان لأصوات الدول الضعيفة في مجلس الأمم مجالٌ في الآذان الصمّاء، ومنفذ إلى القلوب العُلف، ففضى ذلك المجلس باستقلال ليبيا طائعا كمُكره، ولكنّه أرجأ الانجاز إلى أول سنة 1952".¹

ويختتم الإبراهيمي مقاله، بالإشارة إلى أنّ الشعب الجزائري لو كان في مقدوره أن يُقدّم ما هو أكبر من النصيحة لأشقائه الليبيين لما تخلّف عن ذلك لحظة واحدة، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة على حدّ تعبير المثل، فهنا يُصبحُ فرضُ تقديمِ النصيحة من أوجب الواجبات، يقول الإبراهيمي: "من بعض حقّكم علينا- أيّها الإخوان- أن تُسعدكم، ولو بقول معروف، من نصيحة خالصة، ودعاية نافعة، وتذكير منبّه، وليسعد النطقُ أن لم يسعد الحال".²

ويعود الإبراهيمي للقضيّة الليبية المعروضة على هيئة الأمم المتّحدة، التي تماطلت في إصدار قرار حاسم يُعجّل باستقلال كامل ليبيا، وسيادتها المطلقة على كامل أراضيها ووحدة تُرابها، كتب الإبراهيمي عنها تحت عنوان "ليبيا ماذا يُرادُ بها؟"، من بين ما جاء في هذا المقال، ذلك الوصف الدقيق الذي وصف به الإبراهيمي مجلس الأمن الذي تباعُ فيه الضمائر وتُشترى، فتستأسدُ الدّول القويّة على الدّول الضعيفة، وتتخذ من هذه الهيئة ذريعة لاستعمار بلدان تحت غطاءٍ أمميّ، يقول الكاتب: "هذا الشيء الذي يُسمّونه (مجلس الأمم المتّحدة) لم يبلغ من العدل والرّحمة أن يُقسّم الحقوق بالسّوية، وأن يقتصّر للجّماء من القرناء، بل دينه وديده أنه يركّب للقرناء قرونا أخرى تنطحُ بها المستضعفين، وتذود بهم عن مراتع الحياة ومواردها".³

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 113- 08 جمادى 1369هـ/ 28/03/1950م.

هذا التحليل العميق، والوصف الصادق للأمم المتحدة ومجلس أمنها، بقدر ما يُنبئ عن التفاق الدولي الذي كانت تمارسه الدول الكبيرة، والتي صيّرت هذه الهيئة مطية لاحتلال شعوب ضعيفة واستعمار أراضيها، يُنبئ كذلك عن مستوى التفكير السياسي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ليس فقط لسياسة الاستعمار الفرنسي في وطنه الجزائر بل السياسة الدوليّة وما يصطرع فيها من صفقات سياسية استعماريّة، ولعلّ هذه الحقيقة التي لم تكن بادية للعيان كثيرا قد صدّقت بعد سبع سنوات من كتابة الإبراهيمي لمقاله هذا، وذاك بمناسبة رفض هيئة الأمم المتّحدة جدولة القضية الجزائرية ضمن جدول أعمالها لسنة 1957، الأمر الذي جعل شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء الذي كان ينشر قصائده بجريدة المجاهد تحت اسم مستعار وهو " ابن تومرت" يردّ بقصيدة ثوريّة حارّة، يكشف فيها تواطؤ هذه الهيئة على الدول المُستعمرة، فيقول:

أكذوبة العصر أم سخرية القدر *** هذي التي أسست في صالح البشر
 ما للدعابات لا تنفك صاحبة *** في الأرض تغمرها بالأفك والخور
 ما للمطامع لا تنفك لابسة *** ثوب الرياء على جثمانها القدر
 وما لهم نسبوا للعدل مجتمعا *** أمر الضعاف به في كف مقتدر
 سوق يباع ويشرى في معابرها *** حق الشعوب لنصاب ومحتكر
 كم خان فيها قضايا العدل ناصعة *** قوم يسوقهم الدولار كالبقر
 هذا يناصر داعي الزور مجتهدا *** وذاك يمسك في خوف وفي حذر
 هم يؤمنون بأجزاء مفصلة *** ويكفرون بها كلا على أثر
 معسكر الحق إن الحق منتصر *** رغم الطغاة ورغم العابث الأشر
 إفريقيا اليوم للتحرير زاحفة *** كالسيل تعصف بالطغيان و البطر
 و في الجزائر شعب ثار مندفعاً *** للمجد يسخر بالأحداث و العبر
 لا نرتجي العدل من قوم سماسرة *** خير البرية منهم غير منتظر
 مصيرنا بالدم الغالي نقرره *** في محفل الموت لا في عقد مؤتمر¹

¹ - المجاهد: العدد 58 - 27 جمادى الثانية / 1959/12/28م.

ويدعو الإبراهيمي الليبيين إلى الإتحاد، ونبذ الفرقة والتشتت، وأن لا ينحرفوا وراء الألقاب الزائفة التي يُفرِّقها عليهم الاستعمار، والتي تجعل من كل واحد منهم حاكماً على قرية من قرى ليبيا، وبذلك تضيع وحدة ليبيا ويستفرد الاستعمار بكل واحد على حدة، يقول الإبراهيمي: "ثم لقيناه بعد ذلك بصف واحد، وإرادة واحدة، ولسان واحد، ورأي جميع، وعزيمة ترتد عنها المحاولات حسرى، وكلمة واحدة لا يقبل معناها التأويل، وهي أن هذا الوطن واحد لا يقبل التقسيم، وأن أبناءه وحدة لا تقبل التجزئة، وأنهم يريدون حياة حرة وكريمة، ولو فعلنا ذلك لجاء الاستقلال عفواً بال طلب، صفواً بلا كدر، بمعناه في لغتنا لا في لغة قياصرة مجلس الأمن."¹

ويبين الإبراهيمي المداخل التي يلجُ بها الاستعمار إلى النفوس العربية حُكماً ومحكومين، هذه السياسة المبنية على الاغراءات المادية، والزجّ بالزعماء والرموز السياسية في وحل الشهوات والمُغريات، فيتحوّلون من حصون منيعة في وجه الاستعمار إلى جدران هاوية منهارة، يقول الكاتب: "إن هؤلاء الأقوياء قد راضونا على الشهوات الحسية، حتى عرفوا مواقعها ومدخلها إلى نفوسنا، فأصبحوا يقوّدوننا بزمامها، ويبتزّون ضمائرنا بالشهوات النفسية، كالرتب والألقاب، وأموالنا بالشهوات الحسية، كفضول اللباس والطعام والشراب، وإن أوقى الجن منها، الزهد فيها، والتّعفف عنها، ولو أن أهل فزان - مثلاً - استنارت بصائرهم، ونالت منهم الموعظة بغيرهم، فرفضوا لقب ((الباي)) وهجروا شرب ((التاي)) لسعت إليهم الحرية حبوا."²

ويختتم الإبراهيمي مقاله بنداء إلى الشعب الليبي الشقيق، بضرورة توحيد الصفوف، وجمع الكلمة، واجتنب الفرقة، وأن الشعب الجزائري يعقد آمالاً طويلة على استقلال ليبيا وحرّيتها، فلا تقتلوا هذه الآمال والأحلام، يقول الكاتب: "أيها الإخوان الليبيون: إن لكم إخوانا يصل بينكم وبينهم الماء والصحراء، ويُشرفون عليكم من مخارم هذه السلاسل الشائخة من الأطلس الكبير، وإتّهم يشاركونكم في الشدائد والمحن، كما شاركوكم في الألسنة والسحن، وإتّهم يقاسمونكم مرارة الامتحان الذي أنتم فيه، فانظروا في أيّ موضع وضعتكم الأقدار؟ إنكم في موضع قدوة لشعوب ترجو ما ترجون، وتعمل ما تعملون، فاحذروا أن تكونوا قدوةً في الهزيمة،

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 113 - مصدر سابق.

² - المصدر نفسه.

ومثالا لحيية الأمل، واقتلوا الألقاب تُحيوا الحقائق، إننا نُعيدكم بشرف الرجولة أن تكون فيكم سيوف اليمن، وجزرالات تونس، فتلك لا تصلح للضرب، وهذه لا تُعني في الحرب.¹

وبدورها جريدة المنار لم تُغفل القضية الليبية إذ تناول كتابها المماثلة الدوليّة في إتاحة الفرصة للشعب الليبي ليقرّر مصيره بكل حرّية واختيار نزيه، بعيدا عن الضغوط الخارجية والمؤامرات المنسوجة من طرف الدّول الاستعماريّة والتي خرجت من الباب لتحاول العودة من النّافذة، وحول هذا الموضوع كتب أحدهم تحت اسم "عبد الله" مقالا حول الانتخابات الليبية المتعلّقة باختيار جمعيّة تأسيسية لصياغة دستور للبلاد، وما صاحب هذه الانتخابات من حوادث داميّة ومن تزوير فاضح لصالح مجموعة معروفة بميوها الغريبة و بولائها الأعمى للدّول الاستعماريّة، يقول الكاتب: "جرت في الأسبوع الماضي انتخابات عامة في المملكة الليبية المتحدة، لإنشاء جمعيّة وطنيّة تأسيسية تصادق نهائيا على الدستور الليبي، وإذا كانت النتائج النهائية لهذه الانتخابات لم تصلنا بعد، لصعوبة المواصلات في ليبيا- كما قيل- فإنّ الصحافة اليوميّة الفرنسية نشرت نتفاً من الأنباء عن الجوّ الذي جرت فيه هذه الانتخابات، وتكهّنت عن (الفائز) فيها، فهناك حوادث داميّة صاحبت عمليّات الانتخاب في بعض الجهات، وقع على إثرها اعتقال الزعيم بشير بك السعداوي رئيس المؤتمر الوطني، وهناك (توقّع) فوز حزب الاستقلال المناصر للحكومة الليبية الحاليّة، والمُشايح للدّول الغريبة، وهذه الأنباء القليلة كافية لجعلنا نتساءل عمّا إذا كانت الدول الاستعماريّة لم تعمد كعادتها لبعض المناورات قصد تفريق كلمة الشعب الليبي وتشويه استقلال ليبيا، الذي نالته بفضل كفاح أبناءها وبرغم مناورات المستعمرين في الداخل والخارج."²

ويواصل الكاتب تعليقه على هذه الحوادث الداميّة التي شابّت الانتخابات الليبية، والتي يُحمّل الكاتب مسؤوليتها للدّول الاستعماريّة كفرنسا وإيطاليا وانكلترا وحتى أمريكا، الهدف منها إفساد العرس الليبي وتفريق أبناء الشعب الواحد، ذلك أنّه من غير المعقول أن تُساهم هذه الدول في استقلال ليبيا وفي بناء الديمقراطية بها، وهي قد أُخرجت منها مُرغمة ذليلة، يقول الكاتب هذا من مُنطلق أنّه جزائري قد خبر ذهنيّة الاستعمار بكلّ صنوفه، وطريقته في تسيير

¹ - المصدر السابق.

² - المنار: السنة الأولى - العدد 17- 04 جمادى الثانية 1371هـ/ 29 فيفري 1952م.

الانتخابات المبنية على التزوير الفاضح، ولعلّ الاستعمار الفرنسي أستاذ الأساتذة في هذا الميدان: "إنّ الحوادث الدائمة التي صاحبت عمليّات الاقتراع في بعض الجهات وخاصة طرابلس، لا يمكن أن تصدر- نظرا لما عرف به الشعب الليبي من اليقظة- عن حزازات انتخابية عادية، والحقيقة أنّ الدول الاستعمارية هي التي كانت بطريق مباشر أو غير مباشر مصدر هذه الظواهر غير المنتظرة، التي إن جاز أن يؤمن بها الناس في بقية بلاد الله، فليس من السهل أن يؤمن بها الجزائريون الذين خبروا انتخابات (نايجلان) وعرفوا حقيقة ما تنطوي عليه هذه الانتخابات. وهل يمكن أن نتظر من الدول الاستعمارية إعانة الشعب الليبي على بناء استقلال بلاده خاليا من الشوائب وهي لم تُسلم بهذا الاستقلال إلا مُرغمة؟".¹

03- القضية التونسية:

بدورها القضية التونسية حظيت باهتمام كتاب المقالة السياسية في الجزائر، وأفردوا لها مساحات واسعة على صفحات الجرائد، وتتبعوا الأحداث السياسية المضطربة فيها، وعاشوا معاناة التونسيين أكثر من التونسيين أنفسهم في كثير من الأحيان، حتّى يُخيّل للباحث وهو يتقصّى تاريخ المقالة السياسية في الجزائر، أنّه يقرأ صحفاً تونسية خالصة حتّى ما إذا راجع الصفحة الأولى وجدها جريدة جزائرية خالصة، وكُتباها جزائريون أقحاح، وهذا يعكس العناية الكبيرة التي أولاهها الكتّاب الجزائريون لقضايا المغرب العربي بصفة عامّة، وذلك راجع لاعتبارات دينية وتاريخية وجغرافية، فضلا عن مبادئ نجم شمال إفريقيا والذي كان يناضل في سبيل مغرب عربي موّحد، هذه المبادئ تشبّع بها كتّاب المقالة السياسية لا سيّما كتّاب جريدة المنار.

لقد أثارَت قضية نفي باي تونس " المنصف باي " حفيظة الكتّاب الجزائريين وسخطهم، ورأوا في ذلك تعدياً صارخاً من الاستعمار الفرنسي على حرية الشعب التونسي ورموزه الوطنية، سيّما وأنّ المنصف مات غريباً عن وطنه وعن شعبه الذي أحبه وبادله هو بدوره الحبّ نفسه والتقدير الذي لم يحظ بشرفه أحد من البايّات الذين سبق لهم التربع على عرش تونس. ومن بين هؤلاء الكتّاب نجد البشير الإبراهيمي في مقال مؤثّر جدّاً، ينعي فيه هذا الرجل الوطني

¹ - المصدر السابق.

الغيور، ويتحسّر على آلام الغربة والعزلة القاتلة التي تجرّعها المنصف باي في منفاه الإجماري بفرنسا، يقول الإبراهيمي في مقال حزين باكٍ بعنوان "دمعة على المنصف": "يعزُّ على هذا القلم الذي لا يكاد يجفّ مداده، ولا تنقطع من القريحة أمداً، أن تُصاب تونس العزيزة في مناط أملها، بل في نياط قلبها، فلا يُسمع له جرس، ولا يصرُّ بكلمة على طرس... يعزُّ على هذا القلم الذي شدّ الحقّ أزره، وسدّد المنطق رمائته، أن يموت المنصف غريباً، مظلوماً، مسلوب التّاج، فلا ينفث كلمة تبعث الشّجي، وتثير الشّجن، وتُحلّ عقدة الرواية."¹

وفي ألمٍ كبير، وحسرةٍ مريرة، يتأسّف الكاتب على موت المنصف غريباً عن وطنه، ويتمنّى لو أنّه تُرك في منفاه الأوّل مدينة "الأغواط" في الجزائر، أو في مدينة "تنس" بالجزائر منفاه الثاني، فلا يشعر بمرارة الاغتراب، ولا بوحشة الأهل والأصحاب، حتّى إذا ما وافاه أجله أقامت له الجزائر جنازة تليق بمقامه كباي لتونس، وبمكانته كرمز للأمة: "لو مات المنصف بالأغواط، لطافت الجزائر بجثمانه عدّة أشواط، ولذهبت فيه مذهب العرب في ((ذات أنواط))² ولغسلته بالعبيرات المسفوحة، وكفنته بألفاف القلوب، ودفنته في مُستقرّ العقيدة والواجب من نفوسها.

ولو مات ((بتنس)) لتاهت فخرا على الثّغور، وباهت بيوم موته أيّامها في غابرات العصور، ومحت هذه المنقبة جميع ما وسمها به الشعراء من شين، ووصموها به من نقص. ولو مات بأية بقعة من أرض الجزائر لكانت هي تونس نضرة واحضراراً، ولاكتسبت الجزائر بجميع أقطارها شرفاً ممن مات ميتة الشّرف فيها، ولقبست معاني عالية من الفداء والتّضحية بعد عهدّها، ولفَعَمَتها نفحة ساطعة من عزّ الإمارة حُرِمَتها الأنوف الشّمّ من أبناءها منذ أيّام عبد القادر، ولتسمّعت نغمة ساحرة عطّلت آذانها منها من عهد عهيد.³

ويُيدي الكاتب حسرته وأساه الكبيرين على موت المنصف في فرنسا التي طردته وشرّدته، ولم يُغمض عينيه وهو في رmqه الأخير على ثرى وطنه، ولم يستنشق مع حشرجة الموت هواء وطنه العليل، عن ذلك يُحدّثنا الإبراهيمي في نبرة حزينة مُشفقة: "إي والله، لو مات المنصف

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية-العدد 49- 10 ذو القعدة 1367هـ/ 13 سبتمبر 1948م.

² - ذات أنواط: شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) كان العرب في جاهليتهم يأتونها كل سنة، فيعلّقون

أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً. وقد نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن فعل ذلك.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 49. مصدر سابق.

في الجزائر مات في وطنه، وبين أهله، وفي أمة مُتَعَطِّشَة للعزِّ والسيادة، مُستشرفةً إلى حيث تنقطعُ علائقُ الطَّموح، لا يقلُّ تقديرها للعظماء أمثال الفقيده عن تقدير أختها تونس لهم، ولا يقصر فهمها لمعاني العظمة في الرجال عن فهم أختها تونس لها، ولكنه مات ((بيو)) في دار غير داره، ووطن غير وطنه، وناس غير ناسه، لم يستنشق مع حشرجة الموت نفساً من أنفاس وطنه العزيز،..... ولم يكتحل عند إغماضة الموت بمنظر من تلك المناظر التي كانت هوى قلبه، وشغل خواطره، وصبابة نفسه.¹

ويعمدُ الإبراهيمي إلى أسلوب المقارنة بين موت باي تونس المنصف مُتغرباً، وبين غيره من العظماء الذين تجرَّعوا بدورهم مرارة النفي والاعتراب، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن نابليون لما مات في عزلة قاتلة في جزيرة نائية فإنه مات وترك فرنسا بيد الفرنسيين، وكذلك الشأن مع السلطان عبد الحميد الثاني الذي نُفي إلى (قصر بيلري) إلى أن مات هناك، لكنه ترك تركيا في يد الأتراك، بينما المنصف مات بعيداً عن وطنه تونس، وهي يومئذ تئنُّ تحت نير الاستعمار الفرنسي، فتضاعفت آلام وأحزان المنصف باي، يقول الإبراهيمي: " مات نابليون غرباً في جزيرة القديسة ((هيلانة))، ونابليون ممن زادوا في تاريخ فرنسا صحائف بيضاء، وفي مجدها الحربي أساطين رفيعة، فما كانت موته الغريبة ثلماً في فرنسا، لأنه مات وفرنسا بيد الفرنسيين. ومات عبد الحميد أسيراً في سجنه-وعبد الحميد أكثر أسماء الخلفاء سيرورةً على الأفواه- فما بكت عليه سماء ولا أرض، لأنه مات وتركها بيد الأتراك.... ولكن... ولكن موت المنصف في قرية نائية من قرى فرنسا غرباً عن وطنه وأمه، مظلوماً فب عرشه ومملكه، مسلوب التاج، مخفور الذمام، مصيبة يزيد معناها الشنيع معنى، وهو أنه مات وتونس ليست للتونسيين!! وأنه مات وتونس ليست طليقة، وهي بالانطلاق خليقة!²

أما كتابُ جريدة المنار فقد استحوذت القضية التونسية على اهتماماتهم السياسية، ودبجوا مقالات كثيرة تخصّ القضية التونسية والحركة الوطنية التونسية وسعيها للتحرر من ربة الاستعمار الفرنسي الغاشم، والحقيقة أن جريدة المنار بينت من خلال عددها الأول منهجها في الكتابة والدفاع عن قضايا المغرب العربي، ومجاهمة الاستعمار حتى تسترجع كل هذه الدول

1 - المصدر السابق.

2 - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 49. مصدر سابق.

استقلالها المغصوب، وحرّيتها المسلوقة،" المنار يؤكّد استنادا على الحقائق الجغرافية، والتاريخية، والجنسية، أنّ الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب الذي هو جزء طبيعي من العالم العربي والإسلامي. ولذا يُجاوز الوطنية الإقليمية إلى الوطنية العربية والإسلامية، ولذا يدعو إلى توحيد السياسة المغربية توحيدا متينا في الأهداف والوسائل.... وإنا حين نرى مُمثلي الاستعمار الفرنسي في أقطار المغرب الثلاثة يعقدون اجتماعات لتوحيد السياسة والعمل، يتبادر إلى ذهننا-طبعا- التساؤل عن ردّ الفعل من جانب الحركات القومية التحريرية في المغرب، فنرى أنّ الفطرة السليمة تقضي طبعاً بتوحيد السياسة والعمل في صفوف الحركات المغربية.¹

على هذا النحو أفصحت جريدة المنار عن خطّها الصحفي، وعن منهجها في التعاطي مع قضايا المغرب العربي على أنّها قضايا موحّدة، ومُرتبطة، ومصيرية في الآن ذاته.

وحول هذا الموضوع كتب صاحب جريدة المنار محمود بوزوزو مقالا بعنوان " قضية المغرب واحدة، وكفاحه واحد"، تناول فيه الكاتب الحزب الدستوري التونسي بالعتاب على انفصاله عن لجنة تحرير المغرب العربي التي تشكلت من زعماء الأقطار الثلاثة (الجزائر، تونس، المغرب)، واستفراده برأيه القاضي بالتفاوض مع الاستعمار الفرنسي الأمر الذي سهّل على الفرنسيين إجباره على تقديم تنازلات كثيرة، ممّا أدّى إلى تعثر المفاوضات والعودة إلى نقطة الصفر، يقول بوزوزو: " لا شك أنّ القراء لاحظوا سكوتنا عن القضية التونسية لاسيّما بعدما أعلنّا في العدد الأول من "المنار" أنّنا نعتبر المغرب العربي كلاً لا يتجزأ، ودعونا إلى توحيد السياسة والعمل في جبهة واحدة تهدف إلى غاية واحدة بوسائل مُتّحدة... كما يستوجب الإلحاح لدى الحركات التحريرية المغربية في توحيد كفاحها، ونبذ النزعة الانفرادية التي تؤدي إلى تجزئة القضية المشتركة تجزئة تُعدّ اعترافا بالحدود التي أقامها الاستعمار بين أقطارنا قطراً قطراً، وإقرارا للأوضاع الاستعمارية فيها، وطعنةً في صميم الوحدة الطبيعية التي تربط هذه الأقطار."²

ولا يجد الكاتب حرجا في تسمية الأشياء بمسمياتها، ومن ذلك التصريح باسم الحزب الذي أحدث شرحا واسعا في صف الاتحاد المغربي أو بالأحرى لجنة تحرير المغرب العربي، ألا وهو

¹ - المنار: السنة الأولى - العدد 01-21 جمادى الثانية 1370هـ/29 مارس 1951م.

² - المنار: السنة الأولى - العدد 13-06 ربيع الثاني 1371هـ/04 جانفي 1952م.

الحزب الحر الدستوري التونسي، الذي راح يُطالب بإصلاحات وتنازل على المطلب الأساس وهو الاستقلال التام قبل أية مفاوضات، يقول الكاتب: "...وأما تونس فإنها اجتمعت من قبل حول ((ميثاق ليلة القدر)) (أوت 1946)، إلّا أنه لم يدم، ومن الأسف أنه لم يُعوّض بأية صورة من صور الإتحاد، وذلك لتغيير الحزب الحر الدستوري الجديد خطة كفاحه، وانتهاجه سياسة منحرفة عن هذا الميثاق، وعن ((ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي))، إذ ترك المحور المذكور، وتنازل إلى التفاوض في نطاق الوضع الاستعماري طالبا (إصلاحات) تؤدي بعد مراحل إلى الاستقلال الداخلي وتخليص السيادة التونسية. وبهذا أصبح عضو من أعضاء ((اللجنة)) منفصلا عنها، وأصبحت السياسة التحررية في وحدتها إصابة قاسية.¹

إنّ هذا الخطأ السياسي الذي وقع فيه الحزب الدستوري التونسي، قد أثار سخط وتنديد زعماء الوحدة المغاربية في كل من الجزائر والمغرب، أمّا في تونس فقد جلب سخطا شعبيا تُوجّ بإضراب عام شمل مختلف ربوع الوطن التونسي، لاسيّما بعدما أثبتت هذه الخطوة المتسرّعة فشلها، واتضح ذلك جليّا من خلال مماتلة الاستعمار الفرنسي في إجراء إصلاحات جادة، حينها أيقن الحزب الدستوري التونسي خطأه، وعاد من جديد إلى حضنه الطبيعي والسياسي ألا وهو المغرب العربي واحدًا موحدًا، يقول الكاتب: "ولكن لم تُصادف هذه البيانات آذانا صاغية واعية لدى الحزب الحر الدستوري التونسي، الذي تعرّض بانفصاله عن الكفاح المشترك إلى ما تعرّض له القاصية، فعبث به الاستعمار عبثه المعهود في تقاليد، وقد كُنّا نتوقّع هذا لعلمنا بمرامي البرنامج الاستعماري الفرنسي.... إن ردّ الفعل التونسي أمام هذا الموقف الجديد، بدأ بإضراب عام نال إجماع الأمة التونسية، ونجح نجاحا باهرا، والشيء الذي يهمنّا هو إجماع الأمة التونسية على مقاومة الموقف الاستعماري."²

وفي خاتمة المقال يُشير إلى الدرس المستخلص من التجربة التونسية، والمتمثل في ضرورة الإتحاد بين جميع أقطار المغرب العربي حتى يُشكّلوا كتلة تحرّرية بإمكانها مقاومة الاستعمار الفرنسي بكلّ الوسائل المتاحة، وحتى إذا اقتضت الضرورة وجلسوا إلى طاولة المفاوضات مع المستعمر فإنهم يكونون في موضع قوة وهم متّحدون، ومطلبهم واحد، وهو الاستقلال التام،

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

ولا ينسى الكاتب أن يُقدّم للاستعمار الفرنسي أسمى عبارات الشكر والتقدير، لأنّه أعاد اللحمة بين أقطار المغرب العربي من حيث لا يدري، يقول الكاتب: "فالدرس الذي نستخلصه من التجربة التونسية، هو أنّ سياسة المفاوضات في نطاق الوضع الاستعماري غير مجدية. فإخفاق هذه السياسة في تونس (الذي تُلقى مسؤوليته على الاستعمار) قد بيّن سداد الخطة التي خطتها لجنة تحرير المغرب العربي: الاستقلال التام قبل أي مفاوضة.. فهو يتطلّب من إخواننا التونسيين العودة إلى هذه الخطوة السديدة، وسيجدون بجانبهم إخوانهم الجزائريين والمراكشيين الثابتين على هذه الخطة.

وللاستعمار جزيل الشكر على هذا الإخفاق الذي تتلقّى منه أقطار المغرب العربي درسا جديداً، أفهمها أهدافه الميكيفالية، ونبّها إلى بناء كفاحها على الأساس المتين، الذي وضعته لجنة تحرير المغرب العربي، وبيّن لها سداد هذه اللجنة فيما قرّرت من أنّ قضية المغرب واحدة، فيجب أن يكون كفاحه واحداً.¹

وفي مقال آخر تبدو فيه لمسة السخرية من الاستعمار واضحة للعيان، فقد اختار محمد المتيحي " سياسة بغل الطاحونة" عنواناً لمقاله، والذي تناول فيه السياسة العرجاء التي تنتهجها فرنسا في تعاطيها مع الأصوات المتعالية من تونس بحق الاستقلال وتقرير المصير، وكان آخر ما اهتمت إليه سياسة هذه الدولة الاستعمارية هي محاولة تسميم باي تونس، يقول الكاتب: "إنّ محاولة تسميم الباي، وموقف المجلس الوطني الفرنسي من القضية التونسية، ومشروع الإصلاحات الجديدة الذي يراد عرضه على سمو الباي، وإصدار الأحكام القاسية على الوطنيين، كلّ ذلك يدلّ دلالة واضحة على أنّ النيات التي يضمّرها الساسة الفرنسيون للأمة التونسية نيات سيئة."²

ويوضّح الكاتب درجة الوعي السياسي والوطني التي بلغها زعماء الحركة الوطنية التونسية، والشعب التونسي بمختلف شرائحه، فالإصلاحات السياسية التي تُغريهم بها فرنسا ما هي إلّا مناورات سياسية تخوضها فرنسا كلّما اشتدّ الخناق عليها، وإن حصل وأحدثت إصلاحات فما هي إلّا ذرٌّ للرّماد في الأعين،: " لكن سوف لا تفوز هذه المناورات الفظيعة ببعيتها المنشودة،

¹ - المنار-السنة الأولى- العدد 13- مصدر سابق.

² - المنار: السنة الثانية- العدد 06- 12 شوال 1371هـ/04 يوليو 1952م.

فالحركة الوطنية التونسية قد تفتّنت إلى المناورات، واستنكرت مشروع الإصلاحات الجديدة، معلنةً بذلك أن فرنسا لا تريد أن تتخلّى عن سياستها الاستعمارية التي حقّ أن تُلقب بسياسة بغل الطاحونة.¹

و بمناسبة تهديد الوفد الفرنسي بالانسحاب من منظّمة الأمم المتحدّة، في حال ما أُدرجت القضية التونسية ضمن جدول أعمالها، كدولة تريد تقرير حق مصيرها بنفسها، يردّ الكاتب بأسلوب حجاجي مُقنع، من خلال إسقاط شخصية النازي هتلر على شخصيات فرنسية لا تقلّ إجراماً وبشاعة عن غريمها، يقول الكاتب: " فبعض الساسة الفرنسيين هدّدوا بانسحاب فرنسا من المجالس الدولية إذا ما كُلت مساعي الكتلة العربية الآسيوية بالنجاح، وكان التوفيق حليفها. وهنا نتساءل: هل نسي هؤلاء القوم أن هتلر قد انسحب قبل اليوم ببضع سنين من جمعيّة الأمم، وذهب ضحية طغيانه ومبادئه الاستحواذية بعد أن تلاشت عظمة قوته، فهل يريد الساسة الفرنسيون أن يكون مصيرهم كمصير هتلر الذي بلغ من القوّة ما لم تبلغه فرنسا؟ نترك الإجابة للمستقبل فهو خير مجيب."²

أمّا محمّد محفوظي وهو أحد أشهر أقلام المنار السياسيين، فقد عبّر عن فرحة انتصار الشعب التونسي في المحافل الدوليّة بعد جهود مضيئة من الكتلتين العربية والآسيوية والتي كُلت بتسجيل القضية التونسية ضمن جدول هيئة الأمم المتحدة، كقضية تصفية استعمار وشعب يريد حقه في تقرير مصيره بنفسه بعيداً عن الوصاية الاستعمارية الفرنسية، يقول الكاتب: "إنّ الجهود التي ما انفكت تبذلها الكتلة العربية الآسيوية منذ بضعة شهور، في سبيل احقاق الحقّ وإزهاق الباطل، بدت تؤتي أكلها، فهاهي القضية التونسية تُدرج في الجدول النهائي لأعمال هيئة الأمم بالرغم من المناورات التي قام بها السلك الدبلوماسي الفرنسي سرّاً وعلناً بمختلف عواصم الدول الأوروبية والأمريكية، وإنّ مجرد وضع القضية التونسية على جدول الأعمال، يُعدّ بحقّ انتصاراً لصوت الحقّ، وخذلانا لصوت الباطل."³

1 - المصدر السابق.

2 - المصدر نفسه.

3 - المنار: السنة الثانية- العدد 10-04 صفر 1372هـ/24 أكتوبر 1952م.

ويهيب الكاتب بهيئة الأمم المتحدة وبكلّ أحرار العالم أن يقفوا وقفة يسجلها التاريخ على صفحات الحرّية الإنسانية، وذلك بإقرارهم حقّ الشعب التونسي في تقرير مصيره، حقنا للدّماء التي ستهرق على مذبح الحرّية، وأن لا ينخدعوا بالمناورات الفرنسية التي تحاول تسويق أكذوبتها القائلة أنّ الشعب التونسي تكفيه إصلاحات اجتماعيّة، فثورته ثورة خبز ليس إلّا، يقول الكاتب: " وكلّ دولة تؤيّد فكرة التّدخل السريع في القضية التونسية بنية تسويتها تسوية سلميّة، تكون قد خدمت قضية السلم خدمة جليّة، وكلّ دولة تؤيّد فكرة التوصيات تكون قد وفّرت للعالم أسباب الدّمار والخراب، لأنّ الفرار من نقاش جوهر القضية لن يؤدّي إلى أية تسوية ترتضيها المبادئ الإنسانيّة السامية. فهل سترضى هيئة الأمم بأن تكون شريكة في مسؤوليّة الذنوب والآثام، التي تُقترفُ ضدّ شعب آمن بحقه في حياة العزّة والكرامة، وأبان للعالم أنّه أهل لهذه الحياة بثباته ومقاومته الجيدة الحافلة بآيات البطولة والخلود."¹

ومن بين أكثر المواضيع التي تتعلّق بالشأن التونسي والتي أولاها كتّاب المقالة السياسيّة في الجزائر العناية القصوى، والاهتمام الأكبر، ودبّجوا بحقّها مقالات متسلسلة متتاليّة، قضية اغتيال النقابي التونسي المعروف "فرحات حشّاد"²، فقد أثارت هذه الجريمة الشنيعة سخطا عارما ليس في تونس والمغرب العربي فحسب، بل هاجت وماجت أمواج بشرية في مختلف أنحاء العالم تنديداً واستنكاراً للاستعمار الفرنسي الذي تلطّخت يدها بدماء نقابي حرّ، دافع عن استقلال وطنه وشعبه، وجاهر بمعاداته لأرباب العمل الفرنسيين الذين دأبوا على استغلال العمّال التونسيين استغلالاً فاحشا، دون أدنى حقّ من حقوق العمّال كالتأمين، والعطل، وساعات العمل، التي تُقرّها جميع الشرائع القانونيّة، والحقّ أنّ هذا النقابي شكّل مصدر إزعاج لأصحاب العمل المرتبطين ارتباطا وثيقا بالاستعمار، مثلما شكّل خطرا على الوجود الاستعماري في تونس من خلال سيطرته على قلوب مئات الآلاف من العمّال التونسيين الذين يُمثّلون عمق تونس، وعمق معاناتها، فكان لا بدّ من إسكات هذا الصوت إلى الأبد، فدبّرت له الإدارة الاستعماريّة مخطّطا لاغتياله، فأوكلت المهمة لبعض المتطرّفين الأوروبيين، في محاولة منها للنأي

¹ - المصدر السابق.

² - فرحات حشّاد نقابي تونسي.

بنفسها عن هذه الجريمة الشنعاء، غير أن بصماتها بدت واضحة للعميان من أول لحظة شاع فيها خبر اغتيال فرحات حشّاد.

حول هذا الموضوع كتب محمد محفوظي، مقالا بعنوان " جريمة فظيعة لا تُغتفر"، صبّ فيه جام غضبه على هذا المستعمر الغاشم الذي لا يتورّع عن قتل كل من يشتمّ فيه صدق وطنيته وإخلاصه لشعبه، هذه الدولة الفرنسيّة الاستعمارية التي تمُنُّ على العالم بأنّها من علّمته شرعة حقوق الإنسان وحرّيته، وتناست أن أول حقّ للإنسان هو الحقّ في الحياة الذي سلبته من هذا النقابي لا لشيء سوى أنّه صوت الشعب التونسي الباحث عن حرّيته واستقلاله، يقول محفوظي في أسلوب ساخط لا يخلو من التعريض بفرنسا منارة الحرّية، وحاميّة حقوق الإنسان: " في ظلّ رسالة فرنسا ((التمدينيّة))، وتحت رحمة القوانين ((الديمقراطيّة))، وفي عهد المقيم الفرنسي دوهوت كلوك، وعلى إثر التهديد الذي وجهته الحكومة الفرنسيّة إلى سموّ الباي، وبينما تناقش اللجنة السياسيّة التابعة لهيئة الأمم المتّحدة قضية تونس، وفي هذه الظروف التاريخيّة يجرؤ بعض الأندال على اغتيال أكبر زعيم نقابي تونسي.

من هذا الرجل العظيم الذي أهدر المتآمرون الأندال دمه غدراً؟

إنّ فرحات حشّاد الزعيم النقابي الذي جمع شتات العمّال التونسيين، وولّى وجهه شطر توجيههم، وإرشادهم خلال السنين الطوال ليدافعوا عن مصالحهم الطبيعيّة.

إنّ فرحات حشّاد الذي جعل من ضعف العمّال قوّة، ومن اتّحادهم سيفاً بتاراً لينقذهم من عهد الاستعمار الفرنسي، عهد الظلم والاستبداد، عهد أبشع أنواع الاستغلال، وأفظع أشكال العنف والاضطهاد....إنّ فرحات حشّاد الذي استطاع أن يُحقّق تجمّع الجماهير التونسيّة حوله لمناهضة نظم الحماية الفرنسيّة القائمة على الميز العنصري....إنّ فرحات حشّاد الذي هو آمال الأُمّة التونسيّة، لأنّه كان زعيماً محبوباً للأُمّة التونسيّة.¹

ثمّ يتساءل الكاتب عن موقف الاستعمار الفرنسي من هذه الجريمة الفظيعة؟ فواقع الحال يشهد أنّ بدل أن تجدّ الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة في البحث عن المجرمين وتقديمهم للعدالة، لينالوا جزاء ما اقترفته أيديهم الآثمة، راحت تزجُّ بالآلاف المواطنين التونسيين في السجون، وأنشأت محاكم عسكريّة عاجلة، وأعدمت بموجبها ثلّة من الوطنيين الشرفاء، وأقرّت حظر

¹ - المنار: السنة الثانية- العدد 13- 26 ربيع الأول 1372هـ/ 12 ديسمبر 1952م.

التجوال في كامل التراب التونسي، وطبقت الأحكام العسكريّة والعرفيّة على كلّ من ينتهك حظر التجوال وبذلك حوّلت تونس برمتها إلى سجن كبير. عن كلّ هذا يُحدّثنا الكاتب: "وإزاء هذه الجريمة الفظيعة التي لا تُذكر أمامها الجرائم النّازيّة، ماذا فعلت السلطة الفرنسيّة؟ إنّها أمّعت في التّكيل، وجنحت إلى اتخاذ تدابير صارمة ضدّ القادة النّقابيين التونسيين العزل، وأهملت شأن المجرمين المسلّحين المنضوين تحت لواء عصابة ((اليد الحمراء)) على أنّه كان ينبغي أن ينال منهم أشدّ العقاب جزاءً وفاقاً على جرائمهم."¹

ولا يكشفُ الكاتبُ سرّاً عندما ربط بين هذه المنظّمة الإرهابية وبين الاستعمار الفرنسي، لأنّها ببساطة صنيعته التي تأتمر بأوامره، وتنتهي بنواهيها، أو بتعبير أدق هي جهاز من أجهزة الاستعمار، تستعمله لترهيب الشعوب المستعمرة واضطهادها، مثلما حصدت الآلة العمياء البوليس الفرنسي في مجازر الثامن ماي 1945 أكثر من خمس وأربعين ألفاً من الجزائريين في ظرف لم يتجاوز الأسبوعين. وما اليدُ الحمراء إلّا نسخة طبق الأصل للبوليس والجيش الاستعماري بالجزائر. يقول الكاتب: "...لاسيّما وكلّ مُدرك منصف، يعلم أنّ منظمة ((اليد الحمراء)) ليست إلّا صورة للبلّيس المدنيّة، ذات التاريخ الحافل بالجرائم التي ذهب ضحية عدوانها أربعون ألف جزائري في عام 1945."²

ويدعو الكاتب في خاتمة مقاله الشعب التونسي إلى توحيد صفوفه، والثبات على حقّه الشرعي في الاستقلال والعيش بكرامة، والتحرّر من الهيمنة الاستعماريّة الفرنسيّة، واستلهاهم العبرة من اغتيال المناضل النّقابي فرحات حشّاد، المتمثلة في أنّ الاستعمار الفرنسي لا يفهم إلّا لغة الحديد والنّار، وما أخذ بالقوة، لا يُمكن أن يُسترجعُ بالخطب الرّنّانة من فوق المنابر: "ومهما يكن فإنّ مصرع الزعيم النّقابي فرحات حشّاد-تغمّده الله برحمته الواسعة- وإعدام بعض الوطنيين التونسيين، بمقتضى الأحكام التي تصدرها المحاكم العسكريّة الفرنسيّة، والضغط المتواصل على سموّ الباي، لن ينال من المقاومة التونسية. وإنّ شعوب الشمال الإفريقي لن

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

تتخلى عن كفاحها المقدّس، بل ستواصله بكلّ صبر وثبات إلى الفناء إذا كان لا بدّ من الفناء، أو النَّصر والنَّصر هو المأمول إن شاء الله.¹

وعن الموضوع ذاته كتب عبد الحميد مهري² مقالا بعنوان " فرحات حشّاد المناضل " عدّد فيه مناقب الفقيه وخصاله الحميدة، واستماتته في الدّفاع عن حقوق العمال المهضومة من طرف أرباب العمل الفرنسيين الذين تقودهم غريزة الجشع، واكتناز الأموال على حساب عرق ودم الطبقة الكادحة الشّعيلة من أبناء تونس، يقول عبد الحميد مهري: " لم يمنعني الحزن العميق لاغتيال المرحوم السيد فرحات حشّاد من التفكير في شخصيّة هذا الفقيه الشهيد، وأعماله العظيمة لفائدة بلاده، لعلني كنت أجد في إحياء ذكراه في فكري، واستعراض أعماله، بعض ما يُسليني عن مُصاب تونس العزيزة، ومُصاب المغرب العربي في هذا الرّجل العظيم."³

ثمّ يصف الكاتب أثر أعماله الجليلة، من توحيد للحركة العمّالية في تونس، وسعيه لتوحيدها في الأقطار الثلاثة (الجزائر، تونس، المغرب.)، حتّى تُصبح قوّة ضاربة، تشلّ الحركة الاقتصادية في الأقطار الثلاثة بمجرد أن يُضرب العمّال في أي مصنع أو حقل أو ميناء، في أي قطر من الأقطار سواء في الجزائر أو في الرّباط أو في تونس، بل وحوّل الحركة التقايبية في المغرب العربي إلى حركة تحرّرية استقلاليّة، هذا ما أربك الاستعمار الفرنسي، وأضحى فرحات حشّاد هدفا مستعجلا في نظر الإدارة الاستعمارية فعجّلت باغتياله للتخلّص منه. يقول الكاتب: " تمكّن فرحات حشّاد من تنظيم الطبقة العاملة التونسية وتكتيلها حول الحركة التحريرية التونسية، ونفخ فيها روح الكفاح والصبر، فكانت دائما في المقدّمة، تكافح في سبيل تحسين حالتها الماديّة والمعنويّة، وتكافح من أجل تحرير بلادها، وكانت تُضحّي - راضيةً - بمصالحها الخاصّة في سبيل التحرير القومي العام. وتمكّن - رحمه الله - من تغذية بذور الوحدة المغربية في صفوف العمّال من جزائريين وتونسيين ومراكشيين.... إنّ التأثير العميق الذي كان لاغتيال فرحات حشّاد في المغرب العربي والعالم، لدليل على أنّ فرحات حشّاد نجح في مهمّته وأدّى

1 - المصدر السابق.

2 - عبد الحميد مهري: من الطلبة الزيتونيين، سياسي جزائري معروف، ترأس حزب جبهة التحرير الوطني.

3 - المنار: السنة الثانية- العدد 13- مصدر سابق.

رسالته خير الأداء، رحم الله فرحات حشّاد، فقد سقط شهيد الكفاح ضدّ الاستعمار والرأسمالية الجشعة، وعوّضنا عنه خير العوض.¹

ومع حلول الذكرى السنويّة الأولى لاغتيال النقابي فرحات حشّاد، كتب محمد محفوظي مقالا حول المناسبة، مُندداً بالتواطؤ المفضوح من قبل السلطات الاستعماريّة الفرنسيّة وعدالتها اللتين لم تُكلّفا نفسيهما عناء البحث عن قتلة فرحات حشّاد، بل وتركهم يمرحون أحراراً طلقاء دون حسيب أو رقيب، في الوقت الذي زجّت بالوطنيين التونسيين في السجون والمعتقلات لأنّهم أبدوا تضامنهم مع الفقيه المغتال، يقول الكاتب: "ها قد درا الحول على مقتل الزعيم النقابي فرحات حشّاد، فهل عُثرَ على مقترفي الجريمة، وماذا فعلت ((العدالة)) لتضع يدها على المجرمين؟"

لم يُعثر على مقترفي الجريمة ولن يعثر عليهم، مادام القطر الشقيق يعيش في ظل الحماية. أمّا ((العدالة)) فإنّها لم تستعمل مثقال ذرّة من سلطانها لتضرب على الأيدي الأثيمة، وتتأّر لفرحات حشّاد، ذلكم الطود الشامخ الذي غدا مثال الصدق والإخلاص، مثال الشجاعة والإقدام، مثال النزاهة والاستقامة.

أجل اغتيال حشّاد ومضت سنة على مقتله دون أن يمثّل المذنبون بقفص الاتهام، ودون أن ينال ((اليد الحمراء)) سوء.²

ويصف الكاتب حداد الشعب التونسي الذي توشّح السواد حزنا على فقد زعيمهم النقابي والسياسي " فرحات حشّاد" في الذكرى الأولى لاغتياله، والتي عبّر فيها التونسيون عن مدى وعيهم للمخطّطات الدنيئة التي يسعى إليها الاستعمار الفرنسي من خلال سياسة التهيب والتخويف، التي لم تزد الشعب التونسي إلّا إصراراً على مقاومة الاستعمار وزبانيته إلى غاية استرجاعهم لاستقلالهم وحرية وطنهم، يقول الكاتب: " في الخامس من شهر دجنبر 1953 ارتدت الأمة التونسيّة جمعاء رداء الحزن على ابنها البار حشّاد، وخيم ظل الحداد على ربوع البلاد التونسيّة إجلالا وتعظيماً لكفاح حشّاد، واكباراً لوطنيّة حشّاد، وتخليداً لذكرى حشّاد.....حقاً فإنّ يوم 05 دجنبر سنة 1953 يوم مشهود، ففيه تلقى الفاتكون بحياة حشّاد

¹ - المصدر السابق.

² - المنار: السنة الثالثة- العدد 51- 26 ربيع الثاني 1373هـ/ 01 جانفي 1954م.

درسا قاسيا، ذلك أنهم كانوا يريدون من وراء مقتل الزعيم النقابي قذف الرعب في القلوب، بغية في تشييط العزائم.¹

ويؤكد الكاتب على لسان الشعب التونسي، أنّ حشّاد لم يُمتّ منه إلّا العنصر الترابي، الذي عاد إلى أصله، أمّا سيرة حشّاد، ووطنية حشّاد، وأفكار حشّاد، فباقية لن تموت لأنّها نبراس الأمة التونسية على ضوئها تخطّ طريقها نحو الحرية والاعتناق،: "إنّ فكرة حشّاد لم تُمتّ بمجرد مقتله، وكيف تموت فكرة من قضى حياته في الكفاح، وبقي واقفاً إلى جانب شعبه، رغم الوعد والوعيد.... لا ولن تموت فكرة حشّاد بل ستظلّ بمثابة نبراس يُدّد بأشعته الساطعة جيوش الظلام الحالك الذي يُهيمن على القطر الشقيق، من جرّاء سياسة الظلم والاستبداد.

مات حشّاد لكن فكرته لم تمت، فرحم الله الزعيم حشّاداً، أمّا المستعمرون فقد جاروا بإقدامهم على مقتل حشّاد، وسوف يتزل بهم العدل الإلهي عقابه الصّارم.²

ولم يكن فرحات حشّاد وحده من حظي باهتمام كتاب المقالة الجزائريين، فبدوره الحبيب بورقيبة³ نال قسطا وافرا من التعاطف والاهتمام والمتابعة، فقد كتب محمد محفوضي المتخصّص في الشأن التونسي مقالا تحت عنوان "رجل الموقف"، يقصد الحبيب بورقيبة الذي تجرّع مرارة الاعتقال والنفي والتشريد، فلم يركن أو يستسلم للاستعمار، يقول الكاتب: "رجل أوتي غيرة صادقة، فاقتفى آثار المرحوم الثّعالبي⁴، ونفخ في أمّته روحا قويّة لتقوى على الذّب عن الشرف المّهان والكرامة المُداسة... رجل أذيق مرارة السجون والمحتشدات، فلم تزده المحن والملّمات إلّا إيمانا بحقّ أمّته الطبيعي في الحرية.. رجل أحاط نفسه بجماعة من المجاهدين الأحرار، فاستطاع أن يقف في وجه الاستعمار كالطّود الشامخ.⁵

ويعرّج الكاتب على مسألة نفي الحبيب بورقيبة عن وطنه تونس، وإبعاده عن شعبه، ظلّنا من الاستعمار أنّ ذلك يُساهم في إسكات الصوت التونسي المطالب بحريّته واستقلاله، لكن هيهات هيهات، فما بورقيبة إلّا واحد من أبناء الشعب، فإن نُفي أو قُتل فتونس كلّها بورقيبة،

1 - المصدر السابق.

2 - المصدر نفسه.

3 - الحبيب بورقيبة: سياسي تونسي رئيس الحزب الدستوري الحر، أول رئيس للجمهورية التونسية من 1956/1987.

4 - يقصد عبد العزيز الثّعالبي المصلح الديني والسياسي.

5 - المنار: السنة الثالثة- العدد 46- 14 ذو القعدة 1372هـ/ 24 يوليو 1953م.

والحقّ في الاستقلال والحرية لن يموت، يقول الكاتب: "لقد جرؤ المستعمرون على إبعاد الحبيب ظلنا منهم، أن مجرد إبعاده يكفل لهم إبادة النهضة المباركة، التي دبّ ديبها في جسد الأمة التونسية، وفاتهم أن كلّ تونسي يؤمن بنفس المثل الكامل الذي يؤمن به الحبيب، وما مواصلة الكفاح -رغم القمع الفظيع والاضطهاد الشنيع- إلا دليل على ما نقول."¹

ويُنَبِّه الكاتب إلى أمرٍ في غاية الأهمية، وهو أن وعي الشعب التونسي قد بلغ مرحلة النضوج، وقد عبّر عن ذلك باستمرار عصيانه المدني، ومظاهراته الشعبية المتواصلة، على الرغم من اعتقال زعماء ثورته ونفيهم: "وهاهي الحوادث تحقق ما كان يتوقّعه الحبيب، فلا المماثلة، ولا نكث العهود، ولا التّنكيل، ولا التّقتيل نال من إصرار الشعب الشقيق على متابعة الكفاح حتى النهاية."²

ويختتم الكاتب مقاله بدعوة الاستعمار الفرنسي إلى الخضوع لأمر الشعب التونسي، والتزول إليه، والجلوس معه ندًا للندّ لتقرير مصيره بنفسه: "ألم يأن للساسنة الفرنسيين أن يُعلنوا التوبة، ويُبرهنوا على صدق توبتهم، بإرضاء المطامح القومية للأمة التونسية، وهذا هو الحلّ المعقول الذي مافتى يردّده الحبيب... كيف لا وقد برهنت الحوادث على أنه رجل الموقف."³

ب/ المشرق العربي:

ولأنّ الجزائر جزء من الأمة العربية العريقة، كان لابدّ من أن تقاسمها همومها، وتتأثر لكلّ ما يضطرم فيها من أحداث ومتغيّرات، فقد أثبت الكتاب الجزائريون على الرغم من التّعقيم الاستعماري المضروب عليهم، ومحاولة بتر الجزائر عن محيطها العربي والإسلامي، أنّهم في مستوى المسؤولية المنوطة بهم، فنقلوا أخبار العالم العربي بتفاصيلها الدقيقة، وحلّلوا ونصحوا لإخوانهم العرب ممن تقاسموا معهم الواقع الاستعماري المزري. وقد عبّر البشير الإبراهيمي عن مكانة الشرق العربي بالنسبة للجزائريين فقال: "داو الكلوم يا شرق، فما زلنا كلّما استشفينا بك نجد الراحة والعافية، ونظفر بالأدوية الشافية... يا شرق فيك من كلّ مكرومة عرق، فاجر على أعراقك الكريمة، ففي تربتك نبت الإيثار والتّضحية، ومن أرضك انبجست الرّحمة والرّفق،

1 - المصدر السابق.

2 - المصدر نفسه.

3 - نفسه.

ومن آفاق هبت النجدة والغوث، وعلى أديمك دبّت النبوة والحكمة، ومن سماءك تزلت
البينات الفارقة بين الهدى الضلال، وعنك أخذ الناس المكارم والمراشد، ومنك امتاروا أغذية
الأرواح، واستبضعوا طرائف العلم.¹

ومن بين الأقطار العربيّة التي تناولها كتاب المقالة السياسية بكثرة نجد قضية فلسطين التي لم
يحظ قطر عربي بالاهتمام والتعاطف والتضامن مثلما حظيت به، فقد صنعت قضية فلسطين
الإجماع الجزائري التام والكامل لدى كتاب المقال السياسي الجزائري، على تبني قضيتها
والدفاع عنها، وتخليصها من أيدي الصّهاينة الذين ما لبثوا يتربصون بها من عهد السلطان عبد
الحميد الثاني، الذي كان حجر عثرة في طريق مشروعهم الاستعماري البغيض. بالإضافة إلى
قضايا عربيّة أخرى كقضية مصر، اليمن، سوريا.

01/فلسطين: تعددت المقالات السياسيّة الجزائرية التي كتبت حول جرح فلسطين الغائر،
وحول المشروع الصهيوني المزروع في خاصرة الأمة العربيّة قاطبة، ولا نكاد نجد موضوعا في
السياسة الخارجيّة حقق الإجماع بين مختلف الكتاب من إصلاحيين، واستقلاليين، وإباضيين،
وطرقيين، كموضوع قضية فلسطين. فهامي جريدة الأمة لصاحبها شيخ الصحفيين الجزائريين
إبراهيم أبي اليقظان تنشر مبكرا مقالات عن فلسطين وهي تحت الانتداب البريطاني يومئذ،
تقاوم سيطرته من جهة، وتجاهد لمنع قوافل اليهود من الاستيطان، والتي تقاطرت من كل
حذب وصوب على أرض فلسطين لإنشاء وطن قومي لليهود بتواطؤ من الدول العظمى، وعلى
رأسها سلطات الانتداب البريطاني والولايات المتحدة الأمريكيّة، ففي مقال نشرته جريدة الأمة
بعنوان "فلسطين الدائمة تنتصر لنفسها حين خذلها العالم"، تحدّث فيه الكاتب عن التواطؤ
المفضوح بين العصابات الصهيونيّة وسلطات الانتداب البريطاني التي لم يكفها أن نكثت بوعدها
الذي قطعتة عن نفسها برفع الحماية عن فلسطين، مقابل أن يقاتل أبنائها إلى جانبها في أتون
الحرب العالميّة الأولى، بل عاثت في الشعب الفلسطيني تفتيلا وتشريدا وتهجيرا من أرضه، يصف
الكاتب قدسيّة فلسطين مهبط الوحي والرّسالات السّماوية، التي لم يُراع المستعمرون حرمتها
وجلال مكانتها: "لئن اضطرب العالم وهاج وماج، فما ينبغي لفلسطين - وهي مهبط الوحي
ومقرّ رسل السّلام من الله إلى سائر الأنام - أن تُمسّ بسوء أو تصاب بأذى.

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الرابعة - العدد 164 - 19 شوال 1370هـ / 23 جويلية 1951م.

لكن اتجهت عيون الاستعمار النارية إلى بلاد الله الآمنة المطمئنة فأقضت مضجعها، وأذاقتها لباس الجوع والخوف، فما كان أجدرها أن تُغمض جفنها عن مبعث أنوار الهداية، وجامعة السلام الأُمِّيَّة، ومهد الأديان السّماويَّة، أولى القبليتين، وثالث الحرمين، ومقرّ البراق، ومعراج سيّد الوجود من الأرض إلى السماء.... ولكن للاستعمار - ويا للأسف - سياسة وقحة، لا تعرف شيئاً من معاني الحياء، ولا تقيم وزناً لقدسيّة الدّين، ولا تفهم أيّ قيمة في الوجود إلّا المادة.¹

ثمّ يُعرِّج الكاتب على الخديعة التي أُستدرج إليها العرب عن طريق الشريف حسين، وذلك من خلال وعد أعطته له بريطانيا بإنشاء إمبراطوريّة عربيّة خالصة مقابل أن يُقاتل الأتراك ويُخرجهم من البلاد العربيّة التي كانت تحت سلطتهم، وقد كُلت الخطة بنجاح باهر بالنسبة للبريطانيين، وجرّ العرب أذيال الهزيمة بعد أن اقتتل المسلمون فيما بينهم، فضغفت شوكة العرب وشوكة الأتراك، فاستفرد المستعمرون بهم، ولم ينشئوا إمبراطوريّة عربيّة، بل اقتطعوا سويداء قلب العرب والمسلمين فلسطين، وجعلوها وطناً قومياً لليهود، يقول الكاتب: " ففي الوقت الذي تقطع على نفسها عهداً، يجعلها مع شقيقاتها إمبراطورية عربيّة، مكافأة لشريف حسين على ما قام به في وجه دولته تركيا أيام محنتها، في هذا الوقت نفسه عينه كانت تقطع على نفسها عهداً آخر، يجعلها وطناً قومياً لبلفور² وقومه، تحت وصايتها، بموجب عقد من جمعيّة الأمم³ .

ويعود الكاتب إلى الموروث الديني، فيستدعي منه شخصيّة النبي يونس عليه السلام الذي التقمه الحوت، ويعقد مقارنة بين حوت يونس عليه السلام، والقرش الصهيوني المفترس، يقول الكاتب: " فكانت فلسطين كنبئها يونس بن متى حين أبق، التقمها حوت اسرائيل، ثمّ التقم هذا الحوت الحوت البريطاني، إلّا أنّ النبي يونس عليه السلام دام في بطن الحوت أربعين يوماً، على ما روته الأخبار، وفلسطين مرّ عليها نيف وعشرون عاماً، وهي ما زالت ولم تنزل تُعاني ما لم يُعانه البشر من صنوف الفتنة وضروب البلاء، وكأنّ الله تعالى لما اختار فلسطين وجعلها مهبط

1 - الأُمّة: العدد 78 - 1936/06/09م. المقال من دون إمضاء.

2 - وزير خارجية بريطانيا.

3 - الأُمّة: العدد 78 مصدر سابق.

وحيه ومقرّ أنبيائه، جعل كذلك عذابها مضاعفاً، وشقاءها مزدوجاً، فكان الاستعمار استعماريين: استعمار اليهود واستعمار الانكليز.¹

ويحتّم الكاتب مقاله، بالإشارة إلى التغيّر الحاصل في الوعي الفلسطيني، الذي أيقن خطأه عندما طمع في إحسان المستعمر، وفي عطف الأصدقاء، فاعتمد على نفسه، وأصبحت بطولات الشعب الفلسطيني مثار إعجاب أحرار العالم، يقول الكاتب: "ولقد أدركت فلسطين غلظتها، فقامت تُجاهد جهاد المستميت، وتناضل لاسترجاع عزّها وكرامتها، بما أوجب لها الإكبار والإعجاب والعطف من العالم الإسلامي. ولعلّه يدرك واجبه نحوها كما أدركت واجبها نحوه، فيمدّ إليها يد العون والمساعدة لاسترجاع ما ضاع لها من حقّ، كما مدّت أيدي المساعدة نحو خصومها على تقرير الباطل وتأييد العدوان."²

ولا نبرح جريدة الأمة حتى نعثر على مقال بعنوان "انكلترا تطفئ حريق فلسطين بأنابيب البترول"، يتعرّض فيه الكاتب بالنقد اللاذع لسياسة المستعمر البريطاني القائمة على صبّ الزيت على النار، في معالجة انتفاضة الشعب الفلسطيني المدافع عن أرضه ومقدّساته، يقول الكاتب: "غمرتنا الحوادث المحليّة في هذه الفترة، فأشغلتنا عن سكب دمعة حارّة عن أختنا الشقيقة "فلسطين"، التي يُترل بها الاستعمار البريطاني في هذا العصر عصر المدنيّة والنور، ما كان يُترله الاستعمار الاسباني بفردوس الإسلام المفقود "الأندلس" وتلك العصور المظلمة.

اصطدم رأس انكلترا بصخرة فلسطين المقدّسة فارتجّ، ففقدت رشدها واختلّ توازنها، فأخذت تفعل في فلسطين ما يفعل الجنون في المارستان³، ولكنّ هذا يُهلك نفسه فقط، وتلك تُهلك معها أمة كاملةً، فمهما بلغ الجنون في جنونه فلا يعدو أن يُطفئ حريقاً ألهبه هو نفسه، بصبّ برميل من البترول عليه على أمل إطفائه، ذلك عين ما فعلته وتفعله انكلترا في فلسطين اليوم!⁴

ويعدّد الكاتب جرائم المستعمر البريطاني ضدّ الشعب الفلسطيني، من تقتيل وتشريد، ونفي، وهدم للمنازل على رؤوس أهلها، دون أدنى اعتبار لمبادئ الحرب، ولا القيم الإنسانيّة: "

1 - المصدر السابق.

2 - المصدر نفسه.

3 - المارستان: المصحّة أو المستشفى.

4 - الأمة: العدد 141 - 1937/10/16م. المقال من دون إمضاء.

حلّت المجلس الإسلامي الأعلى، وعزلت رئيسه الجليل سماحة " أمين بك الحسيني"¹، وحاصرته في المسجد الأقصى بما اضطرّه أن يهاجر منها إلى سوريا، ليتمكن أن يواصل دفاعه المجيد عن البلاد، صادرت أموال اللجنة العربيّة، ومنعت كلّ مورد لها، وقطعت وسائل المواصلات عن أبناء فلسطين، وهكذا تفنّنت إنجلترا في ضروب التنكيل والتعذيب لأهل فلسطين، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بدون أن تقرّ لأفاعيلها حسابا ولا عقابا... فلتمعن إنجلترا فإنّها بقدر إمعانها فيه تُسارع الخطى إلى حتفها، وبقدر عتوّها تجعل من ضعف العرب قوّة، ومن تشتتّهم وحدة، ومن تعاديبهم صداقة، ومن عزلتهم حصانة.²

أمّا الشيخ عبد الحميد بن باديس فقد افتتح عددا من أعداد الشهاب بمقال تحت عنوان " فلسطين الشهيدة"، في غاية الأهميّة قياسا بالظرف الزمني الذي كُتب فيه، حتى ليخيّل للقارئ أن بن باديس قد عاصر نكبة فلسطين ومحتها القاسية، وهو قد قضى قبل ذلك بثمان سنين، الأمر الذي يؤكّد بعد نظر الرّجل ودرايته بالمؤامرة الدوليّة لتقسيم فلسطين واستعمارها بشرذمة من شذاذ الآفاق، يقول بن باديس: "رحاب القدس الشريف مثل رحاب مكة والمدينة، وقد قال الله في المسجد الأقصى في سورة الإسراء: {الذي باركنا حوله}. ليعرّفنا بفضل تلك الرّحاب، فكل ما هو واقع بها كأنّه واقع برحاب المسجد الحرام ومسجد طيبة.

حمى الإسلام تلك الرّحاب من أيّامه الأولى، وحمى جميع مقدّسات جميع الملل، وكفّ عادية بعضهم عن بعض، وعاش اليهود تلك القرون الطويلة ينعمون برخاء العيش وحرية الاعتقاد، واحترام المعاهد، تزواج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كلّ ذلك الجميل، وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة، فأحالوها جحيما لا يطاق، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحا لا يندمل"³

ويوجّه الكاتب خطابه لطائفة كبيرة من اليهود، ويبيّن لهم أنّ الصراع بين العرب والمسلمين ليس صراعا بين اليهوديّة والإسلام، فقد تجاوزت الديانات الثلاث في ودّ وتسامح

¹ - أمين الحسيني: مفتي فلسطين وحمي حماها.

² - الأمة: العدد 141- المصدر السابق.

³ - الشهاب: ج06- مج 14- جمادى الثانية 1357هـ/أوت 1938م- ص 307.

واحترام ردحا من الزمن، لكنّ صراع المسلمين والعرب مع تلك الحركة العنصريّة الصهيونيّة التي تحاول اجتثاث الكنعانيّين من أرضهم، ومحو معالم الإسلام من فلسطين، مع العلم أنّ هناك من اليهود من يُنكرون ذلك ويرفضونه، ويحمّل بن باديس مسؤوليّة الدفاع عن فلسطين ومقدّساتها مسيحيّة كانت أو إسلاميّة لكلّ مسلم على وجه الأرض، ويجعل الجرائم المرتكبة من طرف الصهاينة في ثالث الحرمين الشريفين من حيث الفضاءة وانتهاك قدسيّة المكان في مرتبة الجرائم التي تُرتكب في مكّة المكرّمة أو المدينة المنوّرة: "نقول: لقسم كبير من اليهود، لأنّ هنالك من اليهود عدداً كثيراً يستنكرون... وكلّ مسلم مسؤول أعظم المسؤوليّة عند الله تعالى على كلّ ما يجري هنالك من أرواح تُزهق، وصغار تُيتم، ونساء تُرمل، وأموال تُهلك، وديار تُخرّب، وحرّمات تُنتهك، كما لو كان ذلك كلّه واقعا بمكة أو بالمدينة، إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع."¹

وبدورهم كتّاب المقالة السياسية الطرقيون - على قتلهم - تناولوا قضية فلسطين، وما يحدث بها من انتهاكات لقدسيّة الحرم الإبراهيمي الشريف، غير أنّ الملاحظة التي يمكن تسجيلها هنا أنّ هذه المقالات كانت هزيلة من حيث الشكل والمضمون، فضلا عن غياب اللهجة الحماسيّة، التي حلّت محلّها لهجة الاستجداء والمهادنة، وأحيانا الممالقة السمجة التي تصل إلى حدّ تزييف الحقائق، ففي مقال بعنوان "المثل العليا لملوك العرب" راح الكاتب يُثني على ملوك العرب في الدفاع عن بيت المقدس بأنفسهم وأموالهم، ولو جارينا صاحب المقال لاقتنعنا أنّ هؤلاء الملوك هم من جيل محمد الفاتح، وصلاح الدّين الأيوبي، وطارق بن زياد، ولا مرء في أنّ كلّ مهتمّ بالتاريخ العربي المعاصر - حتى تلاميذ المدارس - يعرف أنّ ضياع فلسطين كان بسبب ملوكها المتخاذلين حيناً، والمتواطئين أحيانا أخرى على اغتصاب فلسطين وانتهاك قدسيّتها، يقول الكاتب في تكلف واضح: "...قد تبارت ملوك العرب في بذل أنفسهم وأموالهم، الذّب عن حوزة البيت الشريف، وكأني بهم يطبّقون على أنفسهم² قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ } الآية 111 سورة التوبة."

¹ - المصدر السابق - ص 308.

² - عدة بن تونس: المرشد - العدد 15 - السنة الثانية - ربيع الثاني 1367هـ / فبراير 1948م.

وعلى خلاف المقالات السياسيّة للكاتب الجزائريين حول قضية فلسطين، كبن باديس، والبشير الإبراهيمي، أو الشيخ أبي اليقظان، ومحمود بوزوزو وغيرهم، نجد كاتب جريدة المرشد حذرا في انتقاء الألفاظ، وفي اختيار التراكيب، فلا نجد منه تقريبا صريحا للدول الغربية المتواطئة مع الحركة الصهيونية، وكل ما نعثر عليه دعوة إلى التوفيق بين المتخاصمين أي العرب واليهود، ومناشدة الطرفين نبد العنف والتعايش في ودّ وسلام، وكأننا لسنا أمام حركة عنصريّة استعماريّة، لا تبحث عن إقامة الشعائر الدينيّة لليهود بل هدفها إزالة العرب من فلسطين وإبادتهم عن بكرة أبيهم، وتهجير لشعب من أرضه ووطنه الذي أبصر فيه النور من فجر التاريخ، يقول الكاتب بلهجة مُستكينة خافتة: "إنّ العاطفة الدينيّة لازالت حيّة تُرزق في قلوب الناس، وإنّ اختلفوا في الجنسيّة والأديان، ونحن نرجو بواسطة هذه العاطفة الطيبة الغالية، أن يحتفظ كلّ من المتخاصمين على عاطفته تلك، ويسألها إن شاء سرّا أو جهرا، هل تسمح له بهرق الدماء، وزهق الأنفس في أرض لا يجمل بنا فيها أن لا نعبد فيها إلّا الله، وأن لا نتقرّب إليه فيها إلّا بما يرضيه، وعليه فهل الاعتداء والاعتصاب والسلب والتّهيب ممّا يرضيه؟"¹

ولعلّ أرقى ما كتّب عن القضية الفلسطينيّة، شكلا ومضمونا، تلك المقالات التي خطّها يراع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والتي بثّ فيه أحزان الأمة العربيّة والإسلاميّة، حول جرح فلسطين الذي طال اندماله، وصوّر فيها نكبة فلسطين ومأساة شعبها، كلّ ذلك في قالب فنيّ بديع يجمع بين جزالة الأسلوب، ودقّة المعنى، والتّحليل العميق، والعاطفة الحماسيّة الجياشة التي تعكس أنفة الجزائري وعزّته وشموخه. ففي مقال بعنوان "تصوير الفاجعة" يصف فيه الإبراهيمي جرح فلسطين الدامي، ويُعزيها بأنّ لها وشائج الدين والضاد تربطها بالجزائر، وأنّ الجزائريين على قلة حيلة يدهم، والحناق المضروب عليهم من طرف الاستعمار الفرنسي، لا يُمكنهم أن يُهملوا فلسطين أو ينسوا مُصائبها، يقول الإبراهيمي: "يا فلسطين! إنّ في قلب كلّ مسلم جزائريّ من قضيتك جروحا داميّة، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محتكك عبرات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقّك كلمة مُتردّدة هي: فلسطينُ قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصّغير، وفي عنق كلّ مسلم جزائري لك - يافلسطين - حقٌّ واجبُ الأداء، وذمامٌ مُتأكّد الرّعاية، فإن فرط في جنبك، أو ضاع بعض

¹ - المصدر السابق.

حقك، فما الذنب ذنبه، وإنما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه، والمرء وداره، والمسلم وقلته.¹

ويعود الكاتب إلى ماضي فلسطين ليُقلّب صفحات التاريخ، مُثبِتاً أحقية المسلمين في أرض فلسطين، لأنّهم حرّروها من أيدي الرومان، ودانت لهم بالعدل والإحسان لا بجدّ السيف كما يدّعي بعض المتقولين، ثمّ إنّ أول من عمّرها هم الكنعانيون أسلاف الفلسطينيين، وقبل هذا وذاك فالذي يؤمن بجميع الأنبياء أحقّ بهذه الأرض ممن يؤمن بعض الكتاب ويكفر بعض، يقول الكاتب في حجاج تاريخي ديني منطقي: "يا فلسطين! ملكك الإسلام بالسيف ولكنه ما ساسك ولا ساس بنيك بالحيف، فما بال هذه الطائفة الصهيونية اليوم تُنكر الحق، وتتجاهل الحقيقة، وتجدد الفضل، وتكفر بالنعمة، فتزاحم العربي الوارث باستحقاق عن موارد الرزق فيك، ثمّ تغلو فتزعم أنّه لا شرب له في ذلك المورد.

ما بال هذه الطائفة تدّعي ما ليس لها بحق، وتطوي عشرات القرون لتصل -بسفاهتها- وعد موسى بوعد ((بلفور))، وإنّ بينهما لمدّ وجزراً من الأحداث وجذباً ودفعاً من الفاتحين... ولو أنّ السيوف الإنجليزية أعمدت، والذهب الصهيوني رجع إلى مكانه، وعُرضت القضية على مجلس عدل وعقل لا يستهويه بريق الذهب، ولا يُرهبه بريق السيوف، لقال القانون: إنّ ثلاثة عشر قرناً كافيةً للتمكك بحقّ الحيازة، وقال الدين: إنّ أحقّ الناس بمدافن الأنبياء هم الذين يؤمنون بجميع الأنبياء، وقال التاريخ: إنّ العرب لم يترعوا فلسطين من اليهود، ولم يهدموا لهم فيها دولةً قائمةً، ولا ثلّوا لهم عرشاً مرفوعاً، وإنما انتزعوها من الرومان، فهم أحقّ بها من كلّ إنسان.²

ويُسلّط الإبراهيمي أضواءه الكاشفة على الشخصية اليهودية، فيحلّلها تحليل النفساني الماهر، فيصفها بأنّها شخصية مُعقّدة جشعة، قائمة على عبادة المال، وسفك الدماء، بواسطة الأول تشتري الضمائر، والثاني تُرهب الشرفاء، يقول الكاتب: "إنّ الصهيونية فما بلونا من ظاهر أمرها وباطنه نظام يقوم على الخاحام والصيرفي والتاجر، ويتسلّح بالتّوراة والبنك والمصنع، وغايتها جمع طائفةٍ قدّر لها أن تعيش أوزاعا بلا وازع، وقدّر لها أن تعيش بلا وطن،

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الأولى - العدد 05 - 20 شوال 1366هـ / 05 سبتمبر 1947م.

² - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 05. مصدر سابق.

ولكن جميع الأوطان لها، فجاءت الصهيونية تحاول جمعها في وطن تُسميه قولا فلسطين، ثم تُفسره فعلا بجزيرة العرب كلها، فهو في حقيقته استعمار من طراز جديد في أسلوبه ودواعيه وُحججه وغاياته، يجتمع مع الاستعمار المعروف في أشياء، وتُفرق بينهما فوارق، منها أنّ الصهيونية تعتمد قبل كل شيء على الذهب، وتشتري به الضمائر والأرض والسلاح، وتشتري به السكوت والنطق، وتشتري به الحكومات والشعوب، تعتمد عليه وعلى الحيلة، والمكر والتباكي والتصاغر في حينه، وعلى التّنمّر والإرهاب في فرصته.¹

لم يترك الإبراهيمي للصهيونية شيئا تحتفي وراءه، فقد عراها وكشف سوءها كما تكشف ورقة التوت اليعاسيب، فالصهيونية كما وصفها الكاتب نظام يعتمد على الذهب لشراء الذمم في المحافل الدولية، لكسب مزيد من أصوات الباطل والزيف إلى صفها، وهي إلى جانب ذلك تقوم على الحيلة والمكر والحُبث والتباكي والتصاغر في أوقات ضعفها، وعلى التّنمّر والاستئساد والتجبر والإرهاب كلما تهيأت الفرصة لها.

ولما صدر قرار تقسيم فلسطين رقم 181 بتاريخ 29 نوفمبر 1947 دّج الإبراهيمي مقالا يصف فيه هذا القرار الجائر، وما انجر عنه من عواقب وخيمة على الشعب الفلسطيني، الذي هجر من أرضه، وأصبحت تتقاذفه المخيمات والملاجئ في شتى أقطار المعمورة، يقول الإبراهيمي واصفا الاقتراع المسرحي الذي أسفر عن سلب الحق من أهله ومنحه لغير أهله في صفقة سياسية دنيئة بين الدول العظمى والعصابات الصهيونية: "أسفر الانتخاب عن تقسيم فلسطين تحديا للعرب وحقهم، وللمسلمين ودينهم، فكان حظ اليهود منها بغير انتخاب ولا قرعة، الجهات الخصب، المتصلة بالعالم، القرية من الصريخ، الموطأة الأكناف، المأمونة الأمداد والمرافق، وكان حظ العرب منها الجهات الرملية القاحلة والجبلية الجرداء، وكان حظ البيت المقدس ميراث النبوة عن النبوة أن يصبح إرثا لأحفاد الصليبيين... وإنا لنعلم الاعتبارات التي بُني عليها هذا التقسيم، والمكائد التي انطوى عليها، والمقاصد التي رمى إليها، وإنا لنعلم الدواعي التي حملت الناطقين على النطق، والساكنتين على السكوت. وإنا لا نغتر بما حاكوا وما لاكوا، ولا نرتد على أعقابنا بما حذروا وما أذروا، ولا نعتبر الحياذ إلا كيادا، وإنا نعتقد أنّهم جميعاً

¹ - المصدر السابق.

سيدوقون وبال أمرهم، وأنّ مكرهم سيحيقُ بهم، وأنّ تشتيتهم لشمّل فلسطين فاتحة لتشتيت شملهم، وأنّ النّار التي أشعلوها في فلسطين ستلتهمهم جميعاً.¹

وبأسلوب ساخر مُتهكّم يُعرّض الإبراهيمي باليهود ويصفهم بالجبن، فيقول: "فات اليهود أن يأخذوها بالسيف من العرب، فيكفروا بعد عشرات القرون عن سيّئة اجترحها أسلافهم يوم قالوا: يا موسى إنّ فيها قوما جبارين، فاتهم ذلك، وأعوزتهم الخصائص الدّمويّة التي يكونون بها كذلك، فلجئوا إلى ما هو الأشبه بهم لا بها، وهو... شراء القويّ ليكون لهم مُعيناً، وبجمايتهم رهيناً، وشراء المعلّقات اللّافطة، والأصوات ولو كانت... خافتة!..²

يسخر الكاتب من اليهود لأنّهم نكصوا على أعقابهم يوم دعاهم النبي موسى -عليه السّلام- لدخول فلسطين فأبوا وعصوه، ولم ينصاعوا لأمره بحجّة أنّ المدينة فيها قوم جبارون، يقصدون الكنعانيين، وفي ذلك تهكّم من الكاتب من دناءة وخسّة وضعة الشخصية اليهوديّة الجبانة، مومئاً لقوله تعالى على لسان سيّدنا موسى -عليه السّلام- { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) } سورة المائدة الآية 20/21

ويطفح الغضب في نفس الشيخ فيرسلُ شواظ السخرية على اليهود، ويصبّ حمم التهكم عليهم وعلى جنسهم المشؤوم، فيقول: "ما أشأم الصّهيوّية على فلسطين، وما أعقّ صهيون لفلسطين، وما أضلّ ضلال اليهود إذ يجرون وراء خيال الوطن القومي، فيجرّون البلاء لفلسطين، ويزهقون روح سام بمادّة الغرب المسمومة، وسبحان من خصّ العرب بالعامريّ، واليهود بالسّامري.³

و ينبّه الإبراهيمي إلى الأطماع التّوسعيّة للحركة الصهيونيّة التي لم تكتف بأرض فلسطين، وإنّما فلسطين أول القطر فقط، فهي تُخطّط لتبتلع جزيرة العرب برُمّتها وأرض الكنانة، وكلّ

¹ - ونعود إلى فلسطين: البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 21- 21 ربيع الأول 1367هـ/ 02 فيفري 1948م.

² - ونعود إلى فلسطين (02): البصائر: السلسلة الثانية- العدد 22- 28 ربيع الأول 1367هـ/ 09 فيفري 1948م.

³ - ماذا نريد لها وماذا يريدون لفلسطين- البصائر- السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 23- 05 ربيع الثاني 1367هـ/ 16 فيفري 1948م.

الذي يمكن أن تصل إليه أذرعها الأخطبوطية، مُحَقَّقة بذلك أحلاما توراتية بتأسيس دولة حدودها من الفرات إلى النيل، يصف الكاتب الخطوة الأولى التي حققها بنو صهيون وهي الاستيلاء على فلسطين، وهم يخطّطون للأخرى وهي: "وأخرى يُضمّرها صهيون وقد عرفها النَّاس من امتداد أحلامه، ومآثورات المهوسين من أسلافه، وهي أنّه يحرص كلّ الحرص على وضع قدمه في أرض فلسطين باسم وطن قومي ولو كان أفحوص قطة، وباعتراف دولي ولو بشراء الأصوات... إنَّ أحلام صهيون قد عرفها النَّاس وعرفوا أنّها تمتدّ إلى جزيرة العرب كلّها وإلى جزيرة سينا، وقطعة من أرض مصر، ومن عاش آلاف السنين في أضغاث، ولم تتحقّق له واحدة منها في شبر، حقيقٌ بأن يعيش آلافا أخرى من السنين في حواشي الأضغاث بعد أن تحققت له في آلاف الأميال."¹

والإبراهيمي بوصفه مصلحاً وقائداً فكرياً وروحياً لا يقف عند بذر الأمل والتفاؤل، بل يعمل على بيان واجب العرب عموماً وأهل شمال أفريقيا والجزائريين خصوصاً تجاه القضية، وهذا لإحساسه بالمسؤولية المنوطة به من موقعه الجغرافي والتاريخي، ففي مقال بعنوان " فلسطين.. واجباتها على العرب " يقول: " إنَّ الواجب على العرب لفلسطين يتألف من جزأين: المال والرجال، وإنَّ حظوظهم من هذا الواجب متفاوتة بتفاوتهم في القرب والبعد، ودرجات الإمكان وحدود الاستطاعة، ووجود المقتضيات وانتقاء الموانع، وإنَّ الذي يستطيعه الشرق العربي هو الواجب كاملاً بجُزأيه لقرب الصريخ، وتيسر الإمداد... وواجب الدّول العربيّة التصميم الذي لا يعرف الهوادة، والاعتزام الذي لا يلتقي بالهويناء، والحسم الذي يقضي على التردد... وواجب زعماء العرب أن يتفوقوا في الرأي ولا يختلفوا، وأن يتوقّفوا عيوب الرّعاة ونقائصها من تطلّع لرياسة عاجلة، أو تشوّف لرئاسة آجلة، وأن يوجّهوا بنفوذهم جميع قوى العرب الروحية والمادّية إلى جهة واحدة هي فلسطين... وواجب كتّاب العرب وشعرائهم وخطبائهم أن يلمسوا مواقع الإحساس ومكامن الشعور من نفوس العرب، وأن يؤججوا نار النخوة والحمية والحفاظ فيها، وأن يغمزوا عروق الشرف والكرامة والإباء منها... و واجب شعوب الشرق العربي أن تندفع كالسيل وتصبّح صهيون وأنصاره بالويل، وأن تبذل لفلسطين

¹ - المصدر السابق.

ما تملك من أموال وأقوات.... والله يميناً برّة لو أنّ هذه القوى - روحيتها وماديتها - انطلقت من عقالها وتضافرت وتوافرت، لدفنت صهيون ومطامعه وأحلامه إلى الأبد¹.

أما عرب الشمال الإفريقي فيرى في مقال له بالعنوان نفسه: "أنّ عليهم لفلسطين حقاً لا تسقطه المعاذير، ولا تقف في طريقه القوانين مهما جارت، ومهما كانت فرنسية من (ماركة) (خصوصي للمستعمرات)، هذا الحق هو الإمداد بالمال، ومن أعان بالمال فقد قام من الواجب بأثقل شطريه... إن فلسطين ليست في حاجة إلى آرائنا فلها من مداره العرب ما هو كروية العين حساً... وليست في حاجة إلى رجالنا فلها من أشبالها وممن والأهم عديد الحصى، وما فيهم إلّا من يعتقد أنّ موته حياة لوطنه، وأنّ نقصه من عديد قومه زيادة فيهم، ومهما استمدّ الصّهيون الرجال من أوروبا فأمدّكم بالأخطا والأنباط، والعباديد والرّعايد، من رباب التّعيم، وعشاق الحياة، أمشاج التّسب وأمساخ الحضارة."²

وقد أنشئت سنة 1948 "الهيئة العليا لإغاثة فلسطين" مؤلفة من العلماء الجزائريين والشخصيات السياسية الوطنية الجزائرية تجمع الأموال. وقد كان لهذه المقالات الأثر البالغ في نفوس الجزائريين، فتدفّقوا صوب بيت المقدس متطوّعين للجهاد فيها، وكثير منهم نال الشهادة على أعتاب المسجد الأقصى³.

ويلاحظ فيما أوردناه من كلام الشيخ الإبراهيمي - رحمه الله تعالى - إتباع منطق الأولويات والإمكانات في خدمة القضية ووضع كل في موقعه الذي يدفع منه صهيون واستيطانه لكن باءت صيحات المصلحين، وجهود المخلصين، وجهاد الصادقين، بالفشل في المعركة المسلحة مع الصهاينة في الحرب المذكورة، نتيجة التخاذل والفرقة وحتى الخيانة، ومع هذا يواصل الشيخ الإبراهيمي واجب الدعوة بالوخز والتأنيب والمواجهة الصريحة فيستقبل العيد بهذا التساؤل: "أي عيد لمن ضيع فلسطين؟"

النفوس حزينة، واليوم يوم الزينة، فما نصنع؟

إخواننا مشرّدون، فهل نحن من الرحمة والعطف مجردون؟

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 30 - 25 جمادى الثانية 1367هـ / 05 أبريل 1948م.

² - المصدر نفسه.

³ - لمزيد من التّفصيل: ينظر: عبد الغني إبراهيم بلقيروس، صفحات من جهاد الجزائريين بفلسطين 1948-1949 - دار الخلدونية للنشر والتوزيع - ط01-1431هـ/2010م - ص 69.

تتقاضانا العادة أن نفرح في العيد ونبتهج، وأن نتبادل التهاني، وأن نطرح الهموم، وأن نتهادى البشائر.

وتتقاضانا فلسطين أن نحزن لمحتتها ونغتم، ونعنى بقضيتها ونهتم.

ويتقاضانا إخواننا المشردون في الفيافي، أبدانهم للسوافي، وأشلاؤهم للعوافي، ألا ننعنم حتى ينعموا، وألا نطعم حتى يطعموا.

ليت شعري!.. هل أتى عبّاد الفلس والطين، ما حلّ ببني أبيهم في فلسطين؟ أيها العرب: لا عيد، حتى تنفذوا في صهيون الوعيد، وتُنجزوا لفلسطين المواعيد، ولا نخر، حتى تقذفوا بصهيون في البحر، ولا أضحى، حتى يظماً صهيون في أرض فلسطين ويضحى.

أيها العرب: حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء، وحرام أن تطعموا وإخوانكم جياع، وحرام أن تطمئن بكم المضاجع وإخوانكم يفترشون الغبراء.

أيها المسلمون: افهموا ما في هذا العيد من رموز الفداء، والتضحية والمعاناة، لما فيه من معاني الزينة والدعة والمطاعم، ذاك حق الله على الروح، وهذا حق الجسد عليكم..

إن بين جنبيّ ألماً يتترى، وإن في جوانحي ناراً تتلظى، وإن بين أناملي قلماً سُمته أن يجري فجمح، وأن يسمح فما سمح، وإن في ذهني معاني أنحى عليها الهم فتهافتت، وإن على لساني كلمات حبسها الغم فتخافتت.

ويعارض الإبراهيمي أبا الطيّب المتنبّي في قصيدته الشهيرة:

عيد بأية حال قد عُدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد¹

يفتتح مقاله بأبيات تسيل لوعة وأسى بسبب الهمّين، همّ الجزائر المستعمرة، وهمّ فلسطين الجريحة:

للناس عيد ولي همّان في العيد

فلا يغرّك تصويبي وتصعيدي

همّ التي لبثت في القيد راسفة

قرناً وعشرين في عسف وتعييد

¹ - أبو الطيّب المتنبّي: الديوان، دار العودة، بيروت، د.ط، 1403هـ/ 1983م، ص 506.

وهمّ أخت لها بالأمس قد فنيت
 حُماهما بين تقتيل وتشريد
 كان القياض لها في صفقة عقدت
 من ساسة الشر تعريباً بتهويد
 جرحان ما برحا في القلب جسّهما
 مود وتركهما لشقوتي مود
 ذكرت بيتاً له في المبتدا خبر
 في كل حفل من الماضين مشهود
 إن دام هذا ولم تحدث له غيرٌ
 لم يبك ميتٌ ولم يفرح بمولود¹

ثم يتجه - بعد ذلك - للعرب مخاطباً إياهم بما هم أهل له من تقريع وتأنيب فيقول: " يا أيها العرب: ها هو ذا عيد الفطر قد أقبل، وكأني بكم تجرّون فيه على عوائدكم فتُنفقون المال بلا حساب على الحُلل يرتديها أولادكم، وعلى الطعام والشراب توفرون منه حظّاً بطونكم، وكأني بكم مُتسيرون فيه على مآثوركم من اللهو واللعب وإرخاء الأعنة لمطايا الشهوات من جوارحك، فتركبون منها ما حلّ وما حرّم، كلّ هذا وأمثاله منه سيقع، فماذا أعدّتم للأخرى من الواجبات التي أدنى لروح العيد، وأجلب لسرور الرجال في العيد، وأقرب لرضى الله، وهي

1 - آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الرابع (1952 - 1954 م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1997 م، ص 215-218.

ينظر أيضاً: مجلة "الأخوة الإسلامية"، العدد الخامس عشر، بغداد، 1 شوال 1372 هـ الموافق لـ 12 جوان 1953 م، مع التقديم الآتي: ما زال سماحة الحبر الجزائري العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يحلّ بين ظهرانينا، ولما وجد أن رمضان المبارك قد استعدّ للرحيل وأن هلال شوال أخذ يقترب سريعاً/ والعالم الإسلامي لا يزال كما عهدته يستقبل عيداً ويودع آخر لا يلتفت إلى قبلة الجريح فلسطين الشهيدة وشرفه المثلوم ودينه المضيع، ولما أيقن سماحته أن العالم الإسلامي لا يزال في لُهو وغفلته اعتصره الألم فنفت ذلك القلب الذكي الكبير ما سطره اليراع في هذه الكلمة القيّمة الموجهة إلى العالم الإسلامي في مناسبة عيد الفطر المبارك، وقد اختصّ بها "الأخوة الإسلامية" فجزاه الله أحسن ما يجزي عامل عالم مؤمن عن عمله.

حقوق فلسطين وأهل فلسطين، ومشردى فلسطين، ويطامى فلسطين، وأيامى فلسطين، والمسجد الأقصى من فلسطين؟! أم قست قلوبكم فأنتم لها لا تذكرون؟"¹

ويدعو الكاتب العرب إلى الرجوع إلى جادة الصواب والاعتراف بتقصيرهم، وخطأهم في الحفاظ على فلسطين، وفي حمايتها من يد الغدر الآثمة، هذا الاعتراف بمثابة مراجعة للنفس واستخلاص للعب والدروس من أخطاء الماضي، يوجه الإبراهيمي نداءه للعرب عامة حكّاما ومحكومين: "أيها العرب: إن الذنب في نفسه ذنب، وإنّ عدم الاعتراف به يُصيرُه ذنبن، ولكنّ التوبة الصادقة المصحوبة بالعمل تمحوهما معا، فتعالوا نعترف بما يعلمه منا، فإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة."²

ويحمل الكاتب دون مجاملة أو مدهنة أو تزييفٍ للتاريخ وحوادثه، المسؤولية الكاملة للعرب في ضياع فلسطين وتشريد شعبها وتدنيس مقدّساتها، يقول الإبراهيمي في تقرّيع وتعنيف واضحين: "ألستم أنتم الذين أضعتم فلسطين بجهلكم مرة، وخذلكم وتخاذلكم ثانية، وباغتراركم وتغافلكم ثالثة، وبقبولكم للهدنة رابعة، وباختلاف ساستكم وقادتكم خامسة، وبعدم الاستعداد سادسة، وبخيانة بعضكم سابعة، وما عدوكم أعلم به منكم ثامنة، وفي أثناء ذلك كلّ كتب الحفيظان عليكم من الموبقات ما يملأ السجّلات."³

ويربط الكاتب الأسباب بالمسببات ليخلص إلى النتيجة، نتيجة خيانة العرب لفلسطين، تواطئهم على بيعها في سوق النخاسة السياسية، فيقول: "كانت نتيجة النتائج لذلك كلّ أن أضعتم فلسطين، وأضعتم معها شرفكم، ودفنتم في أرضها مجد العرب، وعزّ الإسلام، وميراث الإسلام فحقّ - حينئذ قوله: "ويل للعرب من شرّ قد حلّ ولا أقول قد اقترب."⁴

ويبلغ الحماسُ بالكاتب ذروته عندما ينحني باللائمة على بعض الأقلام الصحفية التي تصف فلسطين بالجرّية، فيردّ في لهجة شديدة عنيفة، فيقول: "تعاني فلسطين المجاهدة محنة لا تُحلُّ إلا بعزائم وعقائد وإيمان، تظاهرها أموال ورجال، على كثرة مصائبها وتفاوت تلك المصائب في الشدة والنكاية والإيلام، فإنّ أشدّ تلك المصائب وأوجعها إيلاماً تحذلق بعض الأقلام في

1 - المصدر السابق.

2 - المصدر نفسه.

3 - نفسه.

4 - نفسه.

تسميتها بـ(الشهيدة) كأنما تنعاهما قبل الموت، ونعيق بعض الغربان البشرية بأخبار الهزائم وتسويد بعض الصحف لأطرافها حداداً عليها. ما هذه التفاهة في الذوق أيها الصحفيون! أماتت فلسطين حتى تصفوها بـ(الشهيدة) وتجللوا صحفكم بالسواد حداداً عليها، إن لم يكن فعال فليكن حسن فال. إن فلسطين حية ولكنها تجاهد، ومأزومة ولكنها تكابد، ولفألكم الخيبة. أتدرون أن ذوقكم هذا لا يخلو إلا لخصوم فلسطين؟"¹

ومن المقالات الطويلة الجميلة التي كتبت عن فلسطين في الجزائر، مقالة سطرها قلم محمود بوزوز في البصائر الثانية قبل أن يؤسس جريدة المنار، عنوان المقالة "الدم في أرض النبوة"، ومما جاء فيها: "الدم يسيل في أرض التوبة !

الدم يسيل في فلسطين !

ليس هو دم الأضاحي والقرايين !

إنه دم البشر !

كأن أرض النبوة ملّت دم الحيوان، وتعطّشت إلى دم الإنسان !

وكأن بما حاجة شديدة إلى هذا الدم الغالي !

وكأن هيئة الأمم المتحدة حريصة على تقديم قربان تغسل به آثامها، فاخترت المذبح،

واخترت الأضاحي ! لأن الآثام لا تُغسل إلا بالدم !

ولأن السماء لا تقبل إلا الدم ! والأرض لا تحب إلا دم الإنسان .!"²

إن هذه القطعة الثريّة من مقال الكاتب، أقرب إلى الشعر منها إلى النثر، وتظهر فيها عاطفة الكاتب الحزينة على ما آلت إليه فلسطين وشعبها، والحانقة على هيئة الأمم التي تحوّلت من منبر لنصرة الشعوب الضعيفة المغلوبة، إلى سوق تُباع فيه الأوطان، وتُستباح فيه الأعراض، وتُنتهك باسمها المقدّسات في مزادٍ سياسي علني، صاحب الحقّ فيه من يدفع أكثر.

ويشُنُّ الكاتبُ هجوماً عنيفاً على هيئة الأمم، وعلى صنوها الاستعمار بكلّ جنسيّاته، فهو كالكُفر ملةً واحدة، يوجّه الكاتب خطابه لهيئة الأمم التي لو كانت تستوحي أعمالها وقراراتها من الرّحمان: " لكانت كلّ أقوالها وأعمالها رحمة للإنسانيّة، وما الرّحمة إلا الحق، وما الشيطان

¹ - ينظر: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج04، مصدر سابق.

² - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الأولى - العدد 08-16 صفر 1367هـ / 1947/12/22م.

إلّا الباطل ! الباطل الذي يُجسّمه الاستعمار، الاستعمار هو رسول الشيطان ! هو جرثومة الفساد في الأرض، إذا ماتت زال الفساد، وزال الشر، لأنّ الاستعمار في معجم التاريخ هو الشر.¹

ويعمضي محمود بوزوزو مُنجياً على الاستعمار وهيئة الأمم باللوم العنيف، ولا يتوانى في فضح التّفاق السياسي البريطاني، من خلال تصريحات كبار ساسته، الذين يدّعون الحياد في مسألة فلسطين، لكن بمجرد بلوغهم خبر التّقسيم حتى تهلّلت أساريرهم، وراحوا يُعبّرون عن غبّتهم وسرورهم بهذا القرار الجائر، يقول الكاتب: " وقضية فلسطين مشكلة عقدتها أصابع الاستعمار الانكليزي، لا تنحلّ إلّا بقطع هذه الأصابع... لولا الاستعمار الانكليزي لما كانت في فلسطين مشكلة، ولولا الاستعمار الانكليزي لما كان الحلّ بهذه الصفة ! ولو لم يجد الانكليز في مصلحتهم التّقسيم، ما قُسمت فلسطين !

ومن غرائب التّفاق السياسي عند الانكليز، أنّهم التزموا الحياد عند انتخاب هيئة الأمم المتحدة في قضية فلسطين، حتى إذا انعقد مجلس العموم البريطاني للتّظر فيها، قام كل من المستر ((ايدن)) زعيم المحافظين، والمستر ((بيفن)) وزير الخارجية بصرّحان بالارتياح إلى التّقسيم.² ويختّم الكاتب مقاله على شاكلة ما ابتدأه به، ونعني بذلك تلك العبارات الشعريّة التي تعكس مدى تأثر الكاتب وتفاعله مع الجرح الفلسطيني الغائر، يقول: " لالا ليتهم يسمعون أرواح الأبرياء تنادي: ألغوا الاستعمار، وبُثوا الرحمة، تُلغوا المشاكل وتحقنوا الدماء.. وأرواح الأنبياء تنادي: لا تحملوا أحداً على إراقة الدم في أرض النّبوة !"³

ويُثني أحمد توفيق المدني على الموقف التركي الداعم للعرب في هيئة الأمم، بشأن موضوع تقسيم فلسطين، على الرّغم من أنّ بعض العرب كانوا سنداً للدّول الاستعماريّة في إسقاط الخلافة الإسلاميّة، وفي ضياع فلسطين بعدما ضرب الاستعمار المسلمين بعضهم ببعض، فوفّروا عليه والحرب، وكانوا معاول هدم على أمّتهم وأوطانهم، يقول المدني: " كانت الدّولة التركيّة

1 - المصدر السابق.

2 - المصدر نفسه.

3 - نفسه.

قد قامت بواجبها ضمن هيئة الأمم المتحدة، أحسن قيام، فصادمت مشروع التقسيم، وأيدت العرب، إلى جانب بقية الدول الإسلامية تأييداً كبيراً.¹

ونختم حديثنا عن المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث التي عالجت القضية الفلسطينية، ونقلت مُعاناة شعبها، وصرخة مُقدّساتها، بكلمة مؤثرة للشيخ البشير الإبراهيمي لمس بها شِغاف القلوب، وأحيا بها الضمائر الميتة، عندما حمل أمانة تحرير فلسطين، وحماية الحرم الإبراهيمي لكلّ عربيّ، ولكلّ مسلم يقرأ سطور كلماته، يقول الكاتب: "أيها العرب، أيها المسلمون !

إنّ فلسطين وديعةٌ محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمّتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبةٌ إنّا إذا لخاسرون."²

02/مصر:

بدورها مصر، أرض الكنانة، كان لها نصيب وافر من مداد الأقلام الجزائرية، الذين تفاعلوا مع ما يدور في الساحة السياسية المصرية، سواء في عهد الانتداب البريطاني، أو مع ثورة الضباط الأحرار 23 يوليو 1952.

ولعلّ مقالة البشير الإبراهيمي حول مصر، التي عنوانها "يا مصر" تُعدّ آية في فنّ القول، وواسطة العقد من مجموع المقالات التي كتبت عن مصر، وعن جهادها ضدّ الانتداب الإنجليزي، يقول الكاتب في مقال سياسي أثبت فيه الكاتب علوّ كعبه في تدييح المقالة السياسية بمسحة شاعرية راقية لا يجاريه فيها أحد من معاصريه: "نُسَمِّيك بما سَمَّاك به الله في كتابه، فكفاك فخرا أنّه سَمَّاك بهذا الاسم الخالد الذي تبدّلت أوضاع الكون ولم يتبدّل، وتغيّرت ملامح الأرض ولم يتغيّر، وحسبك تيهاً على أقطار الأرض أنّه سَمَّاك ووصفها، فقال في فلسطين: ((الأرض المقدّسة)) و ((القرى التي باركنا فيها)) وقال في أرض سبأ ((بلدة طيبة)) ولم يُسمّ إلّا الطور وهو جبل، ومكة وهي مدينة، ويثرب وهي قرية، فتيهي وافخري بهذه الملاعة التي

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 24 - 12 ربيع الثاني 1367هـ / 23/فيفري/1948م.

² - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 22 - مصدر سابق.

كساكيها الله، وخُذي منها الفال على أنك منه بعين عنايةٍ لا تنام، وبذمة رعاية لا تُخفر،
وبجوار أمن لا يُخزى جاره.¹

ويكشف الإبراهيمي لمصر أسلحة الاستعمار الفتاكة التي استطاع بواسطتها السيطرة على الشعوب الضعيفة، هذه الأسلحة مهما تعددت وتنوعت فهي تهدف إلى غرض واحد وهو طمس ملامح الشخصية الوطنية، وسلخ الشباب عن هويتهم وتاريخ أمّتهم التليد، يقول الإبراهيمي بلسان المحلل الخبير بمخططات الاستعمار ودسائسه: " فلعمرك -يا مصر- إنهم لم يقاتلوك بالحديد والنار إلّا ساعة من نهار، ولكنهم قاتلوك في الزمن كله بالأستاذ الذي يفسد الفكر، وبالكتاب الذي يزرع الشك، وبالعلم الذي يُمرض اليقين، وبالصحيفة التي تنشر الرذيلة، وبالفلم الذي يُزيّن الفاحشة، وبالبعي التي تُخرب البيت، وبالخشيش الذي يهدم الصّحة، وبالمثلة التي تمثّل الفجور، وبالرقصة التي تُغري بالتخنث، وبالمهازل التي تقتل الجدّ والشهامة، وبالخمرة التي تذهب بالدين والبدن والعقل والمال، وبالشّهوات التي تفسد الرجولة، وبالكماليّات التي تُثقل الحياة، وبالعادات التي تناقض فطرة الله.²

ويُرشّد الإبراهيمي مصر إلى طريق الخلاص من هذا المخطّط الشيطاني، فيقول ناصحاً: "فإن شئت أن تُذبي هذه الأسلحة كلّها في أيدي أصحابها، فما أمرك إلّا واحدة، وهي أن تقولي: إنّي مسلمة!... ثمّ تصومي عن هذه المطاعم الخبيثة كلها... إنّ القوم تجار سوء، فقاطعيهم تنتصري عليهم."³

ويختتم الإبراهيمي مقالته بالمقارنة بين حال مصر وحال الجزائر المتشابهين، فكلتاها ترزح تحت نير الاستعمار، غير أنّ حال مصر أخفّ نوعاً ما مقارنة بالجزائر التي ابتليت باستعمار سرطاني مُدمر، يخاطب الإبراهيمي مصر قائلاً: "ويا مصرُ نحن وأنت سواء في طلب الحقّ ومطاردة غاصبه، ونحن وأنت مُستبقون إلى غاية واحدة في ظلام دامس، ولكن أصبحت، فيا بشراك، ويا بشرانا بك! ولم نزل نحن في قطع من الليل، نرقب الفجر أن يبتلع نوره، وما الفجر منا ببعيد."⁴

1 - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 178- 09 ربيع الثاني 1371هـ/ 07 جانفي 1952م.

2 - المصدر نفسه.

3 - نفسه.

4 - نفسه.

وقد صدقت نبوءة الإبراهيمي، فانبلج فجر نوفمبر بعد سنتين من كتابته لهذا المقال، وخطّ الشعبُ الجزائرَ صفحةً مُشرقةً في التاريخ الحديث للعرب والمسلمين المرصّع بالانتكاسات والهزائم وليس آخرها ضياعُ فلسطين، مسرى النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء ومهد الرّسل. وحول قضية الانتداب البريطاني على مصر، ومماثلة الدولة الاستعماريّة في الجلاء عنها، نشرت جريدة المنار مقالا تحت عنوان " يجب إرضاء الشعب المصري"، تحدّث فيه "عاصم" صاحب المقال عن عدم جدوى المفاوضات بين مصر وبريطانيا، التي لجأت لهذه الوسيلة رجا للوقت وضحكا على الذقون ليس إلّا، لا سيّما وأنّ الاستعمار يعمدُ إلى هدم جدار الثقة بين الشعب وحكومته، أو يفاوض حكومة عميلة لا تعكس طموح الشعب وصوته، يقول الكاتب حول موضوع المفاوضات: " إنّ الدروس التي استنتجتها الشعوب المستضعفة في علاقاتها مع الدول الغربية، تجعلها قمينة بالشك في صلاحية هذه الوسيلة.... وقد برهن الغربيون عندما يلجأون إلى المفاوضات لحلّ مشاكلهم مع الشعوب المستضعفة على قصر نظر لم يستطيعوا التحرر منه حتى الآن، ذلك أنّهم يكتفون بإرضاء الحكومات التي يفاوضونها، والتي قد يكون ما بينها وبين الشعب أبعد ممّا يُقدّرون دون أن ينظروا إلى مقدار تمثيلها للشعب، ودون أن يحاولوا إرضاء الشعوب التي هي أولا وقبل كل شيء الطرف الحقيقي في القضية."¹

ولم يفت كتاب المقال السياسي في جريدة المنار حدث الثورة المصريّة، أو حركة الضبّاط الأحرار التي أزاحت الملك فاروق، وأسست لنظام جمهوري في مصر، عن هذا الموضوع تحدّث صاحب المقال " عبد الله" عن الثورة المصريّة وما حدث ليلة 23 يوليو 1952، غير أنّ الملاحظة التي يمكن تسجيلها حول هذا المقال هي أنّ صاحبه كان حذرا في اختيار المصطلحات السياسية المناسبة، ذلك أنّه سمّى هذا الحدث انقلابا ولم يُسمّه ثورة، يقول الكاتب: " تتابعت الحوادث بسرعة في البلاد المصريّة، تساقطت الوزارات الواحدة تلو الأخرى، وانتهت الحالة السياسية إلى شبه مضيق لم تخرج منه إلّا بالانقلاب العسكري، الذي قام به القائد محمد نجيب في ليلة الأربعاء 23 جويليت."²

¹ - المنار: السنة الأولى- العدد 16- 20 جمادى الأولى 1371هـ/15/فيفري/1952م.

² - المنار: السنة الثانية- العدد 08- 10 ذي القعدة 1371هـ/01 أوت 1952م.

وعلى الرغم من أن الكاتب تحفظ في تسمية الحدث بالثورة، إلا أنه وهو بصدد تحليل ما حصل في ليلة 23 جويلية 1952 يشير إلى أن هذا الحدث جذوره شعبية، وهو ما يضيف عليه الصبغة الشرعية لأنه تتويج لإرادة الشعب في تغيير الأوضاع جذرياً، يقول الكاتب: "و إذا كان هذا الانقلاب عسكرياً في ظاهره، فإن جذوره شعبية، وأسبابه ليست عسكرية بحتة، ولم يكن يتسنى للجيش المصري وهو الذي بقي حتى الآن بعيداً عن السياسة، أن يقوم بهذا الانقلاب لو لم تُغذّه ثورة شعبية عارمة، تزيدها شدة هذه التدابير الرامية إلى كبها.¹"

ويرجع الكاتب في شيء من التفصيل إلى بعض الأسباب الرئيسة التي عجّلت بالثورة، وإسقاط النظام الملكي الفاسد، ولعلّ الهزيمة التي مُنيت بها الجيوش العربية وفي مقدمتها الجيش المصري في حرب 1948 ضد الصهاينة، من أبرز الأسباب التي اتكأ عليها الضباط الأحرار في ثورتهم على النظام الملكي القائم، دون أن تُغفل سببا آخر في غاية الأهمية، وهو الفساد الذي بدأ يستشري في أوساط الجيش المصري وقادته على وجه التحديد، وبذلك انخرط عن مهامه النبيلة المتمثلة في الدفاع عن حمى الوطن وشرف الأمة، وتحوّل إلى مجموعة من السماسرة والمنتفعين على حساب أمن الشعب ووحدة وطنه. يقول الكاتب: "وكان الجيش المصري قبل هذه الحوادث ناقماً على بعض قادته الذين يُحمّلهم -بحقّ أو بدون حقّ- مسؤولية الخيبة التي مُني بها العرب في فلسطين، ومسؤولية الفساد الذي أخذت تدبّ عقاربه في إلى الجيش المصري.²"

ويعدّد الكاتب نتائج هذه الثورة وتداعياتها على الصعيدين الداخلي والخارجي، فعلى الصعيد الداخلي أعادت رسم الخارطة السياسية من جديد والتأسيس لنظام جمهوري يختلف تماماً عن النظام البائد، وتطهير الجيش من السماسرة والمنتفعين، أما على مستوى الصعيد الخارجي فلا شكّ أنّها قد أخلطت حسابات الدول الاستعمارية، وأربكت مصادر صنع القرار فيها، لأنّ مصالحها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الضياع لا سيّما فيما يتعلّق بالملاحة واستغلال قناة السويس، والتي فجّرت عدوانا ثلاثياً على مصر بعد أربع سنوات من قيام الثورة،

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

يقول الكاتب: " كان من نتائج هذا الانقلاب حتى الساعة، تنازل الملك فاروق عن عرشه، وتطهير الجيش من العناصر المغضوب عليها، وإقصاء حاشية الملك من المناصب الهامة."¹ وفي ختام مقاله، يهيبُ الكاتب بالدّول العربيّة وبشعوبها، أن تأخذ العبرة من التجربة المصريّة التي لبّت مطالب الشّعب، وكان جيشها الحارس الأمين لطموحاتها وآمالها، يقول الكاتب داعياً الله ليحفظ مصر وشعبها من أيدي السوء: " وقى الله مصر شرّ العاديات، وجنّبها الزلزل، فقد أعطت للعالم درسا طالما نسيه المستبدّون، وهو أنّ الشعوب لا يمكن أن تُحكم بالقوّة على الدّوام."²

وفي نفس الموضوع كتب أحدهم في جريدة المنار، باسم مستعار " الحارث"، مقالا بعنوان " شعب أراد وحكومة نفّذت" عن حركة الضباط الأحرار بمصر، التي لم يُسمّها انقلابا أو تمردا عسكريا، بل سمّاها بالثورة التي نادى بها الشعب المصري طويلا، وكان الضباط الأحرار الوسيلة في تحقيق مطلب عزيز لشعبهم، هذه الثورة التي تحمّس لها البعض، ولزم الحذر بعضهم الآخر، والتي أزاحت النظام الملكي الفاسد، المستهتر بقيم الشعب وطموحاته، يقول الكاتب: " من يوم 23 يوليو 1952 أي اليوم الذي ابتداء فيه العهد الجديد في مصر، وانطلقت الشرارة الأولى من الثورة.. والناس واقفون موقف المتبّع لخطوات هذه الحركة الجديدة، فبين متفائل متيقّن بالنصر النهائي لهذه الثورة، وبين مُرتاب مُتشكك في قدرة هذه القوّة في اجتياز جميع العقبات.

ومن الأمانى الغالية التي ظنّها النَّاس عزيزة إزالة شبح فاروق، الشخص المتهتك الخليع، الذي داس على شرف شعب بكلّ ما أوتي من قوّة وشهوانيّة، واحتفى فاروق في اليوم الأول للثورة، وحمد النَّاس من أعماق قلوبهم للثورة هذه اليد البيضاء التي لا تُنسى، ولكن رجال الثورة ينظرون إلى أبعد من هذا."³

نعم كانت الثورة تنظر إلى أبعد من أن تُزيح فاروق الشخص، كانت الثورة المصريّة تهدف إلى محو الملكيّة من نظام الحكم المصري واستبدالها بنظام آخر ديمقراطي يُسائر العصر ومتطلباته ألا وهو النّظام الجمهوري، فالثورة المصريّة أكبر من أن تقوم لأجل إزاحة شخص متمثّل في

¹ - المنار - السنة الثانية - العدد 08 - مصدر سابق.

² - المصدر نفسه.

³ - المنار: السنة الثالثة - العدد 45 - 29 شوال 1372هـ/ 10 يوليو 1953م.

شخص الملك فاروق، فهو في الحقيقة مجرد واجهة لنظام ملكي فاسد، ولجموعة من اللصوص والمتنفعين، جثموا على صدر الشعب المصري واستترفوا خيراته ربحاً من الزمن، يقول الكاتب: "...هم ينظرون إلى نظام الحكم وما الشخص إلا شيء ثانوي.. فمادام نظام الحكم وهو الملكية في مصر قائماً، فمن الجائز أن يخلق هذا النظام شخصاً كفاروق، بل ربّما أنكى وأدهى، فالعلة في نظام الحكم لا الحاكم."¹

وينبّهنا الكاتب إلى نقطة هامة وهي أن قرار إلغاء الملكية من مصر وإعلان قيام الجمهورية سبقته خطوات تمهيدية كثيرة، لعل أبرزها تلك الحملات التي كانت تشنّها بعض الصحف الوطنية والقومية ضدّ الأسرة الملكية في مصر، وأجرت استفتاءات للقراء على صفحاتها، وتساءلت عن جدوى النظام الملكي بمصر، إلى أن جاء اليوم الموعود يوم 23 يوليو 1952 الذي كانت تتويجا لإرادة الشعب المصري في اختيار من يحكمه ووفق أيّ نظام دستوري، يقول الكاتب: "وجاء يوم إلغاء النظام الملكي، وإعلان الجمهورية، وتنصيب الرئيس اللواء محمد نجيب، رئيساً أولاً للجمهورية المصرية، أمر طبيعي لا غبار عليه.. شعب أراد وحكومة نفذت هذه الإرادة."²

ويوضّح لنا الكاتب الأثر الذي خلّفته الثورة المصرية على الصعيدين الداخلي والخارجي، باعتبارها مكسبا شعبيا. فعلى الصعيد الخارجي فهي تعزيز للأنظمة الجمهورية، ومولود جديد في العائلة الديمقراطية، أمّا على الصعيد الداخلي فهي استجابة لمطلب الشعب في استئصال نظام الملك فارق الفاسد، وكذا لقرب النظام الجمهوري من النظام الإسلامي وفقا لرؤية الكاتب: "وكان إعلان الجمهورية كسبا للثورة، سواء في الميدان الخارجي أم الداخلي.

كسب في الميدان الخارجي لأنّ أغلب أنظمة الحكم الآن جمهورية.. ويسرّ هذه الجمهوريات الأخرى أن تُضاف إليها أخت جديدة، ويسرّ هذه الشعوب التي تحكمها هذه الجمهوريات... كسب في الميدان الداخلي لأنّ الثورة نالت رضى الشعب وهو شيء عزيز المنال.. ولأنّ النظام الجمهوري هو أقرب أنظمة الحكم إلى النظام الإسلامي، إنّما هناك البيعة وهناك الانتخاب وهما شيء واحد.. إن لم يكن هذا أدق في حرية الاختيار.. مع أشياء طفيفة لا

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

اعتبار لها في غاية النظامين، وتقارب النظامين يُسائر الرعة الإسلامية لهذه الثورة، ورغبتها في أن يكون المسلمون يد واحدة كما يأمرهم بذلك القرآن"¹

وفي ختام المقال يشير الكاتب إلى ضرورة أن تستكمل الثورة المصرية أهدافها كاملة غير منقوصة، لا سيما ما تعلق منها بسيادة الأمة، واستقلالها وحقها في التصرف في ممتلكاتها وثوراتها دون أية وصاية أو استغلال كما هو الشأن مع قناة السويس التي كانت تحت سيطرة القوات البريطانية، ويؤكد الكاتب أن هذه الثورة لن تكتمل إلا بجلاء آخر جندي بريطاني عن أرض مصر، يقول: "وأخيرا بإعلان الجمهورية في مصر، اغتنام لفرصة القضاء النهائي على النظام الذي جرّ ويلات كثيرة على الشعب المصري، وتثبيت لقدم الثورة في الداخل لمواجهة مشكل الاستعمار الانكليزي في القناة، لأنّ التّجّاح النهائي - كما يقرر ذلك رجال الثورة - هو إخراج آخر جندي انكليزي من أرض مصر."²

03/السودان: كان للنصر الذي حققته السودان من خلال تقريرها لمصريها، واختيار من يحكمها من خلال تشكيلها لأول حكومة شعبية حرّة بعيدا عن التدخل الانكليزي السافر الذي درج على حشر نفسه في كلّ صغيرة وكبيرة من شؤون السودان، بوصفه الوصيّ على الأمة السودانية وعلى الشعب السوداني القاصر وفقا لادّعاءات الاستعمار ومغالطاته.

عن هذا الموضوع كتب أحمد توفيق المدني مقالا طويلا في صفحة منبر السياسة العالمية، والذي أفردت له جريدة البصائر في سلسلتها الثانية صفحة مستقلة، يطلّ منها القارئ على العالم الخارجي، ليعرف ما يدور فيه من أحداث متسارعة مضطربة. يقول المدني عن تشكيل أول حكومة سودانية حرّة: "سيُسجّل التاريخ يوم التاسع من شهر جانفي بين أيامه الخالدة في سجّل الحرية والتحرير، وسيكون لهذا اليوم السعيد الحميد، أثره البعيد في مستقبل القارة الإفريقية، بله في مستقبل العالم.

ذلك هو اليوم الذي تألّفت فيه أول وزارة شعبية حرّة في بلاد السودان، الذي كان حيننا طويلا من الدهر مستعمرة خاضعة ذليلة يقودها الغاصب بعصا من حديد."³

1 - المصدر السابق.

2 - المنار: السنة الثالثة - العدد 45 - مصدر سابق.

3 - البصائر: السلسلة الثانية - السنة السادسة - العدد 254 - 10 جمادى الأولى 1373هـ / 15 جانفي 1954م.

ويُشيد الكاتب بالوعي القومي الذي تشبّع به الشعب السوداني، على الرغم من المحاولات الدنيئة من طرف الاستعمار الانكليزي لتفريق وحدته وتقسيمه إلى قبائل وطوائف، ولعله من باب المفاضلة بين الاستعمارين الانكليزي والفرنسي، فإنّ الكاتب يفضّل أهون الشرّين وهو الاستعمار الانكليزي، لذلك نرى الكاتب يُشيد بخضوعه لإرادة الشعب السوداني والتّسليم بأحقّيته في تقرير مصيره، على خلاف الاستعمار الفرنسي الذي هو عبارة عن استعمار مُركّب، يقول الكاتب: "إذا كنّا نشيد بذكر التحرير السوداني الذي سيكون له التأثير العظيم على القارة الإفريقيّة جمعاء، فلنُشد قبل كلّ شيء بالوعي القومي السوداني، الذي جعل هذا التحرير حقيقة واقعية، بواسطة انتخابات صادقة حقيقيّة لا تدليس فيها ولا تلبيس..... ولنُشد أخيرا بمرونة السياسة الانكليزية والمهارة التي تعرف كيف تلين عندما ترى وجوب سلوك سياسة اللين، وتعرف كيف تعترف للشعوب بحقّ تقرير المصير، إذا ما عرفت أنّ ذلك الحقّ قد أصبح ضربة لازب، وأنّ المقاومة لا تُجدي في ذلك الميدان نفعاً."¹

وفي ختام المقال يؤكّد الكاتب أنّ الاستعمار جدار متراص، ما إن تسقط منه حجرة واحدة حتى يتداعى الجدار كلّه وينهار كأن لم يكن قائماً من قبل، يقول الكاتب: "والاستعمار سلسلة مفرغة، فإذا ما انفكّت إحدى حلقاتها تبعثها الحلقات الأخرى، والعاقبة للمجاهدين في ميادين الاستقلال والتحرير."²

إنّ هذا الحكم الذي قرّره الكاتب قد أثبتته أيام الكفاح الوطني في مختلف بلدان العالم التي كانت تخضع للسيطرة الاستعماريّة، فمثلاً ثورة الشعب الفيتنامي ضدّ الاستعمار الفرنسي ودحره له، كان أوّل مسمار يُدقّ في نعش الاستعمار الفرنسي والعالمي، فبعيد ذلك ثارت تونس والمغرب ولحقتها الجزائر التي علّمت الدّنيا معنى الفداء وقيمة الحرّيّة ومهرها الغالي. وبدأت شوكة الاستعمار الفرنسي تنكسر في مستعمراتها، وتهاوى الاستعمار البريطاني كأوراق الخريف الميّتة في مُستعمراته وكذلك الشأن مع الاستعمار الإيطالي والبرتغالي وهلمّ جرّاً.

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

والحقيقة أنّ المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث لم تقتصر على هذه الأقطار الثلاثة فحسب (فلسطين، مصر، السودان)، بل تناولت كلّ المستجدات على الساحة العربية كما هو الشأن مع سوريا ولبنان في مقاومتهما للانتداب الفرنسي، والعراق مع الانتداب الانكليزي وكذلك اليمن وغيرها من البلدان الشقيقة، وقد قصرنا بحثنا على الأقطار الثلاثة السالفة الذكر، لأنّها الأكثر جريا على أقلام كتاب المقالة في الجزائر، وكذلك لدواعي البحث وضرورته التي تفرض علينا الاقتصار على نماذج متنوّعة فقط.

02 / العالم الإسلامي:

أ/ الخلافة الإسلاميّة:

كثيرة هيّ ومُتعدّدة قضايا العالم الإسلامي، تعدّد بلدانه وكثرة آلامه وهمومه، ولعلّ قضية الخلافة الإسلاميّة من القضايا التي سال بشأنها حبر كثير، ودار حولها نقاش واسع بين مؤيّد لبقائها ولو شكلا واسما فقط، وبين ناكِرٍ لها مُهلِّلٍ لسقوطها. وستعرض لبعض المقالات السياسيّة التي وقفت على الموضوع في الأدب الجزائري الحديث.

ويُعدّ الشيخ عبد الحميد بن باديس من أوائل الكتاب طرقاً لموضوع الخلافة الإسلاميّة، وأكثرهم جرأة في الإفصاح عن رأيه دون موارد أو مجاملةٍ لعواطف الأمة التي تنساق وراء الشعارات الزائفة، وتجذّ ضالّتها وراء تلك البهرجة التي تُخفي وراءها فسادا مُستشرياً، وبلاءً عظيماً.

في شهر نوفمبر من عام 1922 اتخذ "مصطفى كمال أتاتورك"¹، زعيم تركيا الصاعد نجمه، إثر الحرب العالمية الأولى، قراراً بالغ الجِدّة في مسألة الخلافة العثمانية المُستقرّة في بلاد الأناضول منذ قرون عديدة، وقد قضى ذلك القرار بتجريد الخليفة العثماني من كل مضامين "السّلطة" التي كان يمارسها، مما يعني أنّه قد انتزع منها كلّ صلاحياتها السابقة في حكم البلاد، والتصرّف في كافة شؤون الدولة، وبذلك صارت مجرد "مؤسسة رويّة" لا تُعنى بمسائل السّلطة والحكم في البلاد كما كانت عليه في سابق الأمر، ولم يكن هذا القرار إلاّ إجراءً مرحلياً أتاح للحاكم الجديد أن يُهيئ النفوس للقرار القادم الذي كان هو المقصود منذ بدء

¹ - مصطفى كمال أتاتورك: عسكري تركي، أسس جمهورية تركيا الحديثة، فألغى الخلافة الإسلامية وأعلن علمانية الدولة.

استيلاء أتاتورك وأنصاره على السلطة وبالفعل، فقد صدر قانون (03 مارس عام 1924)¹ الذي ألغى الخلافة نهائياً، وأعلن، في بلاد الترك "نظام الجمهورية ذا الطبيعة اللائكية".

فقد تناول بن باديس هذا الموضوع في مقال افتتاحي بجريدة "الشهاب"، فعرف مفهوم الخلافة أولاً فقال: "إنّ الخلافة هي المنصب الإسلامي الأعلى الذي يقوم على تنفيذ الشرع الإسلامي، وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحلّ والعقد من ذوي العلم والخبرة والنظر، وبالقوة من الجنود والقواد وسائر وسائل الدفاع."²

وبعد هذا التعريف الاصطلاحي الدقيق لمفهوم الخلافة في الشريعة، وتحديد من هم أهل الحلّ والعقد، تعرّض الكاتب إلى تطور العمل بالخلافة التي أفرغت من مضمونها، وأضحت مجرد اسم ورسم، فقال: "لقد أمكن أن يتولى هذا المنصب شخص واحد صدر الإسلام، وزمنا بعده على فرقة واضطراب، ثمّ قضت الضرورة بتعدده في الشرق والغرب، ثمّ انسلخ عن معناه الأصلي، وبقي رمزا ظاهرياً تقديساً ليس من أوضاع الإسلام في شيء."³

وبعدما نفى عبد الحميد بن باديس وجود خليفة آنذاك هناك من استنكر رأيه، فردّ مؤكداً نفيه وجود خليفة اليوم تتوفر فيه الشروط الشرعية كاملة، فالكماليون حينما ألغوا الخلافة، وأبقوا "عبد الحميد بن عبد العزيز" خليفة له سلطة روحية فقط، "فيوم ألغى الأتراك الخلافة- ولسنا نبرّر كلّ أعمالهم- لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامي، وإنما ألغوا نظاماً حكومياً خاصاً بهم وأزالوا رمزا خيالياً، فتن به المسلمون لغير جدوى، وحرابتهم من أجله الدول الغربية المتعصّبة للتصراية، والمتخوّفة من شبح الإسلام"⁴.

ورغم ذلك، فعبد الحميد بن باديس لم يفقد الأمل في إحياء الخلافة الإسلامية، وعلّق أمله على المؤتمرات الإسلامية الداعية لإحياء الخلافة، مثل دعوة علماء الأزهر إلى عقد مؤتمر إسلامي للنظر في مسألة الخلافة، بعد اجتماعهم بالقاهرة (في 15 مارس 1924م-1342هـ)، وكذا مؤتمرات "القاهرة" (ماي 1926م-1344هـ) و"مكة المكرمة" (جوان، جويلية

¹ - ينظر: سليمان بن صالح الخراشي: كيف سقطت الخلافة العثمانية، دار القاسم للنشر، الرياض، ط.01، 1420هـ، ص 88/87/86.

² - الشهاب: ج02- مج 14- ربيع الأول 1357هـ/ماي 1938م- ص 61.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - نفسه - ص 62/61.

1926م-1345هـ) و"القدس الشريف" ديسمبر(1931م-1350هـ)، غير أنّ هذه المبادرات كان مصيرها الفشل الذريع.

وبعد شرحه للملابسات إلغاء الخلافة، طرح بن باديس موقفه من الخلافة الإسلامية مستقبلاً، ومُقدِّماً بديلاً آخر عنها، بعيداً عن تدخل الحكومات في صلاحياتها ورأيها، هذا البديل هو الجماعة الإسلاميّة: "نعم ليس لنا - والحمد لله - في الإسلام بعد محمد صلى الله عليه وسلم شخص مقدّس الذات والقول، تُدعى له العصمة، ويعتبر قوله تزيلاً من حكيم حميد، ولكن لنا جماعة المسلمين، وهم من أهل العلم والخبرة ينظرون في مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية، ويصدرون عن تشاور ما فيه خير وصلاح... فعلى الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكوّن هذه الجماعة من أنفسها بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها."¹

ولمّا شعر بن باديس أنّ الدول الاستعماريّة تحاول الالتفاف على مسألة إلغاء الخلافة الإسلاميّة وإعادة أحيائها من جديد لكن بتنصيب أحد عملاءها، ليكون أذناً صاغية، وعينا حارسة للمستعمرين، انتفض بن باديس مؤكّداً أنّ خلافة بهذا الشكل وبهاته الكيفيّة المسيئة للإسلام والمسلمين قد وئدت إلى الأبد: " زالت الخلافة بالمعنى الحقيقي والمعنى الصوري، فلنعلم أنه لا خلافة بعد اليوم، ولنرفض كل خليفة تشمّ منه رائحة الأجنبي... ولتعمل كل أمة مسلمة على النهوض بنفسها... ولا يكون ما وقع مضعفا لعزائنا... مادام الإسلام... الجامعة الكبرى التي تجمعنا."²

وابن باديس عندما يرفض كل خليفة أجنبي، يشير إلى "الشريف حسين" الذي كان الإنجليز يريدون تنصيبه على المسلمين، حتى يكون هو وجميع المسلمين ألعوبة بأيديهم. ولأنّ اليد الاستعماريّة لا تكلُّ ولا تملُّ في محاولة الكيد للمسلمين والسيطرة على أوطانهم، عمدت من جديد لإحياء فكرة الخلافة الإسلامية، وقد لاحظ بن باديس أن بعض الدول الاستعمارية، وخاصة بريطانيا تريد - وقد علمت فتنة المسلمين باسم الخليفة- بعث هذه الفكرة وتجسيدها في بعض من يدينون لها بالطاعة، فحدّر من ذلك تحذيراً شديداً فقال: "كفى

¹ - المصدر السابق - ص 63.

² - آثار بن باديس (20/6-24) طبع وزارة الشؤون الدينية سنة 1415هـ.

غرورا وانخداعا ، إن الأمم الإسلامية اليوم - حتى المستعبدة منها- أصبحت لا تحدها هذه التهاويل ، ولو جاءتها من تحت الجُنب والعمائم¹. ولم يكن هذا التحذير الشديد إلا إشارة إلى ما علمه بن باديس من أن علماء الأزهر ، قد هتفوا بالخلافة لملك مصر "فاروق الأول" بعدما صلّى الجمعة في الأزهر الشريف (1938) برؤساء وملوك الدول العربية، وكان بن باديس قبل ذلك قد كاتب شيخ الأزهر حول موضوع جماعة المسلمين كبديل شرعي للخلافة الإسلامية، غير أنّ فضيلة شيخ الأزهر تلكأ في الردّ على اقتراح بن باديس، لأنّ مصر كانت تريد تتويج الملك فاروق خليفة للمسلمين وهي تتنّ تحت وطأة الاستعمار البريطاني، يقول بن باديس: "لقد كنت كاتبته صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الشريف بهذا المعنى، ولكنني لم أتلق منه جوابا، وعرفت السبب يوم بلغنا أنّ إخواننا الأزهريين هتفوا-يوما- بالخلافة لملك مصر فاروق الأول، وسيرى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر أنّ خيال الخلافة لن يتحقّق، وأنّ المسلمين سينتهون يوما ما- إن شاء الله- إلى هذا الرأي."²

إن بن باديس بطرحه لمشروع "جماعة المسلمين"، يلتقي مع رأي بعض العلماء المفكرين المصلحين آنذاك، أمثال محمد عبده (1849-1905) مؤسس النهضة العربية الإسلامية الحديثة، الذي عبّر عنها أكمل تعبير إذ يقول: "لا ألتمس بقولي هذا الدعوة إلى الوحدة الإسلامية أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا، فإنّ هذا ربّما كان عسيرا، ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدّين، وكلّ ذي ملك يسعى بجهدده لحفظ الآخر ما استطاع، فإنّ حياته بحياته، وبقائه ببقائه، إلّا أنّ هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضي به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات."³

ويشاطر بن باديس رشيد رضا" (1865-1935) الذي اقترح ضرورة إيجاد نموذج جديد يتمثل في انتخاب الإمام من طرف جماعة المسلمين الذين أسماهم ب"أهل الحل والعقد"⁴،

¹ - الشهاب: ج2-02- مج 14- مصدر سابق- ص 62.

² - المصدر نفسه- ص 63.

³ - جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده: العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى: تحقيق صلاح الدين البستاني، دار العرب للبستاني، ط.03، 1993م، ص 72.

⁴ - محمد رشيد رضا: الخلافة أو الإمامة العظمى- ص 68/65.

وكذلك موقف "محمد إقبال" (1875-1938) الذي رأى أن روح الإسلام تبيح إسناد الخلافة إلى جماعة من الناس أو مجلس منتخب¹.

وبعد معالجته لنظام الخلافة، وبمناسبة وفاة مصطفى كمال نشر عبد الحميد بن باديس مقالا آخر عام 1938، بعنوان "مصطفى كمال رحمه الله"، وقد نتساءل لماذا صدر هذا المقال في هذا الظرف بالذات؟.

بدأ بن باديس مقاله ممجدا لشخصية "مصطفى كمال"، ومثنيا عليه حيث اعتبره "أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب فيحوّلون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقا جديدا"².

ثم واصل كلامه مُعرِّفاً بمآثر ومناقب أتاتورك العسكرية، ومنوّها بانتصاراته ضد الإنجليز. وبعد هذا رأى بن باديس أن تركيا، خرجت منهزمة من الحرب العالمية الأولى، وقامت الدول الأوروبية الكبرى بتقسيم الأمم الشرقية والاستيلاء عليها "تحت أسماء استعمارية ملطفة"، واحتلت تركيا نفسها. ورغم تفهقر الخليفة، فإن "مصطفى كمال" لم يرضخ وجمع وحدات الجيش التركي وواصل المقاومة، وبذلك بعث الروح من جديد في تركيا وفي الشرق الإسلامي. ثم انتقل بعد ذلك صاحب المقال إلى موقف مصطفى كمال من الإسلام، فرأى أنها إحدى سلبيات أتاتورك التي "ينقبض لها قلب المسلم ويقف متأسفا ويكاد يولي مصطفى في موقفه هذا الملامة كلّها"³.

ولم يتوقف بن باديس عند هذا، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فكشف الجهات المسؤولة عن اتخاذ "مصطفى كمال" لموقفه السابق، ويُسمّيهم بأسمائهم فيقول "المسؤولون هم الذين كانوا يمثلون الإسلام... هم خليفة المسلمين، شيخ إسلام المسلمين، ومن معه من علماء الدين، شيوخ الطرق المتصوّفون، الأمم الإسلامية التي كانت تعدّ السلطان العثماني خليفة لها"⁴.

ثم بيّن بن باديس مسؤولية كل طرف من هؤلاء في الأحداث السابقة لإلغاء نظام الخلافة، "أمّا خليفة المسلمين فيجلس في قصره تحت سلطة الإنجليز المحتلين لعاصمته ساكتا ساكتا، استغفر

¹ - أحمد عنایت: الفكر الإسلامي المعاصر، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، مكتبة مدبولي القاهرة، د.ت، ص 127.

² - الشهاب: ج 09 - مج 14 - رمضان 1357هـ / نوفمبر 1938م - ص 441.

³ - المصدر نفسه - ص 442/441.

⁴ - نفسه.

الله بل متحركا في يدهم، تحرك الآلة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول، ناطقا بإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه، الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين، أما شيخ الإسلام وعلمائوه، فيكتبون للخليفة منشورا يمضيه باسمه، ويوزع على الناس بإذنه وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه، يبيح فيه دم مصطفى كمال، ويعلن خيانتة ويضمن السعادة لمن يقتله، وأما شيوخ الطرق الضالون وأتباعهم المنومون، فقد كانوا أعوانا للإنجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم، ويوزعون ذلك المنشور.... وأما الأمم الإسلامية... فمنها - إقليلا - من كانوا في بيعته فانتفضوا عليه، ثم كانوا في صف أعدائهم وأعدائه، ومنها من جاءت مع مستعبيها، حاملة السلاح على المسلمين، شاهدة له في وجه خليفتهم" ¹.

لقد أراد بن باديس من خلال شرحه مواقف "مصطفى كمال"، أن يبين المسؤولية المشتركة بين مصطفى كمال والأطراف السالفة الذكر في إلغاء نظام الخلافة الإسلامية. وبعد هذا قيم بن باديس بعض الأعمال التي أقدم عليها مصطفى كمال، كترجمة القرآن الكريم للغة التركية، رغم ما صحبه من تحفظ - وإلغاء مجلة الأحكام الشرعية، موضحا أنها - أي المجلة - لا تلائم ظروف الناس، لأنها تعتمد المذهب الحنفي فقط والإسلام يسع البشرية بجميع مذاهبه. كما برر سلوك "مصطفى كمال"، من أن تركيا ليست هي البلد الإسلامي الوحيد الذي تخلى عن الأحكام الشرعية، فهناك مصر التي مازالت تتبنى قوانين نابليون، وبهذا ردّ بن باديس على العلماء الجامدين الغافلين المنتقدين لـ "مصطفى كمال" وبلداهم مازالت آنذاك ترضخ تحت الاستعمار أو قوانينه.

وفي الأخير بقي "مصطفى" في نظر بن باديس أعظم رجل استرجع سيادة بلده. وقبل اختتام المقال، ترحم بن باديس على روحه، وقدم تعازيه للأتراك، وذكرهم بالروابط التاريخية مع الجزائر، وهنأ رئيسهم الجديد "عصمت اينونو".

لقد تعجب كثير من المحليين والمفكرين لمواقف بن باديس من "مصطفى كمال" الذي لم يُقم للدين والأخلاق أي وزن. فهل كان بن باديس جاهلا لما أصدره الرجل من تشريعات وقوانين منافية للدين؟

¹ - المصدر السابق.

هناك من برّر تحليل بن باديس لمواقف مصطفى كمال وأرجعه إلى قوة "مصطفى كمال" في مقاومة الاستعمار، فطبيعي أن تستهوي هذه السياسة بن باديس وهو يرغب في تحرير بلاده من الاستعمار. كما أن الظروف التي كتب فيها المقال السابق، أثرت على موقف بن باديس الذي كان معارضا لإلغاء الخلافة، ولتنصيب أي خليفة تحركه يد الأجانب، فضلا عن الضغط الذي تعرضت له الحركة الوطنية الجزائرية منذ 1936، مما جعل بن باديس يتشدد في موقفه العامة، فلا غرابة في تصلبه اتجاه الخليفة، وعلمائه وشيوخ الزوايا المساندين له.

إن ابن باديس رغم انتقاده لنظام الخلافة السابق — فإنه لم يتوان عن طرح بديل لمستقبل هذه المؤسسة الإسلامية، ففي مقال له تحت عنوان "أصول الولاية في الإسلام، واعتمادا على خطبة "أبي بكر رضي الله عنه" بعد مبايعته بالخلافة، رسم بن باديس صورة لأسس النظام السياسي في الإسلام، الذي يقوم على حق المسلمين في اختيار ولاة أمورهم الذين تتوفر فيهم الكفاءة ويحق لهم مراقبتهم وعزلهم. كما يتوجب عليهم مؤازرتهم إن كانوا على صواب، وإسداء النصح والإرشاد لهم، فضلا عن مناقشتهم ومحاسبتهم عن أعمالهم. كما يتعين على الحكام أن يُبينوا للأمة النهج الذي تسير عليه وفق إرادتها، ويحكموا الرعية بالعدل والمساواة. وفي الأخير علّق بن باديس على ذلك قائلا: "هذا ما قاله ونفذه أول خليفة في الإسلام منذ أربعة عشر قرنا، فأين منه الأمم المتمدنة اليوم؟"¹.

ومهما يكن، فقد كان بن باديس يقظا لما أصاب الأمة المسلمة من دمار وهلاك، جعلها تتجه مضطرة إلى التضامن والوحدة فيما بينها فقال: "...ضرب الدهر بضرباته، وأندك عرش عبد الحميد، ثم جاءت الحرب الكبرى فكانت عبراتها توازي عباراتها، وأعطت العالم كله- خصوصا العالم الإسلامي- دروسا قاسية أليمة... فكان حقا على المسلمين أن يلموا شملهم... بعد أن رأوا حلقات الضيق لا تزداد حولهم إلا كيبسا... وازداد الطين بلة عندما قرر الأتراك إلغاء الخلافة الإسلامية."²

وعلى نقيض موقف بن باديس دافعت جريدة البلاغ لسان حال الطريقة العلوية على بقاء منصب خليفة المسلمين، وعدت عزل الخليفة وإسقاط الخلافة تعديا سافرا على رمز من رموز

¹ - الشهاب: ج 11 - مج 13 - ذي القعدة 1356هـ / جانفي 1938م - ص 471.

² - المصدر نفسه.

الأمة و على حصن متين من حصونها، يقول الكاتب: " لهذا نرى إهمال المسلمين مسألة الخلافة ذنبا عظيما أمام الله والناس، وعدم اعتناءهم بها عار وشنار، والمنازعة فيها مكابرة، لأن صاحبها الحامل لواءها لا زال موجوداً، ولم يرفضها هو، ولم يخلعه منها عموم المسلمين.

ولما كانت الحكومة التركية هي التي وحدها أخرجت هذا الخليفة من أرضها، فلا يسمّى هذا خلعا، لأنها أبعدهت بصفته ملكا وخوف الانقلاب، أو إحداث ثورة لا بصفته خليفة عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، إذ ليس من الحق أن يتزع من المسلمين ما هو لهم بمجرد إنكار رجل واحد متجاهر بعبادة الإسلام، وإكراه رعيته على اتباع شريعة مغايرة لأصول الدين الإسلامي تمام المغايرة، وإجبارهم على التزي بزي الإفرنج من لبس القبعة وغير ذلك حتى في العوائد التي لا تتفق مع ما تعوده الأتراك منذ قرون.¹

ويتساءل الكاتب في استنكار واضح، حول شرعية عزل الخليفة العثماني وإلغاء الخلافة من طرف مصطفى أتاتورك لا لشيء سوى لأنه مالك للسلطة بالقوة وبحدّ السيف،: " هل يصحّ شرعا أو قانونا أو عقلا أن يتصرّف الإنسان فيما هو لغيره بمجرد وجود سلطة ناربية في يده؟ إن هذا لمن التّعدي على حقوق المسلمين، وعدم الاكتراث بشرف الخليفة والظلم المبين.²

وفي ختام المقال يُقرّر الكاتب حكما مفاده أن الخلافة والخليفة مظهر من مظاهر الإسلام، ورابطة روحية تجمع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وأعرافهم،: " وبالجملة فالخليفة مظهر من مظاهر الإسلام، وعلاقة روحية بين الشعوب المتباينة الألسن والأفهام، فواجب على المسلمين الاعتناء بها وتأييدها بكلّ ما في وسعهم لإصلاح حاضرهم.³

وعلى نقيض رأي بن باديس أيضا، دافع صاحب جريدة المرشد الطرقيّة عدة بن تونس على مسألة بقاء الخلافة الإسلامية، ودعا المسلمين لإحيائها من جديد، مثلما أبدى تحفظه الواضح حول الوحدة العربية المبنية على فكرة القومية، والتي لا يرى الكاتب أنّها بديل للخلافة الإسلامية، يقول الكاتب: " جاءت الحرب العالمية الأولى فعملت عملها السيئ في الأمم الإسلامية، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فما زادت الطين إلّا بلّة، ثم نهضت الأمم العربية من

¹ - البلاغ: العدد 324 - 03 رجب 1350هـ/13/11/1931م.

² - المصدر نفسه.

³ - نفسه.

سباتها، وتظافرت ملوكها على تكوين وحدة عربيّة تحت عنوان: الرابطة العربية، وهو عمل قد تُرجى نتيجته من الوجهة السياسية، أمّا من الوجهة الدينيّة فهو بعيد عنها، بعدها عنه، لأنّ الحكمة تقتضي لو تسمّت هذه الألفة (بالجامعة الإسلامية) وأول عمل تقوم به هو إحياء الخلافة الإسلامية، وبإحيائها تنبعث الحياة.¹

ويهبُ الكاتبُ بالملوك العرب للعمل كلّ ما في وسعهم لإحياء الخلافة من جديد، ولسنا نعلم إن كان الكاتب على دراية بأسباب تضعف الخلافة الإسلامية التي من أهمها تأمر ملوك العرب أنفسهم على الخلافة الإسلامية باسم القومية العربية التي شجعتهم عليها بريطانيا بمساعدة جاسوسها لورنس العرب، يقول الكاتب: ".فلا زلنا نأمل في ملوك العرب ورؤساءها، أن يعتنوا بإقامة هذا الركن العظيم من الدّين، وأن يكون أمرهم شورى بينهم، وأن يتداركوه بعزائمهم الصارمة، وهمهم العالية، حتى يكونوا بالفعل قد عملوا عملاً يُنتظر من وراءه خير الإسلام والمسلمين."²

ب/ باكستان:

نالت قضية باكستان حيزاً من اهتمام كتّاب المقالة السياسية في الجزائر لاعتبارات روحية وإنسانية، كما أنّ الجزائر جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، فطبعي أن تتأثر لما يدور فيه من أحداث، فالشعب الباكستاني يرتبط ارتباطاً وجدانياً مع الشعب الجزائري من خلال الدين الإسلامي، فضلاً عن المصير المشترك، فكلا البلدين يتطلّع لتحرّر من الهيمنة الاستعمارية، لأجل ذلك أفردت جريدة المنار مقالا مطوّلاً وقف فيه محمود بوزوزو عند الحدث التاريخي الذي عاشته باكستان ألا وهو إعلان استقلالها وتحرّرها من الهيمنة الاستعمارية البريطانية، يوم شكّل ميلاد الأمة الباكستانية من جديد، يوم ما كان لباكستان أن تحياه لولا التضحيات الجسام التي قدّمها شعبها مهراً لتحرّره وانعتاقه، يقول الكاتب في مقال بعنوان " 14 أوت 1947: استقلال الهند وباكستان ": " يوم 14 أوت 1947 يوم عظيم في تاريخ آسيا والعالم الإنساني، كفاه عظمة أنّ فيه أُعلن استقلال الهند وباكستان أي خروج زهاء خمسمائة إنسان من سجن العبوديّة إلى فضاء الحرّيّة، وتحرير السدس من البشرية من ربقة الإذلال والاستغلال.

¹ - المرشد: السنة الثانية- العدد 22- ذو القعدة 1367هـ/ سبتمبر 1948م.

² - المصدر السابق.

يوم 14 أوت 1947 دخلت الهند وباكستان إلى صميم الحياة بعدما كانتا على هامشها، ولم يُفتح لهما الباب عفواً، ولم يُتح لهما الدخول بسهولة، إنّما كان ذلك بعد جهاد شاق طويل، يُصوّر حقيقة من حقائق التاريخ البشري العجيب ألا وهي أنّ الاستقلال لا يأتي دون أن يُؤتى به... ولولا ذلك الجهاد المرير لبقى الاستعمار البريطاني ضاربا أطنابه بتلك الربوع، يستغلّها لفائدته ويستعبد أهلها لحرّيته.¹

ولا يُفوّت بوزوزو فرصاً مثل هاته دون أن يُرسل رسائل مُشفّرة لجمهور القراء من أبناء الشعب الجزائري، فقد توقّف الكاتب بالتحليل عند المكائد الشيطانية التي كانت تنسجها اليد الاستعمارية للتفريق بين الهند وباكستان في سعيهما الحثيث لاجتثاث المستعمر البريطاني، وقد لعب الاستعمار - كعادته دوماً - على وتر الطائفية الدينية بين الغالبية المسلمة في باكستان والغالبية الهندوسية في الهند، غير أنّ هذه المحاولات الدنيئة كُلت بالفشل الذريع بسبب تفضنّ الزعماء الروحانيين لفكرة الاستقلال لهذه المؤامرة الاستعمارية من أمثال غاندي ومحمد إقبال ومحمد علي جناح وغيرهم، فكان استقلال باكستان والهند تتويجا لأكثر من واحد وستين سنة من الكفاح والنضال المنظم، وكأنيّ به يدعو الشعب الجزائري ومن وراءه أقطاب الحركة الوطنية على اختلاف مشاربهم لرصّ الصفوف، وتوحيد الكلمة، واتخاذ العبرة من نضال هذين الشعبين الذين جمعهما الكفاح ضدّ الاستعمار، يقول الكاتب: " ما بدأت ثمار الجهاد تظهر إلّا بعد أن جعل ينتظم ابتداءً من سنة 1886 أي منذ 61 سنة قبل الاستقلال.

ولم يكن التنظيم سهلاً ميسوراً، ولم يتم إلّا بعد أمد طويل ومشقة عظيمة بسبب اختلاف الأديان وعوامل التفرقة التي كان الاستعمار يبيّثها ويُنيبها بين أبناء الوطن الواحد، مُستغلاً الفوارق المذهبية، ولنّ فطنتهم تيقّظت بعد وقضت على المكائد الشيطانية، فتوحّدت إرادة التحرّر من العدو المشترك في سبيل النعيم المشترك، واستطاع قادة تلك الملايين من البشر أن يترفّعوا فوق الفوارق، ويتغلبوا على عوامل الشقاق بكلّ ما أتوه من حكمة وإخلاص لقضية بلادهم، فقادوا شعوبهم إلى حياة العزّة والكرامة، وخُلد ذكرهم في تاريخ العظماء، ومن ذا

¹ - المنار: السنة الثانية - العدد 09 - 24 ذي القعدة 1371هـ / 10 أوت 1952م.

الذي لا يُجَلَّ غاندي ومحمد علي جناح ومحمد إقبال؟ ومن ذا لا يُجَلَّ جهاد ((المؤتمِر)) وزعمائه وجهاد ((الرابطة الإسلامية)) وقادتها؟¹

ويجتم الكاتب مقاله بالإشارة إلى الوثبة التنمويّة التي حققتها كل من باكستان والهند على حد سواء، بعد خمس سنوات من الاستقلال، هذه الوثبة تجسّدت في ازدهار الاقتصاد الفتي في كليهما، وترجمته قوافل التلاميذ وهي في طريقها إلى المدارس والمعاهد التي شُيّدت في العهد الجديد، مثلما أعربت عنها التظاهرات الثقافية والمؤتمرات الدولية التي احتضنتها باكستان خدمة لقضايا المسلمين والمستضعفين من الشعوب المتطلّعة لاسترجاع حريّتها واستقلالها، يقول الكاتب: " فهل يُنكرون ما بالهند وباكستان من جليل الأعمال في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية في ظرف خمسة سنين بفضل الاستقلال ! وإنّها لخبر برهان على ما للاستقلال من حسن أثر في حياة الأمم، وما للاستعمار فيها من سوء أثر، فليعتبر المتخلّفون عن الحريّة بجهاد الهند وباكستان وما نالتاه بفضل الاستقلال.

حيّ الله الهند وباكستان، ووفق بني الإنسان إلى تطهير الأرض من الظلم والعبوديّة.²

ج/ اندونيسيا:

عالجت المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث القضية الأندونيسية، ووقفت عند مسألة تحرّرها من الاستعمار الهولندي الذي جثم عليها ردحا من الزمن، واستنزف خيراتها وسخرها لخدمة اقتصاده ومصالحه بلاده، في حين يرسفُ شعب اندونيسيا في أغلال الجهل والفقر والضياع.

وبمناسبة استقلال اندونيسيا سجّلت المقالة السياسية هذا الحدث التاريخي على صفحات جريدة البصائر، أو في الجزء المخصص لأحداث العالم الذي كان يكتبه أحمد توفيق المدني في الجزء الموسوم بمنبر السياسة العالمية، فقد كتب مقالا بعنوان " اندونيسيا تتحرّر نهائيا"، تعرّض فيه الكاتب إلى التحرّر النهائي من التبعية الاستعمارية لهولندا بعد أن ألغت المعاهدة التي تربطها بهولندا والتي كانت تتمتع فيها هذه الدولة المستعمرة بنفوذ سياسي واقتصادي كبيرين الأمر الذي جعل استقلال اندونيسيا مشوبا بالعبوديّة والانقياد، يقول الكاتب " كانت الدولة

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

الاندونيسية المجاهدة قد أعلنت منذ أمد طويل استقلالها، وأجبرت الدولة الهولندية المستعمرة على الاعتراف بذلك الاستقلال، إثر معارك وفضائع وأهوال لا تزال مسجلة على صفحات التاريخ.... وعقدت معاهدة مع الدولة الهولندية، تعتبر أشبه شيء بما عقد بين الدولة الانكليزية ومستعمراتها القديمة من معاهدات تربط بين الجانبين برباط المصالح المشتركة ضمن دائرة الكومنوالث... لكن الدولة الاندونيسية كانت لتلك المحاولات بالمرصاد، وعملت كل ما يمكن عمله بصفة سلمية لوقف الجشع الهولندي عند حدّه، والوقوف في وجه تلك المحاولات الاستعمارية التي تنال من حرية الدولة وتنال من استقلال الشعب. لكن هولندا - نظرا للمعاهدة التي تربط بين الجانبين - قد تصلبت في الموضوع، وأخذت تقدّم من التفسير والشروح والحواشي على تلك المعاهدة ما أخرج الجانب الأندونيسي وضيق صدره.¹

ثمّ يعرض الكاتب إلى القرار الجريء الذي اتخذته اندونيسيا باستكمال استقلالها الحقيقي من خلال فك الارتباط الذي كان يربطها بهولندا، وذلك من خلال إلغائها للمعاهدة التي كانت تجمع الجانبين أو بالأحرى تجعل من اندونيسيا تابعة لهولندا، يقول الكاتب: "فالدولة الاندونيسية أعلنت مؤخرًا أنّها قد ألغت المعاهدة التي كانت تربط بين الجانبين، ومزقت بيدي الشعب الجبارتين تلك الأسلاك الرقيقة التي حاول المستعمر أن يجعلها حبالا غليظة يُطوّق بها جيد الاقتصاد الاندونيسي، وتحرّرت نهائيا من كل شرط يربطها بوحدة النقد الهولندي.

وهكذا انتهى كل شيء، وأصبح الاستعمار الهولندي ببلاد اندونيسيا من حديث التاريخ. ولا تزال هولندا ذاهلة من هول هذه النكبة الاقتصادية التي حلّت بها.²

وبأسلوب لا يخلو من سخرية شامخة يحتم الكاتب مقاله بتعزية الاستعمار الهولندي في مصابه الجلل المتمثل في فقدان اندونيسيا، معبرا عن تنبئه بتقديمه للتعازي للمنظومة الاستعمارية في قابل الأيام. يقول الكاتب مهنتا اندونيسيا ومُعزّيها هولندا: "فهنيئا لاندونيسيا العزيز³ الغالية، دولة باندونق التي لا يزال ذكرها مُدويًا في عالم الأمم المستعبدة كلّها، وعزاء هولندا، ريثما نُقدّم خالص التعزية قريبا بحول الله، لبقية دول الاستعمار في العالم.⁴

1 - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثامنة - العدد 356 - 19 رجب 1375هـ / 02 مارس 1956م.

2 - المصدر نفسه.

3 - هكذا هي في نص المقالة يبدو أنه خطأ في الطباعة، والصحيح العزيزة.

4 - نفسه.

03/العالم:

لم تكن المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث بمنأى عما يطرع في العالم من أحداث مُتسارعة، فقد واكبت مُجريات الأحداث في العالم عبر مختلف المراحل التي مرّت بها الصحافة العربية في الجزائر في عهد الاستعمار. فعلى الرّغم من بساطة الإمكانيات المتوفّرة للكتاب آنذاك، وعلى الرّغم من الحصار الخانق الذي ضربه الاستعمار الفرنسي على الأقلام الجزائرية، وعلى الرّغم من الضنك الذي كان يعيشه الكاتب الجزائري والشّح القاتل في الحصول على الخبر إلّا أنّ المقالة السياسية الجزائرية وفّرت للقارئ نافذة يُطلّ منها على العالم الخارجي من على صفحات الجرائد.

ومن خلال تتبّعنا لمسار المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث ألفينا جريدة البصائر في سلسلتها الثانية قد خصّصت صفحة خاصّة للأحداث العالمية بعنوان " منبر السياسة العالمية" يُشرف على تحضيرها أبو محمد¹، فقد عالج في مقالاته قضايا تتعلق بالسياسة الألمانية من خلال مشروع الوحدة المطروح بين الألمانيّتين الشرقية والغربيّة، يقول الكاتب في مقال بعنوان " الوحدة الألمانية": ".النقطة الحاسمة في الموضوع وهي مسألة انجاز الوحدة الألمانية، بواسطة ضم شطري ألمانيا الشرقي والغربي، وتكوين حكومة واحدة تضمّ الشعب الألماني بأسره، وهذا هو معترك السياسة في الأيام الحاضرة والمقبلة."²

وفي معرض المقالة يتعرض الكاتب إلى المعوقات التي تُعرقلُ نجاح هذا المشروع الذي هو مطلب شعبي قبل كلّ شيء، ومن أهم المعوقات هو الاختلاف الأيديولوجي بين الجانب الغربي من ألمانيا الذي يدين بالولاء للمعسكر الغربي الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، والجانب الشرقي الذي تحكمه الأيديولوجية الاشتراكية بقيادة الإتحاد السوفيّاتي مُمثلا في دولة روسيا، يقول الكاتب: " فكيف يتمّ اتحاد ألمانيا الذي هو في الحقيقة غاية الجميع؟ وتريد الدول الأوروبية وتريد معها حكومة بون، أن تقع في ألمانيا انتخابات تشريعية حرّة، تحت رقابة أُمّية وتكون نتيجتها جمع برلمان ألماني حرّ، يشكل حكومة ألمانية حرّة، تتعاقد مع جيرانها الروس والأوروبيين بمعاهدة حرّة.

¹ - الاسم الذي اتّخذه أحمد توفيق المدني لتوقيع مقالاته.

² - البصائر: السلسلة الثانية - السنة السادسة - العدد 243 - 01 صفر 1373هـ / 09 أكتوبر 1953م.

وتريد روسيا، وتريد معها حكومة ألمانيا الشرقية، أن يقع قبل كل شيء تشكيل حكومة متحدة ألمانية تمثل سائر الأحزاب والتزاعات، ويكون تشكيلها بواسطة اتفاق بين سائر الأطراف الذين يهمهم الأمر، فإذا ما تم ذلك باشرت تلك الحكومة اجراء انتخابات تشريعية حرة، تكون نتيجتها قيام الحكومة الألمانية النهائية، على أن تكون ألمانيا دولة محايدة ومتزوعة السلاح.

فكيف يمكن التوفيق بين النظريتين؟¹

وبلهجة فيها الكثير من التفاؤل بخصوص مستقبل ألمانيا، يتنبأ المدني باتحاد الألمانيين على الرغم من العوائق والعراقيل، ذلك أن الوحدة إرادة الشعب الألماني برمته ولا يمكن لأي سلطة كائنة ما كانت أن تقف في وجه إرادة الشعب، وقد صدقت نبوءة الكاتب بعد أكثر ثمان وثلاثين سنة من كتابة هذا المقال، فسقط جدار برلين² وتوحدت ألمانيا مثلما كانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية، يقول الكاتب: "إنّ الاتحاد الألماني يقع لا محالة ومهما كانت الظروف، فإذا كان رجال السياسة لا يريدون أن تتجدد مأساة كوريا في قلب البلاد الأوروبية، فلا مناص لهم من قبول فكرة تشرشيل، وجمع مؤتمر يضم رؤساء الدول على نية الخروج باتفاق منه نهائي."³

وبدورها نالت القضية الكورية حظاً من العناية والاهتمام لدى كتّاب المقالة السياسية في الجزائر، فقد تناولها أحمد توفيق المدني-كعادته دوماً- بالتحليل والتعليق والتعقيب، وبتوضيح مواقف الدول العظمى من هذه المعضلة العالمية المفتعلة التي فرقت بين أبناء الشعب الواحد، ومزقت الوحدة الترابية للوطن الواحد، لا لشيء سوى أن القدر ساقها لتكون بؤرة من بؤر الصراع العالمي ومسرحاً لحرب باردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، يقول الكاتب عن الهدنة الهشة بين الكوريتين الجنوبية والشمالية بعد سلسلة حروب حصدت الآلاف من الضحايا الأبرياء: "إذا كانت الهدنة قد انعقدت في كوريا منذ أمد طويل، وأقلعت المدافع عن حصد نفوس الأبرياء في هاتيك الديار البائسة، فإنّ السلام بمعناه الحقيقي لم يُستتب أمره هنالك، ولا

¹ - المصدر السابق.

² - جدار برلين: جدار طويل يفصل شطري برلين الشرقي والغربي بدأ ببناءه في 13 أغسطس 1961 وجرى تحصينه على مدار السنين، ولكن تم فتحه في 9 نوفمبر 1989م.

³ - البصائر - السلسلة الثانية - العدد 243. المصدر السابق.

تزال الأزمة قائمة على قدم وساق، بل يُنتظر أن يتفاقم خطبها، وأن تُسفر عن حالة تجعل رجوع الحرب بين الفريقين ضربة لازب، اللهم إلا إذا تغلب العقل على المصلحة في آخر الوقت، وأدرك الذين في قلوبهم مرض، أن عودتهم إلى الحرب في الميادين الكورية، إنما معناه إذكاء نار الحرب هذه المرّة في غير كوريا من بقاع العالم.¹

ولا يُخفي الكاتب موقفه من موضوع الصّراع بين الكوريتين، فالقارئ يستشفُّ من بين سطور المقال أن الكاتب ناقد على زعيم كوريا الجنوبيّة الموالي للغرب، فهو في نظره غير جادّ في موضوع الهدنة، بل ويبحث عن أيّ مبرّر لخرق هذه الهدنة ونسفها من أساسها، يقول الكاتب: "تلك هي أزمة اليوم، وإنّ سنقمان ري زعيم كوريا الجنوبيّة، لينتظر بفارغ صبر حلول ذلك الأجل المحتوم، لكي يلعب الأعباء، ويُمزق ورقة الهدنة بيديه، ويُجبر الذين يبقون معه فوق الميدان الكوري، على امتشاق الحسام من جديد.

ذلك أنّه يؤمن إيماناً جازماً بأنّ الوحدة الكوريّة أصلاً إن تتكون إلاّ حول حكومته هو، وأنّ ذلك لا يمكن أصلاً إلاّ بواسطة الحرب والتّصر، والجنون فنون.²

وكان لسياسة فرنسا الاستعماريّة نصيب من النقد اللاذع على صفحة منبر السياسة العالميّة، فقد تعرّض توفيق المدني لانتهاكات المُستعمر الفرنسي لسيادة وكرامة الشعب الفيتنامي، الذي ضرب أروع الأمثلة في التضحيّة ونكران الذات في سبيل الوطن والحرّيّة، هذا الشعب أضحي على شفا حفرة من حرب أهليّة تُغذيها الأهواء السياسيّة الدوليّة فصيّرت هذا البلد إلى مستنقع حرب آسن يتقاتل فيه أبناء الوطن الواحد، وقد تُفتّت وحدته الترابية وفقاً للأطماع الاستعماريّة. يقول الكاتب في مقال بعنوان "الحرب الأهليّة في الهند الصيني": "تفاقم أمر الأزمة الخائفة التي يُعانيها القسم الجنوبي من بلاد الهند الصيني، إلى أن آل أمرها إلى حرب أهليّة، قاسية عنيفة، التحمت فيها قوى الحكومة وقوى الثورة، وأسفرت عن مقتل خمسمائة رجل من الجانبيين، وجرح ما يزيد عن الألفين، وإحراق أقسام كبيرة من مدينتي سايقون وشالون اللذين وقعا بهما القتال.³

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة السادسة- العدد 244- 15 صفر 1373هـ/ 23 أكتوبر 1953م.

² - المصدر نفسه.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثامنة- العدد 317- 14 رمضان 1374هـ/ 06 ماي 1955م.

ويكشف الكاتب الأسباب الحقيقية لهذا الصّراع الذي يُمزّق البلاد، بعد أن قدّم أبناءؤها أرواحهم فداءً لها، بقيادة الزعيم هوشي منه، يقول المدني: "وإنّ الكثير من النّاس لم يفهم هذه القضية، ولم يُدرك الأسباب التي آلت بهذا القسم الخاضع للنّفوذ الغربي (الأمريكي والفرنسي) إلى مثل هذه الحالة من الفوضى والارتباك والحرب الأهلية... إنّ الخلاف الحقيقي، الذي آل إلى اشتعال الحرب الأهلية في البلاد، غنّما هو بين فرنسا وأمريكا، وإذا ما التقى الجانبان الهندو صينيّان في الميدان، فقد أحدث الصّدّام العنيف فعلا بين أبناء فرنسا، وأولاد أمريكا، والشعب المسكين يذهب ضحية التّراحم حول السلطة والنّفوذ بين الدولتين."¹

ويختم الكاتب مقاله بمثل شعبي جزائري مفاده أنّ كلّ من فرنسا وأمريكا مُتنافستان ومُتناحرتان على أمر لا يعنيهما إطلاقا، فلا نابليون ورث الهند الصينية لفرنسا، ولا جورج واشنطن أوصى بإلحاق الهند الصينية بأمريكا على أنّها جزء من الدولة الفتية آنذاك، يقول توفيق المدني في لهجة الوثائق الخبير بالنهاية الحتمية لكلا الاستعمارين الفرنسي والأمريكي، والذي يُلقي بهما الشعب الفتنامي إلى مزبلة التاريخ: "هذا هو الموقف من الناحية العسكرية، أمّا من الناحية السياسية، فلا تزال المذكرات مُسترسلة بين باريس وواشنطن، ولا تزال المذاكرات جارية بين ممثلي الدولتين، ولا أجد هنا بدا من التمثّل. بمثل تستعمله العامة عندنا، وأراه مصوّرا للحالة أجلى تصوير! الراعي والخمّاس، يتخاصموا على رزق النّاس!

لكن مهما تطوّرت الحالة، ومهما بذلت أمريكا وفرنسا من جهود علنية أو خفية، فإنّ الانتخابات التي فرضتها اتفاقيات جنيف، لتوحيد البلاد، تحت رقابة أممية، ستكون هي فصل الخطاب، وسيبعث الشعب بكلّ هذه الحثالات إلى حيث ألقته..."²

ويكتب عبد الحميد مهري في جريدة المنار، مقالا سياسيا عرض فيه لتوتر العلاقة بين ألمانيا والدول العربية، بسبب تقديم ألمانيا الغربية تعويضا ماليا مُعتبرا للكيان الصهيوني نظير ما لحق اليهود من إساءة أيام النازية مثلما تدّعيه الرواية الصهيونية، يقول الكاتب تحت عنوان "بين ألمانيا والعرب": "توتّرت العلاقات بين ألمانيا والعرب، بسبب الاتفاقية التي عُقدت بين ألمانيا الغربية وإسرائيل في 10 سبتمبر الماضي، والتي تلتزم فيها ألمانيا بدفع 03 مليارات و450

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

مليون من الماركات لحكومة إسرائيل، بعنوان تعويضات عما لحق اليهود في العهد النازي من خسائر في الأَنْفَس والأموال.

وألمانيا تريد بهذه الاتفاقية تنفيذ التزامها الأدبية للغربيين، بتعويض المضطهدين في العهد النازي عمّا لحقهم من أضرار. لكنّ الدول العربية التي لا تزال قانونيا في حالة حرب مع دولة إسرائيل، رأت في هذه الاتفاقية خطرا يهدّد كيانها، لأنّ إسرائيل ستستعمل هذه التعويضات في تقوية إنتاجها الصناعي والحربي.¹

ويوضّح الكاتب الخطوات المزمع اتّخاذها من طرف المجموعة العربية اتّجاه ألمانيا، التي انحازت إلى الكيان الصهيوني بتصرّف مثل هذا، لذا وجب معاقبتها من خلال مقاطعتها اقتصاديا كوسيلة من وسائل الاحتجاج أو ورقة ضغط على المصالح الألمانية في المنطقة، يقول الكاتب: "وقد اجتمعت كلمتها في الاجتماع الأخير، الذي عقدته اللجنة السياسية للجامعة العربية على مقاطعة ألمانيا اقتصاديا، إذا صادق البرلمان الألماني على هذه الاتفاقية، ولكنّها أرجأت تنفيذ قرارها حتى تتمّ المفاوضات مع ألمانيا."²

ويتناول الكاتب موقف الدول العربية التي ترى أنّ الكيان الصهيوني ليس مُخوّلا ولا مُفوّضا في أن يقبض التعويضات نيابة عن يهود العالم، هذا إذا افترضنا صحّة الدعاية الصهيونية التي تتباكى على مجموعة من اليهود زعمت أنّهم أُوذوا زمن النازية، وفي محاجة مقنعة، يردّ الكاتب على دموع التماسيح التي تذرّفها الصهيونية على حقوق الإنسان وغيرها، بأنّ ما يُمارسه الكيان الصهيوني من جرائم في فلسطين أشنع وأفظع ممّا مارسه النازية، يقول عبد الحميد مهري: "لكنّ الدول العربية تقول إنّه لا حقّ لإسرائيل في الحصول على تعويضات من ألمانيا نيابة عن يهود العالم أجمع.

فمسألة تعويض اليهود شيء، ومسألة تسليم هذه التعويضات إلى إسرائيل شيء آخر، زيادة على أنّ إسرائيل عاملت الفلسطينيين تماما كما عامل النازيون اليهود، فأخرجت مليون عربي من ديارهم، واستولت على أرزاقهم وأموالهم."³

¹ - المنار: السنة الثانية- العدد 12- 11 ربيع الأول 1372هـ/ 28 نوفمبر 1952م.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر السابق.

أمّا جريدة المجاهد التي كانت تخوض حرباً إعلامية في مواجهة الدعاية الاستعمارية، فإنّ تغطيتها لأخبار الثورة التحريرية المباركة لم يمنعها من أن تتقصّى أخبار حركات التحرر في إفريقيا وأمريكا اللاتينية، فقد أفردت مقالا في صفحة نصف الشهر السياسي، تحت عنوان "ثورة في الكونغو" تناولت فيه اشتعال فتيل الثورة الشعبية ضدّ الاستعمار البلجيكي، وقد استبشرت (المجاهد) بهذه الثورة التي تُعدّ حلقة في سلسلة المد التحرري الذي اجتاحت إفريقيا اقتداءً بالثورة الجزائرية، يصف الكاتب الشرارة التي أشعلت فتيل الثورة فيقول: "منذ يومي الأحد 04 جانفي 1959 انفجر بركان آخر من براكين إفريقيا تحت أقدام الاستعماريين الأوروبيين، وذلك في عاصمة القسم الذي تحتله بلجيكا من بلاد (الكونغو) والتي سمّاها الاستعماريون البلجيكيون (ليوبولدفيل) نسبة إلى ليوبول الثاني ملك بلجيكا الذي تحوّلت في عهده هذه البلدة الإفريقية إلى عاصمة بلجيكية".¹

ويبيّن الكاتب ردّ فعل السلطات الاستعمارية البلجيكية على المظاهرات السلمية التي قام بها أبناء الكونغو ضدّ الاستغلال والنهب الفاضح لثروات بلادهم، وللمطالبة بحريتهم واستقلالهم، غير أنّ الاستعمار ملّة واحدة فقد قابل هذه المظاهرات السلمية بحملة همجية انتقامية أعدم فيه المتظاهرين العزل، ودكّ قراهم بقذائق المدفعية، وزجّ بالباقي في السجون، على نحو يذكّرنا بحملة الإبادة التي تعرّض لها المتظاهرون السّلميون يوم 08 ماي 1945 في الجزائر على يد الاستعمار الفرنسي، يقول الكاتب: "بعد أن قام الكونغو بهذه المظاهرة الدامية الصاخبة، لم يُحرّك البلجيكيون أفكارهم وإنّما اكتفوا بتحريك رشاشاتهم ومدافعهم، التي هدموا بها أحياء الأهالي في المدينة، أمّا أفكارهم فقد بقيت جامدة، وكل ما ينظرون فيه لترضية أهالي الكونغو هو أن يمنحهم المساواة بينهم وبين السكان البيض، أي المساواة بين عشرة ملايين من الأهالي وعشرة آلاف من المستوطنين الأوروبيين، على طراز ما سارت به السياسة الفرنسية في الجزائر إلى اليوم".²

وعلى لسان الشعب الجزائري، يتهج الكاتب بهذه الثورة المباركة، التي لحقت بركب الحرية لتمسح عار الاستعباد والخضوع والهيمنة للمحتل الأجنبي، والتي تُعدّ ضربة قاصمة للهيكل

¹ - المجاهد: العدد 35-15/01/1959م.

² - المصدر نفسه.

الاستعماري المترنح تحت الضربات الموجعة لحركات التحرر التي سرت في أوصال إفريقيا، يقول الكاتب مؤكداً على أن الاستعمار لا يفهم إلا لغة الحديد والنار: "إننا اليوم نشاهد أرضاً أخرى مباركة من قارتنا الإفريقية المجاهدة، تندفع في طريق النضال، وتهمز أقدام المستعمرين هزاً، وتضرب بعنف لصوص أوروبا الذين يُسمون قوميتهم عمراناً وحضارة.

ونحن على يقين من أن المستعمرين البلجيك مثل زملائهم الفرنسيين، لا يفهمون بهزة واحدة، ولا يستجيبون لنداء الشعوب، إلا إذا أكرهوا على ذلك إكراهاً، وإلا إذا دحرناهم بقوتنا النضالية إلى الورا.¹

ويختتم الكاتب مقاله بالتأكيد على أن الثورة الجزائرية توازر جميع الثورات التحريرية في إفريقيا والعالم، وهيب بالشعوب التي لم تنتفض بعد أن تُفريق من سباتها، وتنفض عن نفسها غبار سنين الذل، وأطمار الاستعباد، مع التنبيه لشيء هام وهو أن ضريبة التحرر غالية جداً، والطريق نحو الحرية طويل وشاق، ولكن بإرادة الشعب، وصبره، وتضحيته، سيتحقق ما كان ضرباً من الخيال، أو مغامرة مجنونة، ولكم في الجزائر العبرة والمثال، يقول الكاتب: "إننا نعتقد أنهم يدركون بأن هذا النضال سيكون طويلاً وشاقاً، وإنه يتطلب منهم تضحية جسيمة، ولكننا نعتقد أيضاً أنهم يشعرون بأن وقت إفريقيا قد جاء لتتحرك وتلتحق بقافلة الحرية. إن الشعب الجزائري لا يسعه إلا أن يؤيد بحماس هذا النضال المبارك، الذي تندفع فيه شعوب إفريقيا، لأن شعبنا يؤمن بأن حربه التحريرية ضمان لنجاح حركاتهم..."²

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر نفسه.

الفصل

الرابع

الفصل الرابع : خصائص المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث
التشكيل البلاغي والخصائص الفنية للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث

01/ البناء الفني للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث

أ/ العنوان

ب/ الاستهلال أو المقدمة

ج/ العرض

د/ الخاتمة:

02/ الإقناع

03/ الإمتاع

04/ النثرية

05/ الذاتية والموضوعية

ب/ الخصائص الأسلوبية للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث

01/ السخرية الحادة

02/ شيوع العبارات المفرنسة والصيغ التقليدية

03/ النبرة الوعظية

04/ التائق في الأسلوب

05/ النبرة الثورية الحماسية

التشكيل البلاغي في المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث

أ/ المحسنات البديعية وأسباب توظيفها

01- السجع

02- الجناس

03/ الطباق

04/ المقابلة

ب/ البيان

01/ التشبيه

03/ الاستعارة

04/ الكناية

- التشكيل البلاغي والخصائص الفنية للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث: نتطرق في هذا الفصل إلى جملة من الخصائص التي وسمت المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث، ويمكن تقسيمها إلى قسمين: خصائص عامّة تتعلّق بشكل المقالة وهيكلها الفني الذي صبّت فيه، وكذا طبيعة الأسلوب الذي صيغت به، وخصائص فنية أخرى ميّزت المقالة السياسية الجزائرية عن باقي المقالات السياسية في مختلف أنحاء الوطن العربي، ويُعزى ذلك لعدّة عوامل لعلّ أهمها طبيعة الاستعمار الذي ابتليت به الجزائر، والذي عمل كلّ ما بوسعه لاجتثاث الإنسان الجزائري من هويته وسلخه عن دينه، ومحو لغته.

01/ البناء الفني للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث:

أ/ العنوان: يُعدّ العنوان عنصراً أساسياً في النصّ النثري، وإذا كان بالإمكان الاستغناء عنه في النصّ الشعري، فإنّه من الصعوبة أن تجد نصّاً نثرياً من غير عنوان، لذلك يُعدّ " مفتاحاً مُحركاً لعجلة النصّ، وله صلته القويّة بالكاتب والمتلقي"¹. فلا غرابة أذن أن يأخذ العنوان مساحة واسعة من اهتمام الكتاب، حتّى صار أشبه ما يكون بالنصّ الصغير، أو قل إن شئت النافذة التي يمكن للمتلقي من خلالها الإطالة على النصّ.

تبرز وظيفة العنوان من خلال الاعتماد على وظائف اللغة السّت، التي قال بها ياكبسون وهي: " الانفعالية، والمرجعية، والشعرية، والانتباهية، والميتالسانية، والإفهامية"². ومن خلال هذا يتبيّن أن وظيفة العنوان لا تخرج عن ثلاثة أمور هي: " تحديد النصّ، والإيحاء، والقيمة الجمالية"³ ومن خلال تتبعنا لمسار المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث، وجدنا أنّ عناية الكتاب بعنوان المقالة كان متفاوتاً، ففي المرحلة الأولى الممتدّة من (1925 - 1945) كانت عناوين المقالات بسيطة في صياغتها وفي دلالتها، لا غرابة فيها ولا عمق، إلّا بعض المقالات القليلة التي

¹ - محمد صالح رشيد الحافظ: المقالة الأدبية في أدب أحمد أمين- أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1999، ص 155.

² - رومان ياكبسون: قضايا شعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط. 01، 1988، ص 33.

³ - بسام خلف سليمان الحمداني: المقالة عند محمود درويش، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2001، ص 67.

كانت عناوينها ذات دلالات عميقة موحية. ففي جريدة المنتقد مثلا نجد مقالة يتحدث فيها الكاتب عن المفاضلة بين النظامين الملكي والجمهوري، وعن النظام الجمهوري الذي تتبناه فرنسا والذي تُصيرُه نظاما ملكيا مستبداً في الجزائر، غير أن العنوان كان سطحياً مباشراً "الملوكية ضمن الجمهوريّة".¹ فعنوان مثل هذا يفتقد للقيمة الجماليّة، حتى أن القارئ لا يُثير انتباهه عنوان كهذا، وربما عزف عن قراءة المقال برّمته.

والواقع أن جريدة البصائر في سلسلتها الأولى والثانية كانت عناوين مقالاتها موحية مُتدقّة الدلالة، تُشوّق القارئ وتدفعه للإقبال على قراءة المقال، لاسيما المقالات التي كان يُدبّجها يراع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فقد كانت قمة في البلاغة والإيحاء والدلالة والعمق من حيث المبنى والمعنى معا. فلو ألقينا نظرة مُتفحصة على سلسلة المقالات التي دبّجها الإبراهيمي حول قضية فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسيّة لوجدناها كلّها تفيض بلاغة وبيانا، إلى جانب التحليل العميق الهادف الذي يصبو الكاتب من وراءه إلى إقناع القارئ بفكرته. والحقيقة أن الإبراهيمي كان موفّقا في اختيار عناوين لمقالاته التي تستفزّ ذهن القارئ وذوقه اللغوي، فيقبل على قراءتها بشغف ونهم كبيرين. فمقال يحمل عنوان " القضية ذات الذنب الطويل"² لا شك أنه يثير الفضول لدى القارئ لمعرفة هذه القضية التي طال ذنبها كطول أذنان بعض الهوام، واختيار الإبراهيمي عنوانا كهذا لأنه وببساطة يعكس حقيقة القضية التي ماطل الاستعمار في إجابة طلب الجزائريين في فصل دينهم عن الحكومة الفرنسيّة الاستعماريّة، ورفع يدها عن مساجدهم وأوقافهم وشعائرهم، ولأنّ القضية طالت وتشعبت فروعها، أضحت كحيوان طال ذنبه وهو يجره وراءه لا يدري كيف يصنع معه، والحقيقة أن الإبراهيمي يلجأ لعناوين من هذا القبيل للإيحاء بفكرته من جهة، وللسخرية من خصمه من جهة ثانية. ولهذا العنوان " القضية ذات الذنب الطويل" دلالة قويّة ومؤثّرة من خلال ورودها بصيغة التعريف، لتُضفي صفة الواقعيّة على الموضوع بعيدا عن الخيال والمبالغة في المعالجة.

¹ - المنتقد: العدد 03- 24 ذي الحجة 13143هـ/ 16 جويلت 1925م.

² - البصائر: السلسلة الثانية-الرابعة- العدد 175- 26 صفر 1371هـ/26/نوفمبر/ 1951م.

وفي الموضوع نفسه أي فصل الدين الإسلامي عن الدولة يلجأ إبراهيمي إلى التراث العربي فيستدعي منه مثلاً عربياً فصيحاً، ويتخذ منه عنواناً لمقاله وهو " عادت لعتراها لميس"¹ هذا العنوان المثل يُفصَح عن السلوك الشائن للاستعمار الفرنسي في الجزائر، الذي ما إن يُفارق شروره حتى يشدّه الحنين إليها من جديد، فيعود على أشدّ حرقة واشتياق لبوائقه. مثلما كانت لميس تفارق عوائد الشرّ، ثم ما تلبث أن تعود إلى اقترافها من جديد.

أمّا عناوين المقالات السياسية على صفحات جريدة المجاهد، فكانت في مجملها دقيقة متلائمة مع مضمون المقال، وإن كانت بسيطة في لغتها لأنّ الهدف كان توعية الجماهير بجديّة الثورة وعدالة القضية والردّ على الدعاية الفرنسية المغرضة، على خلاف مقالات الشيخ البشير إبراهيمي التي كانت موجّهة للنخبة من أبناء المجتمع وليس لعامة الناس. فمقال مثلاً في جريدة المجاهد يحمل عنوان " إنذار للخونة- جزائر ديغول يجب أن لن تولد"² فبالإضافة إلى صياغته البسيطة التي لا تحتاج إلى تشفير أو فكّ لرموزها من طرف المتلقي، فهو كذلك يتفق مع مضمونه. فعناوين كهاته تحمل في طابعها شكلاً من الواقعيّة والبساطة لأنّ الهدف الأسمى من المقالات السياسية التي كانت تُكتب زمن الثورة المباركة هو زرع الوعي الوطني في أوساط الشعب الجزائري، ليحتضن ثورته ويقف في وجه جلاّده، لأنّ الثورة تحتاج لجميع أبناءها على اختلاف مناهلهم.

ومن خلال استقراءنا للمقالات السياسية وعناوينها في الأدب الجزائري الحديث يمكن التوصل إلى عدّة نتائج:

01- إنّ اهتمام كتّاب المقالة السياسية في الجزائر بالعنوان لم يكن على درجة واحدة من الصياغة والاختيار.

02- اقتصرت عناوين بعض المقالات على لفظة واحدة مثل : (حقائق³، طنجة⁴)

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 64- مصدر سابق.

² - المجاهد: العدد 87- 27 رجب 1380هـ/ 16 جانفي 1961م.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 47- 25 شوال 1367هـ/ 30/ أوت/ 1948م.

⁴ - المجاهد: العدد 41- 24 شوال 1378هـ/ 01/ 05/ 1959م.

03- استخدام أدوات الاستفهام في العنوان مثل: (هل في الإمكان تأسيس حزب وطني؟¹، كيف صارت الجزائر عربية؟²، هل من جديد أيها الوالي الجديد؟³، هل الهدنة ممكنة في بلاد الجزائر؟⁴).

04- استخدام صيغة المضاف والمضاف إليه عناوين لبعض المقالات مثل: (جهاد فلسطين⁵، تصوير الفاجعة⁶).

05- استخدام الجمل الاسمية والجمل الفعلية عند صياغة العنوان مثال ذلك: (الانتخابات وتمثيل الأمة⁷، كلمة الجزائر المسلمة للنواب المسلمين⁸، فلسطين الشهيدة⁹، الاستقلال قضية كرامة وحق مقدس¹⁰).

06- أمّا الجمل الفعلية فعلى سبيل المثال: (اقتربت الساعة¹¹، تمخّض الجبل فولد فأراً¹²، فهمنا دي غول الذي لم يفهمنا¹³).

هذا فما يخصّ عنوان المقال، أمّا الأجزاء الباقية ونقصد بها الهيكل المتعارف عليه لدى كتّاب المقالة بصفة عامة، أي إتباع الخطوات المنهجية المعروفة لدى حدّاق الكتّاب، من مقدمة وعرض وخاتمة. فإنّ كتّاب المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث، لم يكونوا على حظّ واحد في

¹ - الأمة: العدد 03 - 1934/10/02 م.

² - الشهاب: ج 12 - مج 13 - ذي الحجة 1356 هـ / فيفري 1938 م.

³ - المنار: السنة الأولى - العدد 04 - 15 شعبان 1370 هـ / 21 ماي 1951 م.

⁴ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثامنة - العدد 350 - 07 جمادى الثانية 1375 هـ / 20 جانفي 1956 م.

⁵ - الأمة: العدد 78 - 1936/06/09 م. مصدر سابق.

⁶ - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 05 - 1947 - مصدر سابق.

⁷ - المنتقد: العدد 16 - 26 ربيع الأول 1344 هـ / 15 أكتوبر 1925 م.

⁸ - السنة النبوية: العدد 05 - 13 محرم 1352 هـ / 08 ماي 1933 م.

⁹ - الشهاب: ج 06 - مج 14 - جمادى الثانية 1357 هـ / أوت 1938 م.

¹⁰ - المجاهد: العدد 14 - 15 ديسمبر 1957 م.

¹¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثامنة - العدد 344 - 23 ربيع الثاني 1375 هـ / 09 ديسمبر 1955 م.

¹² - المنار: السنة الثانية - العدد 07 - 26 شوال 1371 هـ / 19 يوليو 1952 م.

¹³ - المجاهد: العدد 72 - 16 محرم 1380 هـ / 11 جويلية 1960 م.

الكتابة، مثلما لم يكونوا على خطّ واحد في تمرّسهم على منهجية المقالة السياسية، فنجد منهم الحاذق الماهر، والمُسرف المهذار، والمقتصد المُقترّ في الكلام.

ب/ الاستهلال أو المقدمة:

إنّ كاتب المقال وفقاً لمنهجية الكتابة المتعارف عليها، يستهلُّ مقاله بمقدمة أو باستهلال يشتمل على زاوية أو مدخل يُمهّد بها الكاتب لموضوع المقال ويهيئُ القارئ لتقبّل فكرته في فقرة أو عدّة فقرات، حسب الموضوع المعالج، وهذه المقدمة لها أهمية بالغة فهي التي تجذب القارئ فيمضي في القراءة إذا كانت جيدة ومشوّقة، وهي كذلك التي تصدّه وتُنفره إذا كانت رديئة ومملّة. ليخلص بعد ذلك إلى صلب المقال، وصلب المقال هو ذلك الجزء الذي يحتوي على المادة الجوهرية في المقال، فيحلّل ويُناقش ويُحاجج، وقد يُؤيّد موقفاً ما، مثلما قد ينسفه ويهدمه من أساسه، حسب قناعة الكاتب ولونه السياسي والإيديولوجي، لينتهي أخيراً إلى نتيجة يضمّنُها الفقرة الأخيرة من المقالة التي يُصطلح على تسميتها بخاتمة المقال، وينبغي أن لا تقل أهمية عن المقدمة، باعتبارها آخر ما يبقى منطبعاً في ذهن القارئ بعد الانتهاء من قراءة المقال، ولا بدّ أن تكون قويّة محكمة واضحة، غير مسرفة في الطول حتى لا ينعدم تأثيرها، فهي الجزء المهم من المقال الذي يتوقف عليه اقتناع القارئ من عدمه، ولو تقصّينا خطوات الكتاب الجزائريين حول مدى تقيّدهم بالمنهجية المتبعة في كتابة المقالة، لألفيناهم متفاوتين من حيث الالتزام بها.

وأول جزء من أجزاء المقال الذي سنتناوله بالدراسة في المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث جزء المقدمة أو الاستهلال، لذا نرى من الواجب أن نُبيّن أهمية هذا العنصر أو الركن في المقال بصفة عامّة.

يُعدّ الاستهلال جزءاً مهمّاً من أجزاء النصّ النثري، وتربطه بتلك الأجزاء علاقات فنية، وهذه العلاقات " تتوقف فيها الأجزاء أو العناصر على بعضها من ناحية، وعلى علاقتها بالنصّ كلاً من ناحية أخرى. " ¹، وتبرز أهمية الاستهلال في النصّ النثري من خلال إمكانية الكاتب في تأليف الجملة الأولى من الكلام، لأنّه متى تمكّن من صياغة هذه الجملة " تسلسل الكلام بعدها،

¹ - مرشد الزبيدي: بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1994،

واستقامت الأفكار، واتّضحت المقاصد، وجرى المجرى الذي كان غائرا في الأعماق.¹ وأهميّة الاستهلال لا تكمن في متابعة تأليف الكلام فحسب، بل في إغراء المتلقي واستمالاته في قراءة المقال ومتابعته إلى نهايته. لذلك وجب أن يكون الاستهلال متناسبا مع حجم النص ومضمون المقال، لأنّه " أول ما يقع في السمع من الكلام."²

أمّا المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث فأحيانا نجد الاستهلال أو مقدّمة المقالة تطول أحيانا أكثر ممّا يجب، وأحيانا تقصر أكثر ممّا ينبغي، بل هناك صنف من الكتاب من يهجم مباشرة على صلب الموضوع دون أن يُقدّم له، ويُعدُّ هذا عيبا شكليا للمقالة من حيث المنهجية، فضلا عن كونه إخلالا بمضمونها، لأنّ المقدّمة تهيئة للقارئ وتعريف مبسّط له حول الموضوع المعالج. هذه العيوب الشكلية التي اعترت المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث تكاد تكون محصورة في المرحلة الأولى (1925-1945) التي خُطت فيها المقالة خطواتها الأولى، لا سيّما في الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية، لكن هذا لا ينفي وجود مقالات فنية متميّزة، التزم فيها أصحابها المنهجية المعهودة في تدبير المقالة، لا سيّما الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ومحمد السعيد الزاهري، وعبد الحميد بن باديس، محمود بوزوزو، وأحمد توفيق المدني. فمثلا مقال " ثورة الدروز سببها صلابة الإدارة" المنشور بجريدة المنتقد، تناول فيها الكاتب موضوع ثورة الدروز التي قادها سلطان الأطرش³ ضدّ الانتداب الفرنسي، فأول ما نُسجّله حول هذا المقال هو غياب المقدّمة والتي هي توطئة للموضوع المعالج، ولها من الأهمية ما للعنصرين المتبقين (العرض-الخاتمة)، فقد تناول الكاتب ثورة الدروز دون الإشارة إلى موقعها، وأسبابها، وعلاقة الانتداب الفرنسي بسوريا، كما تطرّق مباشرة إلى موقف الدول العظمى منها، ففي مستهلّ مقاله يقول الكاتب: "جاءت هذه الثورة بفتنة فلم يدر الناس أسبابها

¹ - ينظر: محمد صالح رشيد الحافظ: المقالة الأدبية في أدب أحمد أمين، مرجع سابق، ص 154.

² - ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد محمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، 1963، ج 03/ ص 98.

³ - ينظر: الأعلام: سلطان الأطرش والمعروف باسم سلطان باشا الأطرش (1891/1982) قائد وطني ومجاهد ثوري سوري درزي، القائد العام للثورة السورية الكبرى 1925، ضد الانتداب الفرنسي، أحد أشهر الشخصيات الدرزية في العصر الحديث، عرف بوطنيته وشجاعته ورفضه لتجزئة سورية.

ككلّ شيء مُباغت، ولقد بلغت الإدارة الفرنسية بسوريا في كتم أخبارها، وتهوين شأنها، وإلى اليوم لا زالت تفاصيلها إنّما تُستقى من المصادر الأجنبية، ومن تلك المصادر ومن جرائد سوريا عرفنا السبب الحقيقي لهذه الثورة المجهولة العاقبة، وهو صلابة الإدارة.¹

ولعلّ هذا العيب الجوهرى في هيكل المقالة، والتمثل في إغفال عنصر المقدمة للموضوع المعالج قد وسم الكثير من مقالات الكتّاب الطرقيين، في مختلف المراحل التي قطعتها المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث، ففي المرحلة التي يمكن أن نسميها مرحلة النضج بالنسبة للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث ونقصد بها الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، نجد كثيرا من الكتّاب الذين يُصنّفون ضمن التيار الطرقي يهجمون على الموضوع مباشرة دون مراعاة للمنهجية المعتمدة في تحرير المقال، فهذا الشيخ عدة بن تونس يكتب مقالا في جريدة المرشد تحت عنوان "اتسع الخرق على الراقع"، تناول فيه موضوع القضية الفلسطينية، بيد أنّ مقاله افتقر إلى عنصر الاستهلال الذي يُعدّ ركنا أساسيا من أركان فنّ المقال لأنّه "العنصر الأكثر خطورة، فهو أشبه ما يكون بالنواة المُخصبة، تلك التي ستتحول خلال العملية الإبداعية إلى جنين، ومن ثمّ إلى كيان مُتكامل."² فضلا عن التخبّط الواضح في صياغة الموضوع، وسيطرة النبرة الوعظية الدينية، وغياب اللهجة الحماسية التي يجب أن تكون في مقال مثل هذا لا سيما وأنّه - المقال - تزامن مع احتلال فلسطين من طرف العصابات الصهيونية شهر ماي 1948. يقول الكاتب مباشرة دون مراعاة لعنصر المقدمة: "يظهر من المناورة الجارية بين العرب واليهود بالقدس الشريف، قد بلغت منتهاها من الفظاعة والانتشار، وقد حاول بعض المعتدلين من الطرفين أن يطفئوا تلك النيران المندلعة من كلا الفريقين، وحتى على شيوخهم ونساءهم وصبيانهم، ولكن قد اتسع الخرق على الراقع، فعبثا حاولوا أن يخفّفوا ولو أقلّ القليل منها، بل لم تزل زائدة في الالتهاب والانتهاب، وهكذا أصبحت القدس دار حرب وقتال بدل أن كانت دار عبادة وقربى، لماذا يا ترى؟"³

¹ - المنتقد: السنة الأولى - العدد 15 - 14 صفر 1344هـ / 03 سبتمبر 1925م.

² - ياسين التصير: الاستهلال فنّ البدايات في النصّ الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1993، ص 09.

³ - المرشد: السنة الثانية - العدد 18 - رجب 1367هـ / مايو 1948م.

ولعلّ القارئ الكريم يلمس بشكل واضح وجلي ذلك الهزال في الطرح، وتلك النبرة الانهزامية في معالجة القضية الفلسطينية، وتلك الركافة في رسف الكلمات وتجاوزها، ولو أردنا شيئاً من التفصيل لعقدنا مقارنة بين ما دبّجه يراع الإبراهيمي حول نكبة فلسطين وبين هذه الفقرات السمجة من هذا المقال، ليقف القارئ والباحث على البون الشاسع بين القلمين من حيث الشكل والموضوع، يقول الإبراهيمي: "يا فلسطين! إنّ في قلب كلّ مسلم جزائريّ من قضيتك جروحاً دامية، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محتك عبارات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقك كلمة مُتردّدة هي: فلسطينُ قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصّغير، وفي عنق كلّ مسلم جزائري لك - يا فلسطين - حقٌّ واجبُ الأداء، وذمامٌ مُتأكد الرّعاية، فإن فرّط في جنبك، أو ضاع بعض حقك، فما الذّنب ذنبه، وإثمًا هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه، والمرء وداره، والمسلم وقبيلته."¹

والجدير بالذكر من خلال تتبّعنا للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث هو بروز ظاهرة جديدة في الاستهلال وهي الاستهلال الشعري، وهي ظاهرة لم نألّفها في المقالة بصفة عامّة لأنّ الأصل فيها - المقالة - أنّها نثرية، ونقصد به إيراد أبيات شعريّة في بداية المقال، وهذا الاستهلال الشعري يعقبه استهلال نثري، وأوضح مثال لذلك مقالة البشير الإبراهيمي عن فلسطين بمناسبة يوم عيد الفطر المبارك، يقول الإبراهيمي:

للناس عيد ولي هَمَّان في العيد

فلا يغرّتك تصويبي وتصعيدي

همّ التي لبثت في القيد راسفة

قرناً وعشرين في عسف وتعبيد

وهمّ أخت لها بالأمس قد فنيت

حماهما بين تقتيل وتشريد

كان القياض لها في صنفقة عقدت

من ساسة الشر تعريباً بتهود

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 05 - مصدر سابق.

جرحان ما برحا في القلب جسهما

مود وتركهما لشقوتي مود

ذكرت بيتاً له في المبتدا خبر

في كل حفل من الماضين مشهود

إن دام هذا ولم تحدث له غير

لم نيك مبيت ولم يفرح بمولود¹

إن هذه الأبيات يُمكن أن نُطلق عليها المقالة التي تُكتب شعراً، لأنها في حقيقتها لا تُمثل إلا مقالة عرض فيها الإبراهيمي حال فلسطين الجريحة المنكوبة صبيحة يوم عيد الفطر، وصباحات فلسطين متاشبهة في سائر الأيام، والتي لا شك أنها تدمير وقتل وتهجير قسري من طرف الاحتلال الصهيوني الغاشم، ويلجُ الإبراهيمي إلى مقالته بواسطة استهلال نثري فيقول: "ويح أحياء القلوب وأيقاظ الإحساس ماذا يتجرعون من جرع الأسى في هذه الأعياد التي يفرح بها الخليون ويمرحون؟ أيتكفلون السرور والانبساط قضاء لحق العرف ومجارة لمن حولهم من أهل وولدان وصحب غافلين وجيران؟ أم يستجيبون لشعورهم ويتزلون على حكمه فلا تفترو لهم شفة عن ثغر ولا تتهلل لهم سريرة ببشر ولا تشرق لهم صفحة بسرور. ويح للنفوس الحزينة من يوم الزينة، إنه يثير كوامنها ويحرك سواكنها فلا ترى في سرور المسرورين إلا مضاعفة لمعاني الحزن فيها ولا ترى في فرح الفرحين إلا أن شماتة بها. مرّت عليّ وأنا بالجزائر عدة أعياد في السنوات الأخيرة التي صرح الشر للعرب والمسلمين عن محضه فكنت ألقى تلك الأعياد بغير ما يلقاه به الناس، ألقاها بتجهم اضطراري وانقباض نفسي، وكان الرائي يراني وأنا معه وأراه وكأنه ليس معي، فقد كانت تظللني في العيد سحائب من الكآبة لحال قومي العرب وإخواني المسلمين.... وجاءت نكبة فلسطين فكانت في قلبي جرحاً على جرح وكانت الطامة والصاخة معاً وكانت مشغلة لفكري لأسبابها ومآسيها وعواقبها

¹ - ينظر: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الرابع (1952 - 1954 م) مصدر سابق، ص: 215-218.

القريبة والبعيدة، فلا تصور لي الخواطر إلا أشنع ما في تلك العواقب، وكأن أحزان السنة كلها كانت تتجمع عليّ في يوم العيد.¹

وقد يأتي الاستهلال نثريا لكنه قريب من الشعر، ومثال ذلك مقالة محمود بوزوزو عن فلسطين التي أفرد لها الكتاب الجزائريون حيزا واسعا في كتاباتهم واهتماماتهم فكانت القضية الفلسطينية الثانية من حيث المعالجة بعد قضية الوطن الأم الجزائر، يقول الكاتب نثري يلامس خطوط الشعر: "الدم يسيل في أرض التوبة!

الدم يسيل في فلسطين!

ليس هو دم الأضاحي والقرايين!

إنه دم البشر!

كأن أرض النبوة ملّت دم الحيوان، وتعطّشت إلى دم الإنسان!

وكانّ بها حاجة شديدة إلى هذا الدم الغالي!

وكانّ هيئة الأمم المتحدة حريصة على تقديم قربان تغسل به آثامها، فاختارت المذبح،

واختارت الأضاحي! لأن الآثام لا تُغسل إلّا بالدم!

ولأنّ السماء لا تقبل إلّا الدم! والأرض لا تحبّ إلّا دم الإنسان.²

إنّ هذا التنوع في الاستهلال يكشف لنا عن اهتمام كتّاب المقالة السياسية في الجزائر

بالمقدمة، وفي الوقت نفسه يُبين لنا براعتهم في صياغة مثل هذه الاستهلالات.

أمّا البنية اللغوية للاستهلال فقد جاءت مُتنوّعة في المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث،

ما بين جمل اسمية وفعلية، وصيغ مختلفة كالتداء والتعجب، ومن خلال استقراءنا لمجمل المقالات

السياسة في الأدب الجزائري الحديث في الفترة الممتدة ما بين (1962/1925) وجدنا أنّ

سيطرة واضحة للجمل الفعلية، لأنّ الأفعال بطبيعتها تحمل الحركة على العكس من الاسم

الجامد الذي يتحد مع المُسمّى ويحتاج إلى فعل يُحرّكه، ففي مقالة "القمع لا يفلّ إرادة الحياة"

يستهلّ محمود بوزوزو مقاله بجملة "تجتاز الجزائر ظروفًا صعبة، تمتاز باشتداد القمع

الاستعماري المتزايد يوما فيوما، بصورة تُؤذّن أنّ هناك مؤامرة تُحاك لإيقاف التيار التحرري

¹ - المصدر السابق.

² - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 16 - مصدر سابق.

الجارف، الذي يكتسح العالم ويدفع بالشعوب المستضعفة-ومنها الجزائر- إلى السعي في سبيل حياة حرّة كريمة، وقد أصبح من المؤلف في وطننا أن يُعتقل كلّ مشبوه بترعة التّحرّر، وتصدر عليه الأحكام القاسية، وتُضايق حرّيّة التّعبير، ويُعتدى على كلّ شخصيّة مهما كانت منزلتها في الأمة أو في العالم.¹

ففي هذه المقدّمة نلاحظ تعاقب وتوالي الأفعال إلى أن تبلغ أحد عشر فعلا (تحتاز، تمتاز، تُؤذن، تُحاك، يكتسح، يدفع، أصبح، يُعتقل، تصدر، تُضايق، يُعتدى) هذه الأفعال الدّالة على الحركة أضفت جوا من الفاعليّة داخل المقال. وحتى المقالات التي استهلّها الكتاب بجمل اسميّة، فإنّها ما تلبث أن تتبعها جمل فعلية تُخبر عن الجمل الاسميّة أو تُفسّر معناها من أجل إعطاء النصّ حيويّة أكبر، وحركيّة أوسع، ومن ذلك ما جاء في افتتاحيّة مقال لجريدة المجاهد بعنوان "المسؤوليّة": "إنّ الثورة الجزائرية تحمّلت مسؤوليّتها كاملة أمام التاريخ، تحمّلت مسؤولية الكفاح الذي يخوضه الشعب الجزائري لتحرير الجزائر من النّظام الاستعماري، وتحمّلت مسؤوليّتها في الكفاح العام الذي تخوضه الشعوب المضطّهدة في سبيل التّخلّص من جميع ألوان السيطرة والاضطهاد، وتحمّلت مسؤوليتها في دفع عجلة التاريخ نحو الوجهة التي آمنت بها هذه الشعوب المضطّهدة في افريقيا وآسيا، والمتطلّعة إلى عالم تسوده الديمقراطية الحقّة، والعدالة الاجتماعية، والإخاء الإنساني العام."²

إنّ أول ملاحظة يمكن تسجيلها حول مقدّمة المقال هي تكرار الفعل "تحمّلت" فبالإضافة إلى إضفائه للفاعليّة في مضمون المقال، فإنّ هذه الجمل الفعلية جاءت شارحة موضّحة للجملة الاسميّة "المسؤوليّة" التي استهلّ بها الكاتب مقاله، فأوضحت معنى المسؤولية ومفهومها والتي حملتها الثورة الجزائرية على عاتقها، إذ لم تكن مسؤولية قُطرية محدودة وإنّما مسؤولية إنسانيّة تجسّدت في مقاومة كلّ أصناف الجبروت الاستعماري في أي بقعة على وجه الأرض. إنّ هذا التّعاقب للجمل الفعلية بعد الجمل الاسميّة يُضفي على المقال حيويّة الحركة والتّفاعل بين أجزاء النصّ.

¹ - المنار: السنة الثانية-العدد 04- 28 شعبان 1371هـ/ 23 ماي 1954م.

² - المجاهد: العدد 77- 27 ربيع الأول 1380هـ/ 19 سبتمبر 1960م.

ج/ العرض: وهو مجموعة من الفقرات المترابطة التي تتضمن أسلوب الكاتب في شرح أفكاره وعرضها بصورة مفصلة، وتحتوي على المعلومات والحقائق والشواهد التي تثبت صحة أفكار الكاتب وكذلك الأدلة والبراهين التي يحتاجها الكاتب لإقناع القارئ وحمله على الإيمان بالأفكار الرئيسة للمقال. ويُعدّ هذا الجزء الأطول والأهمّ في المقال، ويُسمّى بجسم المقال، إذ يحشد فيه الكاتب بياناته وأفكاره، ويعرضها أو يُناقشها بطريقة مُتسلسلة ومنتظمة، يحاول من خلاله إقناع القارئ بصحّة آرائه عن طريق الأدلّة والبراهين التي يسوقها لعرض أفكاره. ويشترط في فقرات الموضوع أن تكون مترابطة وأن يتم الانتقال من فقرة إلى التي تليها بصورة منطقية سلسة، فيها تواصل للأفكار دون انقطاع أو فجوات أو تكرار أو تداخل، بل إن كل فقرة تحتوي على أساليب لغوية، وتعبيرات ومثيرات مشوقة، تدفع القارئ إلى الشعور بالحاجة إلى قراءة الفقرة التالية لإكمال فكرة، أو إثباتها، أو التلّيل عليها، أو توضيحها، أو استخلاص عبرة معينة.

والمقال الجيد التنظيم والكتابة يجعل القارئ يشعر أنه في رحلة ممتعة من الناحية الفكرية والثقافية، وكأنه يتعلم شيئاً، أو يضيف شيئاً إلى معلوماته كلّما استمر في القراءة، لا سيّما إذا كان الكاتب يستند في مقاله على حقائق وأمثلة، وآراء الخبراء، وشواهد من التاريخ، وحتى الخبرات الشخصية.

ولهذا أخذ عنصر العرض المساحة الأكبر من المقالات السياسية التي دُبجت في تلك الفترة، فقد اتّخذها المقالّيون الجزائريّون وسيلة لعرض أفكارهم، وللدّفاع عن مبادئهم التي يؤمنون بها، ولإثبات تميّز الشعب الجزائري واستقلال هويّته عن المستعمر الفرنسي وحقّه المشروع في استرجاع استقلاله وتقرير مصيره بيده بكلّ حرّية، مثلما جعلوا منه -العرض- منبرا لدحض افتراءات المستعمر ودعايته المغرضة لا سيّما السنوات السبع الشّداد. وقد برز اهتمام كتاب المقالة في الجزائر في الحقبة الاستعمارية بعنصر العرض من خلال استخدام العبارات ذات المعنى المكثّف والمؤثّر في الوقت نفسه، معتمدين في ذلك على أساليب السرد والوصف والحوار حسب طبيعة الموضوع، ليكشفوا لنا على كامل تجربتهم وأدقّ تفاصيلها الممزوجة بمرارة مشاعرهم وهم يرون ويتعرّضون لبطش الآلة الاستعمارية الفرنسية الوحشيّة، وكمثال على

ذلك مقالة لمحمود بوزوز بعنوان "قمع فظيع... وغضبة مقدّسة" يصف فيها العنف البوليسي المُسلّط على أبناء الشعب الجزائري، في صورة من أبشع صور انتهاك الحرمة الإنسانية. يُمهد الكاتب لعرض موضوعه باستهلال دقيق يصف فيه المفارقة والتناقض بين ما تدّعيه فرنسا الرسميّة على لسان رئيس جمهوريّتها، بمناسبة الذكرى السابعة لميثاق الأمم المتّحدة، والذي اعتبر فيه فرنسا وطن الحريّات وحقوق الإنسان والحيوان، وبين ما يمارسه جنودها المسعورون من قتل واعتقال وتنكيل بالمدينّين العزل في الجزائر، ومما جاء في هذه المقالة المشحونة بعواطف الكاتب ليلج بنا إلى صلب الموضوع بقوله "فالجهاز الشرطي في الجزائر لا يألو جهدا في هذا السبيل، فهو في حركة مستمرّة ساهر على حفظ هذه الحقوق سهر الأمّ الحنون على ولدها العزيز من أجل ذلك يقوم بعمليّات واسعة النطاق في القطر الجزائري لقمع الشعب الذي بلغ تعلّقه بحقوق الإنسان درجة ((خطيرة)) جدّا على هذه الحقوق. وليس القارئ في حاجة إلى أن تُعيد عليه ما سجّلناه وسجّلته الصحف الديمقراطية من هذه العمليات البوليسية، سواء منها ما يمسّ الجماعة أو الأفراد، فالجزائريّون كلّهم مازالوا يستحضرون ما جرى لسكان سيدي علي بوناب، وأوراس، وكرشتل، ومغنية، وما جرى للصحف الديمقراطية، ومديريها، ومحرّريها، وباعتها، ومناضلي الحركات التحرريّة ومُسيّريها.¹ وبعد أن اطمأنّ الكاتب إلى كسب اهتمام القارئ، أخذ يعرضُ الحركة القمعيّة التي شنّها البوليس الفرنسي ضدّ المدينّين العزل من أبناء الشعب الجزائري، وقد صبّ ذلك في أسلوب مشحون بمشاعر الغضب والنقمة والسخط بل وحتى السخريّة، يقول الكاتب: "كلّ هذه العمليّات تتزل على الجزائريين كالوبال، لا لشيء إلّا لتعلّقهم بحقوق الإنسان التي يفخر الساسة الفرنسيّون، فتجيء الشرطة الفرنسية بالعمليات الزجرية للجزائريّين تطبيقا منها لتصريحات الساسة الفرنسيّين، وتمكيننا لمعاني حقوق الإنسان في نفوس الجزائريّين.. فالسلوك البوليسي في الجزائر سلوك قاس إلّا أنّه يزري بأصحابه بقدر ما يؤلم ضحاياه ويُغضب المنصفين، لكن السلوك في ذاته قد يكون هيّنا لو لم يكن يُنم عن روح عريقة في الشرّ عراقة الشيطان في العصيان."²

¹ - المنار: السنة الثانية- العدد 11- 26 صفر 1372هـ/ 14 نوفمبر 1952م.

² - المصدر نفسه.

إنّ هذا العرض قد استوفى شروطه، من خلال الميل إلى الإيجاز وتكثيف المعنى المُعبّر عنه، والمشحون بالمشاعر والأحاسيس الفاضحة لسلوك الاستعمار الغاصب والثاقمة عليه.

بقي لنا أن نُشير للبراعة الفنّية التي اعتمدها الكاتب في عرض موضوعه، هذه البراعة الفنّية تجلّت في حسن التّخلص في سياق عرض فكرته، فالكاتب يتسلّل من فكرة إلى أخرى دون أن يُشعر القارئ بهذا الانتقال السّلسل بين الأفكار، في محاولة منه لإقناع المُتلقي، يصف الكاتب انتفاضة الشعب الجزائري ضدّ هذه الممارسات الاستعماريّة الوحشيّة، فيقول: "لقد كانت الشرطة قبل اليوم تعتدي على الجزائريين فيتحمّلون صابرين كاظمين الغيظ، والشرطة تظنّ بذلك أنّها ناجحة في تعويدها الشعب الأعزل السكوت تحت سياطها استكانة وهوانا.

لم يكن سكوت الشعب هوانا ولا موتا معنويا إنّما كان كبتا فانفجر، ومن حسن حظّ الشرطة أن كان الانفجار بدون فرقة ولا قعقة، وإن قابلت هذا الانفجار السلمي بإطلاق الرصاص الذي أصاب فقتل وجرح.¹

إنّ أهمّ السمات الفنّية التي يُمكن ملاحظتها في عرض مضمون هذه المقالة، هي المزاوجة بين الجمل الاسميّة والفعليّة وإن كانت الغلبة للثانيّة، ولعلّ لهذا ما يُبرّره وهو إضفاء صفة الفاعليّة والحركيّة على مضمون المقال.

والحقيقة أنّ المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث كانت مُتنوّعة من حيث توظيف الأساليب، كالنداء والتعجب، والاستفهام، وذلك قصد إثارة المُتلقي وشدّ انتباهه إلى النصّ، وبعبارة أخرى فإنّ التنوع في استخدام أساليب لغويّة وكثرة الجمل الفعليّة، يكشف عن اهتمام كتّاب المقالة السياسية في الجزائر بأوضاع أمّتهم وشعبهم، وتفاعلهم مع قضاياها هذا التفاعل نابع من تجاربهم الذاتية في غالب الأحيان، لأنّهم وببساطة جزء من هذه الأمة وصوتها المكتوم، وملاذ المظلوم ولجام الظالم.

د/ الخاتمة: يشكّل النصّ الأدبي رسالة إلى المُتلقي، يحاول فيها الأديب إبراز موهبته من خلال عنايته بالاستهلال والمضمون والخاتمة. والخاتمة بوصفها جزءاً مُهماً من أجزاء المقال برزت عناية الكتّاب الجزائريين - كغيرهم - بها، لأنّها تُمثّل ثمرة المقال الذي يسعى الكاتب إلى إيصاله إلى

¹ - المصدر السابق.

المتلقي فهي " ثمرة المقالة وعندها يكون السكوت، فلا بدّ أن تكون نتيجة طبيعيّة للمقدّمة والعرض، واضحة صريحة، مُلخّصة للعناصر الرئيسة المراد إثباتها، حازمة تدلّ على اقتناع و يقين، لا تحتاج إلى شيء آخر لم يرد في المقالة".¹ لهذا تأتي الخاتمة لإغلاق المقال بطريقة تُلخّص الموضوع، وتؤكد رأي الكاتب، وتجيّب عن أسئلة القارئ.

ومن خلال استقراءنا للمقالات السياسية في الأدب الجزائري الحديث، نجد أنّ الخاتمة شأنها شأن المقدّمة والعرض، لم تكن في مستوى واحد، لا من حيث الصياغة والأسلوب، ولا من حيث الالتزام بقواعدها الفنيّة كالقصر وإيجاز الفكرة الرئيسة للمقالة. لكنّ بعد الحرب العالميّة الثانية نجد أنّ جلّ الكتاب قد تقيّدوا بشروط كتابة المقالة، وتحكّموا في فنيّاتها، باستثناء بعض المقالات السياسية الطريقيّة التي افتقرت في غالب الأحيان لأدوات الكتابة، واتّسمت صياغتها بالهزال، والافتقار لروح الانفعال والتفاعل الذي يضمن بقاء المقالة على قيد الحياة. ولو تصفّحنا جريدة المرشد مثلا، وتقصّينا المقالة السياسية بها لألفيناها نُسخا متشابهة، يغلب عليها التكلّف في رسف العبارات، والإغراق في السجع المُخلّ بالمعنى، أمّا خاتمة المقال ولأنّها آخر ما ينطبع في ذهن القارئ فإنّه يُخيّل إليه أنّه يسمع خطبة جمعة لا أنّه يقرأ مقالا سياسيا، فلنأخذ هذا المقال الموسوم ب"الحرب الباردة" يختمه الكاتب بتزويق وتنميق في غاية التكلّف والتصنّع، وهو بصدد الحديث عن التسابق المحموم في امتلاك القنبلة النووية بين المعسكرين الشرقي والغربي، يقول الكاتب: "...ويُقال أنّ هاته القنبلة الهيدروجينيّة هي أكبر من أختها عُتوّا وفسادا سواء في عباد الله، أو في أرض الله، ويُقال أيضا لوّاحة للبشر، لا تُبقي ولا تذر، ويُقال: أنّها عذاب واقع ماله من دافع، ويُقال: أنّها سم قاتل ماله من حائل، ويُقال: أنّها سحر باطل، ماله من عامل، ويُقال: أنّها سياسة وأضاليل، لتروّج بها الأباطيل والعراقيل، ويُقال: أنّها كلّها من أمر الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله".²

القارئ لخاتمة هذا المقال بل المقال كلّه -ولا نشطط إذا قلنا جميع المقالات المنشورة في هذه الجريدة- يقفّ على حجم التصنّع والتكلّف، والاقْتباس المُسرف من القرآن الكريم، وغياب اللّمسة الفنيّة في الكتابة في هذه المقالات وليس الخواتيم فحسب.

¹ - أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط.08، 1411هـ/1991م، ص 95.

² - عدة بن تونس: المرشد- السنة الثالثة- العدد 34-1369هـ/1950م.

هذا ما ميّز بعض المقالات السياسية لدى فئة بعينها من الكتّاب الجزائريين، لكن بالمقابل قد أثبتت فئة أخرى براعتها في الكتابة، وفي إخراج المقالة في صورة فنيّة ناضجة، كمقالات عبد الحميد ابن باديس وتوفيق المدني وأحمد بن ذياب ومحمود بوزوزو ومفدي زكرياء وغيرهم، إضافة إلى هؤلاء نجد أنّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كانت مقالاته نموذجاً حياً للمقالات الفنيّة الراقية، لا سيّما في البصائر الثانية، فقد أبان عن مقدرة بارعة في الكتابة، وعن تحكّم مضبوط في فنيّات المقال، وتطويع ساحر للغة وتذليلها، ونستطيع الجزم أنّ كلّ مقالات الإبراهيمي كانت مُستوفيّة للعناصر الفنيّة لشكل المقال من مقدمة وعرض وخاتمة، بل وحتى من ناحية الصياغة اللغوية تُعدّ أرقى وأفضل ما دُبّج من مقالات على الإطلاق في الأدب الجزائري الحديث، وإن كانت هذه المقالات مُتفاوتة من حيث الصياغة الفنيّة فما بينها، إلّا أنّها تُعدّ من عيون ما كُتب إذا ما قُورنت بغيرها، ومن كان في مِريةٍ ممّا نزع، فليس له إلّا أن يفتح جريدة البصائر في سلسلتها الثانية وليقرأ ما شاء من المقالات السياسيّة التي دَبّجها الإبراهيمي حول قضايا وطنه وأمّته، فليقرأ مثلاً سلسلة مقالاته حول ((فصل الدين عن الحكومة)) أو مقال ((عادت لعرها لميس)) أو ((التعليم العربي والحكومة)) أو ((08 ماي 1945)) أو ((فلسطين))، وغيرها من المقالات التي تُتمّ إليها بصلة. وسنكتفي في استدلالنا بمقال للكاتب بعنوان "لمحات تاريخيّة" حول قضية فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسيّة الصليبيّة، وهي القضية التي دَبّج فيها الكاتب مقالات طويلة متّصلة ببعضها البعض، يقدّم الكاتب لمقاله فيقول: "احتلت فرنسا هذا الوطن بالقوّة، وبينها وبينه بحر فاصل، وبينها وبينه دينان متخالفان، وجنسان مُتضادّان، ولسانان مُتباينان، وبينهما - مع ذلك كلّه - أخلاق متنافرة، واجتماعيات متغايرة، بل بينهما شرق وغرب بكلّ ما بين الشرق والغرب من فروق، وإذا تباينت المقومات بين جنسين كلّ هذا التباين، كان تسلّط أحدهما على الآخر غير مضمون الاستمرار، فإنّ استمرّ غير مضمون الاستمرار، لأنّه يعتمد دائماً على القوة المادية وحدها، والقوة المادية ليست سلاح كلّ وقت."¹

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الرابعة - العدد 156 - 15 شعبان 1370هـ / 21 ماي 1951م.

استهلّ الكاتب مقاله بهذه المقدّمة التي توضح الاختلاف الموجود بين البلدين الجزائر وفرنسا في العقيدة، فالأولى مُسلمة حنيفيّة والثانية مسيحيّة صليبيّة، وفي اللغة، فالجزائر لغتها لغة القرآن عربيّة نقيّة صافيّة، والثانية فرنسية بعيدة كلّ البعد عنها في مخارجها ونطقها، وفي الجغرافيا فالأولى بوابة إفريقيا والثانية بوابة أوروبا، كلّ هذا ليعطي صورة للقارئ حول الموضوع الذي سيعالجه في صلب مقاله، وربّما ليضعه في موقف الحكم بين مطلب الجزائريين برفع الاستعمار يده عن الدين الإسلامي ومساجده وأوقافه، وبين التدخّل السافر من طرف الإدارة الاستعماريّة في كلّ شؤون الجزائريين الدينية.

ثمّ يمضي بنا الكاتب إلى توضيح طريقة الاستعمار الفرنسي في محاولة تذيب الأمّة الجزائرية من خلال محو هويّتها التي يأتي الدين الإسلامي واللغة العربيّة في مقدّماتها، لكن كلّ محاولاته باءت بالفشل الذريع، يقول الكاتب في العنصر الثاني من عناصر المقال وهو العرض: "غاب عن فرنسا- وهي تحوّل هذا التدبير- ما يغيب عن كلّ مستكبر جبار، وهو درس القابليات في الأشياء، ولو درست لهاها درس إلى الحقيقة، وهي أنّ الإسلام والعروبة شيئان ليست فيهما قابلية الذوبان والانحواء، لأنّ فيهما من أثر يد الله ما يعصمهما من ذلك، وعليهما من أصباغ الشرق الخالدة ما يحفظهما من التآكل والتحات، ولو أنّ فرنسا امتهنت الإسلام في ثورة التغلب الأولى ثمّ فاءت إلى الرشد، لكان لها شبه العذر لأنّ الإجراءات العسكرية دين على حدة ليس فيه حلال وحرام، وليس فيه عبادة ولا معبد، وليس فيه حدود ولا حرّات، ولكنها تتمادت على امتهانه إلى اليوم في أطوار كلّها سلم، وكلّها اطمئنان، فأفصح الأخير من أعمالها على الأول من مقاصدها، وإنّها لشواهد لا تستطيع فرنسا تكذيبها ولا نقضها، ولا نحتاج نحن إلى توضيحها وتزكيتها".¹

ويرجع الكاتب بالقارئ إلى الوراثة مسائلًا التاريخ عمّا فعلته يد الاستعمار في أوّل أيام احتلاله للجزائر، وكيف استولى على أوقاف المسلمين، وأملاكهم العامّة والخاصة، ولم تسلّم حتى المساجد على قدسيّتها- من يد البطش والحقد الصليبي الأعمى، فهدم منها ما هدم، وصير كثيرًا منها مخامر وإسطبلات للخيل، وحوّلت بعضها إلى كنائس في أحسن الأحوال،

¹ - المصدر السابق.

يقول الإبراهيمي مُعدداً بوائق الاستعمار الفرنسي وشروبه: "...ولكن فرنسا المنحرفة على الجمهورية الأولى، المتطلّعة إلى الجمهورية الثانية، اعتبرت كلّ ما وجدته في الجزائر إرثاً عن الدولة التركيّة، وغنيمة من غنائم الحرب معها، وليت شعري.. حين عمّرت الثكنات بجنودها المقاتلين، وعمّرت الإدارات بحكامها الإداريين، لما لم تعمّر المساجد برجال الكنيسة المسيحيين؟ لا... بل يجب أن نُنصفها.. فقد حوّلت بعض المساجد الكبرى كنائس، وعمّرتها برجال الكنيسة المسيحيين.. وناهيك بمسجد ((كتشاوة)) العظيم الذي صيّره ((كاتدرائية)) عظمى في العاصمة، وكأنّها فعلت ذلك لتجعله عنواناً لما تُبَيّته للإسلام من شر، ونذيراً للمسلمين بما يتربّهم في دينهم من ويل، ودليلاً ماثلاً على أنّ احتلال فرنسا للجزائر كان حلقة من الصليبيّة الأولى، ولا غرابة في ذلك، فإنّ فرنسا الاستعمارية كانت - وما زالت - تفور باللاتينية والمسيحيّة، تُصارع بالأولى الجنسيات، وتُقارع بالثانية الأديان.¹

ويعمد الكاتب إلى أسلوب المقارنة بين مسألة فصل الدين في فرنسا، وفصل الدين في الجزائر، ليكشف الوجه الحقيقي الصليب لفرنسا، وليقف القارئ على التناقضات التي تدمغُ الذهنية الاستعمارية الفرنسية، إذ تُبيحُ حقاً في مكان وتُحرّمه وتُجرّمه في مكان آخر اسمه الجزائر، يقول الكاتب: "ولكن ذلك الفصل بقي مقصوراً على فرنسا وحدها، ولم يقطع البحر إلى الجزائر، لأنّ الدين في الجزائر الإسلام... والثورة وآثارها، والجمهورية ومبادئها، كلّ أولئك لم يُنشئ العقل الفرنسي اللاتيني المسيحي إنشاءً جديداً، ولم يترع منه ما قر فيه من آثار الصليبيّة ضدّ الإسلام، والعقلية الغالبة في أيام احتلال الجزائر، هي الغالبة في أيام نضج المبادئ الجمهورية، وهي المسيطرة عليه هذه الأيام التي نسخ العلم فيها كلّ عهد، وفسخ الزمن بأحداثه كلّ عقد، وأصبحت فيه الحرّيّة أنشودة كلّ لاغ، ونشيدة كلّ باغ، والتمس ما شئت مجالا آخر لتطوّر هذه العقلية، فأما في الإسلام، وأما في الجزائر فلا."²

ويختتم الكاتبُ مقاله بالتوكيد على أنّ فرنسا مهما بدّلت جلودها السياسي، ومهما تعاقبت عليها الليالي والأحداث، فإنّ موقفها من الإسلام والجزائر ثابتٌ لا يتزحزح، مؤسساً على نظرة استعماريّة صليبيّة حاقدة، فالأول القضاء عليه واجب، والثانية قطعة فرنسية فصلها البحر عن

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 156 - مصدر سابق.

² - المصدر نفسه.

الوطن الأم، يقول الإبراهيمي: " لذلك بقيت قضية فصل الدين عن حكومة الجزائر منظورة بالعين الاستعمارية، وموزونة بالميزان الصليبي، ومفهومة بالعقل المتحجر، ((تجمهرت))¹ فرنسا أو ((تدكرت))² أو اختلفت عليها الألوان بياضا وحمرة، فالاستعمار في الجزائر هو هو في نظرتها، والإسلام في الجزائر هو هو في حكمها واعتقادها.³"

الموضوع موضوع سياسي، لا شك في ذلك، لكن الأسلوب أسلوب أدبي رفيع، ثم إن الكاتب توخى الالتزام بمنهجية كتابة المقالة، فنجده قد وطّد لموضوعه بمقدمة متوازنة، ليلج بالقارئ إلى صلب الموضوع، فحلّل وناقش، وقارن، وحاجج، دون أن يشعر القارئ بأي نوع من الرتابة أو الملل، ليخلص بنا إلى نتيجة حتمية وهي أن الذهنية الاستعمارية تتشدد بالحرية والديمقراطية نظريا، أمّا إذا تعلّق الأمر بالجزائر والدين الإسلامي فإنّها تدوس على كل تلك القيم التي أشاعت بين الأمم أنّها من وحيها وإلهامها، كلّ هذا في أسلوب أدبي راق، وفي مستوى عال جديد مبتكر من مستويات اللغة التي لم يتعودها القراء على صفحات الجرائد، ومن أقلام كتّاب تلك الفترة المظلمة زمن الاستعمار الفرنسي الغاشم، فهذا المقال وغيره ممّا أبدعه يراع الشيخ البشير الإبراهيمي لا يمكن أن نُصنّفه ضمن المقالات الصحفية العادية، " كلاًّ فإنّ الصحافة أخبار عن حوادث، وأنت إن قرأتها لا تشعر بحرارة في قراءتها مطلقا، وإنّما تشعر ببرودة في كلماتها شعورك بالبرودة التي تتلقّك حين تفتح مُبرّدة من المبرّدات الضّخام، بل لعلّك إن كنت أدبيا ذا ذوق صقيل رفيع، لا تلبث أن تُصاب بالغثيان والدوار، من جراء تلك الكلمات المعادة الساقطة، التي ابتذلت حتى فנית، وأصبحت أسمالا لا تغني من عراء، وأطمارا فقدت كلّ لون، فإن الألفاظ حين تُعاد وتُتلاك، وحين تُبتذل وتبلى، كالعجائز اللواتي يشبهن السعالي، وكالأشباح التي فارقتها الأرواح.

فأين أسلوب الإبراهيمي النقي القوي الجديد، من أساليب الصحافة المريضة الخائرة؟⁴

1 - تجمهرت: هذه من لطائف الإبراهيمي ويعني بها أنّها أصبحت ذات نظام جمهوري.

2 - تدكرت: أصبحت ذات نظام دكتاتوري عسكري.

3 - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 156- المصدر السابق.

4 - عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

الجزائر، 1983، ط.02، ص 143.

02/الإقناع: و يكون ذلك عن طريق سلامة الأفكار ودقّتها ووضوحها، وعرضها وفق تسلسل منطقي مدعوم بحجج وأدلة بتأن وترو، بغية كسب رأي القارئ ليؤمن بصحة وجهة نظر الكاتب.

ولفظة "الإقناع" مصدر من الفعل الثلاثي "قنع". فقد جاء في المعجم الوسيط قنع بمعنى مال، فيقال قنعت الإبل والغنم معا أي مالت لمأواها، وأقبلت نحو صاحبها، وفلان قنوع أي راض القسم والسير، فهو قانع وقنيع إلى فلان أي انصاع له وانقطع إليه.¹ أما اصطلاحاً: فهو عمليّات فكرية وشكليّة يحاول فيها أحد الطرفين التأثير على الآخر، وإخضاعه لفكرة ما.

لذلك نجد جلّ الكتاب الجزائريين كانوا يهدفون من خلال مقالاتهم السياسية إلى بثّ الوعي السياسي في أوساط الجماهير الشعبية، لإدراك مخطّطات الاستعمار الفرنسي، وفهم الحقيقة التاريخية التي حاول الاستعمار طمرها وهي أنّ فرنسا دولة استعماريّة غاصبة، احتلت الجزائر بقوة الحديد والنار، وأنّ الجزائر وطن مُستقلّ كل الاستقلال عن فرنسا في الجغرافيا والدين والعوائد.

غير أنّ عنصر الإقناع لم يكن على درجة واحدة بين الكتاب الجزائريين، فمنهم من كان يجرف القارئ لتأييد فكرته مع السطور الأولى في مقدّمة مقاله، ومنهم من كان يتعثر به الحظّ في إقناع القارئ، وصنف ثالث يُعرضُ القارئ عن إتمام مقالته فضلاً عن إقناعه وذلك لهزلة الموضوع ولتشبّث الأفكار، ولركاكة الأسلوب وسفافة اللغة.

فمقالات الشيخ البشير الإبراهيمي وعبد الحميد بن باديس، وأحمد توفيق المدني، ومفدي زكرياء، ومحمود بوزوزو، ومولود قاسم نايت بلقاسم، وعبد الحميد مهري مثلاً، من المقالات السياسية التي تشدّ القارئ إليها شدّاً، فلا يكاد يفرغ من إتمام مقالات هؤلاء إلّا ويكون قد اقتنع بفكرة الكاتب ورأيه السياسي، بل ويعتقُ مذهب الكاتب وخطّه السياسي ويصبحُ من المستميتين في الدفاع عن آراء الكاتب، وهذا أسمى ما يُمكن لكاتب المقال أن يطمح إليه، وهو إقناع جمهور القراء الذين بدورهم سيُقنعون أفراداً آخرين، وهذا ما يجعل صاحب المقال يشعر

¹ - ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين.

بالرضا النفسي لأنه استطاع أن يوصل فكرته للآخرين وأكثر من ذلك يكسبهم في صفه وفي معركة الصراع تحتاج الأمة لكل أفرادها ولكل أبنائها لا سيما إذا كان هذا الصراع بين أشرس استعمار عرفته الإنسانية في العصر الحديث وهو الاستعمار الفرنسي.

فعلى سبيل المثال نأخذ مقالا للشيخ البشير الإبراهيمي بعنوان "ويح للمستضعفين" تحدث فيه الكاتب عن تلك الحملة المسعورة التي شنتها الآلة الاستعمارية بحثا عن الوطنيين الجزائريين، وما صاحب ذلك اعتقال وقتل وتشريد لأبناء الشعب الجزائري، يقول الكاتب: "يا مُمسكي الأعنة، إن ركوبة الباطل صعبة، فلا تتحّموا، ويا مشرعي الأسنّة، إنّه لا سهم في الجعبة، فلا تتوهّموا، ويا مُنتهكي الحرمات، ما ماتت الحرية بينكم ولكنّ الحرّ مات، ويا ناشدي الحقّ من مجامع المبطلين... لا ردّ الله ضالتكم، أتطلبون الفصّ من اللّص، وتقيسون في مورد النّص، إنّ الحقّ ينشدكم، فلا يجدكم، فهل ترجون وجدانه، حين تطلبون نشدانه؟ التمسوه في صفوفكم المتفرّقة، وآرائكم المغرّبة المشرّقة، فإذا لم تجدوه فلا تلوموا الذئب على الافتراس. الأمايي كواذب، وأكذب منها رجاء العدل من مُستعمر".¹

فالكاتب يقطع الشكّ باليقين لأولئك الذين ما يزالون يؤمنون بحضن فرنسا الدافئ، وبعدها التزيهة، ويُدلّهم على طوق النّجاة وهو الاتحاد في الكلمة والموقف، وعدا ذلك فوهم وضرب من الخيال، وحتى يُقنع الكاتب القارئ يضرب له مثلا بسيطا قد يبدو ساذجا، غير أنّه يحمل رسائل مُشفّرة تقول ما أخذ بالقوّة لا يُستردُّ إلّا بالقوّة، هذا المثال تُجسّده صورة ذلك الشخص الذي يطلب من اللّص إعادة الفصّ، أو كمن يلوم الذئب على غريزة الافتراس، كذلك الاستعمار الفرنسي يُقاسمُ الوحوش الحيوانية غريزة الافتراس والاستئساد على الضّعفاء واستعبادهم، وتلك جبلة الاستعمار الفرنسي فهو كالجراد الذي قال فيه الشاعر:

أبرجى من الجراد صلاح أمرٍ وقد جُبِلَ الجرادُ على الفساد.

وفي مقال آخر للكاتب نفسه تحت عنوان "فصل الدين عن الدولة"، هذا المقال الذي ما يبرحُ القارئُ مقدّمته حتى يشعر أنّه أشوق ما يكون إلى تتمة باقي أجزاءه، بل ينجح الكاتب في كشف الوجه القبيح لفرنسا الاستعمارية، وينجح كذلك في إقناع القارئ بسياسة فرنسا

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثالثة - العدد 118 - 14 رجب 1369هـ / 01 ماي 1950م.

القائمة على محاربة الدين والقيم، وإشاعة الفاحشة والانحلال الخلقي في مستعمراتها، كل هذا في مقدمة المقال، وهذه الخاصية في أسلوب الكتابة المبني على الشواهد والأدلة والبراهين التي تغمر القارئ، يكاد يتفرد بها الإبراهيمي دون سواه من معاصريه الذين درجوا على كتابة المقالة السياسية، يقول الإبراهيمي في حجاج منطقي، واستدلال تاريخي وواقعي: "سلمنا أن فرنسا من ذلك الطراز الاستعماري اللاتيني الأزرق، وأنها تمتاز بادعاء أنها مُمدّنة العالم ومعلمته، وناشرة لواء الحرية فيه، وأنها السابقة إلى نبد الأديان، وقطع الصلة بين الله وعباده، وأنها واضعة نظام اللايكية التي معناها وضع سور بين الحكومات وبين الأديان كيفما كان نوعها، ومعناها أيضا تقوية السلطة المادية، وتوهين السلطة الروحية، وأنها الأستاذة الكبرى لكل من سلك هذا السبيل، وتأسى بهذه الشرعة، وأنها مرجع كل إباحي، وقدوة كل ملحد، وأنها شيخة مصطفى كامل في الأولين ومصطفى كامل في الآخرين، ما هتف الأول في الوطنية إلا بشعارها، وما تغنى في الحرية إلا على مزمارها، وما استدبر الثاني مشرق الشمس إلا ليستقبل مغرب أنوارها، وما نبد حروف العرب إلا ليستبدل راءه بعينها، وطورانه بنارها."¹

ويعمد الكاتب إلى أسلوب المقارنة -كوسيلة للإقناع- بين الاستعماريين الفرنسي والانكليزي، ليرك الحكم للقارئ عن شناعة أي من الاستعماريين؟ ولاشك أن القارئ الفطن يفهم إيجاءات الكاتب وتوجهه. يقول الكاتب: "قرأنا سير الانكليز في الهند فوجدناهم بالغوا في إعطاء الحرية للأديان حتى بلغوا حدّ السخافة، وسوّوا في ذلك بين (قراء البقرة) بالحق، وبين (عباد البقرة) بالباطل، ويسروا سبيل الحجّ حتى اتسع معنى الاستطاعة، وقرأنا عن تلك الدويلات الاستعمارية-وشهدنا- أنها تحترم الأديان في مستعمراتها حتى الوثني منها، والمضاد لحضارة الإنسان، والواقف في طريق الرقي العقلي، ولو أنها خصت الوثني منها بالاحترام والحرية لقلنا: إنها مكيدة تجعل بها حرية الدين وسيلة لاستعباد المتدينين به، ولكنها أرخت عنان الحرية للإسلام الذي هو أعظم خصوم الاستعمار، وأقوى عامل للتخلص منه."²

ثمّ يوجّه الإبراهيمي هذا التساؤل الاستنكاري الذي يفضح نفاق السياسة الاستعمارية الفرنسية، فهي تدّعي أنها لائكية مدنيّة في دساتيرها المتعاقبة، غير أنّها تُحكّم قبضتها على الدين

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 83- مصدر سابق.

² - المصدر نفسه.

الإسلامي في الجزائر، فُتَعِين الأئمة الذين يُسَبِّحون بحمدها للصلاة، وتتصرّف في الأوقاف، وتمنع تعلّم العربية ومبادئ الإسلام الحنيف: "ثمّ ما بالها خالفت نفسها، وناقضت مبدأها؟ فهي في فرنسا تدين باللايكية وحرية الأديان، ينصّ على ذلك دستورها، ويجري عليها تعليمها، وتتأثّر به أمّتها، وهي في الجزائر تتمسّك بالإسلام هذا التمسّك، وتتشدّد في القيام به هذا التشدّد، وتعتنّت في الانفصال عنه هذا التعتنّت".¹

إنّ القارئ لهذا المقال ينتهي إلى قناعة جازمة أنّ الاستعمار الفرنسي رجس من عمل الشيطان، يجرّم شيئاً واحداً في وطن ويبيحه في وطن، يدّعي أنّه شيّد للحضارة صروحاً، ويهدمها بمعاول عساكره وقوانينه الجائرة في الجزائر، يتشدّد بالحرية الإنسانية ويقمّعها ويكبلها في الجزائر، يُفاخر بالحرية الدينية وينتهك قدسيّتها ويخنقها بالجزائر، فإذا ما وصل القارئ إلى هذه القناعة يكون الكاتب قد نجح-ولاشك- في إيصال فكرته ورأيه، وكسب جمهور القراء إلى صفّه.

03/الإمتاع: ويقصد به العرض الشائق الذي يجذب القارئ ويؤثّر فيه، لأنّ من بين وظائف الفن الصحفي الإمتاع أو التسلية، وهي وظيفة قديمة قدم البشرية نفسها، عندما كان المغني والمنشد والراوي يقوم بالتسلية عن الناس، وإمتاعهم برواية الغريب والطريف والعجيب من القصص الواقعية والخيالية على السواء. وقد ورثت الصحافة هذه المهمة الخطيرة لأنها تخفف العبء عن النفوس والعقول، وتجعل الحياة محتلمة رغم ما فيها من متاعب، وهكذا تصبح التسلية ذات أثر نفسي حميد. غير أنّ وظيفة الترفيه والإمتاع يمكن أن تتجاوز حدودها ويصبح ضررها أكبر من نفعها، ومن هنا جاءت نصيحة الفيلسوف اليوناني القديم أفلاطون، الذي طرد الشعراء من جمهوريته الفاضلة، حرصاً على نفوس الشباب من المبالغة والتهويل والانحراف، فوظيفة الترفيه- إذا تجاوزت الحدّ المضبوط- قد تفسد الصحافة؛ لأنها تصرف الجماهير عن الأحداث الجادة، وتخلق جواً هروبياً يصيب النفس بالمرض. وقد تلجأ الحكومات الدكتاتورية إلى مثل هذه الصحافة الترفيحية لصرف أنظار الشعب عن الأحداث الواقعية والمشكلات الحقيقية، ويحرص الاستعمار دائماً على إشاعة الفوضى والانحلال والفساد بالترويج للصحف

¹ - المصدر السابق.

الصفراء، ذات المضمون المريض، لتخدير الشعب، وصرفه عن الواقع الأليم الذي يتردى فيه. غير أن الترفيه لا ينبغي أن ينحطّ إلى مستوى التهريج المسفّ وإلا كانت آثاره خطيرة على نفسية الشعب وقواه العقلية، ويحرص الاستعمار دائما على إشاعة الفوضى والانحلال والفساد بترويج الصحف الصفراء، ذات المضمون المريض، لتخدير الشعب، وصرفه عن الواقع الأليم الذي يتردى فيه.

ونحن إذ نبحثُ في مسار المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث، نجدُ أنّ جانب الجدّ قد غلب عليها، وذلك لطبيعة الموضوع في حدّ ذاته، ثمّ أنّ الظرف التاريخي الذي كانت تعيشه الجزائر آنذاك لم يكن يسمحُ بهذه الوظيفة الإمتاعية، فالاستعمار الفرنسي قد محا الابتسامة من على شفاه الشعب الجزائري، وذلك من أول يوم للاحتلال الذي كان سلسلة محكمة الحلقات من جرائم التقتيل والتنكيل والنفي والاعتقال، ولعلّ مجازر 08 ماي 1945 كافية لينسى الشعب الجزائري معاني الفرح والسرور، أمّا حصيلة سبع سنين ونصف من الجهاد والكفاح ضدّ الاستعمار الفرنسي الغاشم فكانت ثلاثة الأثافي.

وعلى الرغم من ذلك لم يعدم كُتّاب المقالة السياسيّة جانب الإمتاع على قلته في مقالاتهم، والحقّ أنّ هذا الجانب الإمتاعي لم يكن نابعاً عن ترف فكري، وإّما كان وسيلة لجذب القارئ من جهة ثمّ إنّّه كان إمتاعاً ممزوجاً بالألم. ومثال هذا ما كتبه الشيخ أبو اليقظان عن ديمقراطية فرنسا، ومدنيتها في القرن العشرين، والتي تجلّت في أهبى صورها التي تبرّعت بأفضالها على الجزائريين، فيقول على لسان المستعمر الفرنسي في أسلوب وإن بدا في الظاهر أنّه للترفيه والتنكيت، فإنّه يفيض حسرة وألماً في أعماقه: "بعثنا الله إليكم لنبدّل ذلكم عزّاً، ولمن بصبّ كؤوس الهوان على رؤوسكم، وفقركم غنى، ولكن بابتزاز أراضيكم ومقدّرات بلادكم، وترك مئات الآلاف يلتحفون الغبراء، وجهلكم علما، ولكن بإغلاق المدارس في وجوه أبنائكم، وترك 90 ألف نسمة يذرعون الطرقات، وعبوديتكم حرية، ولكن بإحاطتكم بأسلاك شائكة من قيود القوانين الاستثنائية، نحن نتعهّد باحترام ديانتكم، ولكن بمضايقة رجال الدّين، وإطلاق العنان للمبشّرين يجوسون خلال الديار، ويأخذون طريقهم إلى القلوب لابتزاز العقائد منها، نحن نحترم آدابكم وثقافتكم، ولكن بمطاردة اللغة العربيّة، واعتبارها وهي لسانكم لغة أجنبية

كلغة الألمان والطلّيان، نحن نعطيكم الحرية التامة في انتخاب نوابكم، ولا نتدخل بما بينكم أبداً إلا بإطلاق المسدّسات فقط، وقتل وجرح الناخبين فحسب !!.

ذوق سليم، ومنطق مستقيم، وعدل عميم، ومنهاج قويم، جاءتنا به أوروبا، لتخرجنا من الظلمات إلى النور!!.. لتملي علينا دروس الحضارة والتمدين، لتلقننا مبادئ التقيف والتهديب، ما شاء الله لا قوة إلا بالله.¹

فالنص ينضحُ حسرة ومرارة، من مفارقات الاستعمار الفرنسي بين ما يدّعيه من حرية وديمقراطية، وبين ما يقوم به على أرض الواقع من تقتيل وتنكيل وتضييق على الحرية الدينية والمدنية في الجزائر.

وقبل هذا كتب أبو اليقظان مقالا يجد فيه القارئ شيئاً من المتعة والطرافة. بمناسبة حديثه عن مصطلح "السياسة"، الذي أضحى تُهمة تزجُ بصاحبها في غياهب السجن. بمجرد التلفظ بها، ناهيك عن تعاطيها، لذلك أخذ أبو اليقظان عهداً على نفسه أن لا ينطق بها أبداً، وإن أُلجأته الأحوال والظروف لذلك فإنه يستعيز عن التصريح باسمها إلى ترجمة معناها، يقول الكاتب في أسلوب ممتع شيق: "لا أنطق بها ناسياً، ولا أتعمّده، ولا أظنّه، ولا أشكّ فيه، ولا أتوهمه، ولا أحدث به نفسي، ولا يخطر ببالي، ولا يقع في هاجسي ولا خيالي، وإن أرغمتُ وإن أُجبرتُ، وأُلجأتني الضرورة- لا قدر الله، والله يا لطيف على النطق به- فإنني أستبدله بال...بو...ليتيك، إذ أن هذا اللفظ معناه الخاص في دائرته الضيقة المحدودة، وحدّه الفاصل بين ما هو من السياسة- أستغفر الله وأتوب إليه، وأقلع عن هذه الزّلة- وما ليس منها."²

ويلتقي الإبراهيمي مع الشيخ أبي اليقظان في تحوير الاستعمار الفرنسي لمفهوم "السياسة"، وجعله مرادفاً للسخط والعقاب، يقول الإبراهيمي: "ولكنّ السخافة كلّها في هذا التبدّل الذي أصبحت معه كلمة (السياسة) كلفظ (البيع)، هذا يُخوّف الصّغار ولا حقيقة له، وتلك يُخوّف به الكبار ولا معنى لها...ومادامت هذه السيادة سائدة، ومادامت هذه العنصرية

¹ - لكم الحرية التامة في الانتخاب ولكن تحت طلاقات المسدّسات وبين أزيز الرصاص: جريدة الأمة: العدد 155- 1938/02/22م.

² - أعوذ بالله من السياسة: البستان: العدد 06- 1933/06/06م.

موجودة، فإنّ هذه اللفظة (لفظة السياسة) تبقى ذليلة، مهينة، مجردة من جلالها وسموّها، نجدها في باب الإجمام والاتّهام أكثر ممّا نجدها في باب الإكبار والاحترام.¹

04/ النثرية: ويقصد بها أنّ المقال فنّ نثري وليس شعرا، إذ أنّ جانب الفكر فيه أكبر من جانب العاطفة، وذلك تماشيا مع التعريف الاصطلاحي له، الذي يقضي بأنّ المقال فنّ نثري يعالج موضوعا معيّنا علاجا متسلسلا مترابطا، يُبرز فكرة الكاتب وينقلها إلى القارئ نقلا مُمتعا ومؤثرا.

غير أنّ هذا لا ينفي وجود مقالات سياسيّة لكاتب جزائريين حافلة بالصوّر والموسيقى الشعرية، ولعلّ أبرز هؤلاء الكُتّاب الذين زاوجوا بين اللفظ والمعنى في غير إسفاف أو تكلف مع تأنق واضح في الأسلوب هو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بلا مُنازع. ففي مقال له حول محنة فلسطين بعنوان "وصف قرار تقسيمها" يقول الإبراهيمي في أسلوب بديع، وخيال حصيب، حتّى يُخيّل للقارئ أنّه أمام مقامة همدانيّة، فيقول: "تصدّع ليل فلسطين الداجي عن فجر كاذب العيان، وتمخّض مورد الطامعين في إنصاف أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة عن آل لماع يرفع الشّحوص ويضعها في عين الرّائي لا في لمس اللّامس، وباء الظّانون ظنّ الخير بالضميرين الأوروبي والأمريكي بما يستحقّونه من خيبة تعقبها حسرة، تعقبها ندامة، وتكشف ذلك اللبس الذي دام عشرات السنين عن الحقيقة البيضاء، وهي أنّ حقّ الشرق لا وليّ له في الغرب ولا نصير، وجاء بهذا المجلس الذي يُسمونه-زورا- مجلس الأمم المتحدة شنعاء لا تُوارى من أحكام القاسطين، وأحلام الطامعين.

ترأى الحقّ والباطل في ذلك المجلس، لا العربُ واليهود، وجاء أهل الحقّ يحملون المنطق، ويخطبون المعدلة، ويخاطبون الضمير والعقل، ويحتكمون إلى الشعور والإحساس وما منهم إلّا من هو الخصام مبين، وجاء أهل الباطل يحملون الإبهام المضللّ، والكيد المبيّت، والمكر الخفي، والدعاوى المقطوعة من أدلتها، ومع كلّ أولئك الرّنين السّاحر يستهونون به الأفئدة الهواء، والضّمائر الخربة، وأنصت التاريخ ليسجّل الشهادة، واستشرف الكون لينظر هل تحرق للأقوياء عادة، ونُشر الأصل والدعوى، وتعارضت البيّنة والشبهة، وأفصح الحقّ واتضح، ولجلج الباطل

¹ - البصائر: السلسلة 02- العدد 03- مصدر سابق.

وافترض، ولكن تلك الدول المتحدة على الباطل أجمها الحقّ بحججه، وأجرّتها الحقيقة بوضوحها، فحكّموا الانتخاب...وليت شعري أيّ موضع للانتخاب هنا؟ إنّ تحكيم الانتخاب هنا كتحكيم القرعة بين أصحاب الحظوظ المتفاوتة، كصاحب العُشر مع صاحب النصف، كلاهما باطل، لا يُسيغه عقل ولا شرع..وأيّ فرق بين ما نعيه من تحكيم الجاهلية للأزلام الصمّاء وحصى التصافن، وبين تحكيم أصوات من أموات، وويلات، سمّوهم ممثلي دويلات

؟¹

05/الذاتية والموضوعية:

ونقصد بالذاتية ظهور بصمة الكاتب وشخصيته من خلال سطره، إذ مهما كان موضوع المقال فإنّ ذاتية الكاتب تظهر فيه، لأنّ الأديب لا يستطيع أن يخفي عاطفته أو رأيه الشخصي، فما يحفز الأديب على كتابة مقاله هو رغبة ملحة في التعبير عن رأيه الخاص، إننا نلمح شخصية الأديب من خلال كلماته. وفي الواقع فإنّ السواد الأعظم من المقالات السياسية التي دَبّحتها الأقلام الجزائرية خلال الفترة الممتدة من (1962/1925) طغت عليها ذاتية أصحابها، لاسيّما تلك المقالات التي عاجلت موضوع الاستعمار الفرنسي أو المخططات الاستعمارية الرامية لتمزيق وحدة الأمة الجزائرية وتفتيت هويّتها، كما أن المقالات التي كُتبت حول قضية فلسطين كانت تنضح بذاتية أصحابها، وهو شيء طبيعي له أكثر من مبرر، إذ أن الجزائري مُرتبط ارتباطا وثيقا بوطنه وأمّته ومُقدّساته، وإن ناءت به المسافات وتآمر عليه المستعمرون.

ومن نماذج المقالات التي نلمس فيها ذاتية الكاتب طافحة، مقالة ((لمن أعيش)) للشيخ عبد الحميد بن باديس، ويظهر فيها توظيف الكاتب لضمير المفرد المتكلم "أنا" وضمير الجمع المتكلم "نحن" بشكل جلي وواضح، وهو قرينة دالة على ذاتية الكاتب، وعلى الحضور القوي لشخصيته من خلال كلماته، يقول ابن باديس: "...ونحن لما نظرنا إلى الإسلام وجدناه الدّين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها فيقول ((ولقد كرّمنا بني آدم))... فإذا عشت له فإنّي

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 21- مصدر سابق.

أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، ما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله.

فهذا أيها -الإخوان- معنى قولي: إنني أعيش للإسلام.

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص... هكذا هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كل ناحية وفي جميع الأعمال... فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلنسنا نخدمها على حساب غيرها، ولا للإضرار بسواها... هذا أيها الإخوة مرادي بقولي: أني أعيش للجزائر.¹

وعن المقالات السياسيّة التي خطّها الكتاب الجزائريون إبان ثورة التحرير المضطّرة، فإنّها كانت مشحونة بعاطفة ثوريّة طاغيّة، سلبت أصحابها عنصر الموضوعيّة في إصدار الأحكام وتحليل الأحداث، ولعلّ لذلك ما يبرّره، إذ أنّ المعركة الفكرية والدّعائيّة التي كان يخوضوها الكتاب الجزائريون على صفحات جريدة المجاهد مثلاً لا تقلّ أهميّة عن ضراوة المعارك التي كانت تدور رحاها في جبال ومدامر الوطن الجزائري، فالكتاب الجزائري حتمت عليه ظروف الحرب ضدّ المستعمر العاشم أن يقف إلى جانب شعبه وأمّته، وأن يلتزم بقضايا وطنه، مهما كانت العواقب والأهوال، لا سيّما وأنّ الجزائر كانت تواجه قوة استعماريّة مدجّجة بأعتى أسلحة الحرب، وبجيش من الأقلام الصحفيّة التي كانت تزرع الإشاعة المغرضة، ونشر الأخبار الكاذبة عن استسلام المجاهدين أو القضاء على أعداد كبيرة منهم، بغية إلحاق الهزيمة المعنوية بالشعب الجزائري وعزله عن جيش التحرير الوطني، لذلك كانت المقالة السياسيّة بالمرصاد لمخطّطات الاستعمار ودسائسه، وواجهت الدعاية بدعاية مضادّة لها، فلا غرابة أن نجد الكاتب يتحدّث بلسان شعبه، بل ويذوب في وسطه، لأنّ المعركة واحدة والمصير واحد، ومن أمثلة المقالات التي تطغى فيها ذاتية الكاتب - وهي كثيرة - مقالة بعنوان " السراب الحقيّر أو القوة الثالثة" تناول فيه الكاتب المناورة الفرنسيّة القاضيّة بشقّ وحدة الصفّ الجزائري من خلال إيجاد قوة ثالثة لإجراء مفاوضات صوريّة معها ذرّاً للرماد في الأعين، وكبديل عن جبهة التحرير الوطني الممثلّ الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، يقول الكاتب مسفّها أحلام ديغول وناسفا

¹ - الشهاب: ج10-مج12- مصدر سابق.

مخططاته الدنيئة مع توظيفه لضمير الجمع المتكلم بصورة جلية وواضحة في جميع أجزاء المقال: "إنّ الفرنسيين ما زالوا يبحثون عن أعوانهم ليفضّوا معهم المشكلة، إنهم يريدون أن يُنهبوا الحرب مع من لم يشنّ عليهم الحرب... نعم إننا اليوم في سنة 1960 مستعدّون للحلول السلمية مع ديغول كما كنّا مستعدّين لها سنة 1956 مع غي مولي، الذي لم تكن له الشجاعة على أن يسير إلى النهاية، وذلك لأننا لا نريد أن نمدد في هذه الحرب يوما زائدا، ولأننا نحرص على أن لا نخسر حياة فرد واحد منّا يُمكن أن يبقى حيّا، هذه حقيقة نعتقد أن لا أحد من أصدقائنا يشكّ فيها، ولكن هناك حقيقة أخرى نعتقد أن فرنسا وأصدقاءها لا يشكّون فيها أيضا: وهي أنّ التخاذل لن يطرق أبوابنا مهما طالت الطريق، واليأس لن يسكن قلوبنا مهما كان إجرام فرنسا والتواءات الجنرال ديغول.

إنّ الذين يجاربون حرّيتنا بخليط من الغدر والجريمة والغازات السامّة، والشعوذة وسلاح الحلف الأطلسي، سنفتكّ منهم هذه الحرّية يوما، ولا نُعطيهم في مقابلها إلّا الاحتقار.¹

وعلى الرّغم من ذلك كلّه فهناك من المقالات التي لم تُعدم الموضوعيّة بها، حتّى وإن كان الأمر يتعلّق بالوطن الجزائري وبمقدّسات الشعب الجزائري، ذلك أنّ الخطاب إذا كان موجّها للآخر الذي يختلف عنّا في اللغة والدين والعوائد، ينبغي أن يكون خطابا عقلانيا موضوعيا، فالذاتية إن كانت تُغتفر في المجال المحلي أحيانا، فإنّها في المجال العالمي لا تُقبل إطلاقا. ثمّ إنّ المقالة السياسيّة الموجهة للعالم وللرأي العام الفرنسي، كان الهدف منها التعريف بعدالة القضية الجزائرية، وبقداسة رسالتها الإنسانيّة القائمة على احترام الذات الإنسانيّة وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها، بعيدا عن التّعصب الديني أو العرقي الذي كانت تُروّج له الدعاية الاستعماريّة الفرنسيّة، لذلك كانت المقالة السياسيّة المرسلّة للآخر مبنية على الحجج الدامغة، والأدلة والبراهين الساطعة، التي تُدين الاستعمار الفرنسي، بعيدا عن الذاتية الضيقة، والانجراف العاطفي. ونأخذ مقالا بعنوان "حقائق بسيطة" تناول فيه الكاتب اللقاء الذي جمع الرئيس الفرنسي شال ديغول مع الرئيس الأمريكي ايزنهاور، اللذين تابحا فيه القضية الجزائرية وحقّ تقرير المصير على وجه التّحديد، وعلى الرّغم من أنّ العام والخاص يعرف التواطؤ المخزي من

¹ - المجاهد: العدد 59-12 رجب 1379هـ/11 جانفي 1960م.

طرف الإدارة الأمريكية لصالح الاستعمار الفرنسي، إلا أن الكاتب تعفّف عن تسمية الولايات المتحدة بالاسم واكتفى بالتلميح، أو قل ان شئت ترك حرية الفهم للقارئ، ومما جاء في المقال: "إنّ فرنسا وأمريكا لهما وحدهما الحقّ في تقرير مصيرهما، وأمّا تقرير مصير الشعب الجزائري فهو أيضا من حقّ الشعب الجزائري وحده....الحقيقة البسيطة هي أنّ القضية الجزائرية مزّقت الحدود التي حاولت أن تسجنها فيها فرنسا، وإذا أصبحت اليوم أضخم مشكلة في المعترك الدولي، وإذا سافر من أجلها الرئيس ايزنهاور إلى باريس فالفضل يرجع في ذلك إلى صمود الشعب أمام سحب اليأس التي تألّبت بعض دول العالم الكبرى على أن تخنقه بما فلم تُفلح، وإلى إقباله¹ على التضحية بالحياة من أجل أن يُحقّق الحياة، وإلى الإعانة الصادقة التي لقيتها قضيتنا العادلة عند حلفائنا الطبعيين وأشقائنا، والتي لن تمحوها الأيام من ذاكرة أجيالنا، كما لا ننسى في مقابل ذلك أولئك الذين يبحثون لنا اليوم عن تقرير المصير، كيف كانوا يبحثون لنا قبل اليوم على الفناء ففشلوا."²

ب/ الخصائص الأسلوبية للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث:

01/ السخرية الحادة:

تفيد السخرية - اصطلاحا - نسبة عيب إلى شخص أو تفخيم عيب في شخص بغرض التهذيب والإصلاح. ليرأ منه أو من بعضه أو ليخافه إن لم يكن فيه، ولهذا فهي - فضلا عن كونها أداة للتسلية - وسيلة لخدمة الفرد والمجتمع، لما فيها من تهذيب وتقييم وإصلاح وتطهير، لأنها تتضمن نوعا من الزجر أو الرّدع. إلا أنها أقل منه وقعا، ومع هذا فهي "تجّّب إلينا الحياة لأنها تكسوها بثوب قشيب، وتزود النفوس والعقول والأذواق بثقافة وافرة صادرة عن عقل واع دقيق"³.

¹ - هكذا هي في النص، ولعلّ الأصح "إقباله" وفقا لسباق الكلام.

² - المجاهد: العدد 50- 04 ربيع الأول 1379هـ / 07/09/1959م.

³ - رابح العوي: فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب "التربيع والتدوير" و"البخلاء" و"الحيوان" - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ط1 - 1409هـ / 1989م -

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد ظهرت في الساحة الأدبية الجزائرية زمن الاستعمار الفرنسي صحف ذات طابع فكاهي هزلي تهذيبي، بل هناك من الصحف من استقلت لهذا الغرض كجريدة " البستان " و "أبو العجائب" و "عصى موسى"¹ وغيرها.

و بسبب الضغط النفسي الذي كان يُعانيه الشعب الجزائري، من الاستعمار الفرنسي الغاشم، قد أُلجأ بعض الكتّاب الجزائريين إلى انتهاج أسلوب السخرية كأداة من أدوات المقاومة، فضلا عن تردّي الأوضاع لاجتماعية والاقتصادية في الجزائر، ممّا ساعد على تفشي الجهل والبدع والخرافات، الأمر الذي ولّد صراعا فكريا بين أنصار الإصلاح والوطنية من جهة وبين الطرفين والاستعمار وأذنايه من جهة ثانية.

ولعلّ الشيخين أبا اليقظان ومحمد البشير الإبراهيمي، يُعدّان من الكتّاب المبرزين في ميدان السخرية السياسية بامتياز، بل تكاد هذه الميزة تصبغ معظم مقالاتهما، وإن كان الإبراهيمي أبرع الكتّاب على توظيف السخرية " فمن المؤكّد أنّ الإبراهيمي استفاد من رسالة الترييع والتدوير في مسالك التّهكّم والسّخرية"².

ومن نماذج سخرية الشيخ أبي اليقظان ما جاء في مقال له بعنوان " أعجوبة آخر الزمان " تعرّض فيه الكاتب بالسخرية اللاذعة للمشاركين في مهزلة الانتخابات، المحسومة نتائجها سلفا، وقد صورّ أبو اليقظان المنتخِبين والمنتخِبين في صورة فواكه وبقوليات، تُذكرنا بذلك التصوير الكاريكاتوري الذي رسمه الجاحظ لخصمه أحمد بن عبد الوهاب في رسالة الترييع والتدوير، يقول أبو اليقظان ساخرا في قالب قصصي مُمتع: " بما أنّ السعادة عند علماء اللغة والفلسفة هي الضحك، فقد رأينا أنّ نُتحف القراء بقصّة طريفة في القرن العشرين، قرن النور والحضارة والتّمذّن والحرية، وهي أنّ البقول والفواكه اشتركت مع الإنسان في الحقوق، ودخلت معه في ميدان الانتخاب، فقد انتخب الباذنجان والفلفل والطماطم والبصل والثوم والقرع، مع مشاركة مادة القطران معهم، وانتخبوا السيّدة (كبوية) رئيسا، فقد أصابوا، إذ هو كبير الجسم مُجوّفه،

¹ - ينظر الصحف العربية الجزائرية: مرجع سابق، ص 155، 206، 264.

² - محمد عباس: البشير الإبراهيمي أدبيا- ص184.

مُكوّر الشكل، فارغ الفؤاد، فُنّهتُهُ بهذا الفوز، ونتمنى له الانتشار، ونقول له بملء أفواهنا في بوق إسرائيل مبروك.¹

تتجلّى السخريّة والتنكيت في هذه القصة الرامزة، التي اختار لها شخصية (الكبوية) رئيسا لجمهور الخضر والفواكه، وربما اختيار الكاتب للكبوية لم يكن عفويا، ذلك أنّ الكبوية تتمدّد في نموّها وتتحرف في شكلها، وهذا تعرض واضح بأولئك الذين تقلّدوا مناصب تمثيلية فانحرفوا بسلوكلهم وتمدّدت بطولهم. فكان لا بدّ من إعلان خبر ترؤس هؤلاء لجميع الناس، ولم يجد الكاتب وسيلة لذلك أفضل من بوق إسرائيل. وهنا تظهر سخريّة الكاتب حزينة مريرة، بسبب توليّة المناصب لغير أهلها خدمة للاستعمار الفرنسي ومصالحه.

ويمتطي الشيخ حمزة بكوشة -أحد كتّاب جريدة اللّياي- صهوة السخريّة، فيجعل من "ميو" وهو اسم أحد المعمّرين، مادّة للسخرية والتندرّ، يصف الكاتب حال صديقه الذي كان يُحذّره من معبّة التّعرض بالسخريّة لهاته الشخصية الاستعمارية: "...وعاد إليّ في ثاني يوم فوجدني أقرأ في درس في العروض في البحر الطويل، وكتبت على السبورة البيت: على وجه مي مسحة من ملاحه². وطلبت من تلميذ تقطيعه، وكان التلميذ بليدا فقرأها ميو.. فخرج صاحبي معاتبا ومغاضبا.. وبينما هو خارج بسرعة اصطدم بالقطة فقالت: ميو! ميو!..³

ويوظّف الإبراهيمي أحد أساليب السّخرية المعروفة بل وأشهرها وهو أسلوب التّعريض المشحون بكّم هائل من السّخرية والتّهكّم بفرنسا فيصفها بـ"أستاذة المثل العليا للإنسانية، وحامية حقوق الإنسان، وحاملة لواء الحرّية، وزعيمة التّحرير في العالم ومنارة العدل التي يهتدي بها المظلومون."⁴

¹ - الأّمّة: العدد 21 - 19/02/1935م.

² - البيت لذي الرمة وتمتمته هكذا: على وجه مي مسحة من ملاحه**** وتحت الثياب الحزّي لو كان باديا. ينظر ديوان ذي الرمة: شرح وتقديم أحمد حسن سبيح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.01، 1415هـ/1995م، ص 292.

³ - اللّياي: العدد 12 - 27/09/1936م.

⁴ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثالثة - العدد 103 - 26 ربيع الأول 1369هـ / 16/جانفي/1950م.

وفي موضع آخر يصوّر ديمقراطية فرنسا المزعومة في أسلوب مضحك ساخر، فيقول: "إنّ الديمقراطية عند حكومة الجزائر كصلاة المنافقين، لا تزكّي نفساً ولا تنهى عن فحشاء"¹ ويسخر صاحب جريد المنار محمود بوزوزو من احتفال فرنسا بعيد الحرية يوم 14 جويلية من كلّ عام فيقول: "ولك أن تبحث عن البراهين الدّالة على صدق هذه الدّعوى، فستجدها بكلّ سهولة عند الشّعوب التي حرّرتها فرنسا من شقاء الاستقلال، اجث عن الحرية الفرنسية في مجاز الهند الصينية ومدغشقر وتونس ومراكش وابحث عنها في السجون والمعتقلات المنتشرة في هذه الأقطار، وإذاك تستطيع أن تصفّق بكل جهدك حين تسمع خطيباً فرنسياً رسمياً ينوّه بالحرية"².

02/ شيوخ العبارات الفرنسية والصيغ التقليديّة: وقد تجلّى ذلك في بعض المقالات السياسيّة لا سيّما في نهاية العشرينيّات وبداية الثلاثينات، ومن المقالات التي شاعت فيها الكلمات المنقولة عن الفرنسيّة حرفياً، أو تحويرها بالعاميّة الجزائريّة ما نعر عليه في جريدة المنتقد، يقول الكاتب ردّاً على رسالة وصلت جريدة المنتقد: "... إنّ رفض م. البريفي" رسمي لا يحسّن بالعقلاء الممارات فيه، نعم البتّ النهائي في المسألة موقوف على ما يقرّره مجلس الحكومة بالجزائر، ونحن من الذين يرجون مخالفته لرفض م. البريفي".

إنّ المنتقد لا يغار على "لابريش" ولا على غيره، وإنّما يقول الحقّ حسب جهده واجتهاده"³.

كما أنّ جريدة البستان للشيخ أبي اليقظان لم تخلُ بدورها من بعض الكلمات الفرنسية، وإن أوردتها الكاتب على سبيل السخريّة، يقول أبو اليقظان: "... ألم أقل لكم في كلّ مناسبة: (أحسنتم) وهنا بقيت حائراً، وقلت لعلّ هذه الكلمة تُصرف بمقدار عند أحد التّجار الكبار أو البنوك، وهنا ذهبت إلى (البانكة)⁴ ودفعت ورقة في (القيشي)⁵ مكتوباً عليها (أحسنتم)،

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 64- مصدر سابق.

² - المنار - عدد 46 - السنة الثالثة - 14 ذو القعدة 1372هـ/ 24 يوليو 1953م.

³ - المنتقد: العدد 03- 24 ذي الحجّة 1343هـ/ 16 جويليت 1925م.

⁴ - Banque: المصرف.

⁵ - Guichet: نافذة التذاكر.

فغضب (الكيسي)¹ غضبا شديدا، فدهشت قائلا: أعوذ بالله من الأزمة، حتى صارت كلمة (أحسنتم) تُصرف عندهم بثمان الاشتراك، والأمر لله.²

أمّا الصيغ التقليدية فنجدها بكثرة عند الكتّاب الطرقيين، ونعني بها تلك التراكيب المتداولة بكثرة على الألسن، ومنها ما يجري مجرى المثل، ومثال ذلك ما نشرته جريدة البلاغ حول موضوع الخلافة الإسلاميّة، يقول الكاتب: "...نعم قد وُجد أحييرا ضعف في إدارة الدولة العثمانية، إلى أن كادت أن تصير في خبر كان."³

فقد عبّر الكاتب عن خطر زوال الدولة العثمانية بتعبير بسيط شائع مُداول، يفتقر إلى روح البلاغة وجمالها، وهو "خبر كان".

ونظير هذا أيضا كثير على صفحات جريدة المرشد، ومن ذلك وصف الكاتب للحرب الباردة بأسلوب بسيط يكاد يقترب في معناه من العامية المتداولة، يقول الكاتب: "أصبحت الكتّاب تعبّر بالحرب الحامية، فبتنا نحن ومن على شاكلتنا من الضعفاء والبؤساء، تستفزنا تلك الكلمة، سواء برأسها أو بذنبها، فكانت من بيننا أشبه شيء بالعقرب، تنهش بفمها، وتلدغ بذيلها."⁴

03/النبرة الوعظية:

وتكاد تنحصر في فئة الكتّاب الذين حملوا على عاتقهم مهمة الوعظ في المساجد والزوايا، لذلك غلب على المقالات السياسيّة للطرقيين بطابع الوعظ والإرشاد، وتتجلى هذه الروح الدينيّة في كتاباتهم من خلال اتكائهم على الاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والحكم والأمثال العربيّة، وكثيرا ما يشعر القارئ أنّ ذلك الاستشهاد مُقحمٌ في سياق الكلام في غير ملائمة ولا تناسب. ومثال ذلك ما جاء في جريدة المرشد في مقال بعنوان "الأمة التركية وانقلابها الأخير" تناول فيها الكاتب قضية سياسيّة محضّة، وعرّج فيها على قضية التفرنج والإلحاد، واقتبس من القرآن الكريم آيات بيّنت بيد أنّ التكلف بدأ واضحا

¹ - Caissier: أمين الصدوق.

² - البستان: العدد 01 - 27/04/1933م.

³ - البلاغ: العدد 134 - 03 رجب 1350هـ/ 13 11/1931م.

⁴ - المرشد- السنة الثالثة- العدد 34- مصدر سابق.

في إقحامها، فضلا عن النبرة الوعظية المسيطرة على المقال، حتى ليشعر القارئ أنه يسمع خطبة جمعة لا أنه يقرأ مقالة سياسية، يقول الكاتب: "إنني أعربت لذوي العقول السليمة، أن التفرنج والإلحاد، لا يعودان على صاحبهما إلا بالبور والفشل، وهيئات أن يكون للمسلم شيء بغير آتباع دينه، ومن عمل بعناده وتجنّب نصائح الناصحين، فلسوف يستغيث ولا يُغاث إلا (بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا).

هذه كلمتنا نرسلها كنصيحة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، والله أرجو أن يلهمنا وكافة المسلمين رشدنا، وأن يهدينا صراطا مستقيما (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) أمين.¹

03/التأق في الأسلوب: هذه الخاصية يكاد ينفرد بها الشيخ البشير الإبراهيمي، بوصفه امتدادا لمدرسة الصنعة اللفظية التي تُعنى باختيار الألفاظ، وتزيين العبارة بألوان البيان والبديع دون إهمال المعنى، فقد استمدّ أسلوبه ولغته من "محيط اللغة العربية منذ عصورها الأولى، وأسلوبه هو أسلوب البلغاء العرب منذ "الجاحظ" حتى عصرنا الحديث"².

كان لاطلاع الإبراهيمي على كنوز التراث الأدبي الأثر البالغ في صقل شخصيته، وتنمية مواهبه الفكرية والأدبية، وقد أسعفته حافظته العجيبة في حفظ متون اللغة ودواوين الشعراء، كالحطيئة وابن الرومي والمتنبي واطلاعه على أساليب البلغاء كالجاحظ والمعري وابن شهيد وابن زيدون . وقد تجلّى هذا التأثير في مقالاته بصفة عامّة، من خلال اقتباسه من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وفقا لسياق الكلام، فلا يشعر القارئ أن الكاتب يُقحم الكلام إقحاما، فضلا عن توظيف الصور البيانية والمحسنات البديعية من غير تكلف في ملائمة بين اللفظ والمعنى لا نجدها إلا عند فحول الكتاب القدامى، مثلما يحرص الإبراهيمي على انتقاء ألفاظ من المعجم العربي القديم، ولا ينسى أن يُطعم مقالاته بما اختزنه حافظته من أمثال وحكم عربية تعكس تأثره بالموروث العربي القديم بلاغة ومعجما.

¹ - المرشد: السنة الرابعة- العدد 38- رمضان 1369هـ/ 16 جوان 1950م.

² - عبد الله الركبي: تطور النثر الجزائري الحديث- الدار العربية للكتاب - ليبيا- تونس- د ط - 1398هـ- 1978م- ص 150.

ويتجلى تأثر الإبراهيمي بالقرآن الكريم في مقالاته الساسية من خلال اقتباسه آيات يينات من القرآن الكريم، تزيد من جمالية الصورة ووضوحها ومن أمثلة ذلك، كقوله: " يا هؤلاء إن الاستعمار شيطان، وأن الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدوا". وهذا اقتباس من قوله تعالى: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ }¹. ويضيف في موضع آخر يقول: " هاج هذا المخلوق الشر بتماديه في الشر... لأن هذه الطريقة هي التي تظهره وتقربه زلفى إلى آلهته..... إنه لهم مولى شؤم، وعشير سوء، لبئس المولى ولبئس العشير".²

وهذا بدوره اقتباس من الآية الكريمة: { يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبئسَ المولىٰ وَلِبئسَ العشيرُ }³.

يصف الإبراهيمي التقرير الحكومي العاصمي يقول: " في هذا المطبخ طبخ التقرير العاصمي ملفوفا بتوابله، وفيه ولد محفوفًا بقوابله".⁴ نسجل هنا أن سجع الإبراهيمي جاء على سليقته وسجيته لا تكلف فيه ولا تصنع.

ويوظف الإبراهيمي مثلاً عربياً - " عادت لعترها ليس" - بمناسبة حديثه عن السلطة الاستعمارية وتقلبها بالجزائر، ويجعل منه عنواناً لمقالته، يقول الإبراهيمي: " وليس هذه في مورد المثل هي امرأة كانت لها عوائد شرّ تعتادها، وأخلاق سوء تفارقها ثم تقارفها، لغلبة الفساد فيها، وصيرورته أصلاً في طباعها-والعتر هو الأصل- فسيرت العرب فيها هذا المثل.

أمّا في مضرب المثل فهي الإدارة الجزائرية، وعترها هو الاستعمار البغيض إلى كل نفس.⁵ ويربط الإبراهيمي بين الحرب والاستعمار، بوصفهما شيئين متلازمين، معتمداً في ذلك المقابلة وحسن التقسيم، يقول الكاتب عن مجازر 08 ماي 1945: " اثنان خُلقا لمشأمة الاستعمار والحرب، ولحكمة ما كان سليلي أبوة، لا يتمّ أولهما إلّا بثانيهما، ولا يكون ثانيهما إلّا وسيلة

¹ - سورة فاطر - الآية 06.

² - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 139- 21 ربيع الثاني 1370هـ/ 29 /جانفي/ 1951م.

³ - سورة الحج - الآية 13.

⁴ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 58- السنة الثانية- 27 محرم الحرام 1368هـ/29/نوفمبر/ 1948م.

⁵ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 64- مصدر سابق.

أولهما، وقد تلاقت يدهما الآثمتان في هذا اليوم، في هذا الوطن: هذا مودع إلى ميعاد، فقعقة السلاح تحيته، وذلك مزعم أن يقيم إلى غير ميعاد، فحثت القتلى من هذه الأمة ضحيته.¹ يشير الكاتب إلى التلازم القائم بين الاستعمار والحرب، فلا وجود لأحدهما في غياب الآخر، ففي الوقت الذي وضعت فيه الحرب العالمية الثانية أوزارها في ربوع العالم، وما صاحب ذلك من احتفالات واستعراضات عسكرية بانتهااء الحرب المدمرة، يعقد الاستعمار الفرنسي الغاصب العزم على البقاء في الوطن الجزائري وكان ثمن ذلك الآلاف من الضحايا المدنيين العزل.

وينسج إبراهيمي على منوال المقامة العربية، وقد نأت به الديار عن وطنه، واستعر لهيب شوقه إلى مراتع الطفولة والشباب، فيخاطب الجزائر الحبيبة: "قل للجزائر الحبيبة هل يخطر ببالك من لم تغيبي قط عن باله؟ وهل طاف بك طائف السلو، وشغلك مانع الجمع وموجب الحلو، عن مشغول بهواك، عن سواك؟... لن أنسى -يا أم- أنك كنت لي ما خطة العرس، وماشطة العرس، فلا تنسي أنني كنت لك من عهد التمام، إلى عهد العمائم، ما شغلت عنك إلا بك، وما خرجت منك إلا عائدا إليك... خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار علي أن لا أملك من أرضك شبرا، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبرا؟"²

05/ النبرة الثورية الحماسية:

ونقصد بها تلك الشحنة العاطفية التي تُحرّك عواطف القارئ الكامنة، وتجعله متفاعلا مع المقال، ويتوقف ذلك على مقدرة الكاتب في تنبه المتلقين وإثارتهم، حسب حماس كل كاتب وتفاعله مع موضوع مقاله، فمن الكتاب من تطغى على مقاله النبرة الانهزامية المنكسرة، وهذا النوع من الكتابة يزرع روح اليأس والفشل في النفوس، ويميل بها القنوط، فلو قرأنا مثلا هذا المقال الذي يتحدث فيه الكاتب عن قضية اللاجئين الفلسطينيين بعيد نكبة 1948، فإننا نلمس تلك اللهجة المستكينة، تلك النبرة العاجزة المنكسرة، التي تحمل معنى الاستجداء، يقول الكاتب: ".. كما أننا لا ننسى فضل الحكومة الفرنسية التي سمحت إلى أولئك الأساتذة المحترمين، بالقيام بتلك الواجبات الإنسانية، ومثل ذلك فليعمل العاملون، كما أننا نرجو الله أيضا أن

¹ - محمد البشير إبراهيمي: عيون البصائر، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2007، د.ط، ص 369.

² - البصائر: السلسلة الثانية - السنة السادسة - العدد 229 - 01 رمضان 1372هـ / 15 ماي 1953م.

يُفرّج كربات إخواننا المنكوبين ضحيّة الأغراض الملعونة الشنيعة، ولكن سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.¹ فالذي نسجّله هنا هو الغياب التام لروح الانفعال والتفاعل التي ينبغي أن تطبع مقالا كهذا، يتحدث فيه الكاتب عن صورة من صور الإنسانيّة المعذّبة، ولشعب تربطنا به رابطة روحية وقومية، وزيادة على اللّغة الركيكة الاعتيادية، فإنّ المعجم الدلالي للكاتب حوى مفردات الاستجداء، والاكتفاء بما يمتّنه الاستعمار الفرنسي، الذي هو أحد مهندسي هذه المأساة الإنسانيّة.

ولو أخذنا مقالا للإبراهيمي حول قضية فلسطين، لوجدنا روح الكاتب المتحمّسة، الغاضبة، تُطالعا بين السطر والسطر، بل بين الكلمة والكلمة، يقول الإبراهيمي: "يا فلسطين! إنّ في قلب كلّ مسلم جزائري من قضيتك جروحا داميّة، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محتك عبارات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقّك كلمة متردّدة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير، وفي عنق كلّ مسلم جزائري- يا فلسطين- حق واجب الأداء، وذمام متأكد الرعاية."²

ويبلغ الغضب من الإبراهيمي مبلغه، فيصّب جام غضبه وتقريعه على الصهيونيّة فيقول: "ما أشأم الصهيونية على فلسطين، وما أعقّ صهيون لفلسطين وما أضلّ ضلال اليهود إذ يجرّون وراء خيال الوطن القومي، فيجرّون البلاء لفلسطين، ويزهقون روح سام بمادّة الغرب المسمومة، وسبحان من فاوت بين العنصرين في رقّة الحس، ودقّة الحدس، والأصل واحد، وسبحان من خصّ العرب بالعامري، واليهود بالسّامري"³.

ويؤكّد الإبراهيمي على واجب نصرّة فلسطين، والدّود عنها بالنّفس والنفيس، لأنّها وديعة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وأمانة الفاروق عمر رضي الله عنه، يقول الكاتب: "أيّها العرب، أيّها المسلمون!

¹ - المرشد: السنة الرابعة- العدد 43- صفر 1370هـ/ نوفمبر 1950م.

² - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 05- مصدر سابق.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 23- مصدر سابق.

إنّ فلسطين ودبعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمّتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبه إنا إذا لخاسرون.¹

وتظهر النبوة الحماسية بصورة جليّة وواضحة في تلك المقالات التي سطرها الإبراهيمي حول مسألة حرية تعلّم العربيّة وكذا فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسيّة المسيحية، ومن أمثلة ذلك صرخة الاستغاثة والندبة التي أطلقها الكاتب وهو بصدد الحديث عن القيود التي كبّل بها الاستعمار الفرنسي حقّ تعلّم العربيّة للجزائريين، وحقّهم في ممارسة شعائرهم الدينية بكلّ حرية، صرخة تعكس حقيقة الوضع الذي كانت تُكابده العربيّة زمن الاستعمار الفرنسي، يدعو فيها الكاتب بجرأته المعهودة الأمة الجزائرية إلى الكفّ عن استجداء المستعمر الفرنسي الذي لا يفهم إلّا لغة الحديد والنار، يقول الكاتب: "وأذلاه.. وأذلاه.. أما يكفيننا ضعةً وهواناً أن نستجدي ونمدّ أكفّ الضراعة في شئون ديننا، حتّى نستجدي في شئون ديننا؟ لا استجداء في الدين بعد اليوم- أيّتها الأمة إن كنت مؤمنة بالله واليوم الآخر، وبمحمد وبالقرآن، وعفا الله عمّا سلف من ذلك."²

التشكيل البلاغي في المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث:

أ/ المحسنات البديعية وأسباب توظيفها:

01- السجع: تُعدّ المحسنات البديعية من الوسائل التعبيرية التي يستعين بها الكاتب لإظهار مشاعره وعواطفه، لما لها من تأثير في النفس، واستتارة للذوق، تجعلُ المتلقي مُقبلاً على القراءة بلذّة واستمتاع، لكن في غير إسراف أو تبدّل حتى لا تُخلّ بالمعنى الذي يريدُ إيصاله الكاتب، وإلّا أضحت عيباً من عيوب الكتابة لما لها من أثر بالغ على أسلوب الكاتب. والسجع هو "توافق الفاصلتين في الحرف الأخير من النثر"³. وقد استعملته العرب بمختلف أنواعه في نثرها منذ العصر الجاهلي و"قد كان يُستخدم في أقوال الكهّان والخطب الوعظية، والصلوات والأمثال، والحكم والرّسائل، والمقامات والتّراجم والتّواريخ. و منذ القرن العاشر إلى القرن

¹ - البصائر: السلسلة الثانية-العدد 22- مصدر سابق.

² - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 74- مصدر سابق.

³ - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان،

1424هـ/2003م، ص 351.

العشرين وعناوين الكتب كلها تقريبا تُكتبُ سجعاً، كما كانت مقدمات كثير من الأعمال الأدبية تُصَبّ كاملة في قالب من السجع.¹

لذلك فإنّ الكاتب لا يكتفي بالدقة والوضوح، فهما مقياس للكتابة العقلية الخالصة القائمة على الإفهام المجرد الذي لا تخالطه العاطفة. ولا يكتفي بمعاني الكلمات الحرفية، فالكلمات تعبير طبيعي عن الأفكار، ورموز للأغراض لا للمشاعر لأن عماد الأديب العاطفة - وغايته الفضلى تصوير الإحساس الراقي وبعثه، لذلك يستعين الأديب فيه بحسن التأليف والموسيقى ليلبغ به أوجاً من القوة والجمال، ويحقق ما يرمي إليه من إثارة العاطفة في نفوس القراء. وليس هناك أفضل من البديع في إثارة نفس القارئ وتشويقه لإكمال بقية المقال، ولو تتبنا الأشواط التي قطعتها المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث فإننا نجد كتابها قد لجؤوا إلى توظيف المحسنات البديعيّة في مقالاتهم بنسب متفاوتة حسب مقدرة كلّ كاتب وبراعته الفنيّة في ذلك، ففي العدد الثاني من جريدة المنتقد، نجد في هذا المقال المدرج تحت عنوان "عظماء الرجال وشغف الناس بهم" استهلاله سجع يكاد يكون شعرا منثورا، لتراصف كلماته، وتوافق جملة في أواخر فواصله. وهذا بعض مما جاء فيه: "المرء في قطع أدوار حياته لا يكتفي بمساجلة أقرانه في تحصيل الآمال، أو في مجارة أجدانه في نيل الوظائف والأشغال، بل يحاول ما هو أرفع من ذلك وأنفس، وأكرم منه وأقدس، يحاول التشبّه بعظماء الرجال، الذي ابتهج بهم التاريخ مدى أعصر وممرّ أجيال."²

وبدورها جريدة المرشد نجد كاتبها يتكلّف في توظيف السجع، ويجعل منه غاية لا وسيلة، وهذا يُدكرنا بالتكبة التي نُكب بها الأدب العربي شعره ونثره على السواء لما أضحي يئنّ تحت وطأة الزخرفة اللفظيّة في عصر الضعف والانحطاط، يقول الكاتب في تصنّع مكشوف، وأسلوب ركيك مُمل وهو بصدد الحديث عن الخلافة الإسلاميّة والأوضاع السياسيّة بتركيا: "...ويا للأسف، إنّ قتل خليفتها هو عبارة عن قتل إحساسها، وإطفاء نورها ولكن (ومن لم يجعل الله له نورا، فماله من نور) لأنّها في ضياع الخلافة من يدها، أضاعت بها كلّ

¹ - ديقن. ج. سنيوارت: السجع في القرآن، ترجمة إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1419هـ/1998م، ص 05.

² - المنتقد: العدد 02 - 17 ذي الحجة 1343هـ/ 09 جويليت 1925م.

مُستعمراتها التي كانت، ولا غلو، تحت السمع والطاعة، لا بمجرد اللسان فقط، بل وبحقيقة الجنان الذي كان مملوءاً بقوة الإيمان، ولكن ما شاء الله كان.¹ لعلّ القارئ الكريم لمس التكلّف الواضح في تصنّع السجع، الذي يصيرُ عيباً من عيوب الأسلوب في مثل هذه المواطن، ثمّ إنّ الكاتب قد سقط في خطأ شنيع عندما وصف البلدان التي كانت تحت سلطة الباب العالي في الدولة العثمانية بأنها مُستعمرات، وهو بذلك يجعل من العثمانيين في منزلة المستعمرين وهذه مُغالطة تاريخية خطيرة.

بيد أنّ البشير الإبراهيمي يكاد يكون ظاهرة بلاغية في المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث، ذلك أنّه وظّف البديع وطوّعه حتى طاعه، فلا نكاد نعثر على مقالة من مقالاته تخلو من سجع أو جناس أو طباق أو مقابلة، فهو بحقّ علامة فارقة في تاريخ الأدب الجزائري الحديث، وإن كان توظيف الإبراهيمي للسجع لهدف بلاغي مقصود، وليس تكلفاً أو تصنعاً منه، بل هذا السجع ينطلق من لسانه مُتدفقاً كماء مُناسب.

يصف الإبراهيمي تخاذل العرب وتهاونهم عن نصرة فلسطين، ويعقد مقارنة بينهم وبين اليهود الذين ثبتوا وهم على باطل، في حين نكص العرب على أعقابهم وهم على حق، يُصور ذلك في قالب مسجوع فيقول: " أقسمُ بالذيب الأطلس، والثعبان الأملس، إنّ المتجر بالأحرار لمفلس، وإنّ العاقل بين الأشرار لمبلس، وإنّ العربي لزنيمٌ إذا بقي بالجلس.....أنسيتم ما فعله صلاح الدّين بالمعتدين ؟ إن نسيتم أمسكم فهم له ذاكرون، وإن كفرتم بيومكم فهم له شاكرون، أين كنتم يوم أعطوا العهود لليهود ؟ أين كنتم يوم جاؤوكم بالفهود في المهود ؟ أين كنتم يوم آمنوا بإسحاق وكفروا بهود ؟ كلّ ذلك وقع وأنتم شهود، ولكنهم كانوا أيقاظا وكنتم رقود."² إنّ هذه الكلمات المرصوفة بعضاً بجانب بعضٍ كجبات عقد مُتجاوزة، أضفت على النصّ لمسة فنية عذبة راقية، صورت الواقع العربيّ المرّ تصويراً دقيقاً في نغم موسيقي مُتتالٍ، وفي هندسة بديعة نُححت في التوفيق بين اللفظ والمعنى، لأنّها صدرت عن الكاتب عفو الخاطر دون زيادة منه أو تكلف، ولو كان كذلك لأضحت كلماته " كالعجوز

¹ - المرشد: السنة الرابعة - العدد 38 - رمضان 1396هـ / 16 جوان 1950م.

² - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثانية - العدد 75 - 13 جمادى الثانية 1368هـ / 11 /أفريل/ 1949م.

الشمطاء التي تتزيّن لتحاول ستر ما فضح الدهر منها، وتُصلح ما أفسد الزمان الملحّ من جملها البالي.¹

ويصف الإبراهيمي التدخلّ السافر من طرف الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة في الدّين الإسلاميّ وشؤون المسلمين فيقول: "علمنا هذا ممّا علمناه من أعمال الحكومة، وبلوناه من سرائرها، وجلوناه من جرائرها."² فالتوافق واضح بين الكلمتين سرائرها وجرائرها فكلاهما على وزن فعائل، وكذلك الشأن للفعلين جلوناه وبلوناه فهما على وزن فعلناه. دون أن تُغفل توافق الفواصل في حرف الهاء. ويصف الإبراهيمي المعهد الباديسي الذي أُسس ليصون ثوابت الأمة في نفوس الناشئة ويُقويها، وكيف أقلق الاستعمار الفرنسي وعملاءه فبادروا بجذب المؤامرات له، ومنع مساعدة الشعب عنه، وتشويه سمعته، فيقول في سجع مُمتع جذاب: "أمّا قيمة المعهد عند الأمة فهي القيمة الغاليّة، وأمّا مترلته فهي المترلة العاليّة، وأمّا الثّقة به فهي المثل الشّروء، والزرّد المسروء، إلّا فئةٌ عُرِفَت بسيمائها، إذ أضلّها الله وأعمأها، جرت من الخبث على نسق، وسرت من الجهل في غسق."³

ويواصل حديثه عن مفهوم الوطنيّة الحقّة في كلام منطقي مسجوع، ويبيّن الوطنيّة الزائفة التي لا تنشدها الجمعيّة فيقول: "لا وطنيّة التزوير والتّضليل، والتّزوير والتّطويل."⁴ فالكلمات الأربع مُتوافقة في الوزن وهو (التّفعليل)، فضلا عن توافق الفاصلتين في آخر الجملتين وهي حرف اللّام بين كلمتي التّضليل والتّطويل.

02/ الجناس: الجناس لغة هو المشاكلة والاتحاد في الجنس. أمّا اصطلاحا فهو تشابه اللفظين في النّطق واختلافهما في المعنى، كقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُوفكون). الروم الآية 55.

فالمراد بلفظ الساعة هو يوم البعث والقيامة. والمراد بلفظ ساعة هو المدّة الزمنية من قسم من أقسام الليل أو النّهار، وهو على قسمين تام وناقص. فأما التّام هو ما اتّفق فيه اللفظان في

¹ - عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، مرجع سابق، ص 329.

² - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 75- المصدر السابق.

³ - البصائر: السلسلة الثانيّة- السنة الثانية- العدد 59- 05 صفر 1368هـ/ 06/ديسمبر/ 1948م.

⁴ - المصدر نفسه.

الضبط والتشكيل، أو عدد الحروف وترتيبها، أمّ الناقص فهو أن يتفق اللفظان في النطق ويختلفان في واحد من الأمور السابقة.¹

وظّف كتاب المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث الجناس بمختلف أنواعه، وبدرجات مختلفة، وفق تفاوتهم في الكتابة، فالكتّاب الطرقيون وظّفوا الجناس بدورهم، ففي مقالة بعنوان " إلى نواب الأمة" في جريدة البلاغ نعثر على جناسين مختلفين، أحدهما جناس قلب والثاني جناس تام، يقول الكاتب مبيّنا للنواب الجزائريين الأخطار المحدقة بالأمة: " قوميتنا في اضمحلال، وديانتنا على خطر عظيم، أمّا الأخلاق فأنتم على علم بما هي عليه، أبنائكم بين سجون وحانات، ومقاهي وطرفات، لا علم ولا عمل ولا جاه يرتجى ولا مال يعتمد عليه، فقر ومكر، ظلمات بعضها فوق بعض."²

يظهر جناس القلب بين لفظتي (علم/عمل) اللتان تتفقان في عدد الحروف وتختلفان في ترتيبها، أمّا الجناس الناقص فيبين مفردتي (فقر/مكر).

ومثلما وظّف الإبراهيمي السجع في مقالاته، فإننا نجد كذلك يُوظّف الجناس بنوعيه، تام وناقص، جنباً إلى جنب مع باقي المحسنات البديعية الأخرى لا سيّما السجع، إذ لا نكاد نعثر على مقالة للإبراهيمي مسجوعة إلّا وقد حلّاهما بشيء من الجناس، ومن أمثلة ذلك مزججه بين الجناسين التام والناقص في معرض حديثه عن سياسة الاستعمار التعليمية في الجزائر، والمبنيّة على تجهيل الجزائريين وحرمانهم من الالتحاق بالمدارس، بينما يرفل أبناء المعمّرين في الثياب الجديدة والمدارس النظامية التي يُنتخب لها أفضل المرّيين والأساتذة، يقول الإبراهيمي: " تُمنّ فرنسا على مُسلمي الجزائر، وتقول: إنّها علّمت، وما علّمت - ولكنها قلمت.... وما أغرب شأن الجزائريين مع الاستعمار الفرنسي: فئة تدرس في جامعة، وملايين ترسف في جامعة، ويا بعد ما بين الطرفين."³

فالجناس الناقص في بين اللفظين (علّمت وقلمت)، أمّا التام فهو بين لفظتي جامعة التي تعني الأولى مركز العلم والمعرفة، أمّا الثانية فتعني الغلّ والقيّد. وقد وظّف الإبراهيمي الجناس،

¹ - يُنظر: أيمن أمين عبد الغني: الكافي في البلاغة، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، 2011. ص 225/224. بالتصرف.

² - البلاغ: العدد 119 - ذي الحجة 1347هـ / 1927/05/17م.

³ - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 68 - مصدر سابق.

ليوضح المفارقة الاستعمارية بين ما تدّعيه نظريا، وما تُمارسه عمليا في الجزائر، فكمشة قليلة تدرس في الجامعة أي المؤسسة التعليمية، في حين أنّ السواد الأعظم من الجزائريين يرسفون في قيد الجهل والامية والبؤس. وهذه الكمشة القليلة أغلبها من أبناء المعمّرين وأذئاب الاستعمار، وإن وجد بينهم من أبناء الشعب الكادح فهم يُعدّون على أطراف أصابع اليد، بعدما يكونوا قد نجوا بأعجوبة من مقصلة الإعدام العلمي الذي كان يُمارسه الاستعمار وزبانيته ضد الجزائريين الذين تظهر عليهم علامات التبوغ والتفوق.

ونجد الجنس التام كذلك عند الإبراهيمي في خطاب موجه لأحد الزعماء السياسيين الخانعين، على الرغم من تشدّقه بالانتساب إلى بني هاشم، فيقول في تبريع شنيع متجانس: "ما أنت لهاشم.. إنّما أنت لعبد العزّي، أغضبت سراة الحيّ، وأزعجت الميت والحي، من لؤي إلى أبي نُمي، أما تخاف أن تهلك، يوم يُقال: يا محمد إنّّه ليس من أهلك."¹

يكمن الجنس التام هنا بين لفظي الحي، فالأولى تعني عليه القوم أو نخبة القوم، والثانية تعني نقيض الميت.

ويشنّ الإبراهيمي نقدا لاذعا على زعماء العرب الذين باعوا فلسطين، بسكوتم حيننا وبخياتهم وعمالتهم للصهاينة أحيانا، مقابل البقاء على عروشهم الورقية، يقول الإبراهيمي: "الآخذين أمس من تل أبيب بالتلايب."²

فلفظة تل أبيب تعني المدينة العربية الفلسطينية المحتلة، كانت تُسمى بتل الربيع، و التي صيرها الصهاينة عاصمة لهم بدلوا اسمها إلى تل أبيب. أمّا التلايب فتعني الثوب المجموع إلى العنق.

وبمناسبة حديثه عن مجازر 08 ماي 1945 التي تكفي لوحدها لتسويد تاريخ فرنسا الحديث، مهما حاول مؤرّخوها عبثا تنصيعه وتلميعه، فقد تجرّدت في ذلك اليوم- وكباقي الأيام- من كلّ معاني الإنسانية، فقتلت الأطفال ورمّلت النساء، وأحرقت الدّيار وأتلفت الغلال، يبلغ الغضب بالإبراهيمي مبلغه ويثور في وجه من لا يزال يلوك أكذوبة فرنسا الديمقراطية ومنارة العدل وحقوق الإنسان، ويطلقُ صرخة مدوية للثورة على الاستعمار

¹ - البصائر: السلسلة الثاثة- السنة الثانية- العدد 69- 01 جمادى الأولى 1368هـ/ 28/فيفري/ 1949م.

² - المصدر نفسه.

واجتثا بذرته الخبيثة، فيلي أبناء نوفمبر نداء الشيخ، ويرسلونها لعنة سرمدية على الاستعمار الفرنسي، ويظهرون الوطن من رجسه، وتخط الأقدار في صحيفة الشيخ أن يغمض عينيه على الجزائر وهي مُطلقة، بعدما كان قد فتحها عليها وهي مُوثقة، يعتمد الإبراهيمي الجنس فيطاوعه في جرس موسيقي عذب أحش، فيقول: " من لي بمن يُسجلها ويعجلها لعنة خالدة على الاستعمار؟ ومن لي بمن يُزجها ولا يُرجها سبة تالدة له ولأنصاره في العالمين؟ ومن لي بمن يصبها ولا يغبها دموعا سخينة على جدث الإنصاف وعلى رفات المنصفين؟

ومن لي بمن يُرسلها صارخة صاخة في آذان أدياء الديمقراطية ودعاتها والمدعين لها أينما حلوا، أن يتصدقوا علينا مشكورين بالكف عن هذه الدعوة الدعية، فقد غثت ورثت، وسمجت وخمجت.¹

يستطيع القارئ لهذه الفقرة القصيرة أن يسجل اثني عشر جناسا ناقصا على النحو الآتي: (يسجلها/يعجلها، يُزجها/يُرجها، يصبها/يغبها، صارخة/صاخة، غثت/ورثت، سمجت/خمجت). لا شك أن هذه الكلمات المتجانسة المسجوعة، قد أضفت رونقا جماليا موسيقيا على مضمون المقالة إذ " لا شك أن التجاوب الموسيقي، الصادر من تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصا، تطرب له الأذن، وتتهتر له أوتار القلوب، والجنس يقصد اختلاب الأذهان، وخداع الأفكار، حيث يوهم أنه يعرض على السامع معنى مكررا، أو لفظا مرددا لا يجني منه السامع غير التّطويل والسّامة، فإذا هو يروع ويعجب، ويأتي بمعنى مستحدث يغير ما سبقه كل المغيرة، فتأخذ السامع الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة.²

وفي معرض حديثه عن قضية فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية الصليبية، يسخر الإبراهيمي من العلماء العملاء الذين باعوا دينهم ووطنهم وعرضهم وشرفهم، بثمن بخس دراهم معدودة ونياشين وهمية زائلة، جلبت لهم الخزي والعار أكثر مما جلبت لهم الوقار والاحترام، يقول الإبراهيمي مازجا بين السجع والجناس: "وإن سمها لكم بالنياشين، يعرّ ويشين، لأنكم - كما تزعمون - رجال دين، لا رجال ميادين، وأصحاب نسبة لها شان، أعلى

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 67 - مصدر سابق.

² - عائشة حسين فريد: وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 186.

من النيشان، فإن كانت هذه النياشين مجازاة على الصلاة، فجزاء الصلاة على الله، وإن كانت لنفع في الدنيا، فالدنائير أنفع لكم من الزنانير.¹

فالجناس الناقص يتجلى في لفظي ميادين ودين، وكذلك بين كلمتي الدنانير والزنانير. ولا ننسى أن الإبراهيمي قد وظّف جناس القلب، ومثال ذلك ما جاء في مقالة بعنوان " عادت لعترها لميس" يقول الإبراهيمي: "وليس هذه في مورد المثل هي امرأة كانت لها عوائد شرّ تعنادها، وأخلاق سوء تفارقها ثم تُقارفها، لغلبة الفساد فيها، وصيرورته أصلا في طباعها- والعتر هو الأصل- فسيّرت العرب فيها هذا المثل."²

يظهر جناس القلب في اتفاق اللفظتين (تُفارقها/تُقارفها) في عدد الحروف واختلافها في الترتيب. ونظير هذا أيضا قوله وهو بصدد التأكيد على عروبة فلسطين: "وسادت فيها العريّة أكثر ممّا سادت العبريّة."³

فالجناس قد أعطى جرسا موسيقيا من خلال إيقاع الوزن بين اللفظين المتجانسين، كما أنّه يُنبّه القارئ لإعمال الذهن ليصل إلى الفرق بين اللفظين المتشابهين، مثلما يعطي للعبارة نغمة جميلة تتناسب مع المعنى. وكلّ هذا تهيأ للإبراهيمي يُيسر بعيدا عن التكلّف.

03/الطباق: لغةً: هو التكافؤ والتضاد. أمّا اصطلاحا: فهو الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين، على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجاز. ولا يشترط كون اللفظين الدالين عليهما من نوع واحد، كاسمين أو فعلين، فالشّروط التقابل في المعنيين فقط. وهو على قسمين: طباق الإيجاب وطباق السلب.

فطباق الإيجاب هو الجمع بين كلمتين متضادتين موجبتين، بدون أداة نفي، مثل: هذا الكتاب كثير الأبواب قليل الفصول. أمّا طباق السلب فهو الجمع بين كلمتين متفقتين في المعنى

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 105- 10 ربيع الثاني 1369هـ/ 30/ جانفي/ 1950م.

² - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 64. مصدر سابق.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 05- مصدر سابق.

وبينهما أداة نفي¹. كقوله تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يُبَيِّنون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً).²

وقد وظّف كاتب المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث الطّباق بنوعيه في مقالاتهم، وفقاً للفكرة المراد توصيلها، وتماشياً مع الموقف المعالج، وهذا هو الغرض من توظيف الطّباق إذ: "يؤتى بالمطابقة في الكلام إذا كانت الفكرة تقتضيها والموقف يتطلبها، وليس مجرد الصنعة اللفظية، وهي حينئذ تُضفي على الكلام جمالا ورونقا، وتزيده حسنا وقبولا، فإنّ عرض المتضادات في نسق مؤتلف يثير انتباه السامع إلى الفكرة، فيشتدّ تقبّله لها لما بين التفكير والتعبير من انسجام، على أنّ الجمع بين الأضداد يظهرها في معرض التآلف وهي متخالفة، ويربط بينها وهي متباعدة، فتزداد الفكرة وضوحا، ويستجيب لها السامع."³

ومن أمثلة الطّباق الوارد في بعض المقالات السياسية في الأدب الجزائري الحديث، مقالة للشيخ أبي اليقظان تحت عنوان "هل في الإمكان تأسيس حزب وطني؟" استهلّها الكاتب بطباق في السطر الأوّل منها، يقول أبو اليقظان: "مما لا شكّ فيه عند الخاصّ والعام، والقاصي والداني وجود شيء في الجزائر يسمّى "القضية الجزائرية"... وأمام هذه القضية أنصار وخصوم."⁴

وظّف الكاتب طباق الإيجاب في ستة ألفاظ وهي (الخاصّ/العام، القاصي/الداني، أنصار/خصوم). وهذا بغية توضيح فكرته للقارئ، وإقناعه بحقيقة القضية الجزائرية التي ليست مجرد أوهام كما كان يتصوّرها البعض.

وكعادتها جريدة المرشد، يحاول صاحبها التأنق في الأسلوب غير أنّ حظّه في الكتابة يتعرّس به، فتأتي كتاباته وقد ظهر عليها التصنع والتكلف، فيوظّف الطّباق في مقالة حول المغرب الأقصى إلّا أنّ هذا التوظيف للطّباق مقرون بسجع سطحي سمج، يقدر في أسلوب الكاتب أكثر ممّا يرتقي به، يصف الكاتب الإنسان المغربي فيقول: "قلّ أن تجد مغربيا لا يميل بطبيعة حاله إلى ما رسمه له أجداده الأكرمون، من الطهارة، وحبّ الخير إلى كافة المؤمنين فضلا عن

¹ - يُنظر: أمين أمين عبد الغني: الكافي في البلاغة، مرجع سابق، ص 175/171.

² - الآية: النساء 108.

³ - عبد العاطي غريب علّام: دراسات في البلاغة العربية، منشورات قان يونس، بنغازي، 1997، ص 170.

⁴ - الأمانة: العدد 03 - 1934/10/02 م.

أبناء جلدته المهتدين، كما نذكر أيضا أنه متعشق بحب العلم وبنشره، من بين طبقاته، سواء ذلك الكبير والصغير، أو الغني والفقير.¹

من جانبه وظّف كُتّاب جريدة المنار الطّباق وفقا لسياق الكلام، وحاجة الموضوع، ففي مقالة بعنوان " مرحبا بالفجر الصادق " تناول محمود بوزوزو الفرح العارم الذي غمر أبناء الحركة الوطنيّة بالجزائر غداة تأسيس الجبهة الجزائرية للدّفاع عن الحرّيّة واحترامها، هذا المولود السياسي الجديد، هلّل له البعض، بينما عبس في وجهه البعض الآخر، يقول الكاتب عن ذلك موظّفا الطّباق: " من المتفائل، وما دواعي التفاؤل؟ ومن المتشائم؟ وما دواعي التشاؤم؟... المتفائل هو الشعب الجزائري المسلم... وأما المتشائم فهو الاستعمار الذي آلف العيش باضطهاد الأبرياء العزل".²

لجأ الكاتب إلى توظيف طباق الإيجاب بين(المتفائل/المتشائم، التفاؤل/التشاؤم) ليعزّز الفهم لدى القارئ، من خلال رسف اللفظة والإتيان بضدّها، لإثارة انتباه المتلقي لفكرة الكاتب، فضلا عمّا تُخلّفه من نغم موسيقي في نفسه، والعرب تقول: بضدّها تُعرف الأشياء.

وفي المقال نفسه يوظّف الكاتب الطّباق مرّة أخرى في خاتمة مقاله، وهو بصدد إبراز الصحوة التي عمّت أرجاء الوطن الجزائري، فأضحى الشعب عاشقا لنور الحرّيّة، بينما بقي الاستعمار الفرنسي يسبح في ظلام أوهامه، يقول الكاتب مبينا الفرق بين ذهنيّة الشعب الجزائري، وذهنيّة المُستعمر البالية: " شتان ما بين مُحبّ النور وآليف الظلام".³

وحول القضية نفسها، يُبرّر الكاتب قبول الجزائريين المساعدة على اجتثاث هذا الاستعمار البغيض، بصرف النّظر عن ملته أو أدبولوجيّته، يوظّف بوزوزو طباق الإيجاب في غير تكلف أو تصنّع حتى أنّ القارئ لا يلتفت إلى الجرس الموسيقي بعد ان يكون الكاتب قد جرفه بهذه المطابقة التي تُدعم فكرته وتقنع القارئ بحقّ الجزائريين في اعتبار كلّ من يُناصرهم في مقاومتهم للاستعمار حليفا ونصيرا لهم، بغضّ النظر عن لونه أو جنسه او معتقده، يقول الكاتب: "لنا الحقّ في البحث عن النّصير المخلص، شرقيا كان أو غربيا، مُتدينا أو ملحدّا، روحانياً أو ماديا. حسبنا

¹ - المرشد: السنة الخامسة- العدد 54- ربيع الأول 1371هـ/ 30 نوفمبر 1951م.

² - المنار: السنة الأولى- العدد 07- 13 ذي القعدة 1370هـ/ 15 أوت 1951م.

³ - المصدر السابق.

منه أن يكون محباً للديمقراطية، مؤمناً بها، طائراً لنصرتها بدون مساومة، وبدون قيد ولا شرط.¹

يتجلى طباق الإيجاب في المفردات المترصّة بعضها إلى جنب بعض في قوله: (شرقيا/غربيا، متديّنا/ملحدا، روحيا/ماديا).

ولعلّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي هو أكثر الكتاب توظيفا للمحسنات البديعية بصفة عامة، والتي يندرج تحتها الطّباق، فقد وظّفه الإبراهيمي بنوعيه، باعتباره وسيلة لإبراز التناقض القائم في الحياة السياسية زمن الاستعمار الفرنسي، وكشف عيوبها ومساوئها، بل وحتى السياسة الدوليّة كان لها نصيب من يراع الإبراهيمي لا سيّما ما تعلق منها بالتّفاق العالمي ضدّ قضية فلسطين. ومن أمثلة طباق الإيجاب التي أوردها الإبراهيمي في مقالاته، ما جاء في حديثه عن سياسة فرنسا الاستعماريّة التي حاولت تفتيت الهوية الوطنيّة، وتهوين القيم الأخلاقيّة المستمدّة من ديننا الحنيف في نفوس الشباب، يقول الإبراهيمي: ".عبث بجرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأميّة، والبيان العربي بهذه البلبلّة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير."²

ففي هذه الفقرة طباقات ثلاث،(الإيمان/الإلحاد)، (الفضائل/الرذائل)، (التعليم/الأميّة). فالقارئ يشعر بشراسة المعركة التي كان يخوضها الاستعمار الفرنسي ضدّ الشعب الجزائري ومقوّمات وجوده من دين إسلامي يُشهر في وجهه سيف الإلحاد، وعربيّة تُهدّدها فرنسيّة ولهجات هجينة في عقر دارها، وقيم أخلاقيّة توارثها الشعب الجزائري تالدا عن تالدها تُهدّدها الفرنسية والأوربية. كلّ هذا بفضل هذه المطابقة التي اعتمدها الكاتب لإبراز فكرته وتوضيحها. وبمناسبة حديثه عن معاناة الحجاج الجزائريين، الذين تشترط الإدارة الاستعماريّة منحهم رخصة لأداء هذه الشعيرة المباركة، يوظّف الكاتب الطّباق مرّة أخرى ليُميط اللثام عن وجه فرنسا القبيح، وعن ازدواجيتها في منح هذه الرخصة وفي منعها، فيقول: "وزاد الحمأة امتداداً ما صحب حجّ هذه السنة من فوضى في الإجراءات، واختلاف بين الإدارات، فهذه تُعطي

¹ - المنار: السنة الأولى - العدد 08 - 29 ذي القعدة 1370هـ / 31 أوت 1951م.

² - البصائر: السلسلة الثانيّة - العدد 01 - 07 رمضان 1366هـ / 25/جوليت/1947م.

وتلك تمنع، وهذه تُوسّع وتلك تُضيّق.¹ يتجلّى الطباق بين لفظي (تُعطي/تمنع) وكذلك بين (تُوسّع/تُضيّق).

ومن أمثلة طباق السلب الذي وظّفه الإبراهيمي، نجد على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في مقالة له بعنوان " فصل الحكومة عن الدين" تعرّض فيه لمعاملة الإدارة الاستعماريّة لرجال الحركة الإصلاحية، وكيف تحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم، وتُفلي كلّ ما تخطّهم أقلامهم، فيقول: " ونحن نعلم أنّ الحكومة تُترجم كلّ ما نكتب، وتقرؤه فتفلي الحروف وتحدّد مواقعها من الكلمات، ومواقع الكلمات من الجمل.. وتُحمّل الكلام من المقاصد وحظها ما يُطبق وما لا يُطبق."² يظهر الطباق في اللفظتين المتفتقتين من حيث المعنى غير أنّ إحداها مثبتة والثانية منفيّة (يُطبق/لا يُطبق).

وشبيه هذا نجده في مقالة " خصمان فمن الحكم؟" والتي تعرّض فيها الكاتب إلى السّجال الدائر بين الإدارة الاستعماريّة من جهة وبين الشعب الجزائري الذي انبرت جمعية العلماء المسلمين للدّفاع عن ثوابته وهويّته، يقول الكاتب: " مواقفنا المشهودة في هذه القضية هي مبعث الشرّ بيننا وبين الحكومة، فنحن لا نسكت حتى تنصف، وهي لا ترضى حتى نسكت."³ طابق الكاتب بين لفظي (نسكت) و (لا نسكت).

وعلى سبيل المجاز يُطابق الإبراهيمي بين لفظي تخدع ولا تخدع، وهو بصدد تحذير الجزائريين من سياسة الاستعمار الماكرة، والتي تهدف لردّ الشعب عن دينه ومسخّ لُغته، فيقول: " ولا عبرة بهذه الأغشيّة التي يُموّهون بها أعمالهم من العلم والفنّ والمدنيّة والديمقراطيّة والإنسانيّة، فتلك ألوانٌ غير قارّة ولا ثابتة، تخدع العين والأذن، ولكنّها لا تخدع الحقيقة."⁴

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 11- 05 ذي الحجة 1366هـ/ 20 أكتوبر/1947م.

² - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 137- 07 ربيع الثاني 1370هـ/ 15 جانفي/1951م.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 158- 29 شعبان 1370هـ/ 04/ جوان/1951م.

⁴ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 175- مصدر سابق.

04/المقابلة: لغةً: تعني المواجهة، أمّا اصطلاحاً: فهي أن يُؤتى بجملة أو أكثر بمعاني متوافقة، ثمَّ يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.¹ كقوله تعالى (إنَّ الأبرار لفي نعيم وإنَّ الفجّار لفي جحيم)².

وظّف كُتّب المقال في الجزائر المقابلة، لكن بصورة قليلة مقارنة بالمحسنات البديعيّة السابقة، ومن نماذج المقابلات الواردة في المقالات السياسية في الأدب الجزائري الحديث، مقابلتان أوردتهما الشيخ أبو اليقظان، وهو بصدد الحديث عن إمكانيّة تأسيس حزب وطني جزائري، يجمع شتات الجزائريين، يقول الشيخ عن الأمة الجزائرية مشبّها الصراع الدائر بين الوطنيين المصلحين وبين بعض الخائعين الخائفين، بالصراع الدائر بين الكريات الحمراء والكريات البيضاء في جسم الإنسان: ".الأولى تدافع الثانية أملاً في حياته، والثانية تهاجم الأولى تمناً في موته.... فإن كانت الأولى تفاءلنا للحسد بالحياة، وإن كانت الثانية تشاءمنا له بالموت."³.

قابل الكاتب بين الجملة الأولى والثانية، فنجد كلّ لفظة من الجملة الأولى تقابل لفظة من الجملة الثانية على الترتيب (الأولى/الثانية، تدافع/ تهاجم، حياته/موته). أمّا المقابلة الثانية فكانت على النحو التالي (الأولى/الثانية، تفاءلنا/تشاءمنا، الحياة/الموت).

فقد لجأ الكاتب لهذا المحسن البديعي المعنوي لما له من أثر في توضيح المعنى وتأكيد له. من جهة ثانية فقد وظّف صاحب جريدة المنار عنصر المقابلة، وهو بصدد الحديث عن ميلاد جبهة جزائرية للدّفاع عن الحرّيّة، فيقول مقابلاً: " ما كاد المولود الجديد يستهلّ حتى تهلّلت له وجوه ترى فيه بشير خير، وقطبت وجوه ترى فيه نذير شر."⁴ تظهر المقابلة في الجملة الأولى التي تتضادّ مع الجملة الثانية على الترتيب (تهلّلت/قطبت، بشير خير/نذير شر.)، فقد لجأ الكاتب للمقابلة ليوضّح موقف الوطنيين المخلصين الذين رحبوا

¹ - يُنظر: أيمن أمين عبد الغني: الكافي في البلاغة، مرجع سابق، ص 182.

² - الانفطار 13-14.

³ - الأمة: العدد 03- مصدر سابق.

⁴ - المنار: السنة الأولى- العدد 07- مصدر سابق.

واحتضنوا هذا الكيان السياسي الجديد، مثلما وضّح موقف الاستعمار ومن دار في فلكه وسبّح بحمده، والذي كان موقف رفض مطلق لتكتّل جزائري موحد.

وبدوره الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وظّف المقابلة، لكن بصورة أقل من السجع والجناس والطباق، ففي معرض حديثه عن الوقف الإسلامي في الجزائر، الذي امتدّت إليه يدُ الإدارة الاستعمارية بالتّصرف والاستغلال، يُدين هذا التّدخل السافر ويصفه باللّصوصية، فيوظّف المقابلة لتوضيح المعنى للقارئ واستجلاء الغموض فيقول: "إنّ ابتلاعها لأوقافنا الدينيّة والخيريّة ظلم، والظلم لا يدوم، واللّصوصيّة لا تتأتّى إلّا في الغفلة أو النوم أو الظلام، فأما في الانتباه واليقظة والتّور فافتراس تبرّره القوّة والعتو".¹

قابل الكاتب بين (الغفلة/الانتباه) و (النوم/اليقظة) و (الظلام/النور). وعندما يستنكر الإبراهيمي سلوكيات رجال الدّين الرسميين المعيّنين من طرف الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة، الذين لزموا الصّمت اتّجاه قضايا الأمّة والشعب، يعمد إلى المقابلة فيقول عنهم: "لا ينصرون حقّاً ولا يخذلون باطلا".² يقصد الإبراهيمي بذلك أنّهم معاول هدم لأمتهم، عملاء أوفياء للاستعمار.

ويدعو الجزائريين لوحدة الصفّ، واجتماع الكلمة، من خلال الانخراط في العمل السياسي، ليكونوا في مواجهة العملاء الذين يُصنعون على عين المُستعمر الفرنسي فيقول: "إنّ ضعف الضعيف لا يكون- في سنّة الله- إلّا زيادة في قوة القوي".³

فقد قابل الكاتب بين (ضعف الضعيف/قوّة القوي). ليؤكد فكرته الراميّة إلى أنّ قوة المستبد والمُستعمر نابعة في الأساس من ضعف الضعيف لا من جيروت هذا المتسلّط وقوته، وبذلك يوضّح الكاتب عن طريق المقابلة الوسيلة للتخلّص من الاستبداد والاستعمار وذلك من خلال التخلّص من عقدة الخوف في المقام الأول.

و بمناسبة حديثه عن الصحافة الاستعمارية والتي تسير في ركابه، يلجأ الإبراهيمي لتوظيف المقابلة ليبيّن معدن تلك الأقلام المأجورة التي لا همّ لها سوى تشويه قيم الشعب الجزائري،

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 87- 22 رمضان 1368هـ/ 18 /جوليت/ 1949م.

² - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 144- 20 جمادى الأولى 1370هـ/ 26/فيفري/1951م.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 10- 28 ذي القعدة 1366هـ/ 13 /أكتوبر/1947م.

والتناول على مُقدّساته، فيقول: "...وأما الصحافة في الجزائر فإنّها استعمارية خالصة لحما ودما... تأمر في حقّ الأُمَّة الجزائرية بالمنكر، وتنهى عن المعروف."¹

ب/البيان: لغة: معناه الكشف والإيضاح.² أمّا اصطلاحاً: فهو علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه من تشبيه واستعارة ومجاز مرسل وكناية.³

تنوّع البيان في المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث، حسب مقدرة كلّ كاتب على تطويع اللّغة.

01/التشبيه: لغة: التمثيل، يقال: هذا شبه هذا ومثيله. أمّا اصطلاحاً: فهو عقد مماثلة بين أمرين، أو أكثر، قُصد اشتراكهما في صفة أو أكثر، بأداة لغرض يقصده المتكلم.⁴

ومن أمثلة التشبيه في القرآن الكريم قوله تعالى(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت:41). فالله يصور الذين اتخذوا من دونه أولياء، واعتمدوا على ما اختلقوه من آلهة إفكاً، يصورهم الله بصورة تلك العنكبوت اتخذت بيتاً، وبيتها من أوهن البيوت حتى أنّها تقتل شريكها وتخرّب بيتها، فهي في وهن واضح جليّ، وفي ضعف، بل هي عرضة للمخاطر والتلف والهلاك، وهكذا هو حال الذين اتخذوا من دون الله أولياء، وهكذا هو حال من استنصر بغير الله الواحد الأحد، إنه يظن أنه محروسٌ وهو مكشوف، ويجسب أنه مأمون وهو هالكٌ، معرضٌ للفناء، يهوي في مهب الريح ولا ملجأ له من الله إلّا إليه. فطرفا التشبيه في الآية الكريمة هما المشركون وبيت العنكبوت، وأداة التشبيه (مثل)، أمّا وجه الشبه فهو الهوان والضعّة والضعف.

ومن أمثلة التشبيه الوارد في المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث، تشبيه رائع للشيخ عبد الحميد بن باديس وهو بصدد الحديث عن الحرّية ومعانيها الساميّة، فيقول: "...حقّ

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 120- 05 شعبان 1369هـ/ 22/ ماي/ 1950م.

² - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، مرجع سابق، ص 212.

³ - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، دار الكتب العلمية، بيروت،

1424هـ/2003م، ص 05.

⁴ - جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، المرجع السابق، ص 214.

كلّ إنسان في الحرّية كحقّه في الحياة، ومقدار ما عنده من من حياة هو مقدار ما عنده من حرّية، المعتدى عليه في شيء من حرّيته كالمعتدى عليه في شيء من حياته.¹ في هذه الفقرة القصيرة نعر على تشبيهين للكاتب، كلّ منهما يؤكّد مدى عشق الكاتب للحرّية وهيامه بها، ففي التشبيه الأول عدّ ابن باديس حقّ الإنسان في الحرّية كحقّه الطبيعي في الحياة، وبذلك جعل الكاتب من الحرّية مرادفا للحياة، أو بمفهوم المخالفة فإنّ الفاقد لحرّيته فاقد لحياته بكلّ بساطة، وهنا تتجلّى روعة وبلاغة التشبيه إذ يرسل إليك التشبيه من طريق خفي ليرتفع الكلام إلى مرتبة أعلى في البلاغة. فالمشبه هو حرّية الإنسان، المشبه به حياة الإنسان، أداة التشبيه الكاف، وجه الشبه هو أهمّية كلّ منهما فمثلا لا نتصور إنسانا دون حياة كذلك يرفع الكاتب الحرّية إلى مرتبة الحياة فيجعل حياة الإنسان في حكم العدم إذا فقدت حرّيته.

أمّا التشبيه الثاني فيلخص كذلك أهمّية الحرّية في نظر الكاتب، إذ جعل ابن باديس الاعتداء على حرّية الإنسانية بمثابة الاعتداء على حياته، فكلاهما حقّ مقدّس كفلته الطبيعة قبل أن تُقرّره الشرائع البشريّة المتناقضة. وهنا كذلك تتجلّى قيمة التشبيه في إبراز المعاني، وفي رسم الصورة الأدبيّة، وتوضيح فكرة الكاتب.

أمّا مقالات الشيخ أبي اليقظان فكانت كذلك تزخر بتشبيهات عدّة، وفق الموضوع المعالج، ومن ذلك قوله وهو بصدد تصوير حال الأُمّة الجزائرية في بداية استفاقتها من غفوتها: "لقد كانت الأُمّة الجزائرية كعربات القطار متناثرة هنا وهناك، ولكن عصفت عليها الحوادث الهوجاء في ظروف مختلفة فدفعتها إلى بعضها."² فقد شبه الكاتب حال الأُمّة الجزائرية في تفرّقتها وتشرذمها منذ دخول الاستعمار الفرنسي إلى أرض الجزائر، بعربات القطار التي تكون مُفرّقة بعيدة عن بعضها البعض، عديمة الفائدة فلا هي تصلح لنقل المسافرين ولا هي تنفع في البضائع، إلى أن تُجمع إلى بعضها البعض فتُشكّل مقطورات متراصة، حينئذ تكون ذات فائدة، كذلك شأن الأُمّة الجزائرية كانت متفرّقة إلى أن ادلهمت عليها الخطوب فوحدتها بعد فرقة. ولعلّ الكاتب لجأ إلى هذا التشبيه البسيط ليوصل فكرته دون مشقّة لأنّ الأُمّية كانت ضاربة أطناها

¹ - الشهاب: ج 10- مج 11- شوال 1354هـ/جانفي 1935م- ص 547.

² - الأُمّة: العدد 03-مصدر سابق.

ذلك الزمن و يُقنع أكبر عدد من القراء، وربما كان القطار في ثلاثيات القرن المنصرم ممّا يستدعي الانتباه حقاً، بوصفه أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا آنذاك.

ومناسبة حديثه عن سياسة الكيان الصهيوني التوسعية، يلجأ أبو اليقظان مرّة أخرى للتشبيه حتى يُوضّح للقارئ صورة هذا العدو المستعمر فيقول: " كانت فلسطين كنيّها يونس بن متى حين أبق، التقمها حوت اسرائيل، ثمّ التقم هذا الحوت الحوت البريطاني، إلّا أنّ النبي يونس عليه السلام دام في بطن الحوت أربعين يوماً، على ما روته الأخبار، وفلسطين مرّ عليها نيف وعشرون عاماً، وهي مازالت ولم تزل تعاني ما لم يعاناه البشر من صنوف الفتنة وضروب البلاء."¹

عقد الكاتب مُشاهدة بين الحوت الذي التقم سيدنا يونس عليه السلام، وبين الحوت الصهيوني، فالأول لفظ صاحبه بعد أربعين يوماً من التقامه، أمّا الثاني فيبدو أنّه يهضم فلسطين يوماً بعد آخر، والحق أنّ هذا التشبيه الذي اعتمده الكاتب قد أدّى إحدى أهم وظائفه وهي المبالغة في التوضيح، فلاشكّ أنّ القارئ لهذه الفقرة التي صبّها الكاتب في قالب تشبيهي لن يبقى له مجال للشكّ في ذهنيّة الاحتلال الصهيوني القائمة على الأطماع التوسعية. تجلّت أركان التشبيه في المشبّه وهو فلسطين، المشبّه به النبي يونس، أداة التشبيه الكاف، وجه الشبه يُفهم من الكلام وهو كلاهما داهمه الخطر المحدق، غير أنّ سيدنا يونس زال عنه الخطر برحمة من الله بعد أربعين يوماً، أمّا فلسطين فالحوت الإسرائيلي يلتهمها منذ عشرين سنة دون أن تلوح بادرة أمل للنّجاة.

أمّا صاحب جريدة المرشد فنجدّه قد شحّ في توظيف التشبيه، وإن وُجد فهو تشبيه بسيط مُباشر تكاد تغيب عنه اللّمسة الفنيّة، ومن ذلك تشبيهه للتسامح في تركيا مع إقامة الشعائر الدينيّة بعدما كان مُضيقاً عنها، يقول عن السيادة التركيّة التي لا تكتمل إلّا بوجود الخلافة الإسلاميّة: " وهي سيادة تكاد تكون كالشمس إذا طلعت، فلا تترك نجادا ولا وهادا إلّا وسطعت عليه بنورها."²

¹ - الأُمّة: العدد 78 - 1936/06/09م.

² - المرشد: العدد 38 - السنة الرابعة - رمضان 1369هـ/ 16 جوان 1950م.

ولو تصفّحنا جريدة المنار لوجدناها طافحة بالتشبيهات من مختلف الصيغ والأنواع، فمثلا في مقالة بعنوان "ذكرى وعبرة" تناول فيها الكاتب محمود بوزوزو ذكرى أحداث الثامن ماي 1945، واستخلص نتيجة مفادها: "أن الاستعمار شبيه بفرعون لا يؤمن بالحقّ إلّا حين يدركه الغرق"¹.

فقد شبّه الكاتب الاستعمار الفرنسي بالطاغية فرعون، وموظفا أداة التشبيه (شبه)، وهي أداة قليلة الوجود مقارنة بالأداتين "مثل والكاف". ووجه الشبه بينهما أنّ كليهما لا يؤمن بالحقّ إلّا حينما يُضيقّ عليه الخناق، أو عندما يكون في الترع الأخير. وتكمن بلاغة التشبيه هنا في تقبيح المشبه وتوضيح صورته للقارئ.

وعلى سبيل السخرية يوظف محمود بوزوزو التشبيه التمثيلي وهو بصدد الحديث عن الحملة القمعية التي شنتها الشرطة الفرنسية ضدّ المواطنين العزل فاعتقلت منهم من اعتقلت، وشردت من شرّدت، ونفت من نفت، يقول الكاتب: "فالجهاز الشرطي الفرنسي في الجزائر لا يألو جهدا في هذا السبيل فهو في حركة مستمرة ساهر على حفظ هذه الحقوق سهر الأمّ الحنون على ولدها العزيز"³.

فقد شبّه الكاتب حرص الشرطة الفرنسية وسهرها على حقوق الجزائريين بالاعتقال والتشريد، سهر الأمّ الحنون على ولدها العزيز، والملاحظ هنا أنّ المشبه به قد جاء في صورة مفعول مطلق.

وعلى سبيل التشبيه البليغ، يصوّر الكاتب حال الاستعمار الفرنسي القائم على نزعة عنصرية مقيتة، وعريقة، عراقية إبليس في الغواية والعصيان: "لكنّ السلوك في ذاته قد يكون هيّنا لو لم يكن ينمّ عن روح عريقة في الشرّ عراقية الشيطان في العصيان"⁴. تتجلى بلاغة التشبيه هنا في التحقير والتشنيع الذي لحق المستعمر الفرنسي، حينما أنزله الكاتب منزلة

1 - في إشارة إلى قوله عزّ وجل ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

2 - المنار: العدد - السنة الأولى - 03 - 27 رجب 1370هـ / 04 ماي 1951م.

3 - المنار: السنة الثانية - العدد 11 - 26 صفر 1372هـ / 14 نوفمبر 1952م.

4 - المصدر نفسه.

الشیطان الغاوي الضال المضل، وعن هذا الأثر البلاغي الذي يحدثه التشبيه عندما يكون في معرض السخرية أو الذم، أشار عبد القاهر الجرجاني بقوله: "إن كان مدحاً كان أهمل وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم، وإن كان ذمّاً كان مسه أوجع، وميسمه أذع، ووقعه أشد، وحدّه أحد، وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أهر، وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسل، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغيبة، ويصر الغاية، ويبريء العليل، ويشفي الغليل."¹

وعن الإدعاءات الفرنسية الكاذبة، وما تفتريه في المحافل الدولية من حرية ومدنية بسطتها منارة العدل على الجزائريين، والتي تنسفها السلوكات الوحشية لجنودها وشرطتها المسعورة، يقول عن ذلك الكاتب مؤظفاً التشبيه: "إنه ليسوعنا أن تحملنا الشرطة الاستعمارية على التنديد بسلوكها بقدر ما نرى واجبا علينا أن نثبت الحق أمام الادعاءات الفرنسية التي تتحطم أمام هذا السلوك كالأموح على الصخور."²

فقد شبه الكاتب الادعاءات الفرنسية الكاذبة بالأموح التي ترتطم بالصخور الصلبة، فتحيلها إلى رذاذ تلهو به يد الهواء بعدما كانت أمواجاً عاتية تحطم كل ما يعترض طريقها. وتكمن بلاغة التشبيه هنا فضلاً عن الإيضاح والتأكيد على المعنى، في تسفيه الأراجيف الاستعمارية الفرنسية ودحضها حتى كأنها لم تكن.

ويعدّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أكثر كتّاب المقالة السياسيّة توظيفاً للبيان بصفة عامّة، وأبرعهم مقدرة على تطويع اللّغة وتذليلها، فلا نكاد نعر على مقالة تخلو من تشبيهات ومجازات واستعارات وكنائيات، نقولها بالجمع لا بالإفراد، مثلما لا يشعر القارئ بأيّ نوع من التّكلف في أسلوب الكاتب، بل يجد كلّ جملة تُسلّمه إلى الجملة التي تليها في سلاسة لغويّة نادرة.

¹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1412هـ/1991م، ص

.116/115

² - المنار السنة الثانية - العدد 11 - مصدر سابق.

وقد وظّف الإبراهيمي كثيرا من التشبيهات مُتّخذا منها وسيلة لا غاية، ومن أمثلة ذلك وصفه للاستعمار الفرنسي الذي حلّ بهذا الوطن الطّاهر في أول عدد للبصائر من سلسلتها الثانية، فقال: " جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت.¹ شبه الإبراهيمي الاستعمار الفرنسي بالداء الخطير كالطّاعون مثلا، الذي لا يكتفي بضحية واحدة بل ينتشر مع الهواء والماء، فلا يُبقي أثرا للحياة، وإنه لعمري أبلغ تشبيه يصدّق على الاستعمارات أينما كانت، والفرنسي على وجه الخصوص. فقد أصاب الكاتب كبد الحقيقة، لأنّ الاستعمار الفرنسي لما احتلّ الجزائر جلب معه الموت والدّمار، فقتل وشرّد ونفى، وحلّت المجاعة بالجزائريين، فانتشرت الأمراض والأوبئة، ولم يكتف بذلك بل حاول قتل الشعب الجزائري قتلا معنويا، من خلال محاربة دينه، والحجر على لغته، وتنصير أبنائه، والقتل المعنوي أشدّ وأنكى من القتل المادي.

ويلجأ الإبراهيمي إلى التشبيه البليغ، فيجعل المشبّه عين المشبّه به فيقول: " الاستعمار سلٌّ يُحارب أسباب المناعة في الجسم الصّحيح.²

فقد جعل الكاتب الاستعمار وهو المشبّه في منزلة واحدة مع السل هذا الداء الخطير الفتاك وهو المشبّه به، وهنا تكمن بلاغة التشبيه التبليغ، أي لا يعلو أحدهما على الآخر ولا يمكن المفاضلة بينهما، فيتوهّم القارئ أنّهما شيء واحد. وهو الهدف الذي يسعى من وراءه الكاتب. وعندما يتحدّث الإبراهيمي عن ظهور دجل جديد بعد أن كان الدجل الديني يصول ويجول في ربوع الوطن، هذا الدجل هو الدّجل السياسي، يأتي بخمس تشبيهات بليغة متساوقة، الأمر الذي يدلّ على مقدرة الكاتب الفائقة، ومُكنته اللغويّة المطاوعة: " . ثمّ ظهر في الميدان دجالون في صورة أخرى وباسم آخر وهو السياسة، والصنفان يلتقيان في نقطة، وهي أنّ بضاعتها وعود غرّارة، وبروق كاذبة، وخيالات لا حقيقة لها، وأمانى لم تسلك لها وسائلها، ومقدّمات لم تُربط بنتائجها.³

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 01-مصدر سابق.

² - المصدر نفسه.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 47- مصدر سابق.

تتجلى التشبيهات في: المشبه واحد وهو البضاعة، أمّا المشبه به فقد تعدّد وهو على النحو التالي: الوعود، البروق، الخيالات، الأماني، المقدمات. وتكمن بلاغة التشبيه هنا في تقبيح هؤلاء الدجاجلة في نظر القراء والشعب الجزائري وتنفيرهم منهم، حتى لا يقعوا ضحية لأهوائهم وحساباتهم السياسية الضيقة، التي لا تخدم الوطن في شيء بقدر ما تخدم الاستعمار الفرنسي. ويجلّل الإبراهيمي ذهنية الاستعمار، وحيّله للانقضاض على الشعوب الضعيفة، فيقول عنه موظفاً التشبيه: "الاستعمار عمل أوله ختل، وآخره قتل، وشرّ لا بقاء عليه، ثمّ لا بقاء له، ووحش مروّض آخر صرعه رائصه، ومرض آكل يأتي على المكاسب، ومخلوق لئيم، يُدان ولا يفي، وينتقم ولا يشفي، ويستأصل ولا يكتفي، ويُجاهر بالسوأى ولا يختفي، وكنود، أولى الأيدي عنده بالقطع يد مُدّت بإحسان إليه".¹

شبه الكاتب الاستعمار بذلك المخادع الذي يختلّ ضحيته فيأخذها على حين غرّة، حتى إذا ما تمكّن منها شرّد بها وقتلها، وشرّ لا بقاء عليه لا ينبغي التعايش معه فالكاتب يدعو إلى الثورة عليه واجتثاثه من جذوره، ووحش مروّض وإن بدت منه الوداعة والألفة لكن سرعان ما تُغالبه غريزته الحيوانية فتغلبه فيفترس كلّ ما يجده ومسك الختام يكون بمروّضه، ولا يحفظ هذا الاستعمار جميلاً بل يعضّ ويقطع اليد التي أحسنت إليه.

لا نعتقد أنّ الإبراهيمي قد ترك شيئاً لهذا الاستعمار يوراري به سواته، فقد كشفه على حقيقته، وأسقط عنه الأفضة الزائفة الخدّاعة. وظّف الإبراهيمي ستة تشبيهات بليغة، وتكمن بلاغة التشبيه هنا في التخييل وتوليد الصور التي جاء بها الكاتب للاستعمار الفرنسي.

ولمّا يتحدث الإبراهيمي عن الانتخابات، يعمد إلى المقارنة موظفاً التشبيه، فيقول: "الانتخابات في نظر الأمم الحية كميّدان المصارعة الرياضية، لا ينتهي المتصارعان حتى يتصافحا على الوفاء للفنّ، أمّا عندنا فهي مجال خصام، تبتدئ بالسباب، وتنتهي بالعداوة".²

فقد شبه الكاتب الانتخابات في نظر الأمم المتطورة بحلبة المصارعة، التي ينتهي فيها الصراع بمجرد إشارة الحكم لنهاية المنازلة، فيتصافح المتنافسان، وتعلو الروح الرياضية على كلّ شيء، لا أحقاد ولا ضغائن، في حين أنّ الانتخابات في الجزائر مجال للتفنّن في السباب، وكيّل التهم

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - السنة الثالثة - العدد 121 - 12 شعبان 1369هـ / 29/ماي / 1950م.

² - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 10 - مصدر سابق.

جزافاً، وينتهي الأمر بالعداوة والقطيعة، وهو أمر مناف لروح الديمقراطية والمنافسة الشريفة. تتجلى بلاغة التشبيه في توضيح المعنى للقارئ من خلال المماثلة بين الانتخابات والمنازلة الرياضية.

ويوظف الإبراهيمي تشبيهاً رائعاً، بمناسبة حديثه عن علاقة فرنسا بالإسلام، ومحاولتها المتكررة لتدجينه، وإدخاله بيت الطاعة، مرةً بالتضيق على رجال الحركة الإصلاحية، ومرةً ثانية بحجز أملاك الوقف، وثالثة بمحاولة تميجه من خلال إنشاءها للجنة ((فرانس - إسلام)).

يقول الإبراهيمي عن هذه اللجنة موضحاً استحالة الجمع بين فرنسا والإسلام: "والإسلام لا يسمح أن يُضاف إلى فرنسا، ولا أن تُضاف هي إليه... والإسلام وفرنسا كالزيت والماء، لا يمتزجان إلا في لحظة التحريك العنيف، ثم يعود كلٌّ منهما إلى سنته من المباينة والمنافرة."¹

تشبيه مرسل مفصّل، حيث شبه الكاتب الإسلام في علاقته مع فرنسا، بالزيت والماء، اللذين لا يُمكنهما أن يمتزجا مع بعضهما البعض، وإن حدث ذلك فلا يكون إلا عند التحريك العنيف، لكن سرعان ما يعود كلٌّ منهما إلى أصله من المنافرة والمباعدة. وقد لجأ الكاتب إلى معارفه العلمية ليؤكد على فكرته ويوضحها للقارئ، وليُبيّن الذين يحاولون تدجين الإسلام وتميجه.

02/المجاز: لغة: مشتق من جاز الشيء يُجوزه، إذا تعدّاه. أمّا اصطلاحاً: فهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقةٍ مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي.²

والمجاز بنوعيه مرسل وعقلي، يساعد على بلاغة الأسلوب وجماله، وحسن وقعه في نفوس المتذوقين، ناهيك عن الإيجاز والتشويق. كقوله تعالى (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم)³ أي يقولون بألسنتهم، فعبر بالكل وأراد الجزء.

وقد وظّف كاتب المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث المجاز بنوعيه، لكن بشكل أقل مقارنة مع باقي ألوان البيان، كالتشبيه والكناية والاستعارة.

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 114 - مصدر سابق.

² - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، مرجع سابق، ص 253.

³ - الآية: آل عمران 167.

ومن نماذج المجاز الذي نعثر عليه عند كُتّاب المقالة السياسيّة، مجاز عقلي ورد في مقالة للشيخ عبد الحميد بن باديس، بمناسبة حرب الريف المغربيّة، يقول الكاتب: " شاءت الأقدار أن يبرز العدد الأول من جريدة المنتقد ونار الحرب الريفيّة تشتعل لظاها، ويستطير شررها."¹ فقد أسند الكاتب الفعل شاء للأقدار أي لغير فاعلها الأصلي، في حين أنّ المشيئة لله عزّ وجل. وعلى سبيل المجاز المرسل، يقول أحد كُتّاب جريدة المنتقد في موضع آخر: " إنّ لفرنسا ما يناهز القرن في الجزائر، ولا أحد ينكر مالها من الأيادي في نشر الأمن وعمارة الأرض، وجميع وجوه الرّقي الإقتصادي، غير أنّها ويا للأسف ليست لها تلك الأيادي ولا نصفها في تحسين حال الأهالي العلمي والأدبي."²

كرّر الكاتب لفظة الأيادي مرّتين بمعنى الفضل على سبيل المجاز المرسل، والعلاقة سببيّة، إذ أنّ اليد سبب في المنح كما أنّها سبب في المنع، وتكمن بلاغة المجاز هنا في الإيجاز. وفي مقالة بعنوان "فلسطين الدّامية تنتصر لنفسها حين خذلها العالم" يوظّف الشيخ أبو اليقظان، مجازاً مرسلًا، فيقول: " اتفقت كلمة زعماء العرب على توجيه وفد لمفاوضة لندرة (لندن) في تغيير سياستها الصهيونيّة بالبلاد."³ فقد ذكر الكاتب كلمة وأراد بها الرأي الجماعي لزعماء العرب، فذكر الجزء وأراد الكلّ على سبيل المجاز المرسل. هنا تكمن بلاغة المجاز في المهارة في تخير العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي .

ويوظّف محمود بوزوزو المجاز العقلي وهو بصدد الحديث عن الحرب العالميّة الثانيّة التي وقعت في فخّها الدول الغربيّة، يقول الكاتب: " في سبتمبر 1939 جنّ جنون الغرب بعدما هدأ عشرين سنة، إثر خروجه من بحر الدماء الذي غمر به الأرض."⁴ أسند الكاتب الفعل جنّ إلى المصدر وليس إلى فاعله الأصلي وهم رجال الغرب، فالعلاقة مصدرية في قوله جنّ جنونه إذ الجنون لا يُجنّ. وتجلّى بلاغته في الإيجاز.

¹ - المنتقد: السنة الأولى- العدد 01- مصدر سابق.

² - المصدر نفسه.

³ - الأمتة- العدد 78- مصدر سابق.

⁴ - المنار: السنة الثانية- العدد 03- 13 شعبان 1311هـ/09 ماي 1952م.

وكعادته الشيخ البشير الإبراهيمي، أغزر الكتاب مادةً مجازيةً في مقالاته التي دبّجها يراعه المبدع، فقد نوع بين المجازين المرسل والعقلي، تماشياً مع طبيعة الموضوع المتناول، ومن أمثلة المجاز المرسل قوله: "واسأل الحقيقة تجبك عن نفسها."¹

تجوّز الكاتب بالسؤال للحقيقة، والمراد النَّاسُ أو ذوو العقول الراجحة العارفون بحقيقة الأمر. وتظهر علاقة المجاز هنا على أنّها محلّية أو مكانية. ونظير هذا قوله عزوجل (وسأل القرية التي كنّا فيها والعرير التي أقبلنا منها). فالمعنى المراد اسأل أهل القرية لأنّ العير لا تعقل حتى نوجّه لها السؤال ونتنظر الإجابة منها.

وفي سياق متصل فضح الإبراهيمي علماء البلاط الذين يخشون عذاب الاستعمار الفرنسي ويرجون ثوابه، فلا تنفك ألسنتهم تُسبّح بحمده ليل نهار، هؤلاء العلماء الذين كان من بينهم كبيرهم المفتي العاصمي، والذي قلبه الإبراهيمي على سفود سحرّيته حتى نضج جلده، وجعل منه أضحوكة يتندّر بها الصّبيان في الأزقة، يقول الإبراهيمي واصفا علاقة الحكومة الاستعمارية بهم: "هذا ما يقوله لسان الحكومة لصنائعها من أمثال العاصمي، حين تريدهم على تنفيذ رغائبها الاستعمارية."²

ذكر الكاتب اللسان على سبيل المجاز المرسل، وإثما أراد بذلك اللّغة، لأنّ اللسان هو الآلية التي يتمّ بها الكلام، لذلك فالعلاقة آليّة. وتكمن بلاغة المجاز هنا في الإيجاز والاختصار. وحينما يتحدّث الإبراهيمي عن الشاب الجزائري، كما يتمثله هو، شاباً نافعا لوطنه، حاملاً لهمّ أمته، مدافعاً عن لحمى، متشبّعا بالقيم الإسلامية، التي تجعله مؤمناً بريادة وطنه وتخليصه من براثن الاستعمار الغاصب، فيقول: "أتمثله مجتمع الأشد على طراوة العود، بعيد المستمر على ميعة الشباب، يحمل ما حمّل من خير لأنّ يد الإسلام طبعته على الخير."³

فقد ذكر الكاتب اليد وأراد بها الفضل والمعروف، لأنّ اليد سبب في الفضل والتّعمة، في المنع والعطاء، فالجواز هنا مرسل وعلاقته سببية.

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية - العدد 95- 23 محرم 1369هـ/ 14/نوفمبر/ 1949م.

² - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 64- مصدر سابق.

³ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 06- 27 شوال 1366هـ/ 12/سبتمبر/ 1947م.

أمّا المجاز العقلي فقد وظّفه الكاتب بكثرة، ومن أمثلة ذلك قوله: "وسمع الاستعمار لأوّل مرّة في حياته بهذه الديّار نعمة جديدة لم تألفها أذناه، تدعو إلى الحقّ في قوّة، وتطالب بالإنصاف في منطق".¹ أسند الكاتب الفعل (سمع) لغير فاعله الأصلي، والمراد هو أعوان وجنود الاستعمار. وتتجلّى بلاغة المجاز هنا في الإيجاز. فبدلاً من أن يقول: ((سمع أعوان وجنود الاستعمار)) اختصر الكلام بقوله ((سمع الاستعمار)).

وفي وصفه للعروبة يوظّف الإبراهيمي المجازة العقلي فيقول: "إنّ العروبة جذم بشري من أرسخها عرقاً، وأطيبها عذقا، عرفه التاريخ باديا وحاضرا".² أسند الكاتب الفعل عرف إلى التاريخ وهو ليس الفاعل الأصلي، في حين أنّ الفاعل الأصلي هو المؤرّخون أو الدّارسون الذين كتبوا التاريخ ودوّنوا أحداثه.

أمّا جريدة المجاهد فقد كتبت مقالة بعنوان "أخيراً أذعنّت فرنسا للتفاوض"³ فهذا العنوان يحمل مجازاً عقلياً، إذ أسند الكاتب فعل الإذعان إلى فرنسا، أي بمعنى إلى غير فاعله الأصلي إذ لا يمكن لفرنسا البلد والجغرافيا أن تُذعن وإتّما رجال السياسة والحكم آنذاك، وفي مقدمتهم الجنرال شارل ديغول الذي ماطل كثيرا قبل أن يُذعن ويُرسل وفده المفاوض ليجلس مع وفد جبهة التحرير الوطني ندّاً لند. وتكمن بلاغة المجاز في الإيجاز.

وعلى سبيل المجاز العقلي دائماً تنشر جريدة المجاهد مقالا تحت عنوان "المشكلة باقيّة" تناول فيه الكاتب حركة التمرد التي شنتها زمرة من غلاة الضبّاط ضدّ الجنرال ديغول، ليحجروه على التنحي أو سحق الثورة الجزائرية، يقول الكاتب: "...ولكنّ دي غول يرتكب خطأً ستقنعه الأيام بفداحته".⁴ فقد أسند الكاتب الإقناع للأيام ونحن نعلم أنّ الأيام لا يمكن لها أن تُقنع، وإتّما هي زمن حصول الإقناع، والمراد من قول الكاتب أنّ حوادث الأيام كفيّلة بإقناع ديغول وكشف سفهه وأوهامه. ومادام أنّ الأيام جزء من الزمان فالجواز هنا عقلي علاقته زمانية.

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 01- مصدر سابق.

² - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 02- 14 رمضان 1366هـ/ 01/أوت/1947م.

³ - المجاهد: العدد 92- 11 شوال 1380هـ/ 27/مارس 1961م.

⁴ - المجاهد: العدد 61- 10 شعبان 1379هـ/ 08 فيفري 1960م.

03/ الاستعارة: لغةً: من قولهم استعار المال: طلبه عارية. أمّا اصطلاحاً: فيه استعمال اللفظ في غير ما وُضع لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل له، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي¹.

وقد وردت الاستعارة في المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث بكثرة، لاسيما المكنية منها، ومن أمثلة ذلك ما جاء في مقالة للشيخ عبد الحميد بن باديس وهو بصدد الحديث عن بعض الوشاة من الجزائريين الذين سعوا لدى الاستعمار للتضييق على جمعية العلماء المسلمين، وكبح نشاطها التربوي والإصلاحي، عن هؤلاء يقول ابن باديس: "وهال الذين اعتادوا الجبن من الرؤساء، أو اعتادوا الجمود من الأتباع صرامتها، ومن هذه الطوائف ومثلها تكونت حزمة تُنصبها العداة وتُحاربها بالافتراء."²

شبه الكاتب المجموعة القليلة من هذه الطائفة بالحزمة، والحزمة تطلق على الشيء القليل من الحطب أو القصب وغيره، فحذف المشبه وصرّح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. فزيادة على توضيح المعنى وتأكيده، نجد أثراً آخر وهو الإيجاز، فقد أشار الكاتب إلى المعنى الكثير باللفظ القليل.

ويلجأ ابن باديس إلى الاستعارة المكنية، وهو بصدد الحديث عن الود العميق بين الانتداب البريطاني بفلسطين، وعصابات الصهاينة، فنتج عنهما الاحتلال الغاشم لفلسطين أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم، يقول ابن باديس: "تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة، فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل."³

فقد شبه الكاتب كلاً من الاستعمار الإنكليزي والصهيونية العمياء، بزوجين تمّ عقد قرانهما، فأنجبا ولداً وهو الطمع، حذف الكاتب المشبه به وهو ((الزوجان)) وأشار إليه بأحد لوازمه وهو الفعل تزاوج، مثلما حذف المشبه به في الاستعارة الثانية وهو الولد وأبقى على

¹ - جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: مرجع سابق، ص 264.

² - المنتقد: العدد 14-12 ربيع الأول 1344هـ/ 01 أكتوبر 1925م.

³ - الشهاب: ج 06- مج 14- جمادى الثانية 1357هـ/ أوت 1938م- ص 307.

قرينة تدلّ عليه وهو الفعل أنتجا، ومعلوم بالضرورة أنّ الولد من نتائج الزواج. فالاستعارة هنا مزدوجة. ويتجلّى أثرها في توضيح وتأكيّد المعنى.

ويتحدّث الشيخ أبو اليقظان عن الحن التي حلّت بالأمة الجزائرية، فوحدتها بعد فرقة وشتات، يقول الكاتب: "لقد كانت الأمة الجزائرية كعربات القطار متناثرة هنا وهناك، ولكن عصفت عليها الحوادث الهوجاء في ظروف مختلفة فدفعتها إلى بعضها".¹

فقد شبّه الكاتب الحوادث بالرياح العاتية، فحذف المشبّه به وهو ((الرياح)) وأبقى على قرينة تدلّ عليه وهي الفعل عصف، وهذا على سبيل الاستعارة المكنية. وهنا تتجلّى بلاغة الاستعارة من ناحية اللفظ أنّ تركيبها يدل على تناسي التشبيه، ويحملنا عمدا على تخيل صورة جديدة تنسينا ما تضمّنه الكلام من تشبيه خفي مستور.

ومناسبة حديثه عن فلسطين وما كانت عليه من رغد العيش والسلام بين الديانات الثلاث، وهي تحت ظلّ الإسلام، يوظّف أبو اليقظان الاستعارة المكنية فيقول: "كانت فلسطين في عهد الإسلام تتمتع بظلال السلم، وتتغذى من غذاء العدل والمساواة بأوفر نصيب، عاش في كنفه المسيحي والإسرائيلي، مكرّمين في جنب المسلم العربي، صاحب البلاد بدون أدنى عسف أو إرهاب".²

فبالإضافة إلى التشبيه البليغ الوارد في صورة مضاف إليه ((ظلال السلم))، نجد الاستعارة المكنية مجسّدة في قوله: "تتغذى غذاء العدل والمساواة" فقد شبّه الكاتب فلسطين بكائن حيّ يتغذى، فحذف المشبّه به وهو الإنسان أو الكائن الحي بصفة عامّة وأبقى على قرينة تدل عليه وهي الفعل تغذى على سبيل الاستعارة المكنية، كما لا يخفى علينا أنّ الكاتب شبّه العدل والمساواة بالغذاء.

تتجلّى بلاغة الاستعارة هنا في تجسيد المعنوي في صورة مادي محسوس. ويصوّر محمود بوزوزو سياسة الاستعمار الفرنسي مع الدين الإسلامي فيقول: "النظام الاستعماري يهدم الحقائق الروحية، بإفساده الطبع البشري السليم، وقضائه على مواهب الخير

¹ - الأمة: العدد 03- مصدر سابق.

² - الأمة: العدد 78- مصدر سابق.

والاستعدادات للصالح.¹ شبه الكاتب الجانب الروحي في الإنسان بالشيء المادي أو بالبناء الذي يُهدم، فحذف المشبه به وأبقى على قرينة تدلّ عليه وهي الفعل "يهدم" على سبيل الاستعارة المكنية. وتتجلى بلاغتها في تجسيد المعنوي في صورة مادي محسوس.

وبمناسبة تأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها، يوظف بوزوزو استعارة تصريحية، فلا يسمي هذه الجبهة السياسية باسمها، وإنما يسميها بالمولود الجديد الذي جاء في سرية تامة، الأمر الذي يبعث على الفرح والاندهاش، يقول الكاتب: "وقد كان يبدو شيء من الدهشة لهذا المولود الجديد، وذلك لأنه جاء مفاجأة، إذ لم يقع له ذكر في الصحف ولا في الألسنة قبل ظهوره، ولم تذكر الصحافة شيئاً عن المساعي في سبيله حتى بشرت بولادته."²

شبه الكاتب هذا الحزب السياسي بالمولود الجديد، فحذف المشبه الذي هو الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها، وصرّح بالمشبه به وهو المولود على سبيل الاستعارة التصريحية. وتتجلى بلاغتها هنا في التوضيح والإبانة عن المعنى.

وفي نفس السياق، يحدّد الكاتب فئة المتشائمين الذين ساءهم وجود هذا المولود السياسي في الساحة الجزائرية حينذاك، فيقول مجيباً عن سؤال مفاده من هو المتشائم بهذا الوليد السياسي الجديد: "المتشائم هم الخونة المجرمون الذين ألقوا بضمائرهم في الأسواق الاستعمارية يبيعونها بأبخس الأثمان."³ شبه الكاتب ضمائر الخونة بالسلعة التي تباع وتُشترى، فحذف المشبه به وهو البضاعة أو السلعة، وأشار إليه بأحد لوازمه وهو الفعل ((باع))، على سبيل الاستعارة المكنية، وتجسّد بلاغتها في تجسيد المعنوي في صورة مادي محسوس وتوضيح المعنى وتأكيده.

ويعدّ الشيخ البشير الإبراهيمي أكثر الكتّاب توظيفاً للبيان في مقالاته السياسية، ولعلّ ذلك راجع إلى تأثره بأسلوب القدامى. ومن بديع استعاراته وصفه للانتخابات في الجزائر زمن الاستعمار الفرنسي بقوله: "أما في الجزائر فالانتخابات منذ سنت لعبة لاعب، وسخرية ساخر، ورهينة استبداد، ولدت شوهاً ناقصة". فقد شبه الإبراهيمي الانتخابات ((بالجنين)) الذي يولد مُشوّهاً، فحذف المشبه به وأشار إليه بأحد لوازمه وهو الفعل ((وُلدت)). وتتجلى بلاغتها هنا

¹ - المنار: السنة الأولى - العدد 04 - 15 شعبان 1370هـ / 21 ماي 1951م.

² - المنار: السنة الأولى - العدد 07 - 13 ذي القعدة 1370هـ / 15 أوت 1951م.

³ - المصدر نفسه.

في توضيح المعنى والإبانة عنه، وتجسيد الشيء المعنوي في صورة شيء مادي محسوس. فالانتخابات في زمن الاستعمار وإن بدت صورة من صور الديمقراطية كما تدعي فرنسا، إلا أن يد التزوير والتهديد تطلها من أول يوم، فيكون حالها كحال ذلك الجنين الذي لا تكتمل فرحة أهله به لأنه وُلد مشوّهاً.

ويُشير الإبراهيمي إلى أن الاستعمار الفرنسي هو أساس الفرقة بين الجزائريين، وأنه يعمل ليلاً نهاراً حتى لا يجتمع كلمة أبناء الوطن، وأنه كلّما أحس بجديّة في توحيد صفوفهم إلّا وسارع لزرع بذور الشقاق والخلاف بينهم، يقول الكاتب: "والحكومة الاستعماريّة هي زارعة الخلاف بيننا، وهي التي تسقيه كلّما ذبل".¹ فقد شبه الإبراهيمي الخلاف بالبذور التي تُزرع، فحذف المشبّه به وأشار إليه بأحد لوازمه وهو الفعل ((زرع)) على سبيل الاستعارة المكنية، مثلما شبه الخلاف أيضاً بالزرع الذي يذبل من شدّة العطش فيتعهده المزارع بالسقي، فحذف المشبّه به وهو النبات أو الزرع وأبقى على قرينة تدل عليه وهي الفعل ((ذبل)). وهذا دائماً على سبيل الاستعارة المكنية، وهنا نجد استعارتين مكنيتين مزدوجتين. وتتجلى بلاغتهما في تقوية المعنى وتوضيحه للقارئ. لذلك كانت الاستعارة أبلغ من التشبيه البليغ لأنه لا يزال فيه التشبيه منوّياً ملحوظاً بينما في الاستعارة فالتشبيه منسي محجود.

وحينما يتحدّث الإبراهيمي عن الإدارة الاستعماريّة وطريقة تحضيرها لعملاء لها على المقاس، سواء أكانوا علماء دين أو سياسة، فإنّ لها أصولاً في صنعهم وتحضيرهم، يقول الإبراهيمي ساخراً: "في الإدارة الجزائرية العليا مطبخة-ليست كالمطبخ- تُطبخُ فيها الآراء والأفكار في كلّ ما دقّ وجلّ من شئون المسلمين.... في هذا المطبخ طُبّخ التقرير العاصمي ملفوفاً بتوابله، وفيه ولد محفوفاً بقوابله".²

فقد شبه الإبراهيمي هذا التقرير بالطعام المتخّم بالتوابل ولا شكّ أنّ هذه التوابل مؤامرات ودسائس، فحذف المشبّه به وهو الطعام وأبقى على قرينة تدلّ عليه وهي الفعل طُبّخ على سبيل الاستعارة المكنية. وتتجلى بلاغة الاستعارة في المبالغة في المعنى وتأكيده. فالتوابل والبهارات المزوجة بالطعام يقصد بها كثرة الدسائس والمؤامرات التي تضمّنها تقرير العاصمي، هذا التقرير

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 176-11 ربيع الأول 1371هـ/10/ديسمبر/1951م.

² - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 58- السنة الثانية- 27 محرم الحرام 1367هـ/29/نوفمبر/1948م.

الذي يصفه إبراهيمي في موضع آخر فيقول عنه بأسلوب ساخر: "العاصمي في تقريره المملوء بالمنطق الأعوج، المبني على التاريخ الأعرج".¹ في الفقرة استعارتان مكنتان مزدوجتان، إذ شبه الكاتب المنطق بالعود الأعوج فحذف المشبه به وأبقى على قرينة تدلّ عليه وهي صفة الإعوجاج، أمّا الثانية فقد شبه الكاتب التاريخ بالإنسان الذي به عرج، فحذف المشبه به وأشار إليه بقرينة تدلّ عليه وهي صفة العرج. وتتجلى بلاغتهما في تحقير هذا التقرير ومُعدّه، المتختم بالأباطيل والأراجيف.

أمّا جريدة المجاهد فإلى جانب هدفها المسطرّ وهو بثُّ روح الوعي في أوساط الجماهير الشعبيّة، لاحتضان الثورة والالتفاف حول ممثّلها الشرعي والوحيد، وهو جبهة التحرير الوطني، فإنّ أسلوب كتابها لم يعدم البيان بمختلف صوره في مقالاتهم السياسية، ومن أمثلة ذلك الاستعارات الكثيرة التي لا تكاد تخلو منها مقالة من المقالات السياسية الثوريّة، ومن ذلك وصف الكاتب للإدانة الدوليّة التي كانت تتعرّض لها فرنسا الاستعماريّة بسبب جرائمها الوحشية التي ارتكبتها زبانيّتها في حقّ شعب أعزل، يقول الكاتب: "لقد أصبحت فرنسا تمثّل أمام الأمم المتحدة في كلّ عام على كرسي الاتّهام".² فقد شبه الكاتب الاستعمار الفرنسي بالجرم الذي يمثّل للمحاكمة، فحذف المشبه به وأبقى على قرينة تدلّ عليه وهي الفعل ((تمثّل)) و((كرسي الاتّهام)) وهذان اللفظان من لوازم محاكمة المجرمين. وتتجلى بلاغته في الإبانة والتوضيح وتجسيد المعنوي في صورة مادي محسوس.

وفي افتتاحيّة لجريدة المجاهد نُلفي تداخلا لاستعارات مُتعدّدة، يشرح الكاتب سياسة ديغول القائمة على طول النفس لإضعاف الثورة، لكنّ محاولته الدنيئة كان مآلها الفشل الذريع: "إنّ دي غول كان يظنّ أنّه يستطيع أن يتلاعب بثورتنا الوطنيّة، ويُدحرجها شيئا فشيئا نحو الاستسلام، ويمدّ إليها يده لتمدّ إليه عنقها، واستمرّت المحاولة ما لا تقلّ عن ستة أشهر، أظهر فيه دي غول صبورا وطول أناة في انتظار أن تقبل الفريسة مستسلمة وتضع مصيرها بين مخالبه".³

¹ - البصائر: السلسلة الثانية - العدد 75 - مصدر سابق.

² - المجاهد: العدد 54 - 01 نوفمبر 1954. عدد خاص.

³ - المجاهد: العدد 64 - 23 رمضان المعظم 1379هـ / 21 مارس 1960م.

فقد شبه الكاتب الثورة الجزائرية بالكرة التي تتدحرج، فحذف المشبه به و أبقى على قرينة دالة عليه وهي الفعل ((تدحرج)) وفي الاستعارة الثانية شبه الثورة الجزائرية بالإنسان الذي هو على شفا الهاوية فيمدّ عنقه ليبحث عن طوق النجاة، على سبيل الاستعارة المكنية، أما الاستعارة الثالثة فقد شبه الثورة القضية الجزائرية بالفريسة، حذف المشبه وصرّح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، أما الاستعارة الأخيرة فقد شبه الكاتب الاستعمار بالوحش المفترس، فحذف المشبه به وأبقى على قرينة تدلّ عليه وهي لفظة "مخالبه" وهذا على سبيل الاستعارة المكنية. وتتجلى بلاغة هذه الاستعارة في تأكيد وتوضيح المعنى والإبانة عليه للقارئ، مثلما جسدت المعنوي في صورة مادي محسوس.

04/ الكناية: لغة: ما يتكلم به الإنسان ويريد غيره. أما اصطلاحاً: لفظ أريد به غير معناه الذي وُضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته نحو زيد طويل النجاد، تريد بهذا التركيب أنه شجاع عظيم، لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول صاحبه، ويلزم من طول الجسم الشجاعة عادة.¹

والكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وأسلوب من أساليب البيان، لأنها تؤدي المعنى الكبير في قليل من اللفظ، فتُضفي على الإبداع حسناً وبهاءً، وتزيد الصورة وضوحاً، وتُجلى بلاغتها في الإتيان بالمعنى مصحوباً بالدليل عليه في إيجاز وتجسيم.

وكباقي ألوان البيان السابقة، فقد وظّف الكتاب الجزائريون الكناية في مقالاتهم، تبعاً للموضوع المعالج، ومن أمثلة ذلك ما ورد في مقالة يردّ فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس على جملة من الافتراءات كان قد كالمها أحد النواب، لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يقول ابن باديس: "لو كان هذا الرجل وجه على الجمعية أضعاف ما وجه عليها من تم، واعتدى عليها بأضعاف ما اعتدى به عليها من سبّ واذاية من عند نفسه، وفي مجلس من أي مجالس مثله - لكان مُحققاً من الجمعية أنها لا تسمعه، ولو سمعته لكان حقاً عليها أن لا تقول له إلاّ سلاماً."² فقد كنى ابن باديس على هذا النائب بقوله "لا تقول له إلاّ سلاماً" ومعلوم أن هذا الكلام لا يُقال إلاّ للجهال من الناس. مصداقاً لقول تعالى ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ ﴾. فلم

¹ - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، مرجع سابق، ص 297/295.

² - الصراط السوي: السنة الأولى - العدد 01 - 21 جمادى الأولى 1352هـ / 11 سبتمبر 1933م.

يُصرِّح الكاتب بوصف هذا النائب بأنه جاهل، وإّما لجأ إلى الكناية باعتبارها أبلغ بيان من التصريح.

ويوظّف أبو اليقظان بدوره الكناية، وهو بصدد الحديث عن محنة فلسطين وما تعرّضت له من تشريد وتهجير من طرف عصابات الصهيونية، يقول أبو اليقظان: "لئن اضطرب العالم وهاج وماج، فما ينبغي لفلسطين- وهي مهبط الوحي ومقرّ رسل السلام من الله إلى سائر الأنام- أن تُمسّ بسوء أو تُصاب بأذى. لئن اتجهت عيون الاستعمار التّارية إلى بلاد الله الآمنة المطمئنة فأقضت مضجعها، وأذاقتها لباس الجوع والخوف...."¹. تتجلى الكناية في قول الكاتب ((مهبط الوحي)) ((مقرّ الرسل)) وهما كنيّتان عن موصوف يقصد به فلسطين. أمّا ((أقضت مضجعها، وأذاقتها لباس الجوع والخوف)) فهما كنيّتان عن صفتي الرّعب والفرع التي أحدثتها الاستعمار في مختلف الديّار التي حلّ بها. وتتجلى بلاغتها في توضيح المعنى وتأكيده.

وفي خضمّ المعركة الانتخابية الحامية الوطيس- هاجمت صحيفة الرّشاد الطرقيّة صحيفة الوفاق التابعة لفرحات عباس، واتهمتها بالكذب واستغلال أصوات الناخبين الفقراء، لتحصيل الامتيازات والمناصب، يقول أحد كتّاب الجريدة: "...ولأجل كسب المعركة الانتخابية كذلك قامت بأدوار كثيرة، ومساعي عديدة، بغية نهب أصوات الضعفاء والمساكين الذين وعدوهم وعودا عرقوية... الأمة قد تفتّنت فأصبحت لا تثق إلّا بمن يأتي من مأتاه الطبيعي، وبدون استخدام سلايم من الدين، ورجال الدين والمسلمين."²

تظهر الكناية الأولى في قول الكاتب " وعود عرقويّة" نسبة عرقوب الوارد في المثل العربي ((أخلف من عرقوب)) والذي يُضرب به المثل في إخلاف الوعد. وهنا كنى الكاتب عن صفة إخلاف الوعد من طرف رجال السياسة أثناء حملاتهم الانتخابية، بالإشارة إلى هذا المثل العربي. وتجلّى بلاغة الكناية هنا في التعبير عن المعنى مصحوبا بالدليل.

1 - الأمة: العدد 78. مصدر سابق.

2 - الرّشاد: العدد 42- 20 ربيع الثاني 1358هـ/ 22 ماي 1939م. نقلا عن صحف التصوف الجزائرية من 1920م إلى 1955م. مرجع سابق، ص 123.

أمّا الكناية الثانية في قوله " سلايم من الدين " فهذه كناية عن استغلال الدين واتخاذ مطية لقضاء المآرب الشخصية، وللارتقاء في المناصب، وتحصيل الألقاب والامتيازات. ومن كنايات ابن باديس، قوله وهو بصدد الحديث عن جهوده في إصلاح الأمة الجزائرية، وردّها إلى تعاليم دينها الصحيحة، وغرس مفهوم الوطنية الحقّة في نفوسها، يقول ابن باديس: " إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما، إنهما لواجبات.. وإنني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام والقرآن، هذا عهدي لكم. وأطلب منكم شيئاً واحداً وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام ولغة القرآن." ¹

عبّر الكاتب عن إفئائه زهرة شبابه في خدمة العربية والإسلام بلفظة سوادي أي سواد شعري، وسواد الشعر مُصاحب في العادة لفترة الشباب، مثلما كنى عن وقف فترة كهولته بلفظة بياضي أي بياض شعره ولحيته، والبياض دليل تقدّم قطار العمر والسن. وهذه قمة التضحية في سبيل المبادئ والوفاء لها، وأي تضحية أكبر من أن يُضحى الإنسان بشبابه وكهولته وشيخوخته في سبيل الدفاع عن مقومات الأمة وثوابتها، في حين ينشغل خلقٌ كبير في فترة الشباب باللّهو واللّهث وراء عرض الدنيا. وتتجلّى بلاغة الكنايتين في تقريب المعنى للقارئ مصحوباً بالدليل.

وكعادته دائماً فإنّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أكثر الكتاب توظيفاً للكناية، ليس لغرض جمالي فحسب، بل لعدّة أغراض لعل أهمّها محاولة إقناع القارئ وتقريب المعنى منه، ومن أمثلة الكنايات التي تُحقّق غرض الإقناع وصفه للحكومة الاستعمارية الفرنسية التي تحاول حجب الحقائق الساطعة البيّنة، والتي لا تخفى إلّا على أعمى البصيرة لا البصر، يقول الإبراهيمي: " فقد بُلينا بحكومة، جُمع فيها ما تفرّق في غيرها... وقد بلوناها في جميع حالاتها وألوانها، فإذا هي هي، تُغطّي الشمس بالغربال." ². لجأ الكاتب للتعبير عن محاولات الاستعمار لحجب الحقيقة الساطعة وإخفائها إلى الكناية عن صفة المراوغة والمماطلة التي درجت عليها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في معاملتها للشعب الجزائري ومطالبه الشرعية. وتتجلّى بلاغة الكناية هنا في تقريب

¹ - الشهاب: الجزء 07- مج 15. رجب 1358هـ/ أوت 1939م.

² - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 87- مصدر سابق.

المعنى للقارئ مصحوبا بالدليل فمثلا لا يمكن حجب أشعة الشمس الساطعة بالغربال ذي الثقوب المتناسقة، لا يمكن كذلك للاستعمار أن يتحجج بأعذار واهية أمام استماتة الجزائريين في الدفاع عن هويتهم وحقهم المشروع في فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الاستعمارية، وحقهم في التصرف في أوقافهم شعائرهم.

وفي موضع آخر يُشير الإبراهيمي إلى التناحر بين الأحزاب المصريّة، والتناز باللقاب، وهذا كلّه ممّا يخدم الاستعمار، ويجعله يركن إلى السكينة والاطمئنان في ظل الحرب الدائرة بين الإخوة الأعداء، يقول الإبراهيمي: "والاستعمار من وراء الجميع يضحك ملء شذقيه، وينام ملء عينيه."¹.

نلاحظ أنّ الكاتب قد أسند الفعلين "يضحك ويكي" إلى غير فاعلهما الأصلي على سبيل المجاز العقلي، نجد أنّ التركيب كاملا هو كناية عن صفة اللامبالاة والاطمئنان اللتين يشعرون بهما الاستعمار، نتيجة راحة باله من أي هاجس أو خطر تشكله الأحزاب المصريّة ضدّه في ظل الفرقة والتطاحن الدائر بينها

ويوضّح الإبراهيمي معنى مقوّمات الأمة إذا ضاعت منها، أو غيّبت فيها، والتي سعى الاستعمار الفرنسي جهده لإطفاء جذوتها من نفوس الأمة الجزائرية، هذه الثوابت والمقوّمات إذا اختفت من الأمة زالت واختفت الأمة بزوالها. يقول الإبراهيمي مُكّنّا عن ذلك: "ولعمري إن لم توجد الأمة فما صياح الصائحين إلّا نفخ في رماد."². كناية عن صفة عدم الجدوى من بقاء اسم الأمة دون ثوابت وهويّة ومقوّمات. فالنار لا يُمكن لها أن تشتعل في غياب الشرارة، ولو قضى الموقدُ عمر نوح في نفخ الرماد ما اشتعلت. وتتجلّى بلاغة الكناية هنا في تقريب المعنى من القارئ وتصويره له مصحوبا بالدليل.

وعندما يفضح سياسة الاستعمار الفرنسي في مسألة فصل الدين الإسلامي عن حكومته، يلجأ الإبراهيمي إلى الكناية لفضح هذه السياسة القائمة على المماطلة والمراوغة، ولتوضيح الصورة للمتلقّي أيضا، يقول الكاتب: "...وما هذه الحركة إلّا فعلة من فعلاهما المعروفة التي تذرّ

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 04- 13 شوال 1366هـ/ 29/أوت/1947م.

² - المصدر نفسه.

بها الرماد في العيون، وتُطيل بها العلل، حتى تجلب للعاملين المَلل. ¹. كناية عن صفة التمويه والتستّر على الحقيقة.

ويصف إبراهيمي المواقف المتذبذبة للحكومة الاستعمارية، والتي لا تصبر على طعام واحد، يقول إبراهيمي: "... هذه الحكومة ذات الألوان التي تحكم الجزائر بما تُمليه القوة. ²" كناية عن صفة التبدّل المتسارع في المواقف من طرف الحكومة الاستعمارية الفرنسية، ودليل على نفاقها وتناقضها. وتتجلّى بلاغة الكناية هنا في توضيح المعنى وتقريبه للمتلقى.

أمّا صاحب جريدة المنار فيصف خيبة الأمل التي أصابت الجزائريين بعد عودتهم إلى ديارهم، فوجدوا الاستعمار الفرنسي قد أحرق الديار، وأتلف الثمار، وقتل الشيوخ والأطفال بقوله: " وعاد الجنود الجزائريون إلى وطنهم وآثار الحرب لا تزال مساورة لهم، إلّا أنّهم واثقون بمغادرة دار حرب إلى دار سلم يجدون فيها السلوى والراحة وحسن الجزاء. ³"

كنى الكاتب الأمن والسلم، والأهل والوطن، هذه الأشياء التي كان يُحلم بها الجنود الجزائريون بعد أن كُتبت لهم التّجاة من أنياب الحرب العالميّة الثانية، بدار المنّ والسلوى ويقصد العيش الرغيد والهناء الدائم.

ويوظّف الكاتب محمود بوزوزو الكناية من جديد، وهو بصدد الحديث عن ادعاءات الاستعمار الفرنسي الكاذبة، التي تُروّج لارتباط الحركة الوطنيّة بالشيوعيّة بُغية تشويه سمعتها، وتنفير الشعب منها لأنّ الشيوعيّة تُحارب الدين، يقول الكاتب مُكنياً عن سياسة الاستعمار: " ألم يأن للظالمين ((المتمدّنين)) أن يتركوا السفسطة؟ فإنّها سلاح مفلول. ⁴. كنى الكاتب عن سياسة الاستعمار التي لا طائل من وراءها، وعلى ادعاءاته الواهمة، بلفظة السلاح المفلول. ونحن نعلم أنّ السيف إذا كان مفلولا فإنّ ضربته تكون هيّنة ضعيفة لا تُحدث أثرا. وتتجلّى بلاغة الكناية هنا في تقريب المعنى من القارئ مصحوبا بالدليل.

¹ - البصائر: السلسلة الثانية- العدد 176 - مصدر سابق.

² - البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 122 - 19 شعبان 1369هـ / 05/ جوان/ 1950م.

³ - المنار: السنة الأولى- العدد 03- 27 رجب 1370هـ / 04 ماي 1951م.

⁴ - المنار: السنة الأولى- العدد 09- 29 ذي القعدة 1370هـ / 31 أوت 1951م.

وبدورها جريدة المجاهد وظّف كُتّابها الكناية في مقالاتهم السياسية، ومن أمثلة ذلك ما جاء في افتتاحية الجريدة تحت عنوان " بين المدّ والجزر " كنى فيه الكاتب عن حالة التّخبط والفوضى التي كان يعيشها الساسة الفرنسيّون فما بينهم بسبب انتصارات الثورة، وضرباتها الموجهة، يقول الكاتب: " منذ خمسة عشر شهرا، ظلّ دي غول يقول شيئا ووزيره الأول يقول شيئا آخر، وظلّ الملاحظون في مدّ وجزر لا ينقطعان بين أقوال الرجلين."¹

كناية عن صفة التذبذب والتناقض، اللتان كان يعيشهما ديغول مع وزيره الأول، ومع الملاحظين الذين كانوا في أخذ وردّ كحركة مياه البحر التي تكون بين المدّ والجزر والتي لا تعرف الثبات والاستقرار.

وعلى سبيل الكناية أيضا، يواصل الكاتب وصف حالة النواب الفرنسيّين والعبارة تخنق أصواتهم، بعدما علموا أنّ حلم الجزائر فرنسية مجرد أوهام وسراب حقير، يقول الكاتب: "...ومرّت دقائق من التأثر والغصص، واحتنقت بعض الحلوقة بالدموع، لأنّ ديري لم يستطع أن يُلحّ على ((فرنسة)) الجزائر أي استعبادها."² فقد كنى الكاتب عن صفة الحزن الشديد والإحباط الذي عاشه النواب الفرنسيّون بسبب ضياع الفردوس المفقود، الجزائر الفرنسية التي لطالما صمّت الدعاية الفرنسية بها الآذان. وتجلّى بلاغة الكناية هنا في تصوير الحسرة والندامة على الخسارة الفادحة التي مُني بها الفرنسيون جرّاء ضياع أسطورة الجزائر الفرنسية.

وحول موضوع الانقلاب الذي قام به مجموعة من الضباط الفرنسيين ضدّ الجنرال شال ديغول، هذا الانقلاب الذي يتزعمه الجنرال ماسو، يقول الكاتب في عنوان الافتتاحية: " دي غول ينحني أما عصابة " ماسو"³. كناية عن صفة الخضوع والخنوع والاستسلام التي اتصف بها ديغول مع خصومه من الضباط الفرنسيين. ويواصل الكاتب وصف الجو السياسي السائد في فرنسا، بعد فشل محاولة الانقلاب والتمرد على الجنرال شال ديغول، يقول الكاتب موظفا الكناية: "... ما يزال الجوّ مكفهراً بالسحب الثقيلة، والشعور بالحقد والضغينة، وكلّ المراقبين

¹ - المجاهد: العدد 53 - 17 ربيع الثاني 1379هـ / 19/10/1959م.

² - المصدر نفسه.

³ - المجاهد: العدد 60 - 26 رجب 1379هـ / 25 جانفي 1960م.

يتفقون على القول بأنه من الخطأ أن تظنّ السلطات الفرنسية بأنّ تمرد 24 جانفي كان من عمل بضع مئات من العناصر المتهيّجة، بل الواقع هو أنّ وراء تلك الكمشة التي حملت السلاح يقف عشرات بل مئات من آلاف الأوروبيين.¹

فقد مال الكاتب إلى الكناية ليصف الاضطراب السياسي الذي عاشته فرنسا عقب الحركة الانقلابية بقوله: (ما يزال الجو مكفهرًا بالسحب الثقيلة) كناية على أنّ الجو السياسي في فرنسا غير مستقر وهو مرشح للانفلات والانزلاق. مثلما كنى عن المجموعة القليلة من الضباط التي قادت الحركة الانقلابية بلفظة كمشة، وتعني الكميّة القليلة أو المجموعة قليلة العدد وهي كناية عن موصوف.

وفي افتتاحيّة أخرى بعنوان "أهل الكهف" تحذّر المجاهد الحكومة الفرنسية من خطر المنظمة السرية الإرهابية، التي بدأت تحصد أرواح المثقفين والمعادين لاستقلال الجزائر، لكنّ فرنسا الاستعمارية صمّت آذانها عن تحذيرات جبهة التحرير الوطني، وفضّلت أن تغضّ النظر عن هذه المنظمة الإرهابية لتضغط على الحكومة المؤقتة الجزائرية لتقدّم تنازلات لفرنسا، لكن انقلب السحر على الساحر، يقول الكاتب: "...إلى جانب هذا يُقال أنّ ديغول شاعر بخطر التيار، ولكنّه لا يريد أن يبني السد أو يُخرج الأمة الفرنسية من مرقدها، لأنّه يفضّل أن يستعمل هذا الخطر في مساومة الحكومة الجزائرية حتى يفتكّ به في المفاوضات ما يطمح إليه من مكاسب للأوروبيين في الجزائر، وإذا صحّ هذا عن ديغول فإنّ الرجل مُقدم على اللّعب بالنّار."²

وظّف الكاتب الكناية في قوله " لا يريد أن يبني السدّ أو يُخرج الأمة الفرنسية من رقادها" أي بمعنى أنّ ديغول لم يستخدم كلّ الحلول المتاحة لديه، فيضرب بيد من حديد مثلاً هذه المنظمة الإجراميّة حتى يعزلها عن الإنسانيّة مثلما عزل ذو القرنين يأجوج ومأجوج ببنايته للسدّ الفاصل، أو ينتشل -ديغول- الأمة الفرنسية من أوهامها، وأحلام اليقظة التي عاشتها لما يربو عن قرن وتيّف من الزمن، على وقع أنغام الجزائر الفرنسيّة. أمّا الكناية الثانيّة ففي قوله " الرجل مُقدم على اللّعب بالنّار" كناية عن صفة التهور والمغامرة وسوء تقدير العواقب، فقد تحرق هذه

¹ - المجاهد: العدد 61- 10 شعبان 1371هـ / 08 فيفري 1960م.

² - المجاهد: العدد 109- 19 جمادى الثانية 1381هـ / 27 نوفمبر 1961م.

النار أصابع ديغول ويشبُّ لهيها ليحرق فرنسا الاستعمارية واقتصادها المنهك. وتتجلى بلاغة الكنايتين في توضيح المعنى وتقريبه للقارئ مصحوبا بالدليل.

ويختتم الكاتب افتتاحيته بالتأكيد على أن خطر هذه المجموعة الإرهابية المجرمة يُدركه العالم بأجمعه، إلا الحكومة الفرنسية الاستعمارية فإنها تتعامى عن إدراكه، يقول الكاتب مُكنياً: "إنّ العالم كلّه يعرف أنّهم شرذمة من المغامرين، وأنّ ما يستحقّونه هو الكبت لأنهم خارجون عن القانون وكفى. هذا ما يعرفه العالم، أمّا أهل الكهف فهم ينتظرون المعجزة."¹

تظهر الكناية في لفظة "شرذمة" وهي كناية عن موصوف أي الجماعة القليلة. أمّا الكناية الثانية ففي قوله " أمّا أهل الكهف فهم ينتظرون المعجزة". كناية عن صفة الغياب التام عن الواقع، فمثلما لبث أهل الكهف ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا، لبثت فرنسا في أوهامها وتعاميها عن الحقيقة ردحا من الزمن. ومثلما ضرب الله على آذان أهل الكهف، كذلك الاستعمار الفرنسي يرى ويسمع ما ترتكبه المنظمة السريّة الإرهابية لكن لا يحرك ساكنا.

¹ - المصدر السابق.

الخاتمة

إنّ استخلاصنا لنتائج هذا البحث بعد القراءة والمتابعة، يجعلنا نقف على قضايا وملاحظات كثيرة، وقيم متعددة، نُحملها في التّقاط الآتية:

أولاً: لقد عرف الأدب الجزائري الحديث فنّ المقالة السياسية مثلما عرفها الأدب العربي في مختلف أقطاره، كغيره من آداب الأمم الأخرى.

ثانياً: اتّسمت المقالة السياسية بمهادنة الاستعمار في مرحلتها الأولى كنوع من التّقية، ثمّ ما لبثت أن سرت بأوداجها روح الحماسة والثّورة والتّحدي تبعاً للظروف الوطنيّة والدوليّة.

ثالثاً: تفاوت الكتّاب في مستوى الكتابة تبعاً لشخصيّة كلّ كاتب وثقافته، وخصوصية فكره أو ضيق أفقه، وامتلاك ناصية اللّغة أو القصور فيها.

رابعاً: اصطبغت المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث بصبغة السّخرية الحادّة، غير أنّها طغت عليها نزعة الحسرة والألم، ويمكن وصفها بالسّخرية الحزينة المكوّنة من مزيج الألم والمرارة والكآبة نابغة من أعماق نفس جريحة متألّمة، غير راضية ولا مرضية تحمل معها ملامح الرفض والتّصدي.

خامساً: ينفرد الإبراهيمي في السّاحة الأدبية العربية بفنّ السّخرية، ويثبّتها في التجربة السياسية في أسلوب أدبي رشيق، ويكوّن بذلك في أدائه قوّة للنّص، وطعماً خاصاً للمقال السياسي، فعلى الرّغم من ركوب كثير من الأدباء الجزائريين مطيّة السّخرية إلاّ أنّ البشير الإبراهيمي يكاد يكون الوحيد الذي استطاع أن يروّض هذه الوسيلة، فاستحقّ الرّيادة في الأدب الجزائري الحديث.

سادساً: يمثّل الشيخ البشير الإبراهيمي مدرسة فنيّة قائمة بذاتها في المقالة السياسيّة، إذ وازن بين اللفظ والمعنى في امتداد واضح لمدرسة الصّنع اللّفظية في جزالة الأسلوب ومتانتته، ويمكن تسميتها بالمدرسة الجاحظيّة.

سابعاً: يُعدّ الشيخ أبو اليقظان رائداً بحقّ، ونموذجاً حياً لجهاد الكلمة، من خلال سلسلة جرائده التي كانت عرضة لمقصلة الإدارة الاستعماريّة الواحدة تلو الأخرى، بسبب مقالاتها السياسية الطافحة بمعاني الوطنيّة والمقاومة، والرفض والتّصدي.

ثامناً: جسّدت المقالة السياسية الثوريّة- لا سيّما على صفحات جريدة المجاهد- مطلب الشعب الجزائري في الانعتاق والتّحرّر من الهيمنة الاستعماريّة الفرنسية، فكانت بحقّ صوت الشعب الجزائري، وصرخة التّحدّي والثورة.

تاسعاً: طرقت المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث، جلّ المواضيع السياسيّة في ذلك الزمن، سواء الوطنيّة منها أو الإقليمية والعالميّة، ولم تكن أبداً ضيقة الأفق أو متوقّعة على نفسها.

عاشراً: جسّدت المقالة السياسيّة-لدى معظم الكتّاب- في الأدب الجزائري الحديث مفهوم الالتزام في أسمى معانيه، سواء من خلال مقارعتها للاستعمار الفرنسي، أو معالجة القضايا العربيّة والإسلاميّة كقضيّة فلسطين، أو مناصرة قضايا التّحرّر العالمي.



**قائمة المصادر
و المراجع**

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
الحديث النبوي الشريف، صحيح البخاري.

الألف

الإصلاح

- 01- الإصلاح: العدد 06 - 1929/10/24 م.
02- الإصلاح: السنة العشرون - العدد 52 - 12 جوان 1947 م.

الأمّة

- 03- الأمّة: العدد 03 - 1934/10/02 م
04- الأمّة: العدد 08 - 1934/11/06 م
05- الأمّة: العدد 21 - 1935/02/19 م
06- الأمّة: العدد 78 - 1936/06/09 م
07- الأمّة: العدد 80 - 1936/06/23 م
08- الأمّة: العدد 81 - 1936/06/30 م
09- الأمّة: العدد 141 - 1937/10/16 م
10- الأمّة: العدد 155 - 1938/02/22 م

الباء

البرق

- 11- البرق: العدد 18 - 1927/07/11 م.

البيستان

- 12- البيستان: العدد 01 - 1933/04/27 م.
13- البيستان: العدد 06 - 1933/06/06 م.

قائمة المصادر والمراجع:

البصائر السلسلة الأولى

- 14- البصائر: السلسلة الأولى-السنة الأولى- العدد 03- 22 شوال المبارك 1354هـ / 17 جانفي 1936
- 15- البصائر: السلسلة الأولى- السنة الثانية - العدد- 1279 جمادى الثاني 1356 هـ / 20/08/1937م
- 16- البصائر: السلسلة الأولى-السنة الثالثة العدد95- 12ذي القعدة 1356 هـ / 14/ جانفي 1938م
- 17- البصائر: السلسلة الأولى- السنة الثالثة- العدد 107- 07 محرم 1357 هـ / 08 / أفريل / 1938م
- 18- البصائر: السلسلة الأولى- السنة الرابعة-العدد 156- 18 محرم 1358 هـ / 10/مارس/1939م
- 19- البصائر: السلسلة الأولى- السنة الرابعة- العدد 163- 08 ربيع الأول 1358 هـ / 28/أفريل/1939م
- 20- البصائر: السلسلة الأولى- السنة الرابعة- العدد 168- 13 ربيع الثاني 1358 هـ / 02/جوان/1939م
- 21- البصائر: السلسلة الأولى- السنة الرابعة- العدد 171-05 جمادى الأولى 1358 هـ / 23 جوان 1939م

البصائر السلسلة الثانية

- 22- البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثانية- العدد 33- 16 جمادى الثانية 1367 هـ / 26/ أفريل 1947م.
- 23- البصائر: السلسلة الثانية- العدد 01- 07 رمضان 1366 هـ / 25/جوليت/1947م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 24- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 02- 14 رمضان 1366 هـ / 01/أوت/1947م.
- 25- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى-العدد 03-21 رمضان 1366 هـ / 08/ أوت 1947م.
- 26- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 04- 13 شوال 1366هـ / 29/أوت/1947م.
- 27- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 05- 20 شوال 1366 هـ / 05 سبتمبر 1947م.
- 28- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 06- 27 شوال 1366 هـ / 12/سبتمبر/1947م.
- 29- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 10- 28 ذي القعدة 1366 هـ / 13 /أكتوبر/1947م.
- 30- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 11- 05 ذي الحجة 1366 هـ / 20 أكتوبر/1947م.
- 31- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الأولى- العدد 16-08 صفر 1367 هـ / 22/12/1947م.
- 32- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 21- 21 ربيع الأول 1367 هـ / 02 فيفري 1948م.
- 33- البصائر: السلسلة الثانية- العدد 22- 28 ربيع الأول 1367 هـ / 09فيفري 1948م.
- 34- البصائر- السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 23- 05 ربيع الثاني 1367 هـ / 16 فيفري 1948م.
- 35- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 24- 12 ربيع الثاني 1367 هـ / 23/فيفري/1948م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 36- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 30- 25 جمادى الثانية 1367 هـ / 05 أبريل 1948م.
- 37- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 35- 01 رجب 1367 هـ / 10/05/1948م.
- 38- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 41- 20 شعبان 1367 هـ / 28 جوان 1948م.
- 39- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 47- 25 شوال 1367 هـ / 30/أوت/1948
- 40- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 49- 10 ذو القعدة 1367 هـ / 13 سبتمبر 1948م
- 41- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 57- 20 محرم الحرام 1368 هـ / 22 نوفمبر 1948م .
- 42- البصائر: السلسلة الثانية- العدد 58- السنة الثانية- 27 محرم الحرام 1368 هـ / 29/نوفمبر/ 1948م.
- 43- البصائر: السلسلة الثانية- العدد 58- السنة الثانية- 27 محرم الحرام 1368 هـ / 29/نوفمبر/ 1948م.
- 44- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 59- 05 صفر 1368 هـ / 06/ديسمبر/ 1948م.
- 45- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 65- 02 ربيع الثاني 1368 هـ / 31 جانفي 1949م.
- 46- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 66- 09 ربيع الثاني 1368 هـ / 07 فيفري 1949م.
- 47- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 68- 23 ربيع الثاني 1368 هـ / 21 فيفري 1949م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 48- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 69- 01 جمادى الأولى 1368 هـ / 28/فيفري/ 1949م.
- 49- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 74-06 جمادى الثانية 1368 هـ / 04 أبريل 1949م.
- 50- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 75- 13 جمادى الثانية 1368 هـ / 11 / أبريل/ 1949م.
- 51- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 79- 11 رجب 1368 هـ / 09/05/1949م.
- 52- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 81- 02 شعبان 1368 هـ / 30 ماي 1949م.
- 53- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 83- 16 شعبان 1368 هـ / 13 جوان 1949م.
- 54- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية- العدد 87- 22 رمضان 1368 هـ / 18 / جوليت/ 1949م.
- 55- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثانية - العدد 95- 23 محرم 1369 هـ / 14/نوفمبر/ 1949م.
- 56- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 103- 26 ربيع الأول 1369 هـ / 16/جانفي/ 1950م.
- 57- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 105- 10 ربيع الثاني 1369 هـ / 30/ جانفي/ 1950م.
- 58- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 112-01 جمادى 1369 هـ / 20/03/1950م
- 59- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 113- 08 جمادى 1369 هـ / 28/03/1950م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 60- البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثالثة- العدد 114- 15 جمادى الثانية 1369 هـ / 03 أفريل 1950
- 61- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 118- 14 رجب 1369 هـ / 01 ماي 1950م.
- 62- البصائر: السلسلة الثانية-السنة الثالثة- العدد 119- 28 رجب 1369 هـ / 15 ماي 1950م.
- 63- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 120- 05 شعبان 1369 هـ / 22 / ماي / 1950م.
- 64- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 121- 12 شعبان 1369 هـ / 29/ماي/ 1950م.
- 65- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثالثة- العدد 122- 19 شعبان 1369 هـ / 05/جوان/1950م.
- 66- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 137- 07 ربيع الثاني 1370 هـ / 15 جانفي/1951م.
- 67- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 139- 21 ربيع الثاني 1370 هـ / 29 / جانفي / 1951م.
- 68- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 144- 20 جمادى الأولى 1370 هـ / 26/فيفري/1951م.
- 69- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة-العدد 148- جمادى الثانية 1370 هـ / 26/ مارس 1951م.
- 70- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 156- 15 شعبان 1370 هـ / 21 ماي 1951م.
- 71- البصائر- السلسلة الثانية- السنة الرابعة-العدد 158-29 شعبان 1370 هـ / 04 جوان 1951م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 72- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 164- 19 شوال 1370 هـ / 23 جويلية 1951م.
- 73- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 175- 26 صفر 1371 هـ / 26/نوفمبر / 1951م.
- 74- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 176- 11 ربيع الأول 1371 هـ / 10/ديسمبر / 1951م.
- 75- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الرابعة- العدد 178- 09 ربيع الثاني 1371 هـ / 07 جانفي 1952م.
- 76- البصائر: السلسلة الثانية- السنة السادسة- العدد 229- 01 رمضان 1372هـ / 15 ماي / 1953م.
- 77- البصائر: السلسلة الثانية- السنة السادسة- العدد 243- 01 صفر 1373 هـ / 09 أكتوبر 1953م.
- 78- البصائر: السلسلة الثانية- السنة السادسة- العدد 244- 15 صفر 1373 هـ / 23 أكتوبر 1953م.
- 79- البصائر: السلسلة الثانية- السنة السادسة- العدد 254- 10 جمادى الأولى 1373 هـ / 15 جانفي 1954م.
- 80- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثامنة- العدد 317- 14 رمضان 1374 هـ / 06 ماي 1955م.
- 81- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثامنة- العدد 344- 23 ربيع الثاني 1375 هـ / 09 ديسمبر 1955م.
- 82- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثامنة- العدد 350- 07 جمادى الثانية 1375 هـ / 20 جانفي 1956م.
- 83- البصائر: السلسلة الثانية- السنة الثامنة- العدد 356- 19 رجب 1375 هـ / 02 مارس 1956م.

قائمة المصادر والمراجع:

البلاغ:

- 84- البلاغ: العدد 119- ذي الحجة 1347 هـ / 17/05/1927م.
85- البلاغ: العدد 134- 03 رجب 1350 هـ / 13/11/1931م.
86- البلاغ: العدد 243- 03 رجب 1350 هـ / 13/11/1931م.
87- البلاغ: العدد 324- 03 رجب 1350 هـ / 13/11/1931م.
88- البلاغ: العدد 304- 11 جمادى الأولى 1352 هـ / الموافق
ل1933/08/21م
89- البلاغ: العدد 340- 1354/06/07 هـ / الموافق ل1935/09/06م.

الرءاء

الرشاء

- 90- الرشاء: العدد 42- 20 ربيع الثاني 1358 هـ / 22 ماي 1939م.
91- الرشاء: العدد 45-05 رجب 1358 هـ / 21 أوت 1939م.

السين

السنة النبوية

- 92- السنة النبوية: العدد 05- 13 محرم 1352 هـ / 08 ماي 1933م.

الشين

الشعلة

- 93- الشعلة: العدد 22-24 رجب 1369 هـ / 11 ماي 1950م.

الشهاب

- 94- عبد الحميد بن باديس: الشهاب: دار الغرب الإسلامي، ط. 01-
1421هـ/2001م- ج09- مج 13- رمضان 1356 هـ / نوفمبر
1937م

- 95- الشهاب: العدد الأول - ربيع الثاني 1344 هـ / نوفمبر 1925

- 96- الشهاب: ج05- مج07- محرم 1350 هـ / ماي 1931م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 97- الشهاب: ج10، مج 07- غرة جمادى الثانية 1350 هـ / أكتوبر 1931م.
- 98- الشهاب: ج 10- مج 11- شوال 1354 هـ / جانفي 1935م.
- 99- الشهاب ج 04- مج 12- ربيع الثاني 1355 هـ / جويلية 1936م
- 100- الشهاب: ج 06- مج 12- جمادى الأولى/جمادى الثانية 1355 هـ
/أوت-سبتمبر 1936م
- 101- الشهاب: ج08- مج 12- شعبان 1355 هـ / نوفمبر 1936
- 102- الشهاب: ج10- مج 12- شوال 1355 هـ / جانفي 1937م- ص
4/426/425.
- 103- الشهاب- ج07- مج 13- رجب 1356 هـ / سبتمبر 1937م.
- 104- الشهاب: الجزء 08- المجلد 13- شعبان 1356 هـ / أكتوبر 1937م.
- 105- الشهاب: ج 11- مج 13- ذي القعدة 1356 هـ / جانفي 1938م.
- 106- الشهاب: ج 12- مج 13- ذي الحجة 1356 هـ / فيفري 1938م.
- 107- الشهاب: محرم 1357 هـ / مارس 1938م.
- 108- الشهاب: ج02- مج 14- ربيع الأول 1357 هـ / ماي 1938م.
- 109- الشهاب: ج06- مج 14- جمادى الثانية 1357 هـ / أوت 1938م.
- 110- الشهاب: ج 06- مج 14- جمادى الثانية 1357 هـ / أوت 1938م.
- 111- الشهاب: ج06- مج 14- جمادى الثانية 1357 هـ / أوت 1938م.
- 112- الشهاب: ج 09- مج 14- رمضان 1357 هـ / نوفمبر 1938م.
- 113- الشهاب: الجزء 07- مج 15. رجب 1358 هـ / أوت 1939م

الصاد

الصراط السوي

- 114- الصراط السوي: السنة الأولى- العدد 01- 21 جمادى الأولى 1352 هـ /
11 سبتمبر 1933م.
- 115- الصراط السوي: - السنة الأولى - العدد التاسع - 25/رجب/1352 هـ
الموافق ل 13 /نوفمبر /1933.

قائمة المصادر والمراجع:

اللام

الليالي:

116- الليالي: العدد 12 - 1936/09/27 م.

الميم

117- محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الرابع (1952 - 1954 م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1997 م.

المجاهد

118- المجاهد: العدد 54 - 01 نوفمبر 1954. عدد خاص.

119- المجاهد: العدد 08 - 15 أغسطس 1957 م.

120- المجاهد: العدد 11 - 01 نوفمبر 1957 م.

121- المجاهد: العدد 14 - 15 ديسمبر 1957 م

122- المجاهد: العدد 31 - 01 نوفمبر 1958 م.

123- المجاهد: العدد 32 - 19 نوفمبر 1958 م.

124- المجاهد: العدد 35-15 / 01/1959 م.

125- المجاهد: العدد 37 - 15 شعبان 1378 هـ / 25/02/1959 م

126- المجاهد: العدد 41- 24 شوال 1378 هـ / 01/05/1959 م.

127- المجاهد: العدد 42 - 11 ذو القعدة 1378 هـ / 18/05/1959 م.

128- المجاهد: العدد 44 - 08 ذو الحجة 1378 هـ / 14/06/1959 م.

129- المجاهد: العدد 46 - 08 محرم 1379 هـ / 13 جويلية 1959 م.

130- المجاهد: العدد 49 - 20 صفر 1379 هـ / 24/08/1959 م.

131- المجاهد: العدد 53 - 17 ربيع الثاني 1379 هـ / 19/10/1959 م.

132- المجاهد: العدد 57 - 14 جمادى الثانية 1379 هـ / 10/12/1959 م.

133- المجاهد: العدد 58 - 27 جمادى الثانية 1379 هـ / 28/12/1959 م

134- المجاهد: العدد 59 - 12 رجب 1379 هـ / 11 جانفي 1960 م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 135-المجاهد: العدد 60- 26 رجب 1379 هـ / 25 جانفي 1960م
- 136-المجاهد: العدد 61- 10 شعبان 1379 هـ / 08 فيفري 1960م.
- 137-المجاهد: العدد 61- 10 شعبان 1371 هـ / 08 فيفري 1960م.
- 138-المجاهد: العدد 64- 23 رمضان المعظم 1379 هـ / 21 مارس 1960م.
- 139-المجاهد: العدد 72- 16 محرم 1380 هـ / 11 جويلية 1960م.
- 140-المجاهد: العدد 77- 27 ربيع الأول 1380 هـ / 19 سبتمبر 1960م.
- 141-المجاهد: العدد 79- 18 ربيع الثاني 1380 هـ / 10 أكتوبر 1960م.
- 142-المجاهد: العدد 87- 27 رجب 1380 هـ / 16 جانفي 1961م.
- 143-المجاهد: العدد 91- 26 رمضان 1380 هـ / 13 مارس 1961م.
- 144-المجاهد: العدد 92- 11 شوال 1380 هـ / 27 مارس 1961م.
- 145-المجاهد- العدد 92/ 11 شوال 1380 هـ / 27 مارس 1961م.
- 146-المجاهد: العدد 97- 22 ذو الحجة 1380 هـ / 05 جوان 1961م.
- 147-المجاهد: العدد 109- 19 جمادى الثانية 1381 هـ / 27 نوفمبر 1961م.
- 148-المجاهد: عدد خاص- 117- 14 شوال 1381 هـ / 20 مارس 1962م.
- 149-المجاهد: العدد 118- 27 شوال 1381 هـ / 02 أفريل 1962م.
- المرشد
- 150-المرشد: السنة الثانية-العدد 18- رجب 1367 هـ / مايو 1948م.
- 151-المرشد: السنة الثانية-العدد 18- رجب 1367 هـ / مايو 1948م.
- 152-المرشد: السنة الثانية- العدد 22- ذو القعدة 1367 هـ / سبتمبر 1948م.
- 153-المرشد: السنة الرابعة- العدد 38- رمضان 1369 هـ 16 جوان 1950م.
- 154-المرشد: السنة الرابعة- العدد 43- صفر 1370 هـ / نوفمبر 1950م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 155- المرشد- السنة الرابعة-العدد 45- ربيع الثاني 1370 هـ /يناير 1951م.
156- المرشد-السنة الرابعة-العدد48-رجب 1370 هـ /08 أبريل 1951م.
157- المرشد- العدد 53- 1371 هـ /1951م.
158- المرشد: السنة الخامسة- العدد 54- ربيع الأول 1371 هـ / 30 نوفمبر 1951م.
159- المرشد- السنة الخامسة-العدد 56-جمادى الأولى 1371 هـ.

المنتقد

- 160-المنتقد: العدد 01- السنة الأولى- 11 ذي الحجة 1343 هـ / 02 جويلية 1925م.
161-المنتقد: العدد 02- 17 ذي الحجة 1343 هـ / 09 جويلية 1925م.
162-المنتقد: العدد 03- 24 ذي الحجة 13143 هـ / 16 جويلية 1925م.
163-المنتقد: السنة الأولى- العدد 07- 23 محرم 1344 هـ / 13 أوت 1925م
164-المنتقد: السنة الأولى - العدد 15- 14 صفر 1344 هـ / 03 سبتمبر 1925م
165-المنتقد: العدد 14- 12 ربيع الأول 1344 هـ / 01 أكتوبر 1925م.
166-المنتقد: العدد 16- 26 ربيع الأول 1344 هـ الموافق ل 15 أكتوبر 1925م.

المنار

- 167-المنار: السنة الأولى- العدد01-21 جمادى الثانية 1370 هـ /29 مارس 1951م.
168-المنار: السنة الأولى- العدد 03- 27 رجب 1370 هـ /04 ماي 1951م
169-المنار: السنة الأولى- العدد 04- 15 شعبان 1370 هـ / 21 ماي 1951م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 170-المنار: السنة الأولى- العدد 07- 13 ذي القعدة 1370 هـ / 15 أوت 1951م
- 171-المنار: السنة الأولى- العدد 09- 29 ذي القعدة 1370 هـ / 31 أوت 1951م.
- 172-المنار: السنة الأولى- العدد 08- 29 ذي القعدة 1370 هـ / 31 أوت 1951م.
- 173-المنار: السنة الأولى- العدد 13- 06 ربيع الثاني 1371 هـ / 04 جانفي 1952م.
- 174-المنار: السنة الأولى-العدد 15- 06 جمادى الأولى 1371 هـ / 01 فيفري 1952م
- 175-المنار: السنة الأولى- العدد 16- 20 جمادى الأولى 1371 هـ / 15/فيفري/1952م.
- 176-المنار: السنة الأولى- العدد 17- 04 جمادى الثانية 1371 هـ / 29 فيفري 1952.
- 177-المنار: السنة الثانية- العدد 01- 16 رجب 1371 هـ / 11 أفريل 1952م.
- 178-المنار: السنة الثانية- العدد 03- 13 شعبان 1311 هـ / 09 ماي 1952م.
- 179-المنار: السنة الثانية- العدد 06- 12 شوال 1371 هـ / 04 يوليو 1952م.
- 180-المنار: السنة الثانية- العدد 08- 10 ذي القعدة 1371 هـ / 01 أوت 1952م.
- 181-المنار- السنة الثانية- العدد 09- 24 ذي القعدة 1371 هـ / 08/15 / 1952.
- 182-المنار: السنة الثانية- العدد 07- 26 شوال 1371 هـ / 19 يوليو 1952م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 183- المنار: السنة الثانية- العدد 10- 04 صفر 1372 هـ / 24 أكتوبر 1952م.
- 184- المنار: السنة الثانية- العدد 11- 26 صفر 1372 هـ / 14 نوفمبر 1952م.
- 185- المنار: السنة الثانية- العدد 12- 11 ربيع الأول 1372 هـ / 28 نوفمبر 1952م.
- 186- المنار: السنة الثانية- العدد 13- 26 ربيع الأول 1372 هـ / 12 ديسمبر 1952م.
- 187- المنار: السنة الثالثة- العدد 42- الجمعة 24 شعبان 1372 هـ / 08 ماي 1953م.
- 188- المنار: السنة الثالثة- العدد 45- 29 شوال 1372 هـ / 10 يوليو 1953م.
- 189- المنار: السنة الثالثة- العدد 46- 14 ذو القعدة 1372 هـ / 24 يوليو 1953م.
- 190- المنار: السنة الثالثة- العدد 51- 26 ربيع الثاني 1373 هـ / 01 جانفي 1954م.
- 191- المنار: السنة الثانية- العدد 04- 28 شعبان 1371 هـ / 23 ماي 1954م.
- 192- المنار: السنة الأولى- العدد 19- 02 رجب 1371 هـ / 28 مارس 1958م.

الواو

وادي ميزاب

- 193- وادي ميزاب- عدد 42 . 29 محرم 1346 هـ - 29 جويلية 1927.
- 194- وادي ميزاب: العدد 52 - 1927/10/07م.

قائمة المراجع :

قائمة المصادر والمراجع:

01/ الكتب :

- 01- ابن المقفع عبد الله: الأدب الكبير، تحقيق أحمد زكي باشا، جمعية العروة الوثقى الخيرية الإسلامية الإسكندرية، 1912.
- 02- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد محمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، 1963، ج3.
- 03- ابن منظور: لسان العرب، م5، ج39، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- 04- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي - بيروت 1998.
- 05- أبو تمام: الديوان، تقديم وشرح محي الدين صبحي، ج.02، ط.01، دار الأبحاث، 2009م.
- 06- أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط.08، 1411هـ/1991م.
- 07- أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، 1424هـ/2003م.
- 08- أحمد أمين: زعماء الإصلاح العصر الحديث، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ط، القاهرة، 2012.
- 09- أحمد عنایت: الفكر الإسلامي المعاصر، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، مكتبة مدبولي القاهرة، د.ت.
- 10- إسماعيل الحسني: نظرية المقاصد عند الإمام الطاهر بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1995.
- 11- أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا - دار القومية للطباعة القاهرة، 1965م.
- 12- أيمن عبد الغني: الكافي في البلاغة، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، 2011.

قائمة المصادر والمراجع:

حرف الباء

- 13- باعزیز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، منشورات الحبر، الجزائر، 2007.

حرف الجيم

- 14- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: الترييع و التدوير، تحقيق شارل بلات، المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق 1955 .
- 15- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج3 دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر، بيروت، 1983.
- 16- جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده: العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى: تحقيق صلاح الدين البستاني، دار العرب للبستاني، ط.03، 1993م.

حرف الحاء

- 17- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجليل، بيروت، 1986.
- 18- أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، ج 01، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

حرف الخاء

- 19- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م.

حرف الدال

- 20- ديقن. ج. ستيوارت: السجع في القرآن، ترجمة إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1419هـ/1998م.

حرف الذال

- 21- ذو الرمة: الديوان- شرح وتقديم أحمد حسن سبيح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.01، 1415هـ/1995م.

قائمة المصادر والمراجع:

حرف الراء

- 22- رومان ياكبسون: قضايا شعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط.01، 1988.

حرف السين

- 23- سعد زغلول فؤاد: عشت مع ثوار الجزائر- دار العلم للملايين- د ط- بيروت- 1961-
- 24- سليمان بن صالح الخراشي: كيف سقطت الخلافة العثمانية، دار القاسم للنشر، الرياض، ط.01، 1420 هـ.
- 25- سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط.08 القاهرة، 2003.

حرف الشين

- 26- شوقي ضيف: الفن و مذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط.09، مصر، د.ت.
- الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، ط.10، القاهرة، 1992.

حرف الطاء

- 27- الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1994م.

حرف العين

- 28- عباس محمد: البشير الإبراهيمي أديبا- ديوان المطبوعات الجامعية- دط- دت.
- 29- عباس محمود العقاد عبقرية الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده، دار مصر للطباعة، مصر، د.ت.
- 30- عبد الجواد سعيد ربيع: فنّ الخبر الصحفي دراسة نظرية وتطبيقية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.

قائمة المصادر والمراجع:

- 31- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1412هـ/1991م.
- 32- عبد الرزاق قسوم: اللغة العربية في العهد الاستعماري- مواقف الإمام الإبراهيمي - عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع - ط.01-2007-
- 33- عبد الغني إبراهيم بلقيروس، صفحات من جهاد الجزائريين بفلسطين 1948-1949 - دار الخلدونية للنشر والتوزيع - ط01-1431 هـ /2010م.
- 34- عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر - شركة دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع - الجزائر - د ط - 1999م.
- 35- عبد العاطي شليبي: فن النثر الحديث، ج01، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.
- 36- عبد العاطي غريب علام: دراسات في البلاغة العربية، منشورات قان يونس، بنغازي.
- 37- عبد اللطيف محمد السيد الحديدي فن المقال في ضوء النقد الأدبي دار الإسلامية للطباعة و النشر، ط.03، مصر.
- 38- عائشة حسين فريد: وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- 39- عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج01، ط01، دار اليقظة العربية، بيروت، 1968.
- 40- عواطف عبد الرحمن: الصحافة العربية في الجزائر - دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية 1954/1962 - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- 41- عاشور شرقي: معلمة الجزائر القاموس الموسوعي، دار القصبه للنشر والتوزيع، د.ط، 2009.

حرف الغين

قائمة المصادر والمراجع:

42- غالي غربي: فرنسا والثورة الجزائرية 1954-1958، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

حرف اللام

43- لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، ط 19، بيروت، 1966.

حرف الميم

44- مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج.01، تقديم

وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، د.ط.

45- المتنبّي أبو الطيّب: الديوان، دار العودة، بيروت، د.ط، 1403 هـ / 1983م.

46- محمد الأمين محمد، محمد علي الرحمان: المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ط، د.ت.

47- محمد الحسن فضلاء، الشذرات من مواقف الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبعة دار هومة، 2001.

48- محمد لحسن أزغيدي: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005

49- محمد رشيد رضا: الخلافة أو الإمامة العظمى.

50- محمد صالح رشيد الحافظ: المقالة الأدبية في أدب أحمد أمين.

51- محمد الصالح رمضان، عبد القادر فضيل، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، دار الأمة، د.ط، الجزائر، 1998.

52- محمد الصالح الصديق: كيف ننسى وهذه جرائمهم، دار هومه، الجزائر، 2009.

53- محمد صالح رشيد الحافظ: المقالة الأدبية في أدب أحمد أمين-أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1999.

قائمة المصادر والمراجع:

- 54- محمد الصالح آيت علجت: صحف التصوف الجزائرية من 1338هـ إلى 1373هـ-1920م إلى 1955م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1422 هـ / 2001م.
- 55- محمد ضاري خليل: المحكمة الجنائية الدولية، هيمنة القانون أم قانون الهيمنة، ط1، بيت الحكمة، العراق، 2003 .
- 56- محمد قنانش ومحفوظ قداش: حزب الشعب الجزائري 1937-1939، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985.
- 57- محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ط.02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
- 58- محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها، من 1903 إلى 1931م. مج 01، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.
- 59- محمد الهادي الحسيني: أشعة الشروق - دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع - الجزائر - طبعة 2010.
- 60- محمد يوسف نجم، فن المقالة، دار الثقافة، ط4، بيروت، 1966.
- 61- مرتاض عبد الملك: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر [1830-1962]، سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، ج2.
- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ط.02.
- 62- مرشد الزبيدي: بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1994.
- 63- مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، راجعه درويش الجويدي، ج 01، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
- 64- مولود قاسم نايث بلقاسم: إنية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، الجزائر، 1395هـ/1975م.

قائمة المصادر والمراجع:

حرف النون

- 65- نيل.م. هايمان: الحرب العالمية الأولى، ترجمة حسن عويضة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط.01، 1433هـ/ 2012م.

حرف الهاء

- 66- الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي أثناء الاحتلال ، مجموعة كتاب ، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحوث في الحركة الوطنية . طبعة خاصة لوزارة المجاهدين.

حرف الياء

- 67- ياكوف برلمان: الفيزياء المسلمية، ترجمة داود سليمان المنير، ج.01، ط.03، دار مير للطباعة والنشر، موسكو، 1977.
- 68- ياسين النصير: الاستهلال فنّ البدايات في النصّ الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1993.
- 69- يوسف مناصريه وآخرون: الأسلاك الشائكة وحقول الألغام، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

الرسائل الجامعية

- 01- بسام خلف سليمان الحمداني: المقالة عند محمود درويش، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2001.
- 02- محمد محيي الدين: ثقافة البشير الإبراهيمي وأثرها في أسلوبه (عيون البصائر نموذجاً) - مذكرة ماجستير - جامعة تلمسان، قسم اللغة العربية وآدابها، 2008/2007.

الدوريات

أ/ المجالات

قائمة المصادر والمراجع:

- 01- مجلّة الآداب: مأساة شعب وتبلّد ضمير، مجلة الآداب، العدد: 05، بيروت، ماي 1955م.
- 02- مجلة "الأخوة الإسلامية"- العدد الخامس عشر- بغداد، 01 شوال 1372هـ- الموافق لـ12 جوان 1953م.
- 03- مجلة الثقافة: -العدد 83-السنة الرابعة عشر- ذو الحجة - محرم 1405/1404 هـ / سبتمبر- أكتوبر 1984م- وزارة الثقافة والسياحة- الجزائر.
- 04- مجلة الثقافة: الصراع بين جمعية العلماء وإدارة الاحتلال الفرنسي للجزائر بين 1933 - 1939، ربيع الثاني 1405هـ، يناير وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1985 العدد 85.
- 05- مجلة الثقافة: وزارة الثقافة والسياحة، العدد 87-شعبان/رمضان 1405هـ- مايو/يونيو 1985م.
ب/الجرائد:
01- جريدة الشروق اليومي: 2013/03/16م.

المراجع الأجنبية

- 01- Charles Robert Ageron, Les algériens musulmans et la France, Presses Universitaires de France, Paris, 1968
- 02- Lacoste; Nouschi; Prenant, L'Algérie: passé e présent, Editions sociales, 4 Paris, 1961.
- 03- L'Entente Franco-Musulmane , n=24 , jeudi 27 fevrier 1936.
- 04- Ministre de la guerre, Rapport au président de la république Française , «le Mobacher» N.5436, Samedi 02 mars 1912



فهرس
الموضوعات

الموضوع	الصفحة
اهداء.....
كلمة شكر.....
مقدمة.....
المدخل :	
الحياة الفكرية و الثقافية في ظل الاحتلال الفرنسي.....	03.....
الفصل الأول:	
المقالة السياسة في الأدب الجزائري الحديث: نشأتها و تطورها.....	20.....
1- مفهوم المقال :.....	20.....
2- نشأة المقال و تطوره.....	22.....
3-أنواع المقال :.....	32.....
3-أ- المقال الذاتي:.....	32.....
3-ب-المقال الاجتماعي:.....	32.....
3-ج/ المقال الوصفي :.....	34.....
3-د/المقال التأملي :.....	35.....
3-هـ- المقال التأبيني :.....	36.....
3-و - المقال الديني :.....	37.....
3-ز- المقال السياسي.....	38.....
3-02/المقال الموضوعي :.....	39.....
3-02/أ - المقال الفكري :.....	39.....
3-02/ب - المقال التاريخي :.....	40.....
3-02/ج- المقال العلمي :.....	41.....
3-02/د- المقال النقدي :.....	42.....
أنواع المقال من حيث الأسلوب والغاية:.....	43.....
01- المقال الأدبي:.....	43.....

- 02/ المقال الصّحفي: 45
- 4-المقال الإصلاحي في المشرق العربي ومغربه 46
- 4-أ - فنّ الإصلاح : 47
- 4-ب/ الإصلاح و الحركة الإصلاحية: 47
- ج/ المقال الإصلاحي في العالم العربي : 48
- ب- المقال الإصلاحي في المغرب العربي : 53
- ج/ فنّ المقالة في الأدب الجزائري الحديث: 54
- الفصل الثاني :**
- 73 المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث: على الصعيد الداخلي
- 73..... أولا /التجنيس :
- 83..... ثانيا/التمثيل النيابي: :
- 87..... ثالثا: الهوية الوطنية:
- 88..... أ/ الدين الإسلامي:
- 97..... ب/ اللغة العربية:
- 120..... ج/ الوحدة الوطنيّة:
- 130..... د/عنصر التاريخ:
- 134..... رابعا/المؤتمر الإسلامي 1936:
- 139..... خامسا/مجازر 08 ماي 1945:
- 149..... سادسا/ثورة نوفمبر 1954:
- 149..... أ/ اندلاع الثورة التحريرية.
- 151..... ب/أساليب التعذيب والإبادة المنتهجة من طرف الاستعمار الفرنسي:
- 154..... ج/مخطّطات الاستعمار لإجهاض الثورة -مشروع شال ومشروع قسنطينة-:
- 159 د/فصل الصحراء:
- 160 ه/ القضية الجزائرية على الصعيد العالمي:
- 162 و/ المفاوضات وإعلان الاستقلال:

الفصل الثالث :

167	المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث: على الصعيد الخارجي.....
167	أ/ المغرب العربي:
167	1/المغرب الأقصى:
173	02- ليبيا:
180	03-القضية التونسية:
193	ب/ المشرق العربي:
194	01/فلسطين:
210	02/مصر:
216	03/السودان:
218	02 /العالم الإسلامي:
218	أ/ الخلافة الإسلامية:
226	ب/ باكستان:
228	ج/ اندونيسيا:
230	03/العالم:

الفصل الرابع :

239	خصائص المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث.....
239	التشكيل البلاغي والخصائص الفنية للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث:....
239	01/ البناء الفني للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث:.....
239	أ/ العنوان:.....
243	ب/ الاستهلال أو المقدمة:
250	ج/ العرض:
252	د/ الخاتمة:
258	02/الإقناع:.....
261	03/الإمتاع:

264	04/ النثرية:
265	05/ الذاتية والموضوعية:
268	ب/ الخصائص الأسلوبية للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث:
268	01/ السخرية الحادة:
271	02/ شيوع العبارات المفرنسة والصيغ التقليدية:
272	03/ النبوة الوعظية:
273	04/ التألق في الأسلوب:
275	05/ النبوة الثورية الحماسية:
277	التشكيل البلاغي في المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث:
277	أ/ المحسنات البديعية وأسباب توظيفها:
277	01/ السجع:
280	02/ الجناس:
284	03/ الطباق:
289	04/ المقابلة:
291	ب/ البيان:
291	01/ التشبيه:
298	02/ المجاز:
302	03/ الاستعارة:
307	04/ الكناية:
316	الخاتمة:
319	قائمة المصادر و المراجع.....
342	فهرس الموضوعات:

Résumé :

Comme les autres littératures, la Littérature algérienne moderne a connue l'art de l'article, et les journaux nationaux ont contribué à la croissance et à la prospérité de cet art de la prose en général, et particulièrement de son genre politique, alors ils apparus des articles politiques de haute valeur esthétique, notamment par Bachir El Ibrahimy.

L'article politique (1925_1962) dans la littérature algérienne moderne a entrepris la mission de défendre les constantes de la nation algérienne et de l'identité nationale, et d'établir les éléments essentiels de la personnalité nationale dans les cœurs et les esprits des Algériens, pour cela, il était l'arme tranchante à faire face au colonialisme français , Et l'article politique n'a pas nié les questions arabes et internationales, et le cas palestinien a certainement remporté avant-part du traitement et du défense , Tout cela dans un style coulant, et des phrases compatibles, et un discours politique convaincant.

Les mots clés : L'article politique, Les journaux nationaux, Le colonialisme français, La révolution algérienne, La Rhétorique, Le style

Summary:

The modern Algerian literature has known, as well as, other literature the art of article, and the national newspapers have contributed to the growth and prosperity of this prose art in general, and particularly of it political type, therefore , it has appeared political articles of high aesthetic value, especially by Bachir El Ibrahimy.

The political article (1925_1962) in the modern Algerian literature has undertaken the mission of defending the Algerian nation's constants and National Identity, and establishing the essentials of national personality in the hearts of the Algerians, for this, it was the sharp weapon in facing the French colonialism, and the political article did not deny the Arabic and international issues, and certainly, the Palestinian case won the front-share of treatment and defense, all this in a flowing style and compatible phrases and convincing political speech.

Key Words:The political article, The National newspapers, The French colonialism, The Algerian revolution, The Rhetoric , The Style

المخلص:

عرف الأدب الجزائري الحديث فن المقالة كغيره من الآداب الأخرى، وقد ساهمت الصحف الوطنية في نمو وازدهار هذا الفن النثري بصفة عامة، والسياسي منه على وجه الخصوص، فظهرت مقالات سياسية ذات قيمة جمالية رفيعة، لاسيما على يد البشير الإبراهيمي.

وقد اضطلعت المقالة السياسية (1925م-1962م) بمهمة الدفاع عن ثوابت الأمة الجزائرية وهويتها، وترسيخ مقومات الشخصية الوطنية في نفوس أبناء الشعب الجزائري، وبذلك كانت السلاح الأمضى في وجه الاستعمار الفرنسي، ولم تغفل المقالة السياسية القضايا العربية والعالمية، ولعل القضية الفلسطينية نالت الحظ الأوفر من المعالجة والمنافحة، كل هذا في أسلوب جميل بليغ، وعبارات سلسة، وخطاب سياسي مقتنع.

الكلمات المفتاحية: المقالة السياسية، الصحف الوطنية، الاستعمار الفرنسي، الثورة الجزائرية، البلاغة، الأسلوب.

ملخص الرسالة :

يقع البحث في مدخل وأربعة فصول تناولنا في المدخل الحياة الفكرية و الثقافية في ظل الاحتلال الفرنسي، إذ سلطنا الضوء على واقع المستوى الفكري والثقافي الذي كان يتمتع به الفرد الجزائري قبيل الاستعمار الفرنسي للجزائر، وإن نمط التعليم السائد يومها نمطا تقليديا مقتصرًا في الغالب الأعم على بعض الزوايا والكتاتيب إلا أنه عكس إرادة قوية للإنسان الجزائري في البحث عن إرواء عطشه المعرفي، بل يسجل المؤرخون أن بعض الحواضر الجزائرية كقسنطينة، بجاية، تلمسان، مازونة، وغيرها، كانت منارة للعلم وقبلة للعلماء من مختلف الأقطار، بل بلغت هذه الحواضر درجة منافسة كبريات المدن التي كانت تُعدّ محجًا للطلاب والعلماء كالقيروان والأزهر الشريف، وبغداد.

بيد أن مع الأيام الأولى للاستعمار الفرنسي بدأت الحملات المتتابعة على دور العلم والزوايا، من خلال الاعتقال والقتل والتشريد، الأمر الذي أدى إلى موجات من الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي لاسيما الشام، هذه المهجرات استترفت المخزون الثقافي للشعب الجزائري، بسبب السياسة الفرنسية الاستعمارية الهادفة نحو الشخصية الوطنية ومقومات الأمة الجزائرية وذلك بضرب عصبها الحيوي المتمثل في علمائها ورموزها. وما فتأت أن حرّكت ترسانتها القانونية بإصدارها سلسلة من القوانين الجائرة التي تُجرّم تعليم اللغة العربية، وتعدّها لغة دخيلة وأجنبية، إلا أن مقومات الوجود التي يحملها الجزائري جعلت منه نداءً عنيذا للاستعمار الفرنسي، فبادرت الأمة الجزائرية من خلال الأحزاب الوطنية وجمعية العلماء المسلمين إلى جمع التبرعات وبناء المدارس الحرة لتعليم أبناء الشعب الجزائري لغته الوطنية، ودينه الحنيف بعيدا عن الخرافات والبدع الأباطيل، وقد أتت هذه الجهود الجبارة أكلها بعد بضع سنين. ولم نغفل في هذا المدخل الإشارة إلى دور الصحافة الوطنية التي لم تسلم هي الأخرى من بطش اليد الاستعمارية التي كانت تتعهدا بالاحتجاب والتشميع حيناً، وبالإعدام قبل أن ترى النور أو هي وليدة يومئذ أحيانا أخرى، كصحف الشيخ عبد الحميد ابن باديس، وصحف الشيخ أبي اليقظان، وصحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مثلما عرّجنا في هذا المدخل على حالة الشعر والنثر في الجزائر إبان هذه الحقبة الزمنية الحالكة السواد، وقد خلّصنا إلى نتيجة مفادها أنه لا يصلح الفرع ما لم يصلح الأصل، فالشعر والنثر أصيبا في مقتل

بسبب الحصار الخانق، والتضييق القاتل على الوسيلة أو الأداة ألا وهي اللغة العربية التي كانت تنتحب يومها، وقد غلب على الشعر التزعة الدينية، والنبرة الاتكالية من خلال الجنوح إلى الزهد واعتزال الحياة، وهو ضرب من الهروب من الواقع.

هذا بخصوص المدخل، أمّا الفصل الأول فقد تحدثنا فيه عن المفهوم اللغوي والاصطلاحي للمقال، انطلاقاً من الجذر اللغوي، وصولاً إلى مختلف التعريفات التي تعرضت له، وكذا المراحل التي قطعها ليصبح على الهيئة المتعارف عليها حالياً، وقد جرّنا الحديث للتعرض لمختلف أنواع المقال وفقاً لطبيعة الموضوع المتناول أو المعالج، كالمقال الاجتماعي، والمقال الديني، والوصفي، والتاريخي، والعلمي، وتوقفنا عند موضوع دراستنا ألا وهو المقال السياسي الذي يُعنى بشؤون الحكم والسياسة، فيعبر فيه الكاتب مثلاً عن مشاعره وأحاسيسه تجاه وطنه، بهدف إيقاظ شعبه من غفلتها لمواجهة هذا الوضع الراهن، كما هو الحال زمن الاستعمار الأوروبي للبلاد العربية والإسلامية، فمن ينكر دور مقالات عبد الرحمان الكواكي في بناء الوعي القومي في العالم العربي، ومن يجهل الدور الخطير لمقالات جمال الدين الأفغاني في بلورة الفكر التنويري للشعوب الإسلامية، ومن يحدد دور مقالات البشير الإبراهيمي ومحمود بوزوزو في إذكاء جذوة المقاومة والتحرّر من ربقة الاستعمار الفرنسي، ولأنّه ليس كل من يكتب في السياسة يُسمع له، ذلك أنّ الكتابة في السياسة تتطلّب كاتباً نوعياً، بمقدوره أن يوصل فكرته بألفاظ بسيطة سهلة تُثير في نفس المتلقي الحماس، وتستثير عاطفته الوطنية، مستنداً في ذلك إلى براهين وأدلة وشواهد تاريخية أو دينية أو أحداث ومواقف سياسية، تبعاً لسياق الموضوع، وذلك بغرض إقناع القارئ.

وقد أفردنا حيزاً مهماً لفن المقالة في الأدب الجزائري الحديث، والتي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بظهور الصحافة، لأنّ المقالة وليدة الصحافة، وعلى الرّغم من أنّ البوادر الأولى للحركة الصحفية في الجزائر كانت على يد الإدارة الاستعمارية الفرنسية، أو بعض المعمّرين، إلّا أنّها سرعان ما وجدت لها صدى عند الوطنيين الجزائريين، فبادروا لإنشاء وتأسيس بعض الصحف الوطنية الناطقة بالعربية كجريدة الجزائر للشيخ عمر راسم التي أُعدمت بعد ظهور العدد الثاني منها، وجريدة الإقدام للأمير خالد التي لقيت المصير نفسه، ولعلّ جريدة المنتقد للشيخ عبد الحميد بن باديس كانت الفاتحة الميمونة في سجل الصحافة العربية بالجزائر، فقد حملت على عاتقها واجب الدفاع

عن ثوابت الأمة الجزائرية ومقوماتها، وتصدّت لموجات الفرنسة والإدماج، وكانت هذه الجريدة بحق فحرا جديدا للنهضة الفكرية في الجزائر، يكفيها شرفا أنّها حملت فكرة الوطنية التي لا تعني الانتماء الجغرافي فحسب، بل تعدته لمضامين و إدراكات عميقة لمفهوم الوطن من خلال شعارها الخالد "الحق فوق كلّ أحد، والوطن قبل كلّ شيء". هذا من الناحية السياسية، أمّا من الناحية الأدبية فقد جمعت أقلاما أدبية إصلاحية شابة لجيل الشباب الذي تلقى تعليمه في الزيتونة والأزهر الشريف، والشام والحجاز، كالطيب العقبي، ومبارك الملي، والشيخ أبو اليقظان، وكان من الأدباء العرب من يشارك الكتابة فيها عن طريق المراسلة.

وتوالى الصحف العربية في الجزائر التي نمت المقالة السياسية والأدبية في أحضانها، كالشهاب، الشريعة، الصراط وغيرها من الصحف. بيد أنّ جريدة البصائر التي تُعدّ الصحيفة الرابعة التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين، و هي أهم صحفها، و من أكبر الصحف العربية الجزائرية شهرة و انتشارا، لما خلفته من أثر عميق في مجرى الحياة الوطنية من جميع نواحيها، صدرت عام 27 ديسمبر 1935 بعدما أفلتت مرارا من التوقيف إذ ظلّت تصدر بانتظام إلى عام 1939 وسميت (البصائر) بصائرا اقتباسا من قوله تعالى {قد جائكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه و من عمي فعليها، و ما أنا عليكم بحفيظ} سورة الأنعام - الآية 104 حيث وشّحت صدرها هذه الآية الكريمة غير أن هذه الآية حذفت منها فيما بعد، و يصفها الإبراهيمي أنّها أحدّ الألسنة الأربعة الصامتة لجمعية العلماء المسلمين، وكانت الآية الكريمة مكتوبة تحت العنوان و ذلك في أعداد البصائر التي صدرت في عاصمة الجزائر و ذلك ابتداءً من العدد 1 إلى 83.

بعد الحرب العالمية الثانية صدرت الجريدة في سلسلتها الثانية بالعاصمة الجزائرية، بدءاً من سنة 1947 إلى 1956، تحت إدارة وإشراف العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، علامة الجزائر، صاحب العلم الغزير و القلم السيال الراقى في الدفاع عن الوطن و العروبة والإسلام، وقد طُبعت في عدّة مطابع بالجزائر، وكانت توشح الجريدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، وحكم عربية تحت من آداب القرآن من آداب السنة النبوية من حكم العرب، وتارة لا تجعل ذلك بسبب الظروف و المقام .

وقد استمرت مدة تؤدي رسالتها وتوقفت قبل الحرب العالمية الثانية، ثم استأنفت صدورها من جديد في سلسلتها الثانية ابتداء من 25 يوليو سنة 1947م واستمرت إلى أن توقفت ثانية في السادس من أبريل سنة 1956 م أي بعد حوالي سنتين من قيام الجهاد المسلح سنة 1954 م . وعن أهميتها كجريدة عربية إسلامية إصلاحية ساهمت هذه الجريدة بالتعريف بالقضايا الإصلاحية، فكانت هذه البصائر جريدة معروفة في كل المشرق الإسلامي فكانت ذات صيت كبير وواسع، وقد كان جمهور القراء يتهافت على جمع أعدادها، فجريدة البصائر تهتم بشؤون المسلمين وخاصة ما يجري بفلسطين و شبهته كما يجري في الحرمين كما قال بن باديس، مثلما دافعت عن الملك المغربي محمد الخامس، ووقفت موقفا مشرفا مع باي تونس، فما من قضية إسلامية إلا ودافعت عنها بكل ما لها من قوة و عزم و إرادة. و قد تحدّث الكثير من الباحثين عن البصائر الأولى (1935-1939) و هذا لقيمتها الأدبية و آثارها الثقافية الغنية، و الدور الذي لعبته في الميدان السياسي و الفكري الكبير و قد ساهم في إعداد هذه الجريدة - البصائر بسلسلتها - عدّة شخصيات ذات وزن ثقافي وفكري كبير، نذكر أهمهم وأبرزهم : عبد الحميد بن باديس، محمد البشير الإبراهيمي - بن الدراجي، أحمد بن الدياب، أبو يعلى الزواوي، حمزة بوكوشة، علي المرحوم، وأحمد بن دراجي، عبد الحفيظ الثعالبي، المكي الشاذلي، إسماعيل بن يعلى، أمّا الشعراء فنذكر محمد العيد الخليفة، أحمد سحنون، محمد الشبوكي، أحمد بن ذياب، محمد التبسي، العباس بن الحسين، أحمد توفيق المدني، محمود بوزوزو وغيرهم. أمّا خلال ثورة التحرير المباركة فقد تكفّلت جريدة المجاهد بوصفها اللسان المركزي لحزب و جيش التحرير الوطني بمواجهة الترسانة الإعلامية للمستعمر الفرنسي، فأنتجت لنا مقالات سياسية ثورية بامتياز ما بين سنتي (1956/1962)، وقد تركّزت

المادة الخيرية على الدفاع والتعبير عن أفكار جبهة التحرير الوطني، وإبراز أصالة الشعب الجزائري، والعمل على تدويل القضية الجزائرية، وفضح أساليب ودعاية العدو أمام الرأي العام المحلي والعالمي، فلم يعد أحد يصدّق البلاغات الزائفة التي يخلقها المكتب النفساني الثاني التابع للجيش الفرنسي، ليتبرع بتوزيعها على وكالات الأنباء في العالم أجمع، ومما يمكن قوله باختصار أنّ الدعاية الإعلامية المخصّصة للرد على دعاية الاستعمار الفرنسي قد احتلّت حيزاً كبيراً. حيث فضحت الدعاية الاستعمارية وكشفت أساليبها، وفضحت جرائم الاستعمار الفرنسي أمام الرأي العام العالمي وبذلك حصّنت الشعب الجزائري من التّضليل الإعلامي الذي مارسته فرنسا، ومن الأخبار المزيفة والملفّقة التي كانت تُذيعها الدوائر الاستعماريّة، ومواجهة الصحافة الاستعمارية على المستوى الدولي وتنويره بعدالة القضية الجزائرية، وأهدافها النبيلة.

إنّ هذه الجهود الجزائرية في تأسيس الصحف، كانت بمثابة الشرارة التي أوقدت لهيب الثورة التحريرية المباركة، فمن خلالها عرف الجزائريون رسالة الاستعمار ومخططاته الرامية لإبقاء وطنهم مجرد قاعدة واحتياط لبناء فرنسا ومنشأها، كما كانت هذه الصحافة نافذة للجزائري يطل منها على العالم وما يصطّرع فيه من أحداث، فاكتشف إصرار الشعوب المضطهدة في التحرّر من نير الاستعمار، وسرى في نفسه تيار المد التحرري، كل هذا بفضل تلك المقالات التي كانت تنشرها مختلف الصحف الوطنية، التي ولدت وازدهرت المقالة السياسية في الجزائر على صفحاتها.

وفي الفصل الثاني تطرقنا إلى موضوع المقالة السياسية في الأدب الجزائري على الصعيد الداخلي، بمعنى ما هي أهم المواضيع التي طرقتها المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث في الفترة الممتدة ما بين 1925/1962. والحقيقة أنّ الإجابة على هذا السؤال تُلفيها من خلال تصفحنا لمختلف الصحف العربية الصادرة في تلك المرحلة الزمنية فألفينا مواكبة المقالة السياسية لمختلف الأحداث السياسية التي مرّت بها الجزائر آنذاك، كقضية التجنيس مثلاً التي نجد إجماعاً وطنياً حولها منقطع النظر، بين الأطياف السياسية الفاعلة في الجزائر حينها، فمثلما حرّمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على المسلم الجزائري بل وفي مختلف الأقطار الإسلامية أن يتجنّس بجنسية المحتل الأوروبي الذي يستبدل فيها قانون الشريعة الإسلامية لا سيّما ما تعلق بالأحوال الشخصية، وذهب ابن باديس أبعد من ذلك عندما أفتى بجرمة دفن المتجنس في مقابر المسلمين،

نجد الصحافة الطرقية كذلك تلتقي مع غريمتها الإصلاحية في هذه النقطة وترفض أن يتجنس المسلم بجنسية المستعمر، هذا التقاطع يكاد يكون نادرا وقليلًا بين الإصلاحيين و الطرقيين. يقول ابن باديس حول هذه المسألة: " الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية، وقد دلت تجارب الزمان والأحوال على أننا أشدّ محافظة على هذه الجنسية القومية، وأتينا ما زدنا مع الزمان إلقاء قوة فيها، وتشبُّثًا بأهدافها، وأنه من المستحيل إضعافنا فيها فضلا عن إدماجنا أو محونا".

ومن بين المقالات السياسية التي فرضت حضورها القوي في تلك الفترة الزمنية قضية التمثيل النيابي الجزائري في المجلس الفرنسي، فقد كتبت مقالات عديدة بهذا الشأن من طرف الشيخ عبد الحميد بن باديس وغيره والعربي التبسي وغيرهما، فقد أنخوا باللائمة على هؤلاء النواب الذي تحولوا إلى مجرد دمي تحركها الإدارة الاستعمارية أنى شاءت، بعدما كان يُرتجى منهم أن يكونوا صوت الأمة والمعبر عن آلامها وآمالها. وقد شغلت مسألة الثوابت الوطنية حيزا كبيرا من مجمل المقالات السياسية ملأت صفحات الجرائد العربية في الجزائر، كقضية التضييق عن الجزائريين في ممارسة شعائرهم الإسلامية بحرية وأريحية مثلما تنص عليه جميع القوانين والأعراف الدولية، أو قضية اللغة العربية التي اعتبرها الاستعمار الفرنسي لغة أجنبية دخيلة وحاربا بمختلف الأساليب، كسنّ القوانين الجائرة مثلما هو الشأن مع قرار 08/ مارس/ 1938 الذي يقضي بمنع تدريس اللغة العربية في الجزائر، واعتبارها لغة أجنبية، لقد أثار هذا القرار الجائر موجة سخط عارمة بين كل الوطنيين الغيورين على لغتهم وهويتهم، ودينهم، -بمختلف انتماءاتهم السياسية- حتى فرحات عباس الفرنسي، والذي يعدُّ في مرحلة ما عراب فكرة الاندماج، عبّر عن رفضه وسخطه لهذا القرار الذي يهدف إلى قبر اللغة العربية في الوطن، ووجه نقدا لاذعا للسلطات الاستعمارية من على صفحات جريدته الوفاق ورأى أنّ هذا القرار "ضربة قاتلة للدين لأنه يجعل التعليم العربي كالحيال، أمّا الشيخ عبد الحميد بن باديس فقد كتب مقالات سياسية يشهد له بها التاريخ، حول معدنه العربي الإسلامي الأصيل فقد وصف هذا القرار وهذا اليوم المشؤوم بأنه يوم حزن وحداد على تعاليم الإسلام ولغة الإسلام.

ولعلّ مشاركة جمعية العلماء الجزائريين في المؤتمر الإسلامي مع بعض الأطياف السياسية الوطنية الجزائرية، كانت الوسط الخصب لازدهار المقالة السياسية سنة 1936. لما أثاره من ردود

أفعال مؤيدة ومعارضة للمشاركة في هذا المؤتمر، فقد قدّمت مطالب سياسية في المقام الأول لسانة فرنسا حين ذاك وساعدت التغيرات السياسية التي حدثت في الجزائر وفي فرنسا على حدّ سواء، من خلال وصول الجبهة الشعبيّة إلى الحكم في فرنسا بتاريخ 04 جوان 1936 والتي كانت تتكوّن من أحزاب اليسار المختلفة ومن بينها الحزب الشيوعي، والحزب الاشتراكي، على تحريك آمال خامدة، متمثلة في التحرّر والتقدّم والعدالة الإنسانيّة. لذلك نجد كما معتبرا من المقالات السياسية سبقت وتلت المشاركة في هذا المؤتمر.

أمّا مجازر 08 ماي 1945 التي تُعدّ بحق جريمة ضد الإنسانية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فقد أسالت حبرا كثيرا مثلما سالت فيها دماء كثيرة للجزائريين، وهنا نعثر على مقالات سياسية رفيعة من حيث اللغة والأسلوب والعمق، لعلّ أشهرها ما خطه قلم الشيخ البشير الإبراهيمي في جريدة البصائر السلسلة الثانية، ومحمود بوزوزو صاحب جريدة المنار. مثلما سجّلت هذه الجريمة الشنعاء بقلم "باعزيز بن عمر".

ولو جئنا للمقالات السياسية المتألّقة من حيث المستوى الأدبي التي كتبت حول هذه المجازر، نُلفي بلا منازع مقالات الشيخ البشير الإبراهيمي، والتي أبدع في تصوير الفاجعة وفي تحليل ذهنيّة الاستعمار الغاشم، ومقارنته بالحجّة التي تدمغه فإذا هو زاهق يقول الإبراهيمي عن هذا اليوم: "اثان قد خلّقا لمشأمة الاستعمار والحرب، ولحكمة ما كانا سليلي أبوة، لا يتمّ أوّلهما إلّا بثنائهما، ولا يكون ثانيهما إلّا وسيلة لأوّلهما، وقد تلاقت يداهما الآثمتان في هذا اليوم في هذا الوطن، هذا مودّع إلى ميعاد، فقعقة السلاح تحيّته، وذاك مززع أن يقيم إلى غير ميعاد، فحث القتلى من هذه الأمة ضحيّته. ومع اندلاع ثورة التحرير المباركة فإنّ كل الجهود كانت منصّبة لمواجهة الآلة الاستعمارية الفرنسية على مختلف الجبهات، لأنّ المعركة واحدة والمصير واحد، فكان لا بدّ للمقالة السياسية أن تأخذ مكانها و تتمرس للخوض المعركة الإعلامية التي لا تقلّ ضراوة عن معارك خطوط النار مع العدو، وقد تكفلت بهذا الدور الخطير جريدة المجاهد التي تكاد تكون مادّتها الإعلامية الطاغية سياسية بامتياز، فتصدت لأساليب التعذيب التي كان يتفنّن في تجربتها واستخدامها زبانية الاستعمار الفرنسي على المدنيين العزل في مراكز التعذيب، بل مدارس التعذيب، التي لا تكاد تخلو منطقة في ربوع الوطن منها، وبذلك كشفت المقالة السياسية على صفحات جريدة المجاهد زيف وكذب وادعاء الإعلام الاستعماري الفرنسي الذي كان يروّج

لرسالة فرنسا الحضارية بالجزائر، مثلما أنارت جريدة المجاهد من خلال مقالاتها السياسية حقيقة الثورة الجزائرية ومبادئها للرأي العام الوطني والعالمي. وأثبتت أنّها ثورة شعب أراد الحياة فأعلى الجبين، وليست ثورة خبز وقطاع طرق. مثلما تصدّت - المقالة السياسية - لكلّ ادعاءات الاستعمار بأنّه نجح في خنق الثورة التحريرية، وفي عزل الشعب الجزائري عن أشقائه بعدما حوّل الجزائر إلى سجن كبير، ففندت جريدة المجاهد كلّ هذه الإدعاءات الباطلة، وبيّنت أن هذه المشاريع الجهنّمية لم تزد جنود جيش التحرير إلّا عزيمة على مواصلة مسيرة التحرّر والكفاح، وأكدت أنّ جلّ انتصارات المجاهدين كانت على التماس مع خطي شارل وموريس. ومع اكتشاف حقول البترول بالصحراء الجزائرية، فقد ازداد تشبث الفرنسيين بالصحراء، فراح ساسة فرنسا وعلى رأسهم الجنرال شارل ديغول، يناورون لفصل الصحراء عن الجزائر، وكان لا بدّ للمقالة السياسية أن تقوم بواجبها الوطني تُجاه الوحدة الترابية للوطن الجزائري الذي لا تُقبل المساومة على شبر من أرضه، ناسفة بذلك كل المغالطات الفرنسية، والمؤامرات الاستعمارية الهادفة لضرب الوحدة الترابية للشعب الجزائري لا سيّما بعد أن أدركت أن استقلال الجزائر مسألة وقت، وحتمية واقعية، لأنّ الصحراء الجزائرية تمثّل جزءاً لا يتجزأ من الجزائر وكانت فرنسا نفسها تعترف بهذه الحقيقة، حيث بقيت الصحراء طوال عهد الحكم الاستعماري في الجزائر تتبع سياسيا وإداريا وكانت الخرائط والكتب المدرسية الفرنسية، وكتب التاريخ والجغرافيا، كلّها تذكر الصحراء على أنّها جزء لا يتجزأ من الجزائر.

كما أنّها ركّزت على كل مرحلة من مراحل الكفاح المسلح، وأعطتها ما يناسبها من المتابعة والمرافقة الإعلامية كالدور الدبلوماسي للوفد الجزائري في التعريف بالقضية الجزائرية في المحافل الدولية، مثلما تابعت المقالة السياسية. كل مراحل المفاوضات التي تُوجت بإعلان استقلال الجزائر بعد مئة و اثنين وثلاثين سنة من الاستعمار العاشم.

أمّا الفصل الثالث فقد أفردناه للمقالة السياسية على الصعيد الخارجي، كقضايا المغرب العربي، بدءاً من ثورة الريف المغربي بقيادة المجاهد عبد الكريم الخطابي، وصولاً إلى قضية تونس وليبيا في مواجهتهما لكل من الاستعمار الفرنسي والإيطالي على التوالي، ولم تغفل المقالة السياسية في هذا الفصل قضايا المشرق العربي، كقضية مصر والسودان مع الاحتلال الانكليزي، بيد أنّ القضية الفلسطينية نالت نصيب الأسد في مساحة القضايا العربية التي تناولتها المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث في تلك الحقبة الزمنية، ذلك أنّ قضية فلسطين تحمل قداسة في نفس كل إنسان

عربي أبي، فضلا على التشابه الحاصل بين القضية الجزائرية والقضية الفلسطينية، فقد تعددت المقالات السياسيّة الجزائريّة التي كُتبت حول جرح فلسطين الغائر، وحول المشروع الصهيوني المزروع في خاصرة الأمة العربيّة قاطبة، ولا نكاد نجد موضوعا في السياسيّة الخارجيّة حقّق الإجماع بين مختلف الكتّاب من إصلاحيين، واستقلاليين، وإباضيين، و طرفيين، كموضوع قضية فلسطين. والباحث في تاريخ المقالة السياسيّة التي عاجلت القضية الفلسطينية يجد كما هائلا من المقالات عن فلسطين وهي تحت الانتداب البريطاني يومئذ، تقاوم سيطرته من جهة، وتُجاهد لمنع قوافل اليهود من الاستيطان، والتي تقاطرت من كلّ حدب وصوب على أرض فلسطين لإنشاء وطن قومي لليهود بتواطؤ من الدّول العظمى، وعلى رأسها سلطات الانتداب البريطاني والولايات المتحدة الأمريكيّة، كتب الشيخ عبد الحميد بن باديس عن القضية الفلسطينية، مثلما كتب الشيخ أبو اليقظان، ومحمود بوزوزو، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي تُعدّ مقالاته أيقونة أدبية وسياسية من مجمل ما كُتب عن فلسطين شكلا ومضمونا، تلك المقالات التي دبّجها يراع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والتي بثّ فيه أحزان الأمة العربيّة والإسلاميّة، حول جرح فلسطين الذي طال اندماله، وصوّر فيها نكبة فلسطين ومأساة شعبها، كلّ ذلك في قالب فنيّ بديع يجمع بين جزالة الأسلوب، ودقّة المعنى، والتّحليل العميق، والعاطفة الحماسيّة الجياشة التي تعكس أنفة الجزائري وعزّته وشموخه.

قضايا العالم الإسلامي كانت حاضرة بقوة، كقضية إلغاء الخلافة الإسلاميّة، وقضية باكستان و أندونيسيا وغيرها من الأقطار الإسلاميّة التي شاركتها الجزائر آلامها وآمالها، بوصفها جزءاً لا يتجزأ من جسد العالم الإسلامي الكبير.

الفصل الرابع خصّصناه كجانب تطبيقي أو عملي للبحث النظري في الفصول التي سبقت، وقد تناولنا فيه خصائص المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث، تطرقنا فيه إلى جملة من الخصائص التي وسمت المقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث، ويمكن تقسيمها إلى قسمين: خصائص عامّة تتعلّق بشكل المقالة وهيكلها الفنيّ الذي صُبّت فيه، وكذا طبيعة الأسلوب الذي صيغت به، وخصائص فنيّة أخرى ميّزت المقالة السياسيّة الجزائريّة عن باقي المقالات السياسيّة في مختلف أنحاء الوطن العربي. فبخصوص البناء الفني للمقالة السياسيّة في الأدب الجزائري الحديث ألفيناها مُلمّة بضوابط ومنهجية بناء المقالة بصفة عامّة، فمن حيث العنوان وجدنا أنّ جل المقالات السياسيّة قد التزمت بوضع عنوان لها، أمّا المنهجية المكونة من المقدمة والعرض والخاتمة فقد التزم

بها معظم الكتاب إلا في مقالات قليلة محسوبة على جرائد الطرفين الذين غابت أحيانا عنها إحدى عناصر المقال لا سيما المقدمة والخاتمة. أما الخصائص الأسلوبية التي اتسمت بها المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث فقد حصرناها في خاصية السخرية الحادة، شيوع التراكيب الفرنسية والصيغ التقليدية، النبرة الوعظية التي لا نكاد نجد لها نظيرا إلا في مقالات الطرفين، التأثق في الأسلوب وهذه الخاصية يكاد ينفرد بها الشيخ البشير الإبراهيمي، بوصفه امتدادا لمدرسة الصنعة اللفظية التي تُعنى باختيار الألفاظ، وتزيين العبارة بألوان البيان والبديع دون إهمال المعنى. فلا يشعر القارئ أنّ الكاتب يُقحم الكلام إقحاما، فضلا عن توظيف الصور البيانية والمحسنات البديعية في غير تكلف في ملائمة بين اللفظ والمعنى لا نجد لها إلا عند فحول الكتاب القدامى، مثلما يحرص الإبراهيمي على انتقاء ألفاظ من المعجم العربي القديم، ولا ينسى أن يُطعم مقالاته بما اختزنته حافظته من أمثال وحكم عربية تعكس تأثره بالمرورث العربي القديم بلاغة ومعجما. إضافة إلى خاصية النبرة الثورية الحماسية التي طبعت في الغالب المقالات السياسية التي كتبت خلال ثورة التحرير المباركة.

أما التشكيل البلاغي للمقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث من محسنات بديعية كالسجع والجناس والطباق والمقابلة، فنجده حاضرا بقوة لدى معظم كتاب المقالة السياسية، وكذلك هو الشأن بالنسبة لتوظيف البيان من تشبيه واستعارة وكناية، مع الإشارة إلى التفاوت النسبي القائم بين الكتاب في مقدرة كل منهم على توظيف هذه الفنون البلاغية، بيد أنّ البشير الإبراهيمي يكاد يكون ظاهرة بلاغية في المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث، ذلك أنّه وظّف البديع وطوّعه حتى طاوعه، فلا نكاد نعثر على مقالة من مقالاته تخلو من سجع أو جناس أو طباق أو مقابلة، فهو بحق علامة فارقة في تاريخ كتاب المقالة الأدب الجزائري الحديث، وإن كان توظيف الإبراهيمي للسجع لهدف بلاغي مقصود، وليس تكلفا أو تصنعا منه، بل هذا السجع ينطلق من لسانه مُتدفقا كماء مُناسب.

وفي نهاية المطاف أوضحنا من خلال الخاتمة جملة من النتائج التي توصلنا إليها، لعل أبرزها: أنّ الأدب الجزائري الحديث عرف فن المقالة السياسية مثلما عرفها الأدب العربي في مختلف أقطاره، مثلما اتّسمت المقالة السياسية بمهادنة الاستعمار في مرحلتها الأولى كنوع من التّقية، ثم ما لبثت أن سرت بأوداجها روح الحماسة والثورة والتّحدي تبعا للظروف الوطنيّة والدوليّة.

التفاوت القائم بين الكتاب في مستوى الكتابة تبعاً لشخصية كل كاتب وثقافته، وخصوبة فكره أو ضيق أفقه، وامتلاك ناصية اللغة أو القصور فيها. اصطبغت المقالة السياسية في الأدب الجزائري الحديث بصبغة السخرية الحادة، غير أنها طغت عليها نزعة الحسرة والألم، ويمكن وصفها بالسخرية الحزينة المكونة من مزيج من الألم والمرارة والكآبة نابعة من أعماق نفس جريحة متألمة، غير راضية ولا مرضية تحمل معها ملامح الرفض والتّصدي. ينفرد الإبراهيمي في الساحة الأدبية العربية بفنّ السخرية، ويثبّتها في التجربة السياسية في أسلوب أدبي رشيق، ويُكوّن بذلك في أدائه قوّة للنص، وطعماً خاصاً للمقال السياسي، فعلى الرّغم من ركوب كثير من الأدباء الجزائريين مطيّة السخرية إلاّ أنّ البشير الإبراهيمي يكاد يكون الوحيد الذي استطاع أن يروّض هذه الأداة اللادعة وهذا السوط اللاسع.

introduction

In The Name of Allah Most Gracious Most Merciful, And prayer and peace be upon the noblest of Allah's creation, and upon His family and companions, after that...

The art of the article is one of the most prominent literary arts that led an important role in the Arab renaissance in the beginning of the twentieth century, In both political and literary fields, and through the art of article the star of Major Arab writers has brighten, and they received a great attention from the critics and researchers. Believing in the importance of publishing our Algerian literary heritage which still lacks Pens researchers, in this context, we have chosen the subject of political article in the modern Algerian literature, which it was often the echo of the political life in that dark era which is identified between (1925- 1962).

Modern Algerian literature has known the art of article in general, and the political article in particular, And it shined, in this art, literary and political writings and pens which left their mark in the history of this literature, like Imam Abdelhamid Ben Badis, and Larbi Tbessi, and Mohammed Al-Saeed Alzahiri, and Mohammed El Bashir El Ibrahimy, and Ahmed Tawfiq Al Madani, and Mahmoud Bouzouzou, and Ahmed Reda Houhou and others. These towering statures have left immortal impact of literature and political texts which is still mostly differentiated between the pages of newspapers and magazines, and is in desperate need of who takes it from under the rubble of oblivion and removes the ruins of neglect.

The political article in modern Algerian literature is to be considered as a virgin field for research and study, In spite of the existence of previous studies to talk about the press article in the modern Algerian literature, But it was mostly general and includes the art of article in all its branches, and Some of which was differentiated and shared by pages of newspapers and periodicals, and We acknowledge that these attempts and signals helped us to study and search this subject, and We mention among those who have been credited in the head start in dealing with the subject of the article in the modern Algerian literature: Saif al-Islam al-Zubayr in his book The History Of The Press in Algeria, Awatif Abdul Rahman with her author of the Arab press in Algeria 1954- 1962, And AbdulMalik mortadh in his books, The renaissance of contemporary Arabic literature in Algeria 1925- 1954, and Prose Literature Arts 1931- 1954, and the Author has given careful attention to the articles of al-Ibrahimi so it attains a better luck of research and study.

However Mohammed bin Saleh Nasser had the honor of the head start in dealing with the subject of the article in the modern Algerian literature in general, which he has confined it between 1903 and 1931. And this is almost the only attempt to investigate the steps of the press article in the modern Algerian literature, However, it does not satisfy the student researcher, Which encouraged us to try to contribute to this topic and write on it, and for other reasons and motivations we mention some of them:

- Trying to study Algerian literature and Detect its hidden mastery.

- The lack of studies and research on the subject of political article in the modern Algerian literature.
- Trying to demonstrate the aesthetics of the political article and apparition on the modern Algerian literature.
- To highlight the hidden sides of the history of our national struggle in the steadfastness and resistance with the noble word.

The subject of our research which is marked with the political article in the modern Algerian literature 1925-1962, and based on what we have said, searching the problematic was within the following questions:

Has the modern Algerian literature known the art of the political article? And what are the topics it has touched? And what is the purpose for that? And Was the political article just a simulation and imitation of the oriental one? What are its most important artistic characteristics?

To answer these questions this research did not comply one approach, but it combines between many methods, where the historical method comes first, Especially to take into account the chronology of the texts, and The Chronicles of events and to mention some of the historical personalities named in the research.

We have adopted the descriptive analytical method which is appropriate for the subject of research in the interrogation of political text, and know its capacities and purposes, and then drop it on the positions of his writers and their political orientations during the French colonialism.

The structure of the research is determined in the following plan which is divided into the introduction and four chapters and a conclusion.

We tried in the introduction to highlight the intellectual and the cultural life in the colonial era, as we approached the colonial efforts in his attempt to deform the Algerian people from his identity and his response about his religion.

In the first chapter we have tried to identify the article linguistic and artistic sense, and simplified the talk about the historical periods which made the article up to its image of maturity, as we mentioned in this chapter the favor of the Arab press in Algeria on the evolution of the article in the modern Algerian literature.

Where chapter two discusses the political article Internally by Investigation and traces starting from 1925, until 1962, where the political article experienced a tough Fords, severe situations of major political events, such as the Islamic conference 1936, and the World War II, and the massacres of 08 May 1945, and the blessed revolution of liberation.

And in the third chapter we followed the path of the political article in the modern Algerian literature, At the external level, and we did study and analyze topics that were handled by the article writers in Algeria of different political issues like The issues of the Arab Maghreb such as the issue of Libya, and the issue of exiled King of Morocco Mohammed V, Elmonsef Bey, or the issues of the Arab East and Palestine, which won the lion's share of attention and treatment, and the article did not ignore the political world events' and its fluctuations.

The fourth chapter was as the practical side of the research topic, we focused on the manifestations of the political text by standing on the artistic and rhetorical values, through the writers' employment of The statement of Arts such as analogy and metaphor and euphemism, and we did a small research about the artistic characteristics of the political article in the modern Algerian literature.

We were accompanied in this study with a group of main sources and references, like the Newspaper Elmontakid, and Echihab, and the Newspapers of Sheikh Abu elyakadan kuadi mizab, Elommah, Elbostan, Elbasair with its two series, Elmanar, and the newspapers of toroqiyin, like Elbalagh and Elmorchid, and the newspaper Elmoujahid representing the blessed revolution, and as references: Algerian press article, its origination, and its evolution. Arabic newspapers in Algeria from 1847 to 1954 by Mohammed Nasser, Arts of prose in Algeria from 1931 to 1954, by Abdulmalik mortadh, Algerian Sufism newspapers from 1920 to 1955 by Mohamed Salah Ait Aljet, and the Revolution Press 1954- 1962 by Awatif Abdul Rahman.

The Conclusion of The research has included the overall results obtained, and in the end of my research I made a list of sources and references, and like any searcher I have faced some difficulties and obstacles, including:

1. The breadth of the field of research and overlapping issues and complexity.
2. Scarcity of some of the texts because of the lack of some newspapers.

3. The difficulty of achieving some political texts, or the absence of some of its paragraphs by moisture and time factors.

This is what we have reached, And we can only at the first place thank Allah who helped us to complete this research and honored us by belonging to the Arabic nation, Then to record our big thanks and gratitude to our teacher, supervisor Prof. Dr. Mohammed Abbas for his supervision, and for supporting the trouble of reading and correcting and monitoring, Commending his beautiful patience, his generosity, and his good deeds, We also thank our teachers for their guidance and scientific advice.

And only for Allah we seek.

Kardane Elmiloud

Tissemsilt on: 29/09/2014

Conclusion

The conclusions of this research after reading and following-up, makes us stand on many issues and observations, multiple values, summarized in the following points:

First: the modern Algerian literature has known the art of the political article, as it was known by the Arabic literature in its various countries, just like other nations literatures.

Second, the political article characterized by the truce of the colonialism in its first phase as a sort of self protection, then it soon was full of enthusiasm and of the spirit of the revolution and the challenge according to national and international conditions.

Third: the disparity in the level of writing between writers depending on the character and the culture of each writer, and the fertility of their ideas or the narrowness of their horizons, And the mastery of the language or the deficiencies..

Fourth : the Political article in the modern Algerian literature is characterized by a sharp irony, but it was Dominated by the tendency of anguish and pain, And it can be described as a sad irony, consisting of a mixture of pain and bitterness and depression stemming from the depths of a wounded soul in pain, not satisfied nor satisfactory carries with it the features of rejection.

Fifth: Al Ibrahimi is unique in the art of irony on the Arab literary scene, where he broadcasts his irony in the political experiment in a swift literary style, And this performance it is a power to the text, and a special taste for the political article, Although, a lot of Algerian writers tried to write in this ironic

style, however, al-Bashir Ibrahim is almost the only one who was able to master this art, Then he deserves leadership in the modern Algerian literature.

Sixth: Sheikh ElBashir Ellbrahimi represents an artistic school that stand-alone in the political article, as he balanced between the word and the meaning, in a clear extension of the School of word's finesse, in an abundance style and its Robustness, And it can be named as Al jahidhia school.

Seventh: Sheikh Abu Alyaqadhan is truly a pioneer, a living example of the jihad by word, through his newspapers series which was a subject to the guillotine of the colonial administration, because of the political meanings of its articles overflowing national resistance, and rejection.

Eighth: The revolutionary political article reflected, especially on the pages of the newspaper El Moujahid, the demands of the Algerian people for the emancipation and the liberation from French colonial domination, so it truly was the voice of the Algerian people, and the cry of defiance and revolution.

Ninth: the political article in the modern Algerian literature, knocked the bulk of political issues at that time, both national and international issues, and has never been Narrow-minded or encrusted itself.

Tenth: the political article reflected, at most writers, in the modern Algerian literature the concept of commitment in its highest sense, either through Combating French colonialism, or handling Arab and Islamic issues like the issue of Palestine, or advocate for global liberalization issues.

ISSN : 2170-0931

المعيان

مجلة دورية محكمة تصدر عن المركز الجامعي تيسمسيلت . الجزائر



العدد: 07. جوان 2013

المركز الجامعي : تيسمسيلت - الجزائر - الهاتف/الفاكس : 046 47 56 18

منشوراتنا



فهرس العدد

اللغة والأدب العربي

- كلمة العدد. د. محمد بلحسين..... 07
- افتقاء الأثر واستحضار الواقع، ترددات مفهوم الحرية في النص الشعري الجزائري المعاصر. د. عبد القادر راجحي..... 15
- المصطلح النقدي في النقد الجزائري المعاصر - الحيز عند عبد الملك مرتاض أمودجا - مصطفى بوفادينة..... 31
- النقد الأدبي الجزائري الحديث بين أزمة المنهج والبحث عن التأصيل. د. صباح خضاري..... 43
- بنية النظام المعرفي في الخطاب الصوفي قراءة في الأصول. د. أحمد بوزيان..... 57
- أثر المسرح في تكوين شخصية المتعلم. عبد العزيز بوشلاق..... 73
- تعليمية الدرس البلاغي العربي بين التنظير والممارسة - التعليم الثانوي نموذجاً - عدة قادة..... 83
- جمالية المكان في رواية عائلة من فحار (مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة) لمحمد مفلح. د. عبد القادر مزاري..... 99
- رامن الشعرية في المدونة النقدية المعاصرة. قدوية يعقوبي..... 109
- مستويات اللغة في رواية مزاج مراهقة. نورة شريط..... 123
- علاقة اللغة العربية بالقرآن من منظور الأستشراق الفرنسي. د. عبد الوهاب بن دحان..... 137
- حاك بيرك رأس بوجهين: المنهج والرؤية. فتح الله محمد..... 147

- تطور بنية الشخصية في الخطاب الروائي الجزائري الحديث.
- 155..... رابع شريط.
- خصائص فلسفة الرواية الإسلامية.
- 167..... خديجة عبد الرحيم
- التعليمية وصلتها الوثيقة بعلم اللغة - بحث في الآليات والنتائج.
- 177..... محمد يونسى
- أدب السخرية في الأدب الأندلسي.
- 191..... الميلود قردان
- المقصدية والبلاغة - مسال في التداول والحجاج.
- 201..... محمد نعار
- التأويل بالتضمنين في أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.
- 247..... نجادي بوعمامة
- Les résumés et les résumés automatiques.
- 243..... حسين عيجولي

العلوم القانونية والإدارية

- مسؤولية الناقل البحري للبضائع بين أحكام القانون البحري الجزائري
واتفاقية هامبورغ.
- 257..... د: محمد بوراس
- الشرعية الدولية للتدخل الإنساني.
- 271..... عبد القادر دحماني
- خطر استخدام الأسلحة النووية في ظل المبادئ الأساسية للقانون الدولي الإنساني.
- 293..... عبد القادر زرقين
- تحفظات الدول العربية على معاهدات حقوق الإنسان بين السحب والإبقاء في ظل
التطورات العربية الراهنة.
- 305..... عبد القادر باية
- التزام المؤسسة الاقتصادية في الجزائر بحماية البيئة.
- 321..... جواد عبد اللاوي

لا يكاد يخفى أدب أمة من الأمم الماضية والحاضرة من ظاهرها السخرية التي تطبع الآداب بطبيعة فكاهية مرحة في بعض الأحيان، وقد تكون سوطاً مؤلماً في أحيان كثيرة من حيث كونها وسيلة علاج أو مقاومة، لأنها تحيب لنا الحياة وتكسيها بنوب قشيب، مثلما تعتذب العقول والأدواق.

والأدب كغيره من الآداب الأخرى عرف ظاهرة السخرية بألوان وأشكال، كالفكاهة والدعابة، والتعريض، والرد بالمثل، وغيرها من الصور الكثيرة والمتعددة هاته الظاهرة النفسية والأدبية، ولعل مما ساعد على شيوعها ونموها في الأدب الأندلسي هو الطبيعة الخلابة لشبه الجزيرة الإيبيرية والروح المرحة المنهكمة التي يتسم بها سكانها.

السخرية في العصر الأندلسي:

عني الأندلسيون كأشقيائهم المشاركة بالفكاهة الأدبية، وقد وردت بالفاظ متعددة كالدعابة والخرنق والمجون في معرض وصفهم لمن ترجموا ضم من كتاب وأدباء وشعراء، أو فيما خلفوه من آثار أدبية خالدة شعرية كانت أم نثرية، والتي تشهد على روح الدعابة والفكاهة التي ميزت أهل الأندلس، التي لا يخلو بعضها من السخرية اللاذعة، كرسالة ابن شهيد وابن زيدون، وشعر ولادة بنت المستكفي التي لا يختلف أشعارها الساخرة عن أشعار ابن الرومي وهجاء بشار.

يقول صاحب النضح: "وأساء من مُبغع السائلين ما يرجون: أن يصفح عن زلاتي، ويسامحتني فيما أوردت في هذا الكتاب من الخزل والمجون، الذي جرئت المناسبة إليه والحديث شجون، وما القصد منه إلا ترويح قلوب الذين يسوقون عيس الأعمار ويخرجون⁽¹⁾."

وقال في موضع آخر واصفاً روح الفكاهة والدعابة عند الأندلسيين: "ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة في محاوراتهم وأجوبة بديهة مُسكِنة⁽²⁾."

أما صاحب الذخيرة فيصف أحد ضرفاء قرطبة وهو الشاعر ابن ذكوان الذي اشتهر شعره بالمجون فيقول: "فجاء فيه طرفا ليست وراءه غاية، يصور القلوب برقة ظرفه وحرارة نادرته، ولا يكاد أحد يمكثه من أذنه إلا أخذ بفؤاده رقة وحلاوة، ويشبهها ببعض الخزل عند ابعاث النادرة⁽³⁾."

وكان ابن عبد ربّه في طبعه ميلا للدعابة والمزح والفكاهة. وقد أثر هذا الميل فيما نقله في "عقدّه" عن أخبار المتقدمين من ناحية نوعها، وطريق سردها، فترى فيها كتابا خاصا في الفكاهات والمُضح، ويرى القارئ في هذا الكتاب كثيرا من القصص الشائقة، التي يظهر فيها ابن عبد ربّه قصد إلى الفكاهة في تدوينها لا إلى التاريخ⁽⁴⁾.

والفكاهات في نظر ابن عبد ربّه¹ نزهة النفس وريح القلب، ومرنع السمع، ومجلب الرّاحة، ومعدن السرور⁽⁵⁾.

ويصف في موضع آخر من عقده الطّرائف والتّوادر فيقول: "فكأئها أنوار مزخرفة أو حُللٌ منشرة، دائية القطوف من جاني ثمراتها، قريبة المسافة لمن طلبها، فإذا تأملها الناظر، وأصغى إليها السّامع وجدها منهي للسمع، ومرنعا للنظر، وسكنا للروح، ولقاحا للعقل، وسيمرا في الوحدة، وأنيسا في الوحشة، وصاحبيا في السفر، وأنيسا في الحضر⁽⁶⁾".

ويصف ابن الخطيب صديقا له من غرناطة، يدعى إبراهيم النّميري، ويُعرف بابن الحاج يأتيه: "كان مليح الدّعابة، طيب الفكاهة، أثر المشرق فانصرف عن الأندلس في حرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، وألّم بالدول محرّكا إيّاهما شعره، هازا أعصافها بأمداحه، فعُرف قدره، وأعين على طبيّته، فحجّ وتطوّف، وقيد واستكشر، ودوّن في رحلة سفره. من تواليفه: المساهلة والمساحة في تبين طرق المداعبة والممازحة، وتنعيم الأشباح بمحادثة الأرواح وإيقاظ الكرام بأخبار المنام⁽⁷⁾".

ونحفظ لنا كتب التراث الأندلسي سير أعلام الفكاهة، فالشاعر أبو عامر بن شهيد كان: "في تميم الهزل والنادرة الخارّة أقدر منه على سائر ذلك⁽⁸⁾؛ فرسالة التّوابع والزوابع" التي أبدعها ابن شهيد تُعدّ مصنّفا قائما بذاته في "فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال، برّز فيها شأوه، وبقاها في الناس خالدة بعده⁽⁹⁾".

ومن أدباء الأندلس الذين لهم باع طويل في توظيف السّخرية والتّهكم، ابن زيدون، الذي عمد إلى الفكاهة انتهكّمة، حين ألف رسالة في السّخرية من ابن عبدوس مُنافسه على حُبّ الأدبية الشاعرة ولادة بنت المستكفي.

وقد سُمّيت هذه الرسالة برسالة ابن زيدون أو الرسالة الهزلية، هذه الرسالة المتخمة بالمباغيات والتّهويلات السّاخرة، وكأنا نقرأ رسالة التّربيع والتّدوير للجاحظ مع ابن عبد الوهاب.

ومع ذلك لم يقتصر هذا الفن - الفكاهة والسّخرية - على معشر الرجال، بل إنّ النساء الأدبيات تميّزن بحضور النادرة وسرعة التمثيل ونخفة الروح "فكان لمن اليد الطولى في البلاغة، كي يعلم أن البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم، حتى في نسائهم وصبيانهم⁽¹⁰⁾".

وكن محببات في مجال المداعبة، ولكن ما لمن من ذلك لم تروه الكتب واكتفى به نوادر محكمة. ومن أشهرهنّ ولادة بنت المستكفي، ونزهون بنت الفلاحي الغرناطية، ومهجة بنت التّياني القرطبية وغيرهن.

وتحفظ لنا مصادر الأدب الأندلسي نصوصا من النثر الفكاهي، تدور حول مسألة بسيطة يشترك فيها أديبان أو أكثر، ويتبادون الردود حولها مضمّنين ردودهم أمثالا وحكما وأشعارا، ومن هؤلاء طائفة الفقهاء وجماعة الأشياخ العمماء، فإنهم في تنادهم يعبرون عن الرّوح الفقهي والعلمي، وقد سلك هذه الطّريقة أبو بكر بن الحسن المرادي القروي الذي سقط كاتب له كان يُكتب بأبي الأصبع عن دأبته، وقام بأثر جرح في وجهه، ثم اتفق أن سقط إثر ذلك أيضا المرادي، وقام دون أثر عليه، فقال أبو الأصبع: وهذا النفي أيضا قد سقط، فقال المرادي من جملة أبيات:

فشتان بين وقوعي أنا وبين وقوع أبي الأصبع
فذاك سقوط يشجّ الوجوه وهذا سقوط كما ينبغي⁽¹¹⁾

ومن النوادر التي تورى عن أبي علي الشديبي - إمام نخاعة المغرب - أن ابن الصابوني - شاعر إشبيلية - وكان يلقب بالحمارة؛ لاجته في مسألة، فقال له: كذا هي يا حمارة يا حمارة؟ إلى أن تدرج حتى قال: يا ملء السموات والأرض حمراء ثم جعل يصعده في أذنيه وزحف إلى أذيال الحصر وهو ينهق كالحمارة⁽¹²⁾.

أما يحيى السرقسطي المعروف بالجزار فكان أديبا، مدح منوك بني هود ووزرائهم، ثم ترك الأدب والشعر وعكف على القصاية "فأمر الحاجب ابن هود الوزير أبا الفضل بن حسداي أن يوتخ يحيى هذا على رجوعه إلى الجزيرة وهجره للأدب والشعر، فخاصه بأبيات أولها:

تركّت الشّعْرَ مِنْ طَعْفِ الإصَابَةِ وُعِدْتَ إِلَى الدَّنَاءَةِ وَالْقَصَابَةِ⁽¹³⁾

فأجابه يحيى بأبيات في غاية السّخرية من انوضع الذي آل إليه، ويعيب على الحاجب استخفافه بالجزارة التي لو علم ما فيها من فضل وخير لما رضي بالحجابة. يقول يحيى السرقسطي:

تعب غلي مالف القصابَة ولمن لم يدر قدر الشيء عباه
ولو أحكمت منها بعض فن لما استبدلت منها بالحجاية
أما ولو أطلعت عليّ يوماً وحولي من بني كلب عصابه
فكنّا في بني الغنزي فنكا أقرّ الدعر فيهم والمهابه
ولم نفلح عن الثوري حتى مزجنا بالدم القاني لعابه⁽¹⁴⁾

وسخر الشاعر أبو بكر محمد المشهور بالأبيض، من الزبير المثلث صاحب قرطبة، فصوره عاكفا على الضلالة والفجور مع وزيره، وهو يكثر من السجود، غير أن سجوده هذا ليس في العبادة وإنما بين الكؤوس ونعمة الأوتار، التي إذا مسها تعالت وراءه أصوات القيآن ورنات المزمار، وهذا يكون الشاعر قد فضح صاحب قرطبة ووزيره وخبع عنهما ذلك الستار الذي كانا يخبثان وراءه، فيكشفتها عنى حقيقتهما في سخرية ازدراء. فيقول:

عَكَفَ الزُّبَيْرُ عَلَى الضَّلَالَةِ جَاهِدًا وَوَزِيرُهُ الْمَشْهُودُ كَلْبُ النَّارِ
مَا زَالَ يَأْخُذُ سَجْدَةً فِي سَدَةِ بَيْنَ الْكُؤُوسِ وَنِعْمَةِ الْأَوْتَارِ
فَإِذَا اعْتَرَاهُ السُّهُوُ سَبَّحَ خَلْفَهُ صَوْتُ الْقِيَّانِ وَرَنَةُ الْمِزْقَارِ⁽¹⁸⁾

كما حففت مصادر الأدب الأندلسي بالكثير من الفكاهات المبنية على التيهك بالعيوب الجسدية أي الجسد وما يتصل به، كاللحية والأنف والإقفاء والشياب: ومن ذلك قول أبي علي إدريس بن اليمان العبدري في خية طويلة عريضة:

لَوْ أَنَّهَا ذُونَ السَّمَاءِ سَحَابَةٌ نَمُ تَخْتَرِفُهَا دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ⁽¹⁹⁾

غراية هذه اللحية جعلت الشاعر يصورها كأنها سحابة سوداء قائمة اللون تحجب نور الشمس ووجه السماء، بل حتى دعوة المظلوم لا يمكنها اختراقها أو التفاض منها بالدعاء، فالشاعر يشير إلى الحديث الذي يؤكد أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

وحصل جفاء بين الشاعر ابن زيدون والشاعرة ولأدة بنت المستكفي، وصلت إلى حد القطيعة بينهما، ونشبت بينهما معركة هجائية ساخرة حامية الوطيس، يقول ابن زيدون متهمًا بنت المستكفي بالابتدال ومخبرًا إياها بعدوله عن حبها:

قَدْ عَلِقْنَا سِوَالِكَ عَلَقًا تَفِيْسًا وَصَرَفْنَا إِلَيْهِ عَنكَ النَّفُوسَا
وَلَيْسْنَا الْجَدِيدُ مِنْ خَنَعِ الْحُبِّ وَلَمْ نَأَلُ أَنْ خَلَعْنَا اللَّبُوسَا
لَيْسَ مِنْكَ الْهَوَىٰ وَلَا أَنْتَ مِنْهُ أَهْبِطِي مِصْرَ أَنْتِ مِنْ قَوْمِ هُوسَى⁽²⁰⁾

ولم يقتصر أسلوب التيهك والسخرية على أدباء الأندلس، بل تعداه إلى أديباهم الطريفات اللائي أتقن فنون التيهك والاستهزاء، والذي يصل إلى حد اضحاء المقذع كما هو شأن الشاعرة الأديبة ولأدة بنت المستكفي.

فقد هجت ابن زيدون هجاء مرا، ومن أخف ما قالته في حق ابن زيدون وفتاه علي:

إِنَّ ابْنَ زَيْدُونَ عَلَىٰ فَضْلِهِ يَغْتَابُنِي ظُلْمًا وَلَا ذُلْبًا لِي
يَلْحَظُّنِي شَرًّا إِذَا جِئْتُهُ كَأَنِّي جِئْتُ لِأَخْصِي عَلِيَّ⁽²¹⁾

إن هذا الهجاء الفاحش والكلام البذيء لا نكاد نصدق أنه لرجل من دماء الشعب وسوقه الناس فضلا عن كونه لامرأة من البيت الأموي⁽²²⁾، فردّ عليها ابن زيدون في رسالته الهزلية التي جعلها على لسانها، وقصد بها غريمه ابن عبدوس، الذي كان يراحمه في حبّ ولادة.

فضرب ابن زيدون عصفورين بحجر من خلال هجاء ابن عبدوس هجاء مقذعا، وجعله على لسان ولادة وشهّر بها في أشعاره:

عَيْرْتَمُونَا بِأَنْ صَارَ يَخْلُفُنَا
فِيمَنْ نُحِبُّ، وَمَا فِي ذَلِكَ عَارُ
أَكَلْ شَهِيٍّ أَصَبْنَا مِنْ أَطْيَبِهِ
بَعْضًا، وَبَعْضٌ قَدْ صَفَحْنَا عَنْهُ لِلْفَارِ⁽²³⁾

ويقصد بالفار "ابن عبدوس".

ولم تكن ولادة وحدها في مضممار الهجاء السّاحر، بل كان إلى جانبها أسماء أخرى، كترهون بنت القلاعي الغرناطية، ومهجة بنت التّيان القرظية وغيرهن.

جاء في نصح الطّيب أن ترهون الغرناطية قالت مخاطبة ابن قرمان عقب ارتحال بديع، وكان يلبس غنارة صفراء على زيّ الفقهاء حينئذ: "أحسنت يا بقرّة إسرائيل، لأنك لا تسرّ الناظرين، فقال لها: إن لم أسرّ الناظرين فأنا أسرّ السامعين⁽²⁴⁾". تشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوثُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ﴾⁽²⁵⁾.

وقبل أن تغادر الأندلس وطرّفها وأدبائها السّاحرين، يحسن بنا أن نقف أمام أثرين أدبيين خالدين: أحدهما طابع المقامة، وهما رسالة التّوابع والتّوابع لأبي عامر بن شهيد الأندلسي، والرسالة الهزلية لابن زيدون.

فقد اتخذ ابن شهيد المقامة إطارا لكتابه في رسالته الموسومة بالتّوابع والتّوابع، والتي أراد من خلالها السّخرية من خصومه. فأظهر فيها براعته اللّغوية في المنظوم والمنثور، عند لقاءه بالأدباء المتقدمين منهم والمثّاعرين، فلا يجازى بعد كلّ لقاء إلا شاعرا أو خطيبا. فبدأ رسالته بمخاطبة صاحبه أبي بكر بن حزم، وحاكى في هذه الرسالة لغة المقامة، بما التزم فيها من سجع، وما حملت من محسنات، ووصف فيها الحياة الأدبية والاجتماعية في قرطبة، ونقدها نقدا تحكّمية لادعاه، بسبب كثرة خصومه وحسادته، فضعن في منافسيه من الوزراء والأدباء وأرباب الحجى، وأظهر حماسته وفضائله.

لذلك لا نجده لا يتحرّج في أن يعجز بأهل قرطبة، من عدم وجود فرسان الكلام بها، في المنظوم والمنثور.

يقول ابن شهيد في لقاء مع توابع الكتاب - وخاصة تابعي - بما حظ وعبد الحميد - إذ ليس لسببويه في كلامهم عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سعة، إنما هي لكمة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية الجحوس والنبط²⁶.

ويسخر ابن شهيد بالتضاع الوزارة وخسرانها، ونولي المناصب من ليسوا لها أكفاء، بأسلوب في غاية التهكم، من خلال الحوار الذي دار بينه وبين البغلة: "وقالت لي البغلة: أما تعرفني أيا عامر؟ قلت: لو كان ثم علامة؟ فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيسى، والخال على خدّها، فتباكيننا طويلاً، وأخذنا في ذكر أيامنا. فقالت: ما أبقت الأيام منك؟ قلت: ما ترين. قالت: شبّ عمرو عن الطوق، فما فعل الأحيّة بعدي. أهم عنى العهد؟ قلت: شبّ العلمان وشاخ الفتيان وتنكرت نخلان، ومن إخوانك ما بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة. فتنفست الصعداء. وقالت: سفهم الله سبل العهد، وإن حالوا عن العهد، ونسوا أيام الرّد، بحرمة الأدب إلا ما أقرأهم مني السلام. قلت: كما تأمرين وأكثر²⁷.

يستعيض ابن شهيد الأندلسي بالحوان، لثبته حزنه وأساءه من تذكّر الأصحاب، وبلوغ بعضهم درجة الوزارة وتكبرهم له، كل هذا بأسلوب مصحك ساخر، لأن ذلك أعشق وأبلغ من الأسلوب المباشر الجاف، ومن النفذ والتجريح الذي يصل إلى حدّ الهجاء. فابن شهيد حرص على أن يجعل من نفسه مؤلفاً كوميدياً، ممّا يوحي بالاعتقاد أن التوابع والزواج "مسرحية كوميدية حرص مؤلّفها على أن يوحي لأهل الأندلس وبخصوصا القرصيين الذين يريد إضحاكهم أنه يتحقّق له التفوق أو "النديّة" على الأقل، لتشخصيات الشاعرة والنائرة في روايته، ولكن ليس أقل مهم بأية حال، لا في الذكاء ولا في الثقافة ولا في أي مجال²⁸.

أما ابن زيدون فقد كتب رسالة هزلية عبث فيها بأبي عامر بن عبدوس، منافسه في حبّ ولادة بنت المستكفي، نزع فيها مترع الجاحظ في العبث والسخرية والاستخفاف والتهكم بشخص أحمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير الشهيرة. كان بين (ابن زيدون) و (ابن عبدوس) عداوة أصدية بعد صداقة متينة، وكان أكبر أسباب تلك العداوة تنافسهما أو صراعهما على ولادة الأديبة الشاعرة بنت المستكفي.

ومما جاء في تلك الرسالة: "أما بعد أيها المصاب بعقله المورط بجعله، البين سقطه، الفاحش غلظه، العائر في ذيل اغترازه، الأعمى في شمس لهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت كهافت الفراش على الذباب"²⁹، ويواصل ابن زيدون تهكمه في الرسالة الهزلية التي دبت بها براعته في صورة سخرية لاذعة: "كلامك ثمنه وحدثك غمغمة، وبيانتك فهفة، وضحكك فهفة ومشيك هرولة، وغناك مسأل، وديتك زندقة، وعلمك حذقة"³⁰.

رسالة ابن زيدون مبيية على الاعتناء بسخرته من حال احط من قيمة ابن
عبدوس، وتمريغ سمعته في الوحل؛ ليظهر في مواقف تثير الضحك والتندر، والسخرية قائمة
فيها على المقابلة بين الحق والباطل، وبين الخفية والزيف، وبين الكمال والنقص، وبين
النصع والتكلف، وبدقيق العبارة بين الأضداد.

ويواصل ابن زيدون الثأر من غريمه بأسلوب ساخر: "واستويت في مراتب الجلال،
واستوليت على محاسن الخلال، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت
منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه، وأن قارون أصاب بعض ما كترت، والنطف عثر
على فضل ما ركزت، وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك"³¹.

نجح ابن زيدون في إغراق (ابن عبدوس) في طوفان التهكم، حتى حرفه تيار
السخرية إلى قاع عميق، وكأننا نقرأ رسالة التريخ والتدوير لملاحظ في ابن عبد الوهاب،
ولا شك ابن زيدون تأثر هو أيضا بالمدرسة الجاهلية الكاريكاتورية.

وهكذا سارت الفكاهة الأندلسية والأدب الساخر الأندلسي جنباً إلى جنب مع
شقيفهما المشرقي، وربما استقى الأول من رافد الثاني، بيد أن ما وصلنا من أدب السخرية
الأندلسي قليل بالنظر إلى ما تناقلته الرواية الشفوية، ولم يدون في القراطيس، وإلى هذا
يشير المقرئ بقوله: "ولشطار الأندلس: من التواد والتشكيات، والتراكيب وأنواع
المضحكات، ما تملأ الدواوين كثرة؛ وتضحك الشكلى وتسلي المسلوب قصته، مما لو سمعه
الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وماركب، ولا استغرب أحد ما أورده ولا تعجب، إلا
أن مؤلفي هذا الأفق طمحت همهم عن التصنيف في هذا الشأن فكاد يمر ضاعاً، فقامت
محتسبا للظرف، فتداركته جامعا فيه ما أمسى شعاعاً"³².

القرآن الكريم - رواية ورش عن نافع.

1. أحمد بن محمد المقرئ الشنسايني: نفع العيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ط 1 - 408 هـ / 1988 م - مج 01 - ص 121.
2. - المرجع نفسه - مج 03 - ص 381.
3. ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق: إحسان عباس - دار العربية للكتاب - ليبيا/تونس - 1395 هـ / 1975 م - القسم 01 - م 01 - ص 483، 484.
4. غطر: حواميل حمور - ابن عبد ربه وعقده - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - 1979 - ط 2 - ص 114، 115.
5. ينظر: العقد الفردي أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (توفي 328 هـ) - تحقيق محمد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1404 هـ - 1983 م - ج 08 - ص 90.
6. المرجع نفسه - ج 07 - ص 157.
7. أبو عبد الله لسان الدين الخطيب (ت 776 هـ): الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق يوسف علي الطويل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - ج 01 - 1424 هـ / 2003 م - ص 179/180.
8. ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - القسم 01 - مج 01 - ص 192.
9. المرجع نفسه.
10. المقرئ: نفع الطب - ج 04 - ص 156.
11. ابن بسام: الذخيرة - القسم 04 - مج 01 - ص 367.
12. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب - تحقيق شوقي ضيف - دار المعارف - مصر - ط 2 - د ت - ج 02 - ص 130.
13. ابن بسام: المرجع السابق - القسم 03 - مج 02 - ص 905/906.
14. المرجع نفسه.
15. - المرجع نفسه - القسم 03 - مج 02 - ص 907.
16. ابن حيان: المقتبس - تحقيق: محمد علي مكّي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط 1 - 1973 - مج 01 - ص 65/66.
17. المقرئ: نفع الضب - ج 03 - ص 234.
18. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب - ج 03 - ص 127/128.
19. المرجع نفسه - ج 01 - ص 400.
20. ابن زيدون: الديوان - تحقيق كرم البستاني - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - ط 1 - 1399 هـ / 1979 م - ص 284.
21. المقرئ: نفع الضب - ج 04 - ص 206.
22. سعد بوقلاحة: الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ط 1 - 1995 - ص 111.

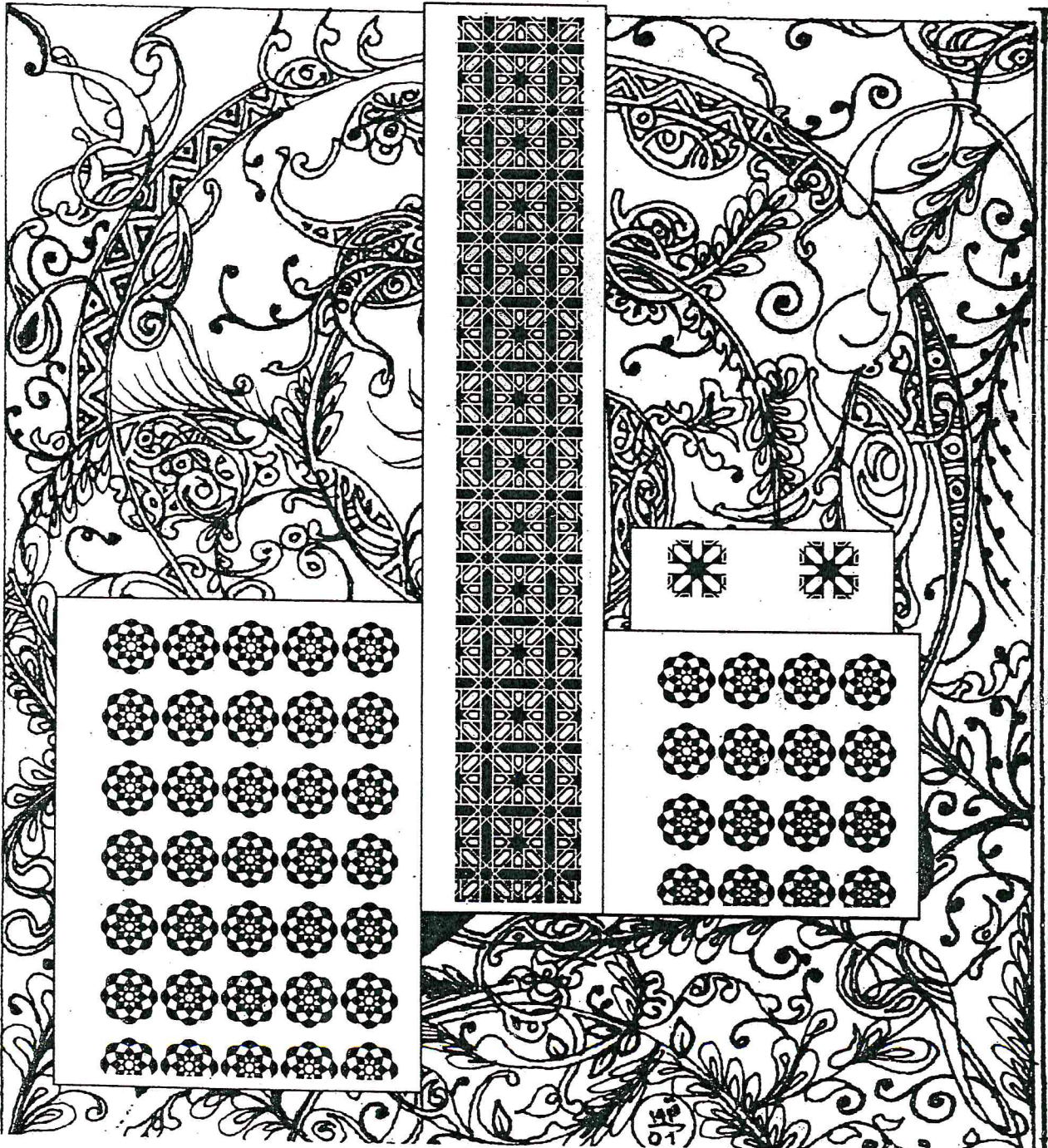
24. بشار المغربي: نفع الطيب - ج 04 - ص 290.
25. سورة البقرة - الآية 69.
26. ابن شهيد الأندلسي: رسالة الثواب والزواجر - تحقيق: بطرس البستاني - دار صادر - بيروت - دط - دت - ص 117.
27. المرجع نفسه - ص 149.
28. حسين خريوش: أدب الفكاهة الأندلسي - منشورات جامعة ليرموك - عمان - 1982 - دط - ص 62/61.
29. ابن زيدون: ديوان ابن زيدون رسائله أخباره - شرح وخطب وتصنيف - كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة - مطبعة الباي الحلبي وأولاده - مصر - ط 01 - 1351 هـ / 1932 م - ص 314.
30. المرجع نفسه - ص 327.
31. المرجع السابق - ص 315.
32. المقرئ: نفع الطيب - ج 03 - ص 156.

شؤون

العدد

31
2014

مجلة محكمة يصدرها أساتذة من قسم اللغة العربية وآدابها جامعة - السانية - وهران



القلم

مجلة لغوية أدبية دورية أكاديمية محكمة

يصدرها:

- الأستاذ الدكتور: المختار بوعناني
- الأستاذ الدكتور: مكي درّار
- الأستاذة الدكتورة: صفية مطهري

من قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة وهران السانية

العدد الواحد (31) والثلاثون جوان 2014م

الإيداع القانوني 2006- 920

I S S N: 1112-69-06

بريد المجلة: URLZOHRA@gmail.com

فهرس مجلة القلم. العدد - 31 - جوان 2014 م ص - أ.

فهرس موضوعات مجلة القلم العدد (31) شهر جوان 2014م			
الكاتب	عنوان المقال	صفحة	الجامعة
حمراني عبدالقادر	الانتحاء الوظيفي وأثره في فقه أسرار النحو وتحصيله	ص01	جامعة الشلف
مليلة ناعيم	اللغات مدخل للتفسير من خلال البحر المحيط لأبي حيان الغرناطي (ت:745هـ)	ص16	مراكش المغرب
درقاوي مختار	أثر المجاز والتخفيف في التصحيح اللغوي	ص28	جامعة الشلف
العلوي شفيقة	نظرية عبد القاهر الجرجاني البلاغية ومنزلتها من علم اللغة	ص35	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة - الجزائر
بن لباد سالم	صورة الولي في مخيال الشعري الشعبي الجزائري الشيخ بوعمامة أنموذجا	ص51	جامعة بجاية
غربي شميسة	السيرة الذاتية في الأدب الجزائري القديم - نص التأسيس -	ص60	جامعة بلعباس
بولغيتي فاطنة	مظاهر التفكير الخرافي في المجتمع الجزائري	ص65	جامعة بلعباس
طيبون فريال	علاقة المكان بالشخصية في روايات الطاهر وطار	ص78	جامعة بلعباس
جبار سهام	جمالية السرد الشعري في قصيدة الليلة الأخيرة لمحمد جربوعة.	ص90	جامعة بلعباس
خالص زهرة	كتابات المسعدي تأويل للفكر وتثبيت للوجود العربي.	ص97	جامعة الشلف
قردان الميلود	توظيف التراث الشعبي والرمز في قصة هشيم الزمن لعبد	ص109	جامعة تلمسان

توظيف التراث الشعبي والرمز

في

قصة هشيم الزمن لعبد المالك مرتاض.

الباحث: **قردان الميلود**

دراسات عليا. جامعة تلمسان

اهتمت الدراسات الحديثة بالتراث اهتماما منقطع النظير، وسلّطت الأضواء حول توظيفه، ودلالته الرمزية في النص الشعري والنص الروائي، ولعل أليوت له فضل السبق في استدعاء الرمز الأسطوري من خلال قصيدته الأرض الخراب، والتي ازدحم فيها الرمز الأسطوري على اللغة المباشرة بل طغى عليها وصبغها بصبغة أسطورية.

ولوعدنا إلى النص الروائي الجزائري فإننا نجد حضور التراث والرمز جليا وواضحا بأبعاده المختلفة سواء كان تاريخيا أو دينيا أو أسطوريا. فالمجموعة القصصية مثلا التي كتبها عبد المالك مرتاض والموسومة - بـ "هشيم الزمن"، نجد أن الكاتب قد أفرد مساحة شاسعة لمخزونه التراثي لاسيما الشعبي منه، وذلك من خلال توظيفه لأمثال شعبية متداولة، وقد وظفها الكاتب حسب مقتضى الحال ودواعي المقام، ذلك أن أي أمة لا تستطيع أن تتطلع إلى المستقبل بقدم راسخة وثابتة وشجاعة، إلا إذا وعت جذورها في تراثها " وربطت حاضرها ومستقبلها بما ماثلها وشابها في صفحات ماضيها القريب منه والبعيد¹

والحق أن مصطلح التراث أثار إشكالات تعبيرية ودلالية متعددة إذ أصبح محط جدل ونقاش كلما جرى الحوار بشأنه، فابن منظور مثلا يكاد يحصر دلالاته في معنى ما تركه السلف للخلف، لكن مع التطور البشري الهائل والثورة التكنولوجية والرقمية التي شهدتها العالم الحديث اتسع مفهومه ليكسر ذلك الحيز الضيق.

ولعله في هذا الصدد يجدر بنا طرح إشكال أو تساؤل يتبادر إلى الأذهان وهو: بما أن الشاعر والكاتب المعاصرين قد ثارا على القديم وكسرا قواعده رافضين قيوده، فلماذا عادا إليه ليغترفا منه كلما شعرا بالظما؟

ويمكننا حل هذا الإشكال الذي يلبس ثوب التناقض فنقول: إن ثورة الشاعر أو الكاتب المعاصر كانت على الماضي وتقاليده في صياغة ونظم الأعمال الأدبية، ذلك

أن مفهوم الثورة لا يعني أبدا إلغاء الماضي واجتثاث كل ماله صلة بالتراث بل على العكس من ذلك تماما فالثورة هي تغير جذري للأعراف البالية التي لا تصلح إلا للعصر الذي وجدت فيه، فالصراع الأيديولوجي أو التناحر بين أفكار قديمة وأخرى جديدة لم تكن بحال من الأحوال دعوة للسير على نهج التقاليد الكلاسيكية كما فعل الكلاسيكيون الجدد في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، وإنما كانت دعوة إلى إدراك الروح السارية في التقاليد التي تجعل منها وحدة متكامل حلقاتها باندماج فكر العصر فيها، ومن ناحية أخرى فإن العصر لا يفهم إلا إذا نظر إليه باعتباره حلقة مكملة لهذه التقاليد من جهة كونه امتدادا ضروريا لها.

أما الرمز فقد عرفه بعضهم بأنه "تركيب لفظي أساسه الإيحاء عن طريق المشابهة بما لا يمكن تحديده، بحيث تتخطى عناصره اللفظية كل حدود التقرير، موحدة بين أمشاج الشعور والفكر (2).

ذلك أن المبدع غالبا ما يلجأ لهاتين التقنيتين كوسيلة تنفيس وإفراغ لما يحظر قوله بالتصريح، فيجد ضالته في التلميح من خلال السرد التراثي أو الرمزي بمختلف تجلياته، وهذا ما يقف عليه القارئ لقصة - هشيم الزمن - لعبد المالك مرتاض، والتي تناول فيها الكاتب القضية الصحراوية ومعاناة اللاجئين الصحراويين، وهم يتوقون لشمس الحرية التي طال إشرافها، مثلما خصص حيزا كبيرا للقضية المحورية فلسطين، والتي ركز عليها عدسته بمهارة المصور الماهر لما يكابده هذا الشعب من ظلم وإبادة وانتهاك للمقدسات، من طرف الكيان الصهيوني المعتصب أمام صمت الأشقاء وتواطئهم، كما سلط الكاتب أضواءه الكاشفة على أوضاع المهاجرين الجزائريين في مناجم فرنسا وحقولها غداة الاستقلال، وما يتعرضون له من استعباد واستغلال من طرف أرباب العمل الفرنسيين الذي عكسوا صورة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان في أبشع صورته، ويسقط الكاتب ذلك القناع الزائف الذي يرتديه هؤلاء المهاجرون لدى عودتهم إلى الوطن لقضاء عطلهم.

هاته القصة أو المجموعة القصصية، التي نجد أن القاص اتكأ فيها كثيرا على الموروث الشعبي الجزائري، في أول نص قصصي له في هاته المجموعة المعنون -بواحة الجماجم- وذلك من خلال توظيفه لهذا المثل الشعبي الذي لا يكاد يخفى مدلوله في كل البلاد العربية، وليس الجزائر فحسب (الطمع يفسد الطبع) (3) في معرض سرده للحياة البائسة لسكان المخيمات الصحراويين، وكيف تقاطر الجنود المغاربة على الصحراء في ما يسمى بالمسيرة الخضراء، للاستلاء على الصحراء طمعا في خيراتها من فوسفات وسمك وحديد وذهب، ويعيد الكاتب توظيف المثل الشعبي نفسه وهو يعقد مقارنة بين جندي التحرير الصحراوي، الذي يقاتل في سبيل تحرير بلده وعز أمته، والجندي المغربي الذي يموت من أجل السمك والفوسفات والحديد فيقول: "سنوات مرت منذ تلك اللحظة، وهو الآن نائم أمامك، أمامك ماء العينين، وماء عينين آخر في أحشائك، وأبوهما أزمع

الرحيل، إذن زوجك بطل، يقاتل هؤلاء النازحين من الشمال، في جموع كالجراد (الطمع يقصد الطبع)، الفوسفاط والسمك⁴.

وفي القصة نفسها يوظف القاص مثلا شعبيا آخر بلمسة فيها سخرية لأذعة (الناس تتغلبني وأنا أغلب طاطا أختي)⁵ ولا يخفى هذا التعريض بالجنود المغاربة وذلك من خلال إيرادها في الحديث الدائر بين " رقية وخديجة " شخصيتان من شخوص القصة واللذان يجمعها مصير مشترك ذلك أن زوجيهما التحقا بجبهة القتال- جيش التحرير الصحراوي - وها هي دورية ملكية تتجه نحوهما وربما يستأسد عليهما جنود هذه الدورية.

فمن خلال إسقاط هذا المثل الذي تضمن كلمة الناس والتي يقصد بها جنود تحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب، أما ضمير المتكلم فهو الشعب الصحراوي الأعرزل لاسيما النساء والأطفال، وطاطا أختي هي الدورية الملكية.

أما في قصة - البحث عن الزمن الآخر- فيلجأ الكاتب إلى مثل شعبي تراثي آخر، فيه شيء من الظرافة وهو (واش داك للعراس يا منتوفة الراس)⁶ أي بمعنى أنه يجب على الإنسان أن يعيش حسب مؤهلاته ومكانته الاجتماعية، وأن لا يشقّ على نفسه، وأن لا يحملها فوق طاقتها، مثلما يستدعي الكاتب شخصية تراثية دينية ذات دلالة رمزية مقدسة التصقت بالذاكرة الشعبية وهي شخصية " سيدي عبد القادر الجيلالي"⁷ والتي أوردها على لسان ذلك المتوسل الذي يستجدي الناس في الأسواق بقوله: (في سبيل الله وسيدي عبد القادر الجيلالي)، كما نجد لرمز العفاريت والشياطين حضور لافت في النص القصصي لعبد المالك مرتاض، ذلك أن هاته الرموز ذات دلالة دينية قد ارتبطت بمعنى البطش والخوف والرهبنة، فقد حملت سورة في القرآن الكريم اسم الجن، ولا يخفى على القارئ قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع الجن في سورة النمل، وكيف طوعهم وسخرهم الله له، فكانوا رهن إشارته⁸.

والملاحظ أن عبد المالك مرتاض قد وظف رمز العفاريت والشياطين في القصة، للدلالة على جنود البوليزاريو الذي يتسللون عبر الصحراء الشاسعة، دون أن يلمحهم أحد وكأنهم أشباح أو شياطين" -انما أين هم ؟ -اقصد المرتزقة...

-ستراهم...

- هل رأيتم أنت ؟

- أنا ؟

- وهل العفاريت ترى ؟ أسمع بالبوليزاريو فقط..يقال : إنهم..كالشياطين لا يأكلون ولا يشربون...يقطعون هذه الصحراء الشاسعة في ليلة واحدة على سيارات الاندروفير...⁹

أما في قصة - فتات الخبز الممنوع- يوظف الكاتب رمز النعل بقوله " أنت لا تتقن بعد قتل الحلفاء..ربما سيحين الحين...والى أن يحين الحين لا نعل لك، ولا يحين حين النعل ... النعل حلم كالرغيف والقميص والفراش¹⁰، فالقصة تعكس بمرارة تلك الحياة البائسة التي كان يحيها الشعب أثناء الاستعمار وكيف تحالف "القايد" مع رجال الدرك الذي كان الطفل يتتبع خطواتهم في السوق، عله يجمع بعض الفتات الذي اختلط بالتراب وروث الدواب، وسيأط رجال الدرك القساة .

والنعل هنا رمز للحياة الهنيئة، حياة الاستقلال والحرية، ويعود الكاتب مجددا لاستلهام التراث الشعبي الجزائري من خلال توظيفه لهذا المثل الشعبي " الجوع يعلم السقطة والعري يعلم الخياطة " " وتقعى برشاقة ..تلتصق بالتراب المغبر، فتات وروث، طعام في وسخ، وسخ فيه طعام، ليس هينا الفصل بينهما بعد التماشج، شئ يستدعي براعة، أصبحت بارعا أنت ((الجوع يعلم السقطة، والعري يعلم الخياطة))¹¹ وهذا المثل يقابله المثل الفصيح الحاجة أم الاختراع .

كما أن القاص قد أفرد حيزا مهما لشخصية تراثية شعبية(شخصية المداح) ،والتي ألهمت نفوس الجماهير، والطبقة الكادحة التي تجد في هاته الشخصية الطبية، الطبيب النفسي الذي يعالج همومها وآلامها، من خلال قصصه الخرافية ومدائحه التي تمجد شخصيات دينية كعلي بن أبي طالب رضى الله عنه، أو شخصية غائبة غامضة، يصورها المداح في هيئة البطل المنقذ الذي يخلص الشعب من آلامه وأحزانه، وهي التي يرمز لها بـ "مول الشي" أي صاحب الشأن والأمر، فيقول :

اسمعوا قصة الأبطال يا حصار، عبد الله بن جعفر الطيار
عبد الله وأصحابه دايرين ضاية
خليهم عقبان تركض في القفار
جاويبشرونا بالعدل والإحسان
والسيوف تقطر من دم الكفار
مولى الشي هذا زمانه يظهر
مولى الشي اياك هو الثوار
مولى الشي راه جا ينقذ البشر
يشبعوا الخبز ويعيشوا من الأحرار¹²

ولا يكاد يفصلنا سطران على هذه المقطوعة الشعرية، حتى يطالعنا الكاتب بشخصيات تراثية وأسطورية كعلي والغول، ومغارة وادي السيبان العجيب، وقوم ابن كلبون آكلي بني آدم .

فقصة علي والغول وآكلي بني البشر ومغارة واد السيبان العجيب، لم تقطع كتب التاريخ بصحتها، وإنما هي أسطورة والتي هي عبارة عن " قصة متداولة أو

خرافية، تتعلق بكائن خارق، أو حادثة غير عادية، وتقدم تفسيراً للظاهرة الدينية أو فوق الطبيعية، كالألوهة والأبطال وهي قصة مخترعة أو ملفقة¹³.

فالقاص هنا يلجأ إلى توظيف الموروث الأسطوري، من خلال شخصية المداح الذي طرأ عليه تغير جذري، تبعاً للظرف التاريخي الذي كان يعيشه الوطن وقت ذلك، ولعل قصته - بركة الدم - والتي فُضح فيها التواطؤ المخزي للعرب بالصمت حيناً، وبالمؤامرة أحياناً على القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني الجريح هي القصة التي اتكأ فيها الكاتب على التراث العربي، من خلال استدعاء شخصيات تراثية تاريخية ودينية وأسطورية في محاولة منه لكشف سوءات المتواطئين وإسقاط أقنعتهم الزائفة، وفضح عمالتهم الخفية من جهة، وتنقيس واستناسا من جهة أخرى، من خلال استحضار الفتوحات الإسلامية والانتصارات الباهرة التي يعقد الكاتب أملاً عريضاً في عودتها من خلال عودة المجد الضائع للأمة العربية والإسلامية.

أول رمز يطالعنا به الكاتب هو (قبيلة بنونمير) التي وظفها الكاتب رمزا للهزائم المتتالية، والانتكاسات الكثيرة أمام شرذمة من بني صهيون، يقول الكاتب واصفاً حال الناصر الفلسطيني: "يتفرجون عليك وهم يغازلون، ويشربون حين تنتصر، كل يعزو انتصارك إليه، كان بفضل، قام على أكتافه، إذ انهزمت خرسوا طأطأوا رؤوسهم، غضوا أبصارهم لأنهم من نمير... الجبن أفضى إلى الهزيمة، إلى الهزائم المتتالية، التي أفضت إلى هذا العار... والجار الذي تحاول إزالة تلطيخاته لست وحدك الملطخ بالعار... كل بني نمير... وتغسل العار بتدمير الفانطوم بجسدك¹⁴.

فالكاتب يومئ من طرف خفي إلى بيت جرير:

فغض الطرف انك من نمير *** فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وهو رمز يعكس واقع الذلة والضعفة التي أضحت الأمة العربية تتخبط فيها. ويستدعي الكاتب شخصية تراثية أخرى هي رمز النخوة العربية والإيثار العربي، ألا وهي شخصية المعتصم الذي جيش الجيوش تلبية لصرخة استغاثة أطلقتها امرأة ضعيفة بقولها "وامعتصماه"، فردّ عليها " لبيك أختاه"، لكن يبدو أن زمن المعتصم ولى إلى غير رجعة، بل ربما يلبي نداء المرأة الفلسطينية المعتصم في قبره ويصم، عنه أذان الحكام العرب الذين هم في الحقيقة هياكل بلا روح "اين العرب؟ قالتها سيدة شتيلة (وين العرب)؟ خلا لها كل شيء من حولك - طائرة الفانطوم- تمرح في الجو كالعقاب الثملة، ثم تعلق ثم تهوي ثم تنقض على فريستها السهلة، فريستها التي لا تقاوم، مقاومة الضعيف، ومناضلة (صبرا) تصيح في الأمة المتخاذلة، (وين العرب)؟ ولا من يجيبها، فقط لو سمعها المعتصم من القبر كما سمع العربية التي استصرخت¹⁵.

ويمطر القاص القارئ باستفهامات استنكارية عن العرب، وعن مجدهم ونخوتهم الضائعة، فيتساءل عن المعتصم كيف غاب وبخّ صوته، فيقول: إنما أين المعتصم؟ أين العرب؟ أين أسلحتكم يا أبا حرب¹⁶

ويحاول الكاتب استحضار الماضي والاتكاء على الأجداد وملاحمهم، ويطولاتهم التي خلدها التاريخ لاستلهاهم العبر، وبعث الحماس الوطني والقومي لاستعادة الأمجاد الغابرة، موظفا الرمز من خلال أسماء السيوف التي هي رمز الانتصارات العربية الإسلامية، كالصمصامة الذي يُعدّ من أشهر السيوف العربية لصاحبه عمرو بن معيد يكرب الزبيدي، وذا الفقار سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بل ويصل اليأس بالكاتب إلى حد الاستنجاد بلعاب المنية الذي لا يختلف كثيرا عن العصا.

"أنا لا أصدق يا أبا حرب، أين أسلحتكم؟ أين سيوفكم المهنددة على الأقل؟ أين الصمصامة وذا الفقار أو حتى لعاب المنية"¹⁷ والقاص هنا في تناص واضح مع نزار قباني من خلال بيته الشعري :

يا ابن الوليد.. ألا سيفاً تؤجره؟ *** فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا
وفي السياق ذاته يوظف القاص شخصية تراثية شهيرة، وهي شخصية علي بابا، غير أن علي بابا ذلك الزمن بطل مغوار، بينما علي بابا عصرنا مكبل بالذل والعار، فقد ولى زمن الانتصار والعز، وهذا زمن العزائم والذل "كان علي بابا الفارس المغوار، لا أحد يجرو على الاقتراب منه، أين أنت يا علي بابا؟ ذلك زمن الانتصارات والعز، وهذا زمن الهزائم والذل، هزائم متلاحقة، كل ساعة تمر بهزيمة، أصبحت تستحي أن ترفع رأسك، تطأطنه، لعنة جرير، الشاعر اللعنة"¹⁸

ويعود القاص من جديد إلى الموروث الشعبي التراثي ليغترف من معينه وهو بصدد تصوير معاناة أبناء الوطن الفلسطيني، وقد تقاسمتهم مخيمات الشتات في مختلف الأقطار العربية، والتي ضاقت بهم ذرعا في بعض الأحيان، فوطنهم يئن تحت وطأة الاحتلال، وأوطان الأشقاء تضيق بهم، وحلم العودة مؤجل إلى حين، فوظف القاص هذا المثل الشعبي (لا فاطمة لا الياقوت) أي بمعنى لا هنا ولا هناك:

"-ستعودون، قالها معلم المخيم، ستعودون..

-سنعود يوما إلى حيفا، قالها شاعر فيروز..

-إنما هل هناك، لا يبرح هناك؟ من هناك جاؤكم إلى هنا

-استولوا على هنا أيضا.. لا هنا ولا هناك (لا فاطمة لا الياقوت)، قالها الحكيم

الشعبي الجزائري..¹⁹

ثم يقتفي القاص أثر الموروث التاريخي، وذلك باستحضار حوادثه واستدعاء شخصياته باختلاف مكاتبتها التاريخية، لأن "الأحداث التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإن لها على جانب ذلك دلائلها

الشمولية الباقية، والقابلة للتجرد على امتداد التاريخ في صيغ وأشكال أخرى، فدلالة البطولة في قائد معين، أو دلالة النصر في كسب معركة معينة تظل بعد انتهاء الوجود الواقعي صالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة²⁰ وهذا ما عناه الكاتب في استغاثة تلك الصبية بخالد ابن الوليد، وبالمعتصم، وبجمال عبد الناصر، هاته الشخصيات ما هي إلا رموز تاريخية لمجد العرب ونخوتهم على مر الأيام لكن لا أحد يجيب النداء، " وتستغنين حين تختال الفانطوم الشبح كامارد العاتي، يا صبية:

- واخالداه.

انما لا يغيثك أحد، خالد في العرب كثير، كلهم يحسبه غير معني بالنداء، نادي غيره يا صبية، إذن:

- وامعتصماه.

ذلك مات منذ قرون بعيدة، نادي غيره يا صبية، إذن :

- واجمالاه

ذلك أصيب بالجنون في قبره حين خان ابن العبدة العرب... إذن وا.....

لا فائدة لن يجيبك أحد"²¹

توظيفه للرمز والتراث العربي في أن واحد من خلال ذكر أحياء العرب وأسواقهم، وكيف كانت ملجأ الضعيف، ومأمن المستجير، وكيف أضحت اليوم عروبتهم منتهكة لا يقدرون على رد ماسلبهم إليه الذباب، في خنوع واستكانة فاضحة، مثلما يعرض القاص بالأمرء والملوك العرب من خلال توظيفه لرمز العقال، فيقول: " الحكمة كلها في العمائم، العصي لا، السيوف لا، أولئك عرب الأمس، عرب اليوم بالعمائم والبرانس فقط، الحرب ليست لنا، العمائم تحول دون ذلك... اسمع يا غلام، ناد في العقيق وعكاظ ومكة، ناد في كل حي من أحياء العرب: ألا إن من لا عمامة له، لا عروبة له، لو تجتمع كل بني تميم لتشهد له العروبة، لما اعترفنا بعروبتة، ثم ناد فيهم : ألا إن من لا سبحة له لا إسلام له"²² ويواصل القاص تشريحه للضعف والعجز والهوان الذي تتخبط فيه أمتة فيقول في لغة محبطة يائسة : "عصينا محفوظة في دار الندوة، سيوفنا كسرنا خالد في حرب الروم رعاة البقر القدماء، سيف الله ضاع... استولى عليه بنو قينقاع"²³

ومن هنا نستشف تلك العلاقة الوثيقة التي تربط القاص أو الروائي بالتراث، إذ تجاوزت العنصر الجمالي في النص القصصي أو الروائي، ومن أهم ملامح هذه العلاقة هو أن بنية النص القصصي أضحت بنية متفتحة متعددة الدلالات والمستويات والمحاور، فعبد المالك مرتاض في مجموعته القصصية -هشيم الزمن- حكم نصوصه بعلاقات متوازية مع التراث الشعبي وعنصر الرمز، وأصبح تعامله مع جوهر التراث ولم يكن مجرد ترصيع النص بعبارات أو جمل أو أحداث، أو شخصيات تراثية. وبذلك أقام علاقته بالتراث من خلال رؤية جدلية يسيطر هو

عليها، ويخضعها لما يريد، ولا يستسلم لرؤية التراث، وإنما يوظفه ويستفيد من هذا التراث في تشكيل بنية النص القصصي حتى ينطق هذا التراث بما يريد الكاتب أن يقوله، لا أن يقول الكاتب ما يريده التراث في أي جانب من جوانبه، فهولا يستدعيه استدعاء تلقائيا، لا استدعاء مدروسا يخضع لتجربته القصصية وزاوية نظره للأحداث، وهذا ما جعل النص القصصي وصاحبه وتراثه متصلا بالواقع، وحاملا لرسالة نبيلة من خلال التزامه بالدفاع عن كرامة الإنسان من حيث أنه إنسان له كامل الحق في العيش الكريم، والتمتع بنعيم الحرية، سواء كان هذا الإنسان جزائريا زمن الاستعمار الفرنسي العاشم، أو في فلسطين المحتلة، أو في مخيمات اللاجئين الصحراويين.

وهكذا نجد أن الحضور الكثيف للرمز والموروث التراثي الشعبي، في المجموعة القصصية هشيم الزمن لعبد المالك مرتاض، له ما يبرره لاسيما إذا أخذنا في الاعتبار دور البيئة التراثية التي ترعى فيها القاص فضلا على أن الكاتب يكون قد وجد في الموروث التراثي لاسيما الشعبي منه والرمز، الملجأ والملاذ يعبر من خلاله بحرية عن جراحات الأمة وتناقضات الواقع .

الهامش :

1. محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.ط. ديت، ص 09 .
2. محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، ط03، 1984، ص 44 .
3. عبد المالك مرتاض، هشيم الزمن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، د.ط. ص 09- .
4. المصدر نفسه، ص 11 .
5. نفسه، ص 17 .
6. نفسه، 26 .
7. نفسه، ص 30 .
8. سورة النمل الآيات من 17- 44 .
9. عبد المالك مرتاض، هشيم الزمن، مصدر سابق، ص 39 .
10. المصدر نفسه، ص 39 .
11. نفسه، ص 43 .
12. نفسه، ص 48 .
13. عبد المجيد، جدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر مؤسسة نوفل، بيروت، ص 165 .
14. عبد المالك مرتاض، هشيم الزمن، مصدر سابق، ص 47/43 .
15. المصدر نفسه، ص 75/74 .
16. المصدر نفسه، ص 75 .
17. نفسه .
18. نفسه .
19. هشيم الزمن، مصدر سابق، ص 77 .
20. علي عنتر زاید، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 120 .
21. هشيم الزمن، ص 78 .
22. المصدر نفسه، ص 79 .
23. نفسه، ص 80 .